



المفكر

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية
السنة التاسعة / العدد السابع والثلاثون / لسنة ١٤٤٠ هـ



المهدي

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

مشرف العام

السيد محمد صادق الهاشمي

رئيس التحرير

أ. عباس النوري

المتابعة الفنية

السيد أحمد الهاشمي

مركز الهدى

❖ مركز علمي مستقل يعنى

بالقضايا والشؤون الحوزوية.

❖ يعنى بانجاز البحوث والدراسات

العلمية التي تهتم الحوزة العلمية

وسبل إسنادها وتطويرها والدفاع

عنها.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المهدي

مجلة فصلية علمية تعنى بالشؤون الحوزوية والمعرفة الدينية تصدر عن

مركز الهدى للدراسات الحوزوية

شروط النشر في مجلة الهدى

- تود هيئة تحرير مجلة الهدى ان ترحب بالأخوة والأخوات الباحثين والمتخصصين في الدراسات الدينية الحوزوية والذين يرغبون بنشر بحوثهم ودراساتهم العلمية والاكاديمية في مجلة الهدى وفق المعايير التالية:
- ◀ أن تتناول البحوث والدراسات الشؤون الحوزوية المعاصرة وكل ما له علاقة بتطوير الحوزة والدفاع عنها وعكس صورتها المثلى
 - ◀ تعتمد المجلة الأساليب العملية الراهنة في الكتابة والتوثيق والحيادية والموضوعية والدقة والإشارة إلى المصادر حسب القواعد العلمية المتعارف عليها.
 - ◀ أن لا تكون البحوث قد نشرت في مجلات أخرى
 - ◀ تقدم البحوث إلى المجلة مطبوعة وعلى (CD) مع موجز خالي من الأخطاء الطباعية.
 - ◀ تخضع البحوث والدراسات إلى التحكيم العلمي المتعارف عليه أكاديميا ولا تعاد البحوث إلى أصحابها في حالة الاعتذار عن نشرها
 - ◀ تنشر البحوث والدراسات وفق خطة هيئة التحرير والنشر

المحتويات

الإمام الخامنئي دام ظلّه

سيوجه الشعب الإيراني صفقة أخرى للحكومة الأمريكية بفرضه الهزيمة على الحظر الاقتصادي

- ❖ تحديات التنمية المستدامة في العراق
د. عدنان فرحان الجوارين
١٨٠
ملف العدد:

الثقافة الإسلامية الخصائص والمرتكزات والأبعاد الحضارية

- ❖ الثقافة الإسلامية قراءة في المفهوم
د. السيد ابراهيم الجعفري
٢٠١
❖ خصائص الثقافة الإسلامية
أ. أنور محمد صابر الأزهري
٢٤٠
❖ مصادر الثقافة الإسلامية في النهضة المعاصرة
الشيخ جواد رياض
٢٦٦
❖ الثقافة والتقدم قراءة في المشتركات والمعطيات
رضا خاك رنگين، الشيخ محمد فاطمي
٢٩٤
❖ الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى
د. محمد صالح
٣١٢

كلمة التحرير

- ❖ أبعاد زيارة جون سيلفيان نائب وزير الخارجية
الأمريكية للعراق

١٤
محمد صادق الهاشمي

محطات في الفكر المقاوم

- ❖ التعبئة الفكرية والثقافية في كلمات الإمام
الخامنئي دام ظلّه

١٩
إعداد: أ. الشيخ عباس نور الدين
❖ النموذج النظري للديمقراطية الدينية

٤١
بقلم: علي رباني خوراسجاني
❖ دور الإمام السيستاني في وأد الفتنة الطائفية

٦٨
د. علي أبو الخير

مطارحات في السياسة والاجتماع

- ❖ مكانة اسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية
منذ أحداث التغيير العربي
د. علي جبار حافظ الربيعي
١١٥

✍️ الدراسات الفكرية

❖ النهضة الحسينية وطبيعة التحرك

٣٢٧ الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي رحمته الله

❖ زيارة الأربعين المشروعية والأبعاد الرسالية

٣٤٩ سماحة السيد صدر الدين القبانجي

❖ دور المرأة في الثورة الحسينية

٣٧٧ د. أمل سهيل عبد الحسيني

✍️ من اعلام الشيعة

❖ الفقيه أبي الصلاح الحلبي

٤١٧ هيئة التحرير



سيوجه الشعب الإيراني
صفعة أخرى للحكومة الأمريكية
بفرضه الهزيمة على الحظر الاقتصادي



شارك الإمام الخامنئي صباح يوم الخميس ٢٠١٨/١٠/٤ في اجتماع عظيم ضمّ عشرات الآلاف من التبعويين في ملعب آزادي في طهران، وفي كلمته أشار قائد الثورة الإسلامية إلى أن لا سبيل للعدو في مواجهته للجمهورية الإسلامية سوى فرض العقوبات الاقتصادية وسوف نهزم العقوبات بعون الله وستتلقى أمريكا صفقة أخرى من الشعب الإيراني.

واستهلّ قائد الثورة الإسلامية كلمته بالتوجّه إلى الاجتماع الذي ضمّ آلاف الشباب التبعويين قائلاً:

هذا الاجتماع العظيم وهذه الجموع الشبابية والتعبوية المفعمة بالحماس تُذكّر بالاجتماع الذي اقيم في نفس هذه الساحة وهذا الملعب في الثمانينيات من القرن الماضي حيث أن أولئك الشباب انطلقوا وحققوا النصر وسوف تحقّقون أنتم أيضاً النصر الكامل إن شاء الله في المجالات التي تنتظركم.

وحول الظروف الحساسة التي تحيط بإيران والمنطقة قال الإمام الخامنئي: هذه الجلسة الكبيرة انعقدت في ظروف بالغة الحساسية. ظروف البلاد وظروف المنطقة والعالم ظروف حساسة؛ خاصة بالنسبة إلينا نحن الشعب الإيراني. مردّ حساسيتها هو عريضة قادة الاستكبار وسياسات أمريكا المستعمرة للعالم من جهة ومن جهة أخرى استعراض الشباب المؤمنون قوتهم والانتصارات المتتالية في مختلف الساحات ومن جهة أخرى أيضاً مشاكل البلاد الاقتصادية والضائقة المعيشية التي يعاني منها جزء كبير من مستضعفي البلاد ومن جهة تحسس النخب في البلاد وإقدامهم على بذل الجهود حيث أن هذه الظروف زادت من حساسيتهم ودفعتهم لبذل الجهود الفكرية والعملية.

وتابع قائد الثورة الإسلامية قائلاً: لقد خرجت البلاد اليوم من الخمول والتقاعد بسبب وجود المشاكل والعديد من الذين كانوا يكتفون بالمشاهدة يشعرون اليوم بالمسؤولية على عاتقهم وبينهمكون ببذل المساعي والجهود.

وقال الإمام الخامنئي: زبدة الكلام في كلمتي اليوم هي عظمة إيران أولاً، وصلابة الجمهورية الإسلامية ثانياً وثالثاً استعصاء إلحاق الهزيمة بالشعب الإيراني.

وأكد سماحته على أن هذه الأمور ليست تبحّحاً وليست مجرد شعارات وكلاماً فارغاً كالذي

يطلقه البعض وتابع قائلاً: هذه حقائق يتمنى أعداء الشعب الإيراني أن لا نعلمها وأن نغفل عنها ونظنّ بأنفسنا وبلادنا ظنوناً أخرى لكنّها أوضح من أن ينكرها أحد.

وشدّد قائد الثورة الإسلامية على أنّ عظمة إيران لا تنحصر بالزمن المعاصر بل هي أمرٌ تاريخي كان على مدى العصور واستشهد سماحته على ذلك قائلاً: لقد تمكّن بلدنا العزيز من الوقوف شامخاً بين الشعوب المسلمة وبين شعوب العالم في برهة من الزمن في مجالات العلم، والفلسفة، والسياسة، والفنّ والعلوم الإنسانيّة وهذا الأمر مشهود في مرحلتنا والمرحلة التاريخيّة عدا ٢٠٠ سنة قبل انتصار الثورة الإسلاميّة حيث تمّ سحق عظمة إيران خلال مرحلتي حكم القاجاريين والنظام البهلوي.

وتحدّث الإمام الخامنئي حول قوّة وصلابة الجمهوريّة الإسلاميّة قائلاً: يكفيننا عند الحديث عن صلابة الجمهوريّة الإسلاميّة أنّها أنقذت إيران من الرّضوخ لهيمنة أمريكا وبريطانيا؛ الهيمنة التي كانت قد بدأت في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي وكان الأعداء قساة القلوب والمتكبرون يمسكون بزمام أمور البلاد. ويكفي استشهاداً على قوّة الجمهوريّة الإسلاميّة أنّها استطاعت للمرة الأولى خلال القرن الأخير منع تقسيم البلاد في ظلّ الحرب. لقد استطاع الشعب الإيراني للمرة الأولى إحباط جبهة واسعة من الأعداء خلال حرب الثمانية أعوام التي فرضت عليه والحفاظ على سيادة أراضيه.

وحول استعصاء إلحاق الهزيمة بالشعب الإيراني قال قائد الثورة الإسلاميّة: قلت بأنّ الشّعب الإيراني عصيّ على الهزيمة وطبعاً هذا ببركة الإسلام. يمكن مشاهدة استعصاء الهزيمة هذا في انتصار الشعب الإيراني أيام الثورة الإسلاميّة العظيمة، وفي انتصار الشّعب أيام الحرب المفروضة وصموده على مدى ٤٠ عاماً أمام مؤامرات الأعداء.

وأكد الإمام الخامنئي: لا تتوهّموا بأنّ الطريق أماناً طريقٌ معبّدةٌ خالية من العقبات؛ لا، طريق التقدم مشرّع أماناً لكنّه طريقٌ مليء بالتعجّجات، وهناك بعض العقبات.

وأشار قائد الثورة الإسلاميّة:

إلى أنّ العدو نشطٌ وبنبغي طيّ الطريق ومواجهة هذه العقبات لكن لذلك شروطٌ ثلاثة عدّها سماحته قائلاً:

الخطوة الأولى التي تخوّلنا طيّ هذا الطريق هي استشعار وجود العدو.

الخطوة الثانية هي الثقة بالنفس والعزم في الثبات.

الخطوة الثالثة هي معرفة ساحة الهجوم. أين تكمن حربنا مع العدو؟

ما دام الإنسان لا يعلم بوجود العدو أمامه فلن يقدم على إنشاء دفاعات ومتاريس له. ذاك المفكر المرائي والمنافق والذي يفتش عن الراحة الذي ينكر أساس عداء أمريكا ولا يدرك أنه يكتب وصفا للاستسلام أمام أمريكا للشعب والحكومة، إن لم يكن عميلاً للعدو، فهو ليس من رجال ميدان تقدّم البلاد على الأقل.

وحول الخطوة الثانية قال الإمام الخامنئي: الخطوة الثانية هي الثقة بالنفس والعزم في الثبات. عديمو الروحية والاستغلاطيون الذين يستحقرون أنفسهم عاجزون عن القيام بأي إنجاز في هذا الميدان؛ لا يستطيعون إنجاز أي عمل هذا إن لم يشكّلوا عائقاً للآخرين. طبعاً فإنّ شبابنا غير مبتلين بهذه البلية في كافّة هذه الجهات ولديهم شجاعة وثقة بالنفس.

وتابع سماحته: الخطوة الثالثة هي معرفة ساحة الهجوم. أين تكمن حربنا مع العدو؟ ينبغي علينا تحديد هذا بشكل صحيح. ينبغي علينا فهم تهديد العدو بشكل صحيح. ينبغي عليكم أن تعلموا من أي جهة يشنّ العدو هجومه. ينبغي على جميع الناس أن يمتلكوا فهماً صحيحاً لساحة النضال.

لفت قائد الثورة الإسلامية إلى نقطة هامة في ساحات الصراع تتمثل في الفهم الصحيح لحقائق إيران والعالم وأوضح سماحته في هذا المضمار قائلاً: امتلاككم للفهم الصحيح حول مجريات وحقائق البلاد لا يقع في صالح العدو؛ هم يحاولون من خلال تقديم صورة خاطئة حول إيران وأنفسهم والمنطقة حرف الشعب الإيراني والإيهام بأنهم في موضع القوة؛ بيد أنهم ليسوا في موضع القوة. الصورة التي يقدّمونها حول إيران الإسلامية خاطئة بشدّة.

وعلق الإمام الخامنئي على تصريحات أخيرة للرئيس الأمريكي قائلاً: قال الرئيس الأمريكي مؤخراً للقادة الأوروبيين أن تربّثوا شهرين أو ثلاث، وستُجثّ الجمهورية الإسلامية من جذورها. حينها تذكّرت تصريحات قبل أربعين عاماً أيضاً لأمريكا وعبيدها كانوا يُبشرون فيها

بأنها ستُجثت من جذورها في غضون ستّة أشهر؛ ها قد مرّت ٤٠ عاماً اليوم، وقد تحوّلت تلك العرسة الرقيقة إلى شجرة باسقة. والآن يقوم هذا البائس بتمنية نفسه وأعوانه .

وفي هذا الخصوص اشار سماحته الى المثل العامي الذي يُستخدم في وصف من يحييك في أحلامه المشاريع والأوهام وتنتهي كلّها بمجرد أن يفتح عينيه.

وأضاف قائد الثورة الإسلامية: نعم، العدو لم يعرف من تكونون أنتم الشباب والشعب الإيراني، ولم يعرفوا الثورة والروحية الثورية والإيمانية؛ وهذا التحليل الخاطئ أدى إلى ضياعهم.

وحول المشاكل الاقتصادية داخل الجمهورية الإسلامية قال قائد الثورة الإسلامية: لا شكّ في أننا لدينا مشاكل اقتصادية؛ لدينا اقتصاد نفطي هو عيبٌ كبيرٌ في حدّ ذاته. كما أننا نفتقد إلى ثقافة التوفير؛ وهي ضعيفة جداً. الإسراف عيب [أيضاً]. نحن لدينا هذه العيوب لكنّ العيب الحقيقي لا يتلخّص في هذه الأمور. العيب الحقيقي هو الطريق المسدود الذي لا نعاني منه. ليس لدينا طريقٌ مسدود. العيب الحقيقي هو هذا. العيب الحقيقي هو أن يظنّ الشاب داخل البلاد بأن لا سبيل للحل سوى الارتقاء في حضن العدو.

وتابع الإمام الخامنئي قائلاً: البعض يحاولون ترسيخ هذا الأمر لدى شبابنا. والعدوّ يسعى لذلك أيضاً. يريد العدو أن يجعل الشعب الإيراني يبلغ هذه النتيجة بأنّه يواجه طريقاً مسدوداً، وأن لا سبيل للحل إلا بالخضوع والاستسلام أمام أمريكا.

وشدّد سماحته: إنني أعلنها بصراحة أنّ الذين يقومون داخل البلاد بترويج هذا الفكر المرغوب والمحبوب لدى العدو يرتكبون خيانة. وهذه خيانة للبلاد. إنّ ترويجنا بناء على رغبة العدو أن لا سبيل لدينا سوى الارتقاء في حضن العدو يعدّ أعظم خيانة للشعب الإيراني. وهذا ما سوف لن يحصل. إنني بعون وقوّة من الله وبمساعدتكم، لن أسمح ما دام في رمقٍ بأن يحصل هذا الأمر داخل البلاد.

وتحدّث سماحته حول قضية الحظر الاقتصادي من قبل أمريكا قائلاً: فرض العقوبات يعني أن العدو لم يعد لديه أي خيار سوى العقوبات الاقتصادية من أجل مواجهة النظام الإسلامي لكنّ هذه العقوبات الاقتصادية أيضاً أوهن من اقتصادنا الوطني.

وأكد قائد الثورة الإسلامية: اقتصاد بلادنا الوطني قادِرٌ على إحقاق الهزيمة بالعقوبات وسوف نهزم العقوبات بعون الله وهزيمة العقوبات تعني هزيمة أمريكا وسوف تتلقى أمريكا صفقة أخرى بعد هذه الهزيمة.

ووجه قائد الثورة الإسلاميّة خطابه للشباب قائلاً: أنتم رأس حربة التحرك الوطني العظيم. يمكن للعجزة أصحاب التجارب لو لم يكونوا متعبين ومرهقين أن يتكفلوا بمهمة الإرشاد لكنّ المحرك الذي يدفع هذا القطار إلى الأمام هو أنتم الشباب. وهذا ما كان عليه الحال في السابق. وأشار الإمام الخامنئي إلى مراحل بارزة في تاريخ الجمهورية الإسلامية النضالي ودور الشباب في هذه المراحل قائلاً: على مدى ٤٠ عاماً من فترات النضال، إن كان في جهاد المطالبين بالانفصال مع انتصار الثورة الإسلامية، وفي جهاد البناء، وفي جهاد الإرهاب الخائن في الثمانينيات، وفي جهاد أعوام الحرب المفروضة الثمانية، وفي الجهاد من أجل ترميم الدمار بعد الحرب، وفي الجهاد الثقافي في التسعينيات كان الشباب هم من استطاعوا تحويل تلك الأجواء الصعبة وجعلها في صالح الثورة. في الشباب كانوا موجودين أيضاً في الجهاد العلمي منذ بداية العقد الأول من القرن الحالي، وفي جهاد الإرهاب خلال الأعوام الماضية وفي الجهاد الفكري والعلمي اليوم من أجل حلّ العقد الاقتصادي.

وأردف سماحته في هذا الخصوص قائلاً: فيما يخصّ الانفراج الاقتصادي للبلاد تبلغنا اقتراحات تعود العديد منها للشباب؛ [اقتراحات] ناضجة وحاللة للمشاكل بشكل كامل. شبابنا اليوم أصحاب فكر وذوي دوافع أمام القضايا التي تواجهها البلاد. شبابنا يشعرون بالمسؤولية تقع على عاتقهم. أنتم الشباب أصحاب هذه البلاد. البعض يُحاول أن يُرّوج بأنّ الشباب مشكلة البلاد؛ إنني وعلى العكس من ذلك أعتقد أنّ الشباب سبيل حلّ المشاكل وليسوا هم المشكلة.

وفي جانب آخر من حديثه لفت قائد الثورة الإسلامية إلى مساعي العدو من أجل التأثير على الرأى العام من خلال استغلال الوسائل الإعلامية وصرّح قائلاً: الإعلام وسيلة هامة وهي وسيلة خطيرة إذا وقعت بأيدي العدو ويمكن تشبيهها بالسلح الكيمياء في الحروب العسكرية.

وذكّر الإمام الخامنئي باستغلال العدو للتلفاز، والراديو، والانترنت، ووسائل التواصل الاجتماعية والساحة الافتراضية في مواجهته للرأى العام ووجه سماحته خطابه لمسؤولي ملف

التواصل قائلاً: كما تمّ لفت الانتباه في الجلسات المباشرة فلتهتمّوا بهذه القضايا بشكل صحيح ولتجنبوا من خلال تأدية مهامكم بجديّة التحوّل لأداة تُسهّل عمل العدو في استخدامه سلاحه الكيميائي ضدّ الناس.

وفي ختام كلمته شدّد قائد الثورة الإسلامية على ضرورة اتحاد الناس ومسؤولي البلاد وتابع قائلاً: ينبغي إرسال رسالة قوّة للعدو من خلال مشاركة الشعب والشباب المؤمن خاصة بقوّة في الميدان، واتحاد كلمة المسؤولين، والتآلف بين الشعب والمسؤولين لأنّ العدو يصبح أكثر وقاحة وجرأة عندما لا يواجه فريقاً قويّة خلال مراقبته لكلام الناس وتصرفاتهم ونمط عيشهم.

وشدّد الإمام الخامنئي: الحقائق داخل البلاد تنبئ عن أنّ هذا الشعب والجيل الجديد قد قرّر أن لا يتمّ استحقاره مرّة أخرى، وقد قرّر أن لا يخضع للعدو والقوى الأجنبية، وقد قرّر أن يبلغ بإيران قمم الشرف والعزّة؛ وهو قادرٌ على ذلك.

أبعاد زيارة جون سيلفيان نائب وزير الخارجية الأمريكية للعراق

محمد صادق الهاشمي

باحث وكاتب سياسي / المشرف العام على مركز الهدى للدراسات الحوزوية

لم يغادر (بريت ماكينغورك) بعدُ العراق، ولم تحسم مهمته، ومعه فريقه الذي أراد أن ينسج العملية السياسية بخيوط أمريكية ولكنه أخفق فيها إلا أنه لم يغادر العراق، ولن تغادر يده ملفّات العراق الممسك بها، حتّى التحق به عاجلاً (جون سيلفيان وكيل وزير الخارجية الأمريكي)؛ لبحث عدداً من الملفّات المهمّة، وهي:

١. عرقلة تقديم مشروع قانون لإخراج القوّات الأميركية من العراق إلى مجلس النواب العراقي، سيما وأنّ مشروع القانون يستند إلى البند أولاً والمادة الخامسة من الدستور النافذ في البلاد الذي ينصّ على أنّ العراق دولة مستقلة ذات سيادة تامّة على أراضيها.

ونقلت الصحافة عن مسؤول حكومي قوله: هناك تحركات إستباقية أميركية تجريها قيادات عسكرية وأطراف في وزارة الخارجية الأميركية من واشنطن، وكذلك السفارة الأميركية في بغداد، نحو قيادات سياسية عراقية، لمنع أو عرقلة خطة توافقية سابقة تتضمّن تقديم مشروع قانون لإخراج القوّات الأجنبية كافة من العراق في منتصف ٢٠١٩، خصوصاً الجيش الأميركي، والتصويت عليه داخل البرلمان، وإلزام الحكومة الجديدة بتنفيذه.

فهم يرسمون خريطة التحرك في العراق لعشرات السنوات القادمة، ولمساحة الشرق الأوسط والخليج، ويدركون أنّ تزويد وتهميش الأحزاب الإسلامية الكبيرة أهمّ مشروع لها، وإيجاد تعددية حزبية وشخصية وإيديولوجية ومنتبّيات سياسية مختلفة في العملية السياسية هدف استراتيجي لها يكاد يكون أهمّ من الحكومة؛ لأنّ أمريكا تدرك أنّ الحكم أوسع من الحكومة.

٥. إنّ أمريكا تنظر للعراق بأنه بوابة إلى رسم خريطة المستقبل السياسي لشعبة العراق والمنطقة، فكلّما نجحت في تزويد أيّ جزء شيعي لصالحها، وتفكيك أيّ مجموعة، والتأثير على أيّ معتقد وعقيدة، وتوهين أيّ ثابت، كان ذلك من وجهة نظر المخطط الأمريكي بأنّها تمكّنت من تكوين بؤرة شيعية يمكن أن تنمو لتغطّي مساحات أوسع في المنطقة ليكون الضدّ النوعي للتشيع الثوري.

٦. إنّ أمريكا تعلم بالفراغات الكبيرة التي تركتها في العملية السياسية، والشخصيات التي استمالتها، والتي يمكنها النفوذ من خلالها إلى عمق القرار العراقي، بعد أن مرّقت أحزاب، وحيدت أخرى، وباينت

٢. إنّ أمريكا لا تريد أن تخرج بخفي حنين من العراق؛ لذا تحاول أن تجد لها موطئ قدم في المواقع الوزارية والمناصب السيادية التي تؤدّي إلى هيمنتها على الملفّات الأساسية، وهذا يستوجب نوعاً من الحضور الضاغط قبيل اكتمال تشكيل الحكومة وتوزيع المناصب.

٣. لا نعلم على وجه التحديد ماذا خلّفت لنا مرحلة تواجد القوات الأمريكية في العراق في مرحلة داعش تحت مبرر قوّات التحالف، من سلاحٍ واتفاقاتٍ وقواعدٍ وتحالفاتٍ وقراراتٍ؛ وإلى أين تتجه بالعراق؟ وكم عدد القوات المتواجدة؟ وما هي الجغرافيا العسكرية التي تغطّيها؟ وما هي الأهداف التي تعمل عليها في العراق وخارجه؟.

لكنّ الذي نعلمه أنّ ثمة شيئاً يلوح في الأفق السياسي الدولي، ومن خلال إصرارها الأكيد على التدخّل في أدقّ التفاصيل، ومن خلال ترابط الزيارات المبكرة وكثرتها جعلنا نجزم أنّ (سيليفان) وغيره لديهم مطالب محددة على أيّ حكومة وحاكم، وخطوط حمراء يريدون الإبلاغ بعدم تجاوزها.

٤. لا تنظروا إلى الفعل الأمريكي ومخططاته وتحركات شخصياته بسطحية؛

ترتيب البيت العراقي وفق مصالحتها تلك هي
دواعي هرولة سيلفيان.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمُ وَإِنْ عُدْتُمْ
عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا﴾
[الإسراء: ٨]

الهوة بين أغلبها، واستقطبت بعضها، وغيّرت
من توجهات وأيديولوجيات البعض، وفتت في
عضد آخرين، وفي الطريق آخرون؛ لتبقى
تنهش في جسد اللحمة الوطنية؛ ابتغاء
التفتيت بما يسهل لها من لعب أدوار أكثر
تأثيراً مستقبلاً، لذا هي من الآن تجري

محطات في الفكر المقاوم

❖ التعبئة الفكرية والثقافية في كلمات الإمام الخامنئي دام ظلّه

❖ النموذج النظري للديمقراطية الدينية من وجهة نظر
الإمام الخميني قدس سرّه عبر التنظيم الاستراتيجي للمعطيات
الجزرية

❖ دور الإمام علي السيستاني دام ظلّه في وأد الفتنة الطائفية في
العراق ومقاومة الاحتلال

التعبئة الفكرية والثقافية في كلمات الإمام الخامنئي دام ظلته

إعداد: أ. الشيخ عباس نور الدين

أستاذ ويبحث من لبنان

«إنني أطلب من الله سبحانه وتعالى أن يحشرني
يوم القيامة مع أفراد التعبئة الطاهرين، فهذا فخر
وكمال».

الإمام الخامنئي دام ظلته

مقدمة:

قد يطلب الإنسان تحقّق بعض الأمور على مستوى الدنيا لظرف أني أو مصلحة عمليّة معيّنة، فكثيراً ما يتمنّى ويطلب حصول بعض المصالح الدنيويّة، ولكن عندما يطلب تحقّق شيء على مستوى الآخرة فهذا له معنى آخر. فلا توجد ظروف آتية حاکمة في الآخرة، ولا مصالح عمليّة تقتضي حصول هذا أو ذلك، ولا يوجد إلا الحقائق ولا ينشد إلا الكمال، فما معنى هذه الكلمة التي أطلقها الإمام وتمنّى فيها أن يُحشر مع أفراد التعبئة؟ وماذا يمثّل هؤلاء الأشخاص

على هذا الوطن وهذه الأمة وهذه الثورة أن يتعاطوا مع هذه الظاهرة دائماً بجديّة ويعلموا قدرها».

فالتعبئة ليست حركة على هامش المجتمع ولا هي من الأمور الكمالية ولا هي مجرد مادة دعائية أو إعلامية. التعبئة هي قلب المجتمع النابض الذي يجب أن نفعّله ونعتمد عليه في إطار إمكانياته.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«على المسؤولين أن ينظروا إلى أفراد التعبئة بمثابة أنهم أكثر أبناء الشعب الإيراني جدارة بالاعتماد عليهم والاهتمام بهم».

التعبئة وليدة الإمام الخميني عليه السلام:

يقول الإمام الخامنئي:

«لقد تجلّت حكمة إمامنا العظيم في الكثير من القضايا، وإيجاد قوّات التعبئة واحدة من أبرز تلك القضايا».

إنّ تشكيلات التعبئة هي بركة من بركات الإمام الخميني عليه السلام والتي غمر بها الساحة الإسلامية ومغيّراً المعادلات السائدة قبل ذلك كلّها.

لقد استطاع الإمام الخميني عليه السلام من خلال بصيرته أن يشخّص مواطن قوّة الأمة

الذين لا زالوا في ريعان شبابهم حتّى ينظر إليهم ذلك العالم العامل البصير على أنّهم مرحلة كمال يتمنى أن يدركها فيحشر معهم في الآخرة!؟

التعرّف إلى قيمة التعبئة

يؤكد الإمام الخامنئي عليه السلام على أهميّة التعرّف إلى قيمة التعبئة وتعريف الشباب وخصوصاً شباب التعبئة إلى ذلك، حيث يقول:

«ينبغي للشباب التعبويّ الذي تمثّلونه أنتم باعتباركم قادة وحدات التعبئة أن يعرفوا قيمة وقدّر هذا التشكيل الإلهي. إنّه تجمّع ذو قيمة رفيعة وسامية».

فالعامل ضمن صفوف التعبئة والانتساب إلى تشكيلاتها يجب أن يأخذ مكانه المعنويّ بين الشباب حتّى يتحوّل إلى طموح وأمنية وهدف يسعى إليه الشباب وعرفان النعمة والفضل والتوفيق الإلهي بانتسابهم إليه.

ولا بدّ من وجود حالة اجتماعية عامّة تُساعد على ذلك.

يقول الإمام الخامنئي:

«أصل القضية هو أنّ التعبئة بالمعنى الحقيقي للكلمة هي ظاهرة ثورية، ويجب

الإسلامية العظيمة، فالتعبئة هي آلية أساس من آليات الحضور الشعبي، وهذا ما يُشير إليه الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة ليست كغيرها من المؤسسات العسكرية. التعبئة هي قلب الشعب النابض وجميع العناصر المؤمنة، وهي حقيقة ساطعة بنورها في كافة أرجاء المجتمع ولها دور مصيري في مواقف الشعب».

هذا الحضور الشعبي الذي يعبر عن نفسه من خلال التعبئة، والذي يثبت حضوره حتى في أخطر الميادين التي تستوجب بذل المجهود وتقدم الغالي لتحقيق الأهداف الإسلامية الطاهرة، ألا وهو ميدان الحرب والجهاد المسلح.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إن الحضور العسكري للشعب مهم للغاية ولا يتحقق إلا من خلال قوات التعبئة وأفرادها».

ويقول أيضاً عليه السلام:

«التعبئة ليست من إحدى القوى المسلحة بل هي قوة حاضرة داخل الساحة الشعبية في المراكز الإدارية والصناعية والاجتماعية والتعليمية. فليس لدينا قوة

ويفعل تلك المواطن، وكان من أبرز ما قام به تشكيل التعبئة.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«قوات التعبئة أعظم وأخذ تذكارات لذلك الرجل العظيم الجليل».

وقد تحدّث الإمام الخميني عليه السلام بنفسه عن التعبئة وبين أهميتها وموقعها قائلاً:

«التعبئة شجرة طيبة مثمرة، ينبعث من أغصانها طيب الوصال وطراوة اليقين وحديث العشق... التعبئة هي جيش الله المخلص».

حركة شعبية

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة حركة منبثقة من صلب الشعب، الشعب الذي يتمتع لاسيما شبابه بالروحوية وقلبه مع الله، الشعب الذي أولاً يعي ويلتفت لأبي انحراف في المسيرة العامة للبلاد ويتألم لذلك ثانياً، ويتصدى له ثالثاً، وهذا هو معنى التعبئة».

إن التعبئة هي حركة تنطلق من قلب الشعب المسلم لتفعل دوره في مواكبة الأحداث وتجعل له حضوراً أساساً في مواجهة الأخطار المحدقة بهذه الأمة وبهذه الثورة

وهي بالإضافة إلى شمولها لجهة أفرادها وحضورها، هي شاملة أيضاً من جهة الأمور التي تتصدى لها، فيمكنها أن تكون صاحبة المبادرة في مختلف النشاطات الاجتماعية والثقافية وغيرها، بالإضافة إلى النشاط العسكري في الدفاع عن بلاد المسلمين.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ التعبئة لها حضور في كل الأماكن، ويمكن أن تكون صاحبة المبادرة في مختلف النشاطات والفعاليات وتظهر قوتها المعنوية المعروفة بها، ويجب أن تكون كذلك».

.ليست ظرفية بل دائمة

أكثر ما يلتفت الناس للدور العسكري للتعبئة. ومن هنا عندما تكون المرحلة مرحلة هدنة أو وقف إطلاق نار قد يطرح هذا السؤال: ما هو دور التعبئة في هذه المرحلة؟ أليس دورها مختصاً بالحرب والعمل العسكري؟ فإذا توقفت الحرب أو مررنا بمرحلة هدنة على بعض الجبهات، فهل هذا يعني عدم الحاجة إلى التعبئة في هذه الجبهات في مثل هذه المراحل؟
يجيب الإمام الخامنئي عليه السلام عن ذلك قائلاً:

مسلّحة كالجيش والحرس اسمها التعبئة. التعبئة هي من داخل ساحة الشعب تتلقّى التدريب على السلاح وتحمله عندما يحتاج الوطن لذلك وتتوجّه مع القوى المسلّحة وتحمل على عاتقها الحمل الأثقل والأثقل».

.شمولية التعبئة

التعبئة ليست حركة نخبوية أو طبقية أو فئوية، وإنما هي حركة الشعب كلّه بكلّ ما فيه من شرائح وطبقات وفئات... فهي الحركة الأشمل والأعمق التي تصل إلى كلّ زاوية من زوايا الأمة، بما فيها من رجال ونساء شباب وشيوخ... فهي نوع من أنواع الثقافة والحضور الذي يجب أن يتحلّى به كلّ مخلص عامل لله تعالى.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«الثقافة التعبوية هي التي نتمناها لجميع أبناء شعبنا، وهذا معنى قولنا: يجب أن يكون الجميع تعبويين».

«يجب أن يكون الجميع تعبويين. ويجب أن تكون الحكومة ومسؤولو البلاد تعبويين والحمد لله هم كذلك، فإنّ الكثير من المسؤولين الكبار تعبويون ويتصفون بثقافة وأفكار وحركة التعبويين».

تعالى وتعلّق به، فإنّ الحركة التعبويّة ستكون حركة دائمة ومستمرّة، وإلا فلن تكون أكثر من انفعال مؤقت ووميض بارق في برهة من الزمن ثمّ يزول».

شكل التعبئة

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«التعبئة بالمعنى الحقيقي للكلمة هي ظاهرة ثوريّة».

والظاهرة الثوريّة لها خصائص الشموليّة من جهة والعمل الجذريّ من جهة أخرى، فالتعبئة ليس عملها في أمور ثانويّة على هامش المجتمع بل أعمالها جذريّة ومصيريّة وشعبية وشاملة.

وإذا كانت التعبئة حركة شعبية بهذه السعة، فهل من المطلوب تنظيمها وتشكيلها كجهاز منظم أم أنّ شموليّتها تحتم تركها غير منظمّة بحيث تُصبح عملاً فوضوياً لا ضوابط له ولا آليات؟

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«قامت التعبئة والحمد لله كجهاز منظم، فأصبحت ولا زالت كذلك مؤسّسة وقوّة ويجب أن تبقى على هذه الشاكلة أيضاً».

بل نجد الإمام الخامنّي عليه السلام يجعل

«لقد حاول الكثيرون أن يُرّوجوا بإيحاءاتهم أنّ ظاهرة التعبئة قد انتهت بانتهاج الحرب، وقد كان ذلك إيحاءً شيطانيّاً. وأنا أقول إنّ التعبئة ليست بالقضيّة التي يُمكن أن تنتهي. يجب أن تبقى قوّة التعبئة في حالة تطوّر يوماً بعد يوم وتصبح قوّة أكثر».

فالتعبئة إذن ليست مرتبطة بمرحلة دون أخرى أو بظرف دون آخر، بل هي حاجة ملحة في زمن الحرب والسلام وفي ساحات المواجهة العسكريّة وغيرها، فهي نوع من أنواع الثقافة والروحيّة والحضور الشعبيّ اللازم في جميع المراحل والشامل لكلّ ساحات العمل.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«لا أحد يظنّ منكم أنّتم أبناء التعبئة أنّ الثورة انتهت. لا، إنّ الثورة مثل البركان الذي لا يُخمد ومثل النهر الذي إذا لم يعد ينبع فسوف يجفّ مجراه».

فهي حاجة ملحة في جميع الأزمنة، ولكنّ توفيق بقائها واستمرارها وحضورها وفعاليتها يتوقّف على إخلاص النية والتوكّل على الله تعالى، وهذا ما يؤكّد عليه الإمام الخامنّي عليه السلام:

«إذا كان هناك توكّل واعتماد على الله

الشعب بما فيه من شرائح لتزيد وعيه، وتحيي فيه روح الإسلام الأصيل، وتقوي فيه الجانب المعنوي والاستعداد العملي ليكون جاهزاً على المستوى النفسي والثقافي واللوجستي لتأدية دوره المقدس في خدمة الإسلام بالشكل المثمر والصحيح.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام: «التعبئة في الحقيقة ثقافة وحركة ثقافية». «إنَّ التعبئة حقيقة منطقية وفكرية متجذرة عميقة تحتضن جميع فئات الشعب».

الثقافة الإسلامية الأصيلة لا تعرف إلا الشجاعة في مواجهة كل المخاطر والغيرة على الأمة والاستقلال وعدم التبعية...

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام: «إنَّ ثقافة التعبوي هي ثقافة الروحانية والشجاعة والغيرة والاستقلال والحرية وعدم الوقوع في أسر القيود الحقيرة».

وهذه الخصوصيات لم تأت إلا من خلال الارتباط بالله سبحانه وتعالى، والمشاركة في العبادات التي علمنا إياها أهل البيت عليهم السلام كالصحيفة السجادية ودعاء كميل وغيرها.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنَّ هذا الارتباط بالله وهذه الروحية في

جهازاً مهماً وضخماً كالحرس الثوري مسؤولاً عن تنظيم التعبئة، بل يؤكد على أنَّ تنظيم التعبئة هو تقريباً نصف مهام قوّات الحرس! يقول عليه السلام: «لقد أوصيت مؤكداً على الأخوة في الحرس الثوري أن يتعاطوا مع مسألة التعبئة بجديّة، فإدارة وتنظيم التعبئة هي تقريباً نصف مسؤوليّة ومهمّة قوّات الحرس».

ومهمّة التنظيم هي مهمّة أساس بالنسبة للتعبئة والمسؤولين فيها. وحتى يحصل التنظيم بشكله الحقيقي والصحيح والتام لا بدُّ أن يواكبه العلم والمعرفة والعمل الجادّ والدؤوب، فكلمًا اتسعت الشرائح وتعدّدت وتنوّعت طبائرها كلّما أصبح تنظيمها أكثر تعقيداً وصعوبة.

يقول عليه السلام: «إنَّ على المسؤولين في التعبئة أن يولوا أهميّة فائقة للتنظيم، فالأصل هو التنظيم، وهنا العمل والتعليم والغذاء الفكريّ يوّتي ثماره في هذا الإطار».

الثقافة.

التعبئة ليست مجرد إطار تنظيمي يهتم بسدّ الثغرات العمليّة في الساحات المتعدّدة، بل هو قبل كل شيء حركة ثقافية تأخذ بيد

حساب عزّتهم وكرامتهم بل وحتى على حساب وجودهم وهويتهم.

وعندما تأتي ثورة عظيمة كثورة الإمام الخميني عليه السلام تُريد أن تعيد الأمور إلى نصابها الطبيعي لتعود الشعوب لاسترداد حقوقها وأخذ زمام المبادرة، لن تقف الأنظمة المستكبرة مكتوفة الأيدي بل ستحاول مواجهتها وإركاها بشتى الوسائل والطرق وبكل أدوات الاستكبار المتوقّرة بين أيديها، من هنا كان لا بُدَّ من استنفار كلّ الشعب بكلّ طاقاته لمواجهة هذا الاستكبار على طريقة: «برز الإيمان كلّهُ إلى الشرك كلّهُ».

فدور التعبئة دور أساس وحاسم في مواجهة تحدّيات المستكبر... وقد ظهرت فائدتها في مواجهة الأخطار العسكريّة التي كانت تتعرّض لها هذه الثورة منذ انطلاقتها.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«أريد القول إنّ أول تنظيم عسكريّ مسلّح نبع من الثورة هو في الحقيقة وليد لقوّات التعبئة».

ويقول عليه السلام: «إنّ قوّات التعبئة هي التي استطاعت أن تُنجز أكبر الأعمال في مختلف ميادين الحرب، ولو لم تكن هذه القوّات موجودة لكانت نتيجة الحرب شيئاً آخر

الدعاء والتضرّع الموجودة في قوّاتنا التعبويّة ودعاء كميل الذي أليت على أنفسكم قراءته وكذلك صلاة الجمعة وتوسّلكم وتوجّهكم إلى الأئمّة عليهم السلام، هذه العلاقة والرابطة المعنويّة هي التي حافظت على كلّ شيء، وهذه إحدى الخصوصيّات التي لا توجد في الأماكن الأخرى، ويجب أن تحافظوا عليها».

فوائد التعبئة.

إنّ القيام بحركة بمستوى التعبئة التي تشمل جميع شرائح المجتمع، بأنشطتها المتنوّعة والواسعة، يطرح سؤالاً عن جدوى وفائدة القيام بهذا العمل الضخم وبهذا المستوى الواسع والشامل، فما فائدها وما الذي يبرّرها؟ فائدها ومبرّر وجودها هو الدفاع عن الأُمّة والمحافظة على منجزاتها، حيث إنّنا بلا شك نعيش في مجتمع تتزاحم فيه مصالح المستكبرين مع مصالح الشعوب المستضعفة بل تتزاحم مصالحهم حتى مع ضروريّات حياة الشعوب المستضعفة. والمستكبر لا يتوقّف عن سرقة مقدّرات الآخرين حتى لو استلزم ذلك إبادة وجودهم أو سحق هويتهم، وتحويلهم إلى مجرد خدم مخلصين يؤمّنون مصالح المستكبر ولو على

الحاضر. إنَّها قوَّات التعبئة التي أمدَّتنا بهذه

بالتأكيد».

القوَّة العظيمة».

والتعبئة كما كانت القوة الأساس في تجاربنا طوال السنوات الماضية فهي كذلك أمل المستقبل الذي نستطيع أن نواجهه من خلاله تحديات كلِّ القوى المستكبرة وعلى رأسها أمريكا.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«كونوا على ثقة من أن أمريكا وجميع القوى الماديَّة في العالم لو تآزرت وتكافقت على أن تهزم هذا النظام الإسلامي مع وجود قوَّات التعبئة المؤمنة فإنَّها والله لن تقدر على ذلك».

فما دامت التعبئة تُحافظ على الروح الإسلاميَّة والمعنويَّات الحسينيَّة والتي تختصرها كلمة الإيمان، فإنَّ أمريكا لا يمكنها أن تهزمها. هكذا كانت وهكذا ستبقى:

«إنَّ أساس الفضل خلال الحرب المفروضة وحتَّى قبلها أو بعدها يعود إلى قوَّات التعبئة».

ومن هنا نفهم عداء المستكبرين للتعبئة ومحاوله تشويه صورتها ومواجهتها إعلامياً، على أمل أن تفقد الشعوب ثقتها بهذا السلاح

فالتعبئة هي الخطَّ الأوَّل والأقوى في مواجهة مثل هذه التحديات، وقد استطاعت من خلال جهادها وتضحياتها أن تسطرَّ تاريخاً جديداً لهذه الأمة.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«أنتم أبناء التعبئة، كلُّ يوم من هذه المئات والالاف من الأيام التي قضيتها في الجبهة شادت تاريخ هذه الأمة. ولو لم يحضر الأشخاص من أمثالكم في تلك الخنادق لما سمعنا اليوم أيَّ شيء عن الإسلام والنظام الإسلامي واسم وذكر الإمام عليه السلام في هذا البلد».

ويؤكِّد أنَّ التعبئة هي التي حافظت على المنجزات إلى الآن: «إننا يمكن أن نجروء على القول إنَّه لولا الحضور الفعَّال لقوَّات التعبئة التي توافدت رجالاً ونساءً من البيوت والمدارس والمصانع والمراكز

الإداريَّة في المدن والقرى وبادرت لتغطية كلِّ الميادين وحسبما دعت الحاجة، لولا ذلك كلُّه لما كنَّا قادرين على أن ندافع بالنحو المطلوب عن بلادنا طوال السنوات الماضية لا في الحرب ولا في سائر ميادين الصراع التي ما زالت مستمرة حتَّى يومنا

تمنع من ارتباط القائد المباشر بالشعب ولا من الاحتضان الشعبي المباشر له، فالمؤسسات ليست جدار منع بل وسيلة تفعيل.

وهنا تظهر فائدة أخرى للتعبئة، فالتعبئة هي تعبير عن الارتباط المباشر بين الشعب والقائد، فهي عينه ويده الشعبية التي تستطيع أن تحقق المصالح العامة للمسلمين وترسي دعائم الإسلام بشكل مطرد.

يقول الإمام الخامنئي رحمته الله:

«إذا استحكمت العلاقة بين هذه القوة العظيمة (التعبئة) وبين القيادة المركزية للبلاد، أي مع القائد والدولة، حينذاك سوف نمتلك القدرة التي استطاعت بها الجمهورية الإسلامية أن تُرسي دعائمها يوماً بعد يوم، وتتنامي على قدم وساق».

الحاجة إليها.

يقول الإمام الخامنئي رحمته الله:

«يقول القرآن الكريم ﴿هُوَ الَّذِي آتَىكَ بِنُصْرِهِ وَيَالْمُؤْمِنِينَ﴾. فالمؤمنون المشار إليهم في هذه الآية الكريمة تعبير آخر عما هو موجود اليوم في مجتمعنا باسم التعبئة. كذلك الآيات القرآنية الأخرى التي تُشير إلى

وتتخلى عنه بنفسها، وهذا هو أمل المستكبرين، فلا يُمكن أن يهزم شعب يحمل روحية التعبئة، إلا بتخليه عن هذه الروحية وتركه لهذا السلاح بنفسه ليصبح أعزل أمام العدو الذي ينتظر الفرص....

يقول الإمام الخامنئي رحمته الله:

«إن التعبئة تنهض بالعبء الأساس لحماية الثورة، ذلك أن الهجمة المعادية إنما تستهدف درع الثورة، ومن هنا فهم في معرض الخطر الأول وعلى التعبئة أن يفتخروا بذلك».

ارتباطها بالقائد.

يتميز القائد الإسلامي بأن حركته لم تكن في يوم من الأيام حركة تسلطية يُعرض فيها القائد على الشعوب. ولم يكن القائد الإسلامي في يوم من الأيام طالب كرسي أو جاه. ولم يكن الحكم الإسلامي حكماً طبقياً تتمتع فيه طبقة على حساب أخرى، على الإطلاق. لقد كان القائد الشرعي على الدوام شعبياً في نشأته وحركته وطريقة جهاده وممارسته للحكم.

صحيح أن المؤسسات أمر ضروري ومطلوب لنظم الأمور، ولكن المؤسسات لا

ردّات الفعل والارتجال، بل على المبادرة والإمساك بزمام الأمور في مختلف الساحات.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ التعبئة لها حضور في كلّ الأماكن ويُمكن أن تكون صاحبة المبادرة في مختلف النشاطات والفعاليات وتظهر قوتها المعنويّة المعروفة بها ويجب أن تكون كذلك».

ويمكن أن نُشير إلى بعض العناوين التي تبيّن دور التعبئة بشكل أجليّ وأوضح، وهي ما يلي:

هي الرصيد.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«لقد كان الإمام ينتظر من التعبئة الاستعداد الدائم والحضور الفاعل، ذلك أنّ التعبئة هم رصيد الثورة».

واعتبار التعبئة رصيذاً للثورة، ليس مسألة هامشيّة أو ثانويّة، بل هي مسألة أساس، فالرصيد هو ما يجمعه الإنسان ليستفيد منه في قضاء حوائجه بعد ذلك خصوصاً في الأوقات الحرجة والطارئة.

وهذا ما يُشير إليه الإمام الخامنئي عليه السلام:

«معنى التعبئة: أنّ شباب هذه الأمة

المؤمنين والمخلصين؛ فهي تركّز على التعبئة الفريدة والتي هي حصيلة فكر ودراية إمامنا العظيم. فيجب التأمل والتدبّر في حاجة العالم الإسلاميّ إلى هذه الحركة».

يؤكد الإمام الخامنئي عليه السلام في هذه الكلمة أنّ التعبئة هي أمر إلهيّ وبركة ربّانية، قد منّ الله تعالى بها على هذه الأمة، كما تُشير الآية القرآنيّة التي استشهد بها الإمام الخامنئي عليه السلام، ودورها تختصره كلمة تأييد حركة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿أَيَّدَكَ بِتُوبَةٍ وَأَنْ يَصْرَفَهُ وَيَالْمُؤْمِنِينَ﴾.

وتهيئة الأرضيّة والظروف لتحقيق الحكم الإلهيّ العادل بجميع أبعاده الكمالية.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبويّ ذو همّة عالية ويسعى لأجل سموّ البلاد ورفعتها وهدفه إنقاذ البشريّة والقضاء على الفساد والفقر والظلم والتمييز العنصريّ والتسلّط. يرفض العيش تحت المظلة الأميركيّة كالحوانات. وهو ذلك الإنسان الذي يهّمه من يحكم بلده، هل هو إنسان فاسد فاسق فاجر عميل للأجانب أم أنّه من عباد الله الصالحين؟ هل حكومة أعداء الله تحكّم مجتمعه أم حكومة الله؟».

ودورها يجب أن لا يكون قائماً على

كيان العالم الإسلامي؛ الأولى المتمثلة بالحكومات المعزولة عن شعبها، والثانية هي فساد الشباب».

إنّ الشباب هم الذخيرة الحقيقيّة للأمة، فهم في حاضرهم يمثّلون النشاط والعنصر الحيويّ القادر على ضخّ الطاقة والتجدّد في عروق الأمة وإنجاز المهمّات الصعبة، فهم في حاضرهم ساعد الأمة الفتية، وفي مستقبلهم قادة الأمة ومعالمها وتوجّهها ومصيرها..

ومن هنا كان الشباب على الدوام محطّ نظر الأعداء وخططهم المشؤومة لضرب هذه الأمة وتهديد مستقبلها. والسواعد الشابة المؤمنة لا يُمكن هزيمتها من قبل الأعداء إلا إذا تخلّت هي عن دورها في المواجهة وقرّرت التراجع.

وهذا ما سعى إليه الأعداء من خلال محاولة إفساد الشباب وإهائهم بأيّ شيء يُبعدهم عن المعادلة ويجعلهم على هامش المجتمع. وتشكيلات التعبئة هي التي تواجه مثل هذه المحاولات، فهي قادرة على استقطاب الشباب ودفعهم إلى وسط الساحة ليؤدّوا دورهم في رسم مصير الأمة ومستقبلها بحروف من نور. وهذا تكليف أساس للتعبئة.

وأبناءها يشعرون في ساعات العسر بأنّ لديهم قوّة ومقدرة عظيمة تمكّنهم من الصمود بوجه الأعداء».

فأبناء التعبئة هم الرصيد الذي نجده ماثلاً بقوّة وتصميم أمام أيّ تحدّ.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ التعبويّ هذا أينما استدعى الواجب تراه حاضرًا».

والتعبئة ليست مشاركة عند الحاجة، بل هي استعداد وتهيئة وتدريب يجعل الإنسان جاهزاً لتحمل مسؤولياته الشرعيّة ومواجهة الظالمين، فحصول هذه الجهوزيّة والمحافظة عليها وتطويرها من أهمّ تكاليف التعبئة.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة تعني الحضور والاستعداد للمشاركة في تلك النقطة التي يحتاج الإسلام والقرآن وإمام الزمان أرواحنا فداها وهذه الثورة المقدّسة لأن يكونوا فيها».

حفظ الشباب من الانحراف.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«حسب اعتقادي فإنّ الله تعالى ألهم إمامنا العزيز وهدها إلى تشكيل قوّة التعبئة، وقضى بذلك على الأفتين اللتين تنخران

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«اسعوا لجعل هؤلاء الشباب المؤمنين من قوّات التعبئة وهذه القلوب الطاهرة النقيّة في مأمن من خطر الإعلام المعادي. إنّ أحد أهمّ الأعمال التي يُمارسها العدوّ هو تلوّث أذهان ونفوس شبابنا المؤمنين الطيّبين. إنهم يعمدون إلى آلاف الطرق والوسائل لتلوّث أفكار شبابنا».

حفظ الإسلام

إنّ التعبئة ليست مجرد حركة سياسيّة تُريد تحقيق بعض المنجزات الحقوقيّة، بل هي تعبير عن الشعب المؤمن الذي يختزن الإسلام في فكره كعقيدة إلهيّة ومنهج عمليّ يُطرح كأمانة إلهيّة بيد الإنسان، هذه الأمانة التي يجب حفظها وحمايتها من الأخطار التي تواجهه سواء كانت عسكريّة أو ثقافيّة أو إعلاميّة...

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبويّ هو درع الثورة الذي يواجه بصدّره الأخطار المحدقة بالإسلام والقرآن».

الدفاع عن الثورة

إنّ الثورة الإسلاميّة التي تسير على نهج

الإسلام الأصيل، كانت حُلماً يصعب تحقّقه مع كلّ الظروف المحيطة بنا في هذا الزمن. فالمسلمون بشكل عامّ في ضعف ووهن والمستكبرون يستولون على مقدّرات الأمم، يستعبدون الناس ويعبثون في الأرض ويكيدون الإسلام والمسلمين.

فهذه الثورة كانت أشبه ما يكون بالمعجزة، ولكنّها رغم ذلك تحقّقت. وتحقّقها لم يكن بسهولة بل كانت مثقلة بجهاد ودماء خير شباب المجتمع، من هنا أصبحت مسؤوليّة حفظ الإنجازات مضاعفة!

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ الحرس والجيش لن يمكنهما بمفردهما الدفاع عن الثورة بعيداً عن دور قوّات التعبئة».

ويقول عليه السلام:

«إنّ التعبئة تنهض بالعبء الأساس لحماية الثورة، ذلك أنّ الهجمة المعادية إنّما تستهدف درع الثورة».

التصدي للانحرافات الداخليّة

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة حركة منبثقة من صلب الشعب، الشعب الذي يتمتّع لا سيّما شبابه

معركة أخرى».

وهي قبل أن تؤمن الحضور الشعبي لسدّ الفراغات تقوم بدور توعية شرائح الشعب وتحريضهم على اتخاذ المواقف الصحيحة. ودورها أساس في ذلك.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«لها دور مصيري في مواقف الشعب».

التصدي للأخطار الخارجية

بالإضافة إلى دور التعبئة على مستوى المجتمع الإسلامي الداخلي هناك دور آخر مهم وأساس لها، وهو مواجهة المخاطر الخارجية أيضاً، فعندما تعرّض المسلمون لهجوم عسكري خارجي على الشعب أن ينتفض في تشكيلات التعبئة ليؤدي دوره في الدفاع عن نفسه وبلده واستقلاله.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ العمر الذي قضيتومه في الجبهة وهذه السنين والشهور والأيام الذهبية التي حضرتهم فيها هناك كلها حقيقة بركة ونعمة من جانب الربّ لهذه الأمة».

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة هي من داخل ساحة الشعب

بالمعنوية وقلبه مع الله، الشعب الذي أولاً يعي ويلتفت لأيّ انحراف في المسيرة العامة للبلاد، ويتألم لذلك ثانياً، ويتصدّى له ثالثاً، وهذا هو معنى التعبئة».

فالتعبئة ليست أمراً طارئاً على الشعب بل هي قلب الشعب الواعي الذي يحمل همّ المجتمع والناس، ويريد الاستقامة لهذا المجتمع، وبالتالي فإنّه سيعي أي انحراف داخلي يمكن أن يهدّد هذا الشعب، ويتعرّف إليه في مراحل المبكرة، ليضع البرامج المناسبة لمواجهته.

التواصل مع الشعب

إنّ التعبئة هي حركة شعبية دورها الأساس استقطاب أفراد الشعب، والاستفادة منهم لسدّ الفراغ عند الحاجة، سواء كانت على المستوى العسكري أم غيره.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ العنصر الأساس لكلّ حركة عسكرية يتجسّد بما تحظى به من دعم جماهيري. وهذا الدعم الجماهيري الذي برز في بلدنا بصورة قوّة التعبئة هو البلسم الشافي لكلّ نقاط الضعف، ولكلّ هزيمة أو تخلف سواء في المعركة العسكرية أم في أية

صفات أفراد التعبئة

التعبئة كما هو واضح في كلمات الإمام الخامنئي عليه السلام ليست مجرد آلية تنظيم وهيكلية عمل واستعداد عسكري فحسب، وإنما هي قبل ذلك كله عقيدة وثقافة ومنهج وسلوك تستلهم حركتها من الإسلام العظيم، من هنا حتى يكون الفرد من التعبئة يجب أن تتوفر فيه مميزات خاصة يمكن اختصارها بما يلي:

١. تبني الإسلام

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«هي حركة منطقيّة وإسلاميّة تتجاوب مع حاجات المجتمع الإسلاميّ عامّة». إنَّ التعبئة هي حركة تتبنّى الإسلام كعقيدة ومنهج، والفرد التعبويّ يتبنّى الإسلام كعقيدة ومنهج.

٢. الإيمان والالتزام

ومن صفات الفرد التعبويّ الإيمان بالإضافة إلى الإسلام، فليس الإسلام مجرد قناعة عقلية قبلها بالبرهان، بل تحولت هذه القناعة إلى معرفة قلبية تفجّرت إيماناً يملأ قلب الفرد التعبويّ.

تتلقّى التدريب على السلاح وتحمله عندما يحتاج الوطن لذلك، وتتوجّه مع القوى المسلّحة وتحمل على عاتقها الحمل الأكبر والأثقل».

ودور التعبئة في مواجهة الأخطار الخارجيّة لا يقتصر على الخطر العسكريّ بل يعمّ جميع الجوانب الأخرى من سياسيّة واقتصاديّة وثقافية.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنَّ التعبويّ يحترق قلبه على بلده ويسعى لأجل إعمارهِ، وهو مستعدّ للتضحية بنفسه من أجل صيانة استقلاله الوطنيّ، كما أنّه لو شعر اليوم بأنَّ العدوّ يريد محاربة بلده اقتصادياً وسياسياً أو ثقافياً فإنّه يقف بوجهه بكلّ قوّة وبصفهه بقبضته».

هذا بالإضافة إلى دورها في مواجهة عملاء المستعمرين في الداخل، كما يُشير الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّنا لا نتوقّع أن لا يكون للعدوّ في مجتمعنا وبلدنا جواسيس وأناس جنباء ومنافقون باعوا أنفسهم للأجانب. لكن من يقف بوجه هؤلاء؟ من الطبيعيّ أنّها التعبئة، تلك القوّة العظيمة الثائرة وصفوة الشعب المؤمن».

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة هي عنوان قِيمٍ وَسَامٍ. والفرد التعبوي يعني القلب المؤمن والعقل المتفكر والاستعداد لخوض غمار كل الميادين التي يدعو الواجب الإنسان إليها». «التعبئة حركة منبثقة من صلب الشعب الذي يتمنع لا سيما شبابه بالمعنوية وقلبه مع الله».

وهذا ما أكدّه القرآن الكريم، حيث يُشير تعالى إلى أنّ هؤلاء الأفراد الذين نصر بهم دينه هم المؤمنون.

ويُشير الإمام الخامنئي إلى هذه الآية القرآنية قائلاً:

«يقول القرآن الكريم ﴿هُوَ الَّذِي آيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ فالْمُؤْمِنُونَ المشار إليهم في هذه الآية الكريمة تعبير آخر عما هو موجود اليوم في مجتمعنا باسم التعبئة، بالإضافة إلى الآيات القرآنية الأخرى التي تُشير إلى المؤمنين والمخلصين».

وبالإضافة إلى الإيمان القلبي هناك السلوك العملي الذي يتميّز فيه الفرد التعبوي، حيث إنّ حركته وسكونه وسلوكه بشكل عامّ تكون مطابقة لأحكام الشرع المقدّس، فهو ملتزم عملياً بأحكام الله تعالى لا يترك واجباً ولا يفعل محرّماً.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبوي هو الذي يهتم بقيم الإسلام ويعتقد بالله ويخضع لأوامر رب العالمين، وهو الصالح الزاخر قلبه بالخير والصلاح والمطهر من الرذائل، وهو الذي يرغب أن يزيد أنسه بالله دوماً ويكون عبده المخلص ويعيش طبقاً لأوامره، وهو الذي يعتبر أنّ هذا الطريق هو طريق السعادة».

فإنّ السعادة المعتبرة عند التعبوي إنّما تتحقّق من خلال الالتزام بحكم الله تعالى.

ومن الطبيعي أنّ الأخوات التعبويات يتميّزن بالتزامهنّ بالحجاب والعفاف فيذكرن بوجود الله ويدعوّن إليه بأعمالهنّ وإيمانهنّ.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ أخواتنا التعبويات هنّ سيّدات محجّبات عفيفات ملتزمات بالآداب الشرعيّة، حتّى إنّ المرء ليذكر بهنّ صدر الإسلام. وهنّ ينهضن بالمسؤوليّة الكبرى من أجل الدفاع المقدّس، فهنّ جزء من هذه الملايين التي تموج بهم ميادين الثورة».

الهدف ٣

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبوي لا يعتبر السعادة لذات الحياة

على أمر الله تعالى وطمعه برضاه سبحانه
وهدفه الجنة والآخرة.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«كثيراً ما كان يتكرّر على ألسنة الشباب
التعبويين أنّهم لا يقاتلون من أجل حفنة تراب
أو شبر من الأرض، بل يقاتلون من أجل
الأهداف والمبادئ، وهذا هو الصحيح وهو
المعرفة بعينها».

٤. العقل والوعي

الفرد التعبويّ يتميّز بوعيه وعقله الراجح،
كما في الحديث الشريف عن رسول
الله صلى الله عليه وآله: «المؤمن كيس فطن حذر».

فهو يعرف أمور زمانه والمخاطر المحيطة
بالعالم الإسلاميّ ويتصرّف بعقل راجح وفطنة
لمواجهته لا بفوضويّة وتسرع.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«الفرد التعبويّ يعني... العقل المتفكّر».

ويقول عليه السلام:

«حركة التعبئة بذاتها كانت حركة
منطقيّة منذ يومها الأوّل. والوضوح والتحرّك
العقلانيّ والمنطقيّ والحسابات الدقيقة
والعمل المتقن والنتائج العمليّة كانت من
جملة الخصائص المشهودة في قوّة التعبئة

العابرة والألبسة الملونة المتنوعة وجلب أنظار
الناس إرضاءً لنفسه ولو لساعة واحدة. إنّ
روح التعبويّ لا ترضى بهذه الأمور الحقيرة
والصغيرة، إنّها ترضى بالمعارف الإلهيّة».

فالتعبويّ يعتبر الدنيا مزرعة للآخرة
وينظر إليها من هذه الزاوية، وبالتالي فهو
مشغول في الزرع للآخرة، لم يكن هدفه مالمّاً
أو جاهلاً أو زينة..

بل إنّ جميع هذه الأمور وما سواها لم
تكن إلاّ طريقاً للآخرة وطلباً لرضا الله
سبحانه وتعالى، فقلبه ونفسه وروحه لم تتعلّق
إلاّ بالله سبحانه وتعالى وبالمعارف الإلهيّة.

إنّ الفرد التعبويّ يعيش في هذه الدنيا
ويؤدّي تكاليفه فيها، وكلّ هذا يعتبر من
الأمور العظيمة، يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبويّ يسعى لأجل سمّ البلاد
ورفعتها، وهدفه إنقاذ البشريّة والقضاء على
الفساد والفقر والظلم والتمييز العنصريّ
والتسلّط، ويرفض العيش تحت المظلمة
الأمريكيّة كالحيوانات».

فهذه الأمور كلّها أمور مهمّة وعظيمة
وهي محور حركة التعبويّ، ولكن ما يقف
وراءها كلّها رضا الله سبحانه وتعالى والزرع
للآخرة. فهو يقوم بهذه الأمور كلّها وعينه

والشجاعة والغيرة والاستقلال والحرية وعدم الوقوع في أسر القيود الحقيرة».

فهذه المفردات كلها تختصر ثقافة التعبوي الذي يتحرك على ضوئها، فهو الذي يعيش الاستقلال ويرفض التبعية للشرق أو الغرب، والذي يملك الغيرة على المجتمع وعلى الإسلام بل على الإنسان في قضاياها العامة المحققة، وهو الشجاع الذي لا تتنيه التهديدات وإرهاب الأعداء عن تأدية دوره، والتقدم إلى ساحات المواجهة.

وهو الذي لم تغوه الدنيا ولم تذله أو تستعبده، بل هو الحرّ فيها الذي لا يركن إليها، ولم تأسره قيودها وأغلالها وزينتها وما فيها من أوهام زائلة. فهو عبد الله الذي أرادته الدنيا ولم يردّها.

٦- الالتزام بالقوانين والأخلاق الإسلامية

التعبئة ليست حركة فوضوية لا نقيم للقوانين والأنظمة وزناً، بل على العكس تماماً فالفرد التعبوي هو الذي يعيش النظام والقوانين ويدعو الناس إليها، وكلّ تصوّر آخر هو تصوّر خاطئ.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«ينبغي أن تلغوا هذا الانطباع الخاطئ

حتى يومنا هذا».

وقد يتصوّر بعضهم أنّ ولاية الفقيه ووجوب طاعة الولي تعارض الوعي والتفطن لما يجري في الساحة، فيتصوّر اشتباهاً أنّ اللازم على أفراد التعبئة أن لا يتفكروا في الأمور، لأنّ التفكير قد يفتح أبواباً لعصيان أوامر الولاية والوقوع في التشتت، وهذا خطأ، فصحيح أنّ الطاعة واجبة على كلّ حال، ولكنّ الطاعة عن رضا ومعرفة ودراية أفضل بكثير من الطاعة التي لا تتبع من معرفة.

وهذا ما يُشير إليه الإمام الخامنّي عليه السلام:
«إنّ الأساس في قوّة التعبئة في الجمهورية الإسلامية يعتمد على عنصر الوعي، فنحن لم نرغب أبداً أن يجيء بعضهم فيعضّبوا أعينهم وينزلوا إلى الساحة عن طاعة عمياء بلا معرفة بما يجري ويحدث، فيسلّوا سيوفهم وأسلحتهم للقتال».

٥- الثقافة

إنّ التعبوي يعيش ثقافة تؤهله للقيام بدوره الريادي في مواجهة كلّ التحديات التي يفرضها المستكبر.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«إنّ ثقافة التعبوي هي ثقافة المعنوية

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنَّ سلوك وأدب وانضباط أفراد التعبئة ينبغي أن يكون أقرب من سلوك الآخرين إلى السلوك الإسلامي».

١٧ الحيوية والنشاط

يتمتع أفراد التعبئة بالنشاط والحيوية ويتميزون بالهمة العالية، لا يثنى عليهم كسل أو ضجر عن تأدية تكليفهم وإنجاز وظائفهم الشرعية التزاماً بوصية الإمام الصادق عليه السلام: «إياك والكسل والضجر فإنهما يمنعانك من حظك من الدنيا والآخرة».

وهذا ما يؤكد عليه الإمام الخامنئي عليه السلام حيث يقول: «التعبوي ذو همة عالية».

٨ يحمل هم الأمة

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«الشخص الذي يكون حساساً اتجاه قضايا البلاد وخط سيرها العام واتجاه هجوم العدو العسكري أو الثقافي من كل حذب وصوب لا يُمكنه أن يتجه نحو الفساد، وليست لديه فرصة للتفكير في الرغبات الفاسدة والمفسدة التي يروجها الأعداء في المجتمع، وهذا هو التعبوي».

من الأدهان من أنَّ التعبوي شخص لا يقيم للقوانين وزناً. إنَّ العكس هو الصحيح. إنَّ التعبوي هو أكثر أبناء الشعب تحزقاً للنظام والقانون».

بالإضافة إلى النظام والالتزام بالقوانين فالتعبوي يُشكّل نموذجاً للتعامل الإسلامي والأخلاق الإسلامية الراقية، وعلى أفراد التعبئة أن يتحلوا بالأدب والأخلاق الإسلامية.

ورد في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«كونوا لنا زيناً ولا تكونوا علينا شيناً».

وهذا ما يُشير إليه الإمام الخامنئي عليه السلام أساس التعبئة هو النظم والأدب والمعاملة الإسلامية. وعلى أفراد التعبئة أن يتحلوا بذلك أكثر من غيرهم من أفراد الناس.

ويقول عليه السلام:

«إنَّ على التعبوي أن يتصرّف بالشكل الذي يكسب به ثقة الشعب. فيجب أن تكونوا أمثلة أخلاقية في التواضع والرحمة واحترام القانون».

فالتعبوي في الحقيقة يجب أن يكون نموذجاً مشرفاً في السلوك والانضباط الإسلامي، فإن لم يمثل أبناء التعبئة ذلك فمن يمثله؟

التعبئة وبين وليّ العصر أرواحنا فداه المهديّ الموعود ﷺ هو ميثاق دائم وغير قابل للتزلزل». فأفراد التعبئة في الحقيقة هم جنود الحجّة ﷺ.

يقول الإمام الخامنّي رحمه الله:

«يا أفراد قوات التعبئة اعتبروا أنفسكم جنوداً لوليّ العصر (أرواحنا فداه) أينما كنتم سواء في الجامعات أم الحوزات العلميّة أم في المدارس أم في الأسواق والمعامل أم في المعسكرات في القرى أو المدن، وليكن عملكم لذلك الإمام عجل الله تعالى فرجه، واطلبوا من الله التوفيق والعون».

المسجد مقرّ التعبئة

عندما هاجر النبيّ الأكرم ﷺ من مكّة إلى يثرب ليقيم دولة الحقّ هناك، كانت أولى خطواته أن قام ببناء مسجد كركن أساس في قيام دولته ونشر دعوته. ومنذ تلك اللحظة صار المسجد محور الحركة الإسلاميّة كلّها، فهو مكان لذكر الله تعالى وعبادته، ومكان لتعليم الشرع والقضاء بين الناس، ومكان تجمع عساكر المسلمين، ومكان الجهاد الأكبر ومنطلق الجهاد الأصغر. من هنا فإنّ

فالتعبويّ ليس شخصاً مستهتراً يعيش على هامش المجتمع بأنانيّة تجعله غريباً عن هموم الأُمّة، بل هو في الحقيقة الشخص الواعي الذي يعيش المسؤوليّة ويحمل بين أضلعه همّ هذه الأُمّة، ويتحسّس مسائلها المصيريّة...

٩- الارتباط بصاحب الزمان ﷺ

إنّ التعبئة في الأساس هي حركة تمهيدية لظهور الإمام الحجّة ﷺ. والفرد التعبويّ عندما يعمل فإنّه من خلال عمله يرمق الأفق منتظراً الظهور ويريد من خلال عمله هذا أن يكون جندياً في جبهة الإمام ﷺ ممهداً له ومهيئاً الأرض لظهوره، يريد للرسالة أن تصل لمولاه:

مولاي نحن معك ليس بالسنتنا فقط ولا بقلوب بعيدة عن الأعمال. نحن معك بأعمالنا وسيوفنا، فقلوبنا تهفو إليك وعيوننا ترمق الأفق تنتظر لواءك وأعمالك، وجهادنا يؤكّد أننا على نهجك نعمل وبقيادتك نأتمر، دونك أنفسنا وأموالنا وأهلونا، هذه رسالتنا إليك وهذا ميثاقنا معك.

يقول القائد الخامنّي رحمه الله:

«إنّ الميثاق المعقود بين أعزّتنا أفراد

الخامنئي عليه السلام موضوع تنظيم التعبئة أهميّة خاصة، وأكّد عليه في العديد من كلماته، واعتبر أنّ التنظيم له أهميّة خاصّة وينبغي الاهتمام به من قبل المسؤولين.

يقول عليه السلام: «إنّ على المسؤولين في التعبئة أن يولوا أهميّة فائقة للتنظيم، فالأصل هو التنظيم، وهنا العمل والتعليم والغذاء الفكريّ توتّي ثمارها في هذا الإطار».

الاستمرار في التدريب

التعبئة هي جيش الإسلام الحاضر دائماً والجاهز للدفاع عنه عند أيّ تحدٍّ أو هجوم من أعداء الإسلام. فهم في الحقيقة درع الإسلام، لذلك من الضروريّ المحافظة على الكفاءة القتالية العالية التي تمكّنهم من تأدية دورهم هذا كلّما دعت الحاجة إلى ذلك، خاصّة مع كثرة التحدّيات الخارجيّة وتعدّد الأخطار نتيجة العدوان الشامل الذي يتعرّض له العالم الإسلاميّ بشكلٍ عامّ في عصرنا هذا.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ علينا المحافظة على استعدادنا الدائم في الدفاع عن الثورة، وأنّ لا نغفل أبداً عن أهميّة ذلك، وقد قال أمير

للمسجد دوراً كبيراً في حركة التعبئة، فهو في الحقيقة محور هذه الحركة ومقرّها الأساس، هكذا كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وهكذا هي إلى عهدنا هذا.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«إنّ المساجد أفضل مكان لقوات المقاومة والتعبئة، فالمسجد مكان ومقرّ مهمّ جداً». فعلياً أنّ لا نضيق هذا المقرّ المهمّ ونغفل عنه.

الاحتفاظ بالتنظيم

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«التعبئة في الظروف الطبيعيّة هم جماهير الشعب التي تعمل وتكدح، إلاّ أنّه يجب أن تحتفظ بالتنظيم والتعليم».

صحيح أنّ التعبئة هي جماهير الشعب كلّها بما فيها من عمّال وموظفين...

وكلّ منهم له حياته وعمله الخاصّ. ولكن هذا لا يعني أن يصبح عمل التعبئة فوضوياً غير منظمّ، بل على العكس تماماً، هذه الحركة ما دامت تحمل تلك المواصفات فهي تحتاج لتنظيم أكثر من غيرها لتكون مفيدة ومنتجة وقادرة على القيام بدورها بشكل صحيح وموفق. لذلك أولى الإمام

أهم الأعمال التي يُمارسها العدو هو تلوّث أذهان ونفوس شبابنا المؤمنين الطيبين. إنهم يعمدون إلى آلاف الطرق والوسائل لتلوّث أفكار شبابنا.

الحفاظ على التدين وتقويته

بالإضافة إلى التدريب العسكري والتعليم الثقافي هناك جانب ثالث يجب المحافظة عليه وتنميته وهو الجانب الروحي لدى أفراد التعبئة، بمعنى وجود حالة تقوى وورع تجنّبهم المعاصي وتبعدهم عن ارتكابها حتى لا يكون شبابنا لقمة سائغة أمام استدراج النفس الأمّارة وإغراءات الحياة الدنيا، وتلبيس الشياطين لهم. فالدين والتقوى والورع هي ميزة أفراد التعبئة وهويّتهم الحقيقية.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«إعلموا أنّ أحد أسلحة الأعداء الذين تهتفون بالموت لهم هو أن ينشروا في طريقكم بذور المعاصي ويثيروا الشهوات بمظاهر الفساد لعلهم بذلك يتمكّنون من جزكم إليها. انتبهوا جيّداً. صحيح أنّ شبابنا التعبويّون مؤمنون نزيهون وأطهار لكن ربما يوجد بعض الأشخاص ممّن لا يتمتّعون

المؤمنين عليهم السلام: «ومن نام لم يُنم عنه». ومن هنا على تشكيل قوّات التعبئة خاصّة الشباب الحفاظ على لياقتهم واقتدارهم واستعدادهم كما في الماضي من أجل الدفاع عن الثورة». وفي هذا الإطار يجب أن لا يكتفي أفراد التعبئة بالتدريبات الأوليّة والبسيطة على حمل السلاح والقتال، بل يجب الاستمرار والمحافظة على هذه الكفاءة من جهة، وعلى رفعها وتطويرها من جهة أخرى.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«لا ينبغي الاكتفاء بالدورات الأوليّة بل المطلوب الاستمرار في التدريب».

الاهتمام بالجانب الثقافي

إنّ الثقافة هي من أهمّ الأمور التي ينبغي الاستمرار والمداومة على ممارسة برامجها في التعبئة، على الأقل لمواجهة التلوّث الفكريّ الذي يتعرّض له الشباب من خلال آلة الإعلام المعادي، فالثقافة في الحقيقة هي أساس التعبئة.

يقول الإمام الخامنّي عليه السلام:

«اسعوا لجعل هؤلاء الشباب المؤمنين من قوّات التعبئة وهذه القلوب الطاهرة النقيّة في مأمن من خطر الإعلام المعادي. إنّ أحد

من عرفان الجميل، هو أيضاً حقّ هذه الأمة علينا لبيان حضارتها وموقعها النوراني وإبرازها بين الحضارات الإنسانيّة، وهو كذلك حقّ الأجيال القادمة لينقل إليها التراث الصحيح بأيدي أمينة، ويصل إليها النهج والممارسة بأروع صورهما الفنيّة التي تقحم القلوب وتعيش في الوجدان، فعلى المتخصّصين والفنانين أن يقوموا بجهدهم الخاص في حفظ تراث التعبئة بأشكال وزوايا متعدّدة.

يقول الإمام الخامنئي عليه السلام:

«أنا أرى أنّه لم تأخذ هذه المواقف الخالدة لقوّة التعبئة طريقها إلى التحرير والتدوين، فلا زال هناك فراغ كبير ينبغي سدّه بتأليف الكتب ورسم الصور وإنتاج الرسوم والأفلام والمسرحيّات والمعارض وكتابة القصص وغير ذلك من الأعمال الفنيّة.. فتكون في متناول الأشخاص الذين لم يشهدوا عياناً هذه الأمور».

بروحية قويّة فيستسلموا لحيل العدو والشيطان. فالحفاظ على هؤلاء من مسؤوليتكم».

خاتمة: إنّ تشكيلاً دينياً ثقافياً فكرياً يسدّ الفراغات ويبادر لمواجهة التحدّيات قائم على التقوى والورع وحبّ الله والإيثار، حرّي أن يتمنّى كلّ منّا الانتساب إليه وحرّي بالأمة كلّها أن تفتخر به، في أيّ موقع كان، كيف لا وقد تمّنّى الإمام الخامنئي عليه السلام لو أنّه واحد من أفراد التعبئة؟

يقول عليه السلام: «إنّني أفتخر بكوني تعبويّاً وأعلن استعدادي في ضوء ذلك للحضور في أيّ موقع من أجل الدفاع عن الثورة».

ولكن مجرد الفخر لا يكفي، بل لا بدّ من العمل على حفظ أعمال أفراد التعبئة وجهودهم وتضحياتهم، من خلال الأعمال الفنيّة من كتابات وصور وأفلام...

فحفظ هذا التراث، بالإضافة إلى أنّه نوع

النموذج النظري للمقراطية الدينية من وجهة نظر الإمام الخميني عبر التنظير الاستراتيجي للمعطيات الجذرية

بقلم: علي رباني خوراسجاني

أستاذ محاضر في جامعة اصفهان

تعريب: حسن علي مطر

المقدمة

إن الديمقراطية كلمة يونانية مؤلفة من جزئين، وتعني في المجموع سيادة الشعب، حيث تعتبر هذه المرحلة من أهم مراحل الحكم في اليونان، وقد تسلت هذه المفردة إلى اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر للميلاد.

لقد تم تطبيق الديمقراطية كأسلوب للحكم في اليونان ما بين عامي ٥٠٨ إلى ٣٨٨ ق.م. وقد تم إنهاء هذه التجربة الديمقراطية إثر اجتياح اليونان من قبل فليب المقدوني سنة ٣٣٨ ق.م.

٤ - تطبيق مبدأ الحرية من رأس الهرم إلى القاعدة.

٥ - التجلي الاجتماعي للمزيد من الأفراد في إطار الطبقة إلى التشخيص الفردي.

وفي المرحلة الجديدة يطرح أنصار الديمقراطية الحديثة المسائل الآتية:

١ - التأكيد على الدفاع عن الحقوق الفردية للمواطنين.

٢ - أهمية دور العلم والوعي والمعرفة في المشاركة السياسية.

٣ - تقديم الحلول المناسبة في الحد من احتكار الأكتية للسلطة.

٤ - التأكيد على أصالة المنفعة والمصلحة الفردية.

٥ - أهمية الحرية بمعنى عدم ممارسة الضغط على الأفراد أو الدولة للقيام ببعض الأمور الإدارية والاختيارية، ورفض الإكراه والإجبار من الخارج.

فيما يتعلق بالجزور التاريخية للديمقراطية الإسلامية، يجب القول: إن بداية تبلور المجتمع الإسلامي ومدينة النبي قد اقترنت بتبعية المسلمين - رجالاً ونساءً -

وفي عصر النهضة صار المفكرون الأوروبيون بصدد إعادة التجربة اليونانية والرومية فيما يتعلق بتطبيق النظام الديمقراطي.

وفي هذه المرحلة الزمنية تمّ تناول بحث الديمقراطية في حقل الفلسفة السياسية والاجتماعية بوصفها من أرسخ المفاهيم في هذه الدائرة، وغالباً ما يتمّ التركيز والتأكيد في النقاشات والحوارات حول الحياة السياسية والاجتماعية، والتساؤل في هذا الشأن عن هذا النمط من الحياة السياسية والاجتماعية؟ وما هي الصيغة المقبولة منها؟ أو ما هو الشكل الديمقراطي الذي يجب أن ندعو إليه؟

لقد اجتازت الديمقراطية في الغرب مرحلتين، إحداهما: المرحلة التقليدية، والأخرى: المرحلة الحديثة. ومن بين أهم خصائص الديمقراطية التقليدية (القديمة) ما يلي:

١ - المشاركة السياسية المحدودة.

٢ - غياب حق المشاركة السياسية بالنسبة إلى المرأة والمهاجرين والعيبد.

٣ - ممارسة الديمقراطية على شكل هيكلية ومباشر.

بشكل صريح، وإن لم يتحدثوا عن ذلك رسمياً. وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران، تقدم سماحة قائد الثورة الإسلامية آية الله السيد علي الخامنئي بتعريف هذه المفهوم (الديمقراطية الدينية) بشكل صريح؛ إذ يقول:

«إن الديمقراطية الدينية... حقيقة واحدة في صلب النظام الإسلامي؛ لأن النظام إذا أراد اعتماد الدين بوصفه أساساً للسلطة، لا يمكنه أن يقوم بذلك دون مشاركة الأمة والشعب، ثم إن تحقق الدولة الديمقراطية الحقيقية دون التمسك بالدين يُعدّ أمراً مستحيلًا...»^(١).

إن من أبرز المنظرين في حقل الديمقراطية الدينية هو قائد الثورة ومؤسس الجمهورية الإسلامية الإيرانية الإمام السيد روح الله الموسوي الخميني رحمته الله، حيث تعرّض في كلماته وتوجيهاته إلى بحث الديمقراطية الدينية على نحو غير مباشر في الكثير من الأحيان. ولكي نفهم آرائه السياسية، تعرّض في هذه الدراسة إلى بحث عدد من المفاهيم التي تشكل منظومته السياسية.

بيان المسألة

لقد احتدم النقاش والتساؤل بشأن

للنبي الأكرم صلّى الله عليه وآله، مما شكّل تجلياً وتمظهراً جديداً للديمقراطية يقوم على أساس الإسلام وحق مشاركة المرأة والرجل، بيد أن هذا المبدأ الذي يعدّ عنصر قوّة في الإسلام وإيران بعد الإسلام، لم يعمّر طويلاً للأسف الشديد. يبدأ تاريخ بحث الديمقراطية في إيران منذ عصر المشروطة والحراك الدستوري المطالب بالملكية الدستورية.

وقبل ذلك لم يتم التعامل في إيران مع الشعب بوصفه فرداً له الحق في إبداء الرأي، وإنما كان النظام السياسي يقوم على مفهوم الرعية والسلطان الذي يكون قوله قولها وقراره قرارها.

من خلال الرجوع إلى آراء بعض الفلاسفة من أمثال: أبي نصر الفارابي، والخواجة نصير الدين الطوسي، تتضح إلى حدّ ما وجهة نظر المسلمين المتقدمين في خصوص الديمقراطية، حيث نجدهم يمثلون الجانب المؤيد للنظام السياسي للأحرار، ويدعمون قيادة الذين يعترف الناس بشرعيتهم، وهم الذين يتصفون بالناحية الإلهية إلى جانب الوعد بتوفير الحرية للمواطنين. إننا نرى تبلور الديمقراطية الدينية كأسلوب للحكم في توصيف هؤلاء الفلاسفة

أكبر؛ لأن هذا النظام يدعي إقامة «الديمقراطية على أساس الدين».

نسعى في هذا المقال إلى طرح أهم الأسئلة المثارة حول الديمقراطية الدينية، ووضعها على طاول البحث على أساس المنهجية التنظيرية للمعطيات الجوهرية لآراء الإمام الخميني عليه السلام في هذا الشأن. إن هذه الأسئلة والمسائل الأصلية عبارة عن:

- «تناقض» مفهوم الديمقراطية الدينية.

- «معضلة الاستبداد الديني».

- كيفية تطبيق نظام الديمقراطية الدينية بالنظر إلى المتغيرات الزمنية والتحوّلات العلمية.

إن السبب في اختيار رؤية الإمام الخميني عليه السلام بوصفها محوراً لهذه الدراسة، وإجاباته عن هذه المسائل، يعود إلى كونه يمثل أعلى مرجعية علمية في الفقه الشيعي، وتقديمه للرؤية الأساسية القائمة في مرحلتنا على ولاية الفقيه في هذا الشأن.

الأمر الآخر قيامه بتأسيس نظام يقوم على أساس الديمقراطية الدينية، وهو جهد فريد في نوعه في عصرنا الراهن فيما يتعلق بالربط بين الدين والسياسة.

العلاقة بين الدين والسياسة منذ فترة طويلة بين المنظرين والمفكرين في مختلف الحقول، ومنها حقل الدراسات الاجتماعية. والسؤال الرئيس في هذا الشأن يقول: ألا تؤدي سلطة الدين في حقل السياسة وتشكيل الحكومة الدينية إلى تشويه الدين وتقويض دعائمه من حيث التلوث بمقتضيات وأدران السلطة، وإضعاف دعائم الحكم المتمثل بالقانون والعدالة؟

لقد تمخض العصر الحديث في حقل السياسة عن الأنظمة الديمقراطية الغربية، حيث وضعت هذا السؤال نصب عين القرآن بشكل أعمق؛ لأن مشروعية الأنظمة المذكورة قد تمّ تعريفها على أساس آراء الشعب، ورعاية الحقوق والحريات المدنية. وقد أدى هذا الأمر إلى اجترار السؤال القديم حول النسبة والعلاقة القائمة بين الدين والسياسة، وإعادة بلورته في عصرنا وإلباسه حلّة جديدة، وطرحه على النحو الآتي: هل هناك إمكانيّة للتوفيق بين الدين والديمقراطية؟

إن بيان هذه المسألة في إيران، حيث مضى ما يقرب من أربعة عقود على عمر نظام الجمهورية الإسلامية فيها، يحظى بضرورة

غاية التحقيق

إن الغاية الرئيسة لهذه الدراسة تكمن في تدوين نموذج أو مثال نظري للديمقراطية الدينية القائمة على أساس كلمات الإمام الخميني عليه السلام. والهدف المتمم لهذه الدراسة هو تقديم منهج للحكم في ضوء أفكار الإمام الخميني عليه السلام، والتعريف بنموذج للديمقراطية الدينية المتبلورة في أفكار سماحته، بحيث يمكن تطبيق هذا النموذج في المجتمعات الإسلامية الأخرى أيضاً.

إن هذه الدراسة تعمل على تصوير إمكانية فهم الخصائص الدينية في نظام الجمهورية الإسلامية.

الجدور النظرية

نأتي فيما يلي على ذكر آراء مختلف الباحثين في شأن الديمقراطية الدينية. وفي تبويب شامل، يمكن تقسيم المفكرين الغربيين فيما يتعلق بمواقفهم من العلاقة بين الديمقراطية والإسلام إلى قسمين، وهما:

القسم الأول: التقابليون^(٢) أو الذين يعتقدون بأن الديمقراطية والإسلام لا يتماهيان، وعليه لا يمكن الجمع بينهما أو الاعتقاد بهما معاً. إن هؤلاء قد ذهبوا إلى

لقد تم طرح اتجاهين هامين للتحقيق في حقل أسلوب الحكم من وجهة نظر الإمام الخميني عليه السلام، الاتجاه الأول: يتضمّن دراسة عينية وملموسة لنظام الجمهورية الإسلامية بوصفه نظاماً قائماً على آراء الشعب، والاتجاه الثاني: يتضمّن دراسة لأسلوب الحكم في الإسلام من طريق القضايا المرتبطة بالفكر السياسي عند الإمام الخميني عليه السلام. تهدف هذه المقالة إلى توظيف الاتجاه الثاني، وعلى هامشه يتم البحث في آراء المحققين بشأن الديمقراطية الدينية أيضاً. لقد تمّ طرح نظام الجمهورية الإسلامية - على أساس المباني السياسية الاجتماعية لفكر الإمام، وتأثير التعاليم النبوية والعلوية، لغاية تجنب النماذج الاستبدادية - ليكون أساساً ودعامة لتشكيل النظام الديمقراطي الديني في إيران.

بالالتفات إلى الاختلافات الموجودة بين الديمقراطية الدينية والأنواع الأخرى من الديمقراطية، فإن دراسة الطرح العلمي والاستنباط المنهجي لنظرية الإمام الخميني وإظهار عناصر هذا الطرح وتنظيم محتواه لا يخلو من فائدة.

العالم الغربي بأهمية كبيرة، ومن بين أهم مهامها الرئيسة سنّ القوانين والتشريعات. وأما في العقيدة الإسلامية فلا حاجة إلى المؤسسات التشريعية، بعد أن كان التشريع وسنّ القوانين حقاً حصرياً لله سبحانه وتعالى. يذهب برنارد لويس إلى الاعتقاد بأن الأصوليين الإسلاميين يعتبرون الثقافة الأمريكية من أقيح المفاهيم التي تهدد القيم الإسلامية. وقال في ذلك: «إن القرآن يعتبر الشيطان هو العدو الأكبر حيث يوسوس للإنسان ويحاول خديعته، وإن أكبر وسوس وحيل الشيطان للناس تكمن في حرفهم وإبعادهم عن الإيمان الحقيقي. وبهذا المعنى تماماً يذهب [الإمام] الخميني إلى وصف الولايات المتحدة الأمريكية بالشيطان الأكبر. والشيطان هنا بمعنى العدو الذي يهدف إلى إغواء المسلمين والتغريب بهم»^(١٢).

وقد ذهب صموئيل هانتينغتون في موضع من كتابه الشهير (صراع الحضارات)، إلى تعريف الديمقراطية الليبرالية الغربية بوصفها منجزاً فذاً وفريداً من نوعه. وكما هو حال برنارد لويس، فقد ذهب هانتينغتون إلى الاعتقاد بأن مسار الحداثة لا يؤدي بالضرورة إلى الديمقراطية الغربية. وهذا ما نشاهده

الاعتقاد بأن الارتباط بين الديمقراطية والإسلام بجميع أشكاله ليس من نوع الونام، بل هو من نوع التقابل والخصام. يُعد «برنارد لويس»^(٣)، و«صاموئيل هانتينغتون»^(٤)، و«مارتين ليبست»^(٥) من أهم أنصار هذا الاتجاه.

القسم الثاني: التطبيقيون^(٦) أو الذين يعتقدون بإمكان أن يكون هناك نوع من الديمقراطية الإسلامية، وأن الحكومة الديمقراطية لا تتناقض مع الدين الإسلامي. ومن أهم أنصار هذا الاتجاه: «غوردان كرامر»، و«راي تقيّة»^(٧)، و«إدوارد سعيد»^(٨)، و«حامد أَلْجَار»^(٩).

لقد عمد برنارد لويس إلى تقسيم أتباع الإسلام في تبويب عام إلى مجموعتين، وهما: الإسلاميين الأصوليين^(١٠)، والإسلاميين الإصلاحيين^(١١). وقد رأى أن الإمام الخميني والثورة الإسلامية خير مثال على الأصولية الإسلامية. وقد ذهب إلى الاعتقاد بأن الإسلام في الأساس لا يتماهى مع الديمقراطية رغم اشتماله على بعض العناصر المتناغمة معها. ودليله على ذلك عدم الاعتراف رسمياً بالمؤسسات العامة في الإسلام. إن هذه المؤسسات تحظى في

الإسلام المعتدل والإصلاحي يمكنه في المستقبل - من خلال تأسيس الديمقراطية الإسلامية - أن يكون هو البديل عن الحكومات الدكتاتورية والاستبدادية في الشرق الأوسط^(١٦).

وقد تعرّض إدوارد سعيد إلى التغطية الإخبارية والإعلامية لأزمة الرهائن الدبلوماسيين الأمريكيين بعد انتصار الثورة الإسلامية. يرى إدوارد سعيد أن أزمة الرهائن أدت إلى تغيير إطار أمكن من خلاله لوسائل الإعلام الغربية أن تعمل على قبوله الإسلام. لا تعود أهمية نشاط إدوارد سعيد إلى دراسته للعلاقة القائمة بين الديمقراطية والإسلام، بل إلى جهوده في تظهير الاتجاه السلبي للغرب حول الشرق عموماً والبلدان الإسلامية على وجه الخصوص^(١٧).

وأما حامد ألبار فقد عمد إلى تصوير المباني والأسس العرفانية لثورة الإمام الخميني عليه السلام، بعد أن تسلح بفهم عميق لأفكاره. لقد عكف ألبار سنوات طويلة على دراسة الثورة الإسلامية الإيرانية وشخصية الإمام الخميني عليه السلام، وبعد اعتناقه الإسلام والتشيع انخرط في سلك المريدين لسماحته. ومن هنا فإن الارتباط الوثيق بين الدين

بشكل خاص بين الشعوب المسلمة والآسيوية. وقد كتب في ذلك: «إن العودة إلى الدين والثقافة الوطنية والقومية في جميع البلدان الإسلامية تقريباً، تمثل عامل جذب اجتماعي وثقافي وعقلاني لا سبيل إلى اجتنابه»^(١٣).

ويذهب عالم الاجتماع الأمريكي «مارتن ليبست» إلى الاعتقاد بأن البلدان الإسلامية لم تسلك طريقاً يؤدي بها إلى الديمقراطية. وقد كتب في ذلك قائلاً: «إن التنمية الديمقراطية لا مكان لها في البلدان الإسلامية على المدى المنظور على ما يبدو؛ إذ لا موطن في الإسلام لمفاهيم من قبيل: الحرية السياسية»^(١٤).

وفي المقلب الآخر ذهب «غوردان كرامر» - من خلال قراءة أعمال المفكرين المسلمين - إلى نتيجة مفادها أن الشريعة تمثل حجر الأساس في الحكومة الإسلامية، والتي على أساسها يجب على المسلمين - رجالاً ونساءً - أن ينتخبوا حاكمهم، بل يجب عليهم بالإضافة إلى ذلك أن يمارسوا دور الرقابة والإشراف على السلطة والحكم بعد انتخاب الحاكم^(١٥).

وقد ذهب «راي تقيه» إلى الاعتقاد بأن

مسألة المشاركة السياسية للمواطنين في اتخاذ القرارات داخل النظام السياسي. إن أهداف الديمقراطية الدينية باختصار عبارة عن:

١ - إقامة المساواة الاجتماعية والسياسية: بمعنى تساوي وتكافؤ جميع الناس في الفرص الاجتماعية والسياسية.

٢ - نشر ثقافة احترام القانون: إن السيطرة الاجتماعية، وتقبل المسؤولية، والانتخاب المنظم، والانضباط في المجتمع، رهن باحترام القانون.

٣ - التربية والتعليم: بمعنى رفع المستوى العلمي للفرد بما يمكنه من الصمود بوجه التحديات السلبية لهذا القرن.

٤ - حق الناس في تقرير مصيرهم: يصرّح الإمام الخميني في كلماته بأن حق تقرير المصير من الحقوق الأساسية للناس، والذي بمقتضاه يجب على كل أمة أن تعمل على تحديد مصيرها.

ثم استطرد «پور فرد»^(٢٠) متعرّضاً لبحث أربعة نماذج رئيسة مطروحة من قبل الفقهاء في حقل كيفية النظام الديمقراطي، وهي عبارة عن: القائلين بالولاية (الولاية السياسية لبعض الأفراد على بعضهم الآخر)،

والسياسة في فكر الإمام أو ارتباط البعد العرفاني بالبُعد السياسي في شخصية الإمام شديد الوضوح من وجهة نظره^(١٨).

وفيما يلي نستعرض آراء بعض المفكرين في الداخل الإيراني.

يرى «پور فرد»^(١٩) أن هناك بشكل عام اتجاهين هامين فيما يتعلق بالديمقراطية، وهما كالآتي:

الاتجاه الأول: هو الاتجاه الذي يميل نوعاً ما إلى الأنظمة السياسية ونمط رؤيتها في خصوص أساليب ومناهج الحياة السياسية للناس.

الاتجاه الثاني: هو الاتجاه الديمقراطي الذي يستند إلى ركن الفلسفة الاجتماعية والقيم الخاصة التي تفرضها الرؤية الأيديولوجية.

إن أنصار النظام الديمقراطي ليسوا على رأي واحد. ومن هنا فقد اكتسبت الديمقراطية مفهوماً هلامياً، بحيث أخذت تنسجم وتتناغم مع مختلف الأفكار السياسية، الأمر الذي يثبت أن الديمقراطية لا تنطوي على مضمون واحد يتفق عليه الجميع. ولكن يمكن القول مع غض الطرف إن المنظرين متفقون في الحد الأدنى على

بالحقوق الفردية (المدينة والسياسية)، وقلما يتم الاهتمام فيها بالحقوق الاجتماعية وتُعدّ الشعور بالمسؤولية العامة، إذ يتم التركيز في الليبرالية الديمقراطية في الغالب على الحق والحقوق المدنية، من قبيل: حرية التعبير، وحرية المعتقد، وحرية التفكير، والإيمان وإبرام العقود والملكية والتمتع بالعدالة الفردية والحقوق السياسية، وحق الترشح والانتخاب وما إلى ذلك.

وأما في الحكومات الديمقراطية الإسلامية - بالإضافة إلى الاهتمام بدائرة الحقوق المعروفة للأفراد والأبعاد الاجتماعية للحقوق - يتم الاهتمام بتعدد الشعور بالمسؤولية من قبل المواطنين أيضاً. كما يتم فيها لحاظ حقوق الله تعالى أيضاً. وأما في الغرب حيث يتم الفصل بين الدين والسياسة، فلا يتيسر الجمع بين الحقوق الإلهية والإنسانية، وكذلك لا يمكن الجمع بين خصائص أشخاص الحاكمين وأسلوب الحكم بسهولة^(٢١).

وقد تعرّض الأستاذ «نجف لك زائي»^(٢٢) في كتابه (سير تطوّر تفكير سياسي إمام خميني)^(٢٣) - من خلال طرحه السؤال القائل: «ما هو الفكر السياسي للإمام

وينقسم هؤلاء إلى قسمين؛ فمنهم من يوسّع من دائرة الولاية السياسية، ويتم إدراجهم تحت عنوان: أنصار «نموذج الولاية العامة»، ومنهم من يضيّق من دائرة هذه الولاية؛ فيندرجون تحت عنوان: أنصار «نموذج الولاية في الأمور الحسبية». أما الذين يخالفون الولاية، فينقسمون بدورهم إلى قسمين أيضاً: القسم الأول هم الذين يضعون المسؤولية في الأمور السياسية على عاتق المؤمنين العدول، وهم أنصار «نموذج جواز التصرف»، والقسم الثاني هم الذين ينكرون الولاية بالمرّة، فلا يؤمنون بولاية بعض الأشخاص على الناس، وهؤلاء يندرجون تحت عنوان: أنصار «فصل الدين عن الدولة».

يعتبر الأستاذ «عماد أفروغ» من بين المحققين الذين تناولوا خصائص الديمقراطية الدينية في فكر الإمام الخميني عليه السلام بالبحث والدراسة. وقد رأى أن الديمقراطية الدينية شكل من أشكال الديمقراطية، وعمد إلى تقييم واجبات وحقوق الناس في هذا النوع من الحكم. ثم أجرى مقارنة بين الديمقراطية الدينية والليبرالية الديمقراطية، وقال بأن الغالب في الليبرالية الديمقراطية هو الاهتمام

- الخميني؟» - إلى إثبات فرضيته المنشودة، وهي الفرضية التي يقول فيها: «إن فكر الإمام الراحل عليه السلام قد شهد تحوُّلاً قائماً على أصول ثابتة». يرى هذا المحقق والباحث أن التفكير السياسي للمسلمين يشتمل على ثلاثة أقسام، وهي: الفكر السياسي السلطوي، والفكر السياسي الإصلاحي، والفكر السياسي الثوري. ثم عمد إلى إجراء مقارنة بين الاتجاهين الإصلاحي - (المحقق السبزواري)، والثوري - (الإمام الخميني)، وأرجع التفاوت والاختلاف بين هذين الاتجاهين إلى العامل والظروف التاريخية والشرائط الزمانية. إن الفكر السياسي للإمام الخميني يشتمل على مجموعتين من الأصول الثابتة والمتغيِّرة، وإن الأصول الثابتة في الفكر السياسي للإمام الخميني عليه السلام - من وجهة نظر الكاتب - عبار عن:
- ١ - أصل التكليف.
 - ٢ - أصل العدالة.
 - ٣ - أصل التدرُّج.
 - ٤ - أصل الاجتهاد.
 - ٥ - أصل مصلحة الإسلام.
 - ٦ - أصل مصلحة المسلمين.
- ٧ - أصل الدعوة إلى الإسلام ونشره.
- ٨ - أصل نفي السبيل.
- ٩ - أصل تقدّم الأهم على المهم.
- ١٠ - أصل العمل بالقدر المقدور.
- ١١ - أصل ضرورة الحكومة.
- ١٢ - أصل الولاية الإلهية.
- ١٣ - أصل أخذ المقتضيات الزمانية والمكانية بنظر الاعتبار.
- وقد ذهب الأستاذ «نجف لك زائي» إلى القول بإمكانية توضيح التحوُّل في الفكر السياسي لدى الإمام الخميني، من خلال أسلوب الحوار وفهم آلية الاجتهاد في مدرسة أهل البيت وفي الفضاء الحاكم على استنباط الأحكام الإسلامية. وقد ذهب الكاتب بشكل عام إلى القول بأن فكر الإمام قد انتقل بالتدرُّج من التفكير الإصلاحي إلى الفكر الثوري، وهذا هو الذي يشكل نقطة قوَّة الفكر السياسي لدى الإمام الخميني عليه السلام والذي تبلور في بوتقة الإدراك الدقيق للأوضاع والمعرفة الكاملة والتأمّة بالشرائط والإمكانات، ومن خلال الاستعانة بالأصل الحيوي في الفكر الشيعي ونعني بذلك فتح باب الاجتهاد^(٢٤).

الدين، لا أن يتم تغيير الدين على طبق مطالب الناس وأهوائهم.

يذهب آية الله السيد علي الخامنئي^(٢٧) إلى الاعتقاد بأن الشعب يمثل واحداً من الخصائص والشواخص الهامة في الديمقراطية الدينية.

إن الشعب الإيراني يتطلع إلى إقامة الأهداف الإسلامية من (العدالة والمعنوية والحرية والاستقلال). إن اعتقاد الشعب بالدين هو الذي يؤدي إلى تشكيل الحكومة، وإن الشعب ورأيه في الإسلام هو الذي يشكل ركن المشروعية، وأن التقوى والعدالة المنتخبة تشكل الركن الآخر في المشروعية. إن النظام الإسلامي - بالإضافة إلى استناده إلى أبناء الشعب المؤمن - يشتمل على عنصرين أساسيين، وهما: الشعور بالمسؤولية الربانية والإلهية، والهندسة والهيكل الأساسية والمؤسسية للنظام. ويعود بقاء النظام واستمراره إلى كونه إلهياً وقرانياً. وعلى المسؤولين في النظام أن يتصفوا بالوعي والكفاءة السياسية والأخلاقية والاعتقادية، وأن لا يكونوا في سياسات الجمهورية الإسلامية مرتبهين لدى الآخرين أو مؤمنين بأطروحاتهم.

وقد ذهب الأستاذ «وحيدي منش»^(٢٥) في كتابه (مباني مقياسه مردم سالاري ديني ودموكراسي ليبرالي)^(٢٦) إلى الاعتقاد بأن الديمقراطية إذا كانت تعني حكومة الناس على الناس، فإنها بهذا المعنى سوف تتعارض مع الدين. وأما إذا كانت الديمقراطية تعني الحكومة التي تضمن احترام حقوق الناس، ويكون النظام فيها حراً ومناهماً للاستبداد والدكتاتورية، ويكون للناس دور في انتخاب المسؤولين، ويكون النظام فيها شعبياً وفي خدمة الشعب، فهذا النوع من الديمقراطية قابل للاستنباط من التعاليم الإسلامية. وبالتالي فإن هذا الكاتب يرى أن بالإمكان تعريف الديمقراطية الدينية على النحو الآتي: «إن الديمقراطية الدينية حكومة يقوم هيكلها وشكلها التنفيذي على أساس النموذج الديمقراطي، الذي يتم تنظيمه بتدخل مباشر أو غير مباشر من قبل أكثرية أفراد الشعب، ولكنه محاط بالنموذج الديني، وتكون فيه آراء الناس مؤثرة ضمن إطار الشريعة». وعبارة أخرى: إن آراء الناس في الديمقراطية الدينية تقع في طول القانون الإلهي وليس في عرضه. إن الدين في مثل هذه الحكومة يكون هو المحور في الأمور، ويتم توجيه مطالب الناس في إطار مطابقتها لتعاليم

هذا الأسلوب من قبل «دونالد غلاسر» و«ليو شتراوس» سنة ١٩٦٧ م شهد هذا الأسلوب توسعة مستمرة من خلال الأبحاث الكثيرة حول اختلافه وتشابهه مع الأساليب الأخرى. يُضاف إلى ذلك أن الباحثين لم يتعرضوا لاستراتيجية التنظير بشأن المعطيات الجوهرية على وتيرة واحدة. ولا يقتصر هذا التباين والتفاوت على الحقل الأنطولوجي والمعرفي فقط، وإنما يطال حتى الجزئيات والتفاصيل من قبيل: تشفير وتوسيع دائرة المقولات وما إلى ذلك^(٣١).

إن أهمية هذا المنهج والأسلوب تعود من جهة إلى قابليته في التنظير، ومن جهة أخرى إلى إيجاد أرضية لتحليل المعطيات الكيفية^(٣٢).

وفي المجموع عندما يكون هناك علم كمي، أو لا يكون هناك أي علم سابق في الحقل مورد التحقيق، تكون الاستفادة من هذا التنظير الاستراتيجي مجدداً ونافعاً^(٣٣).

لقد سبق أن تمت الاستفادة من هذه الاستراتيجية للوصول إلى المحتوى المنهجي والمنظم لأراء الشخصيات السياسية، من قبل المحققين أيضاً^(٣٤).

تأتي عملية التشفير في هذه المعطيات

إن الديمقراطية الدينية تعني أن الشعب المؤمن يحظى في ظل هذه الديمقراطية بالكرامة، ومن هنا يكون رأيهم معتبراً، ويجب أن يكون ذلك مقروناً بهداية أنوار القرآن والأحكام الإلهية، كي يتربى الناس في إطار تنمية الفضائل الأخلاقية، وأن تأتي مطالبهم المشروعة ضمن هذا الإطار. إن الديمقراطية الدينية تعني الرجوع إلى آراء الناس عند الحاجة والضرورة، وهي من زاوية المنطق والدين مقرونة بالتعهد والالتزام والاستجواب. إن الديمقراطية الدينية مفهوم جديد يتمثل باستناد النظام على دعامة الشعب.

علم المنهج

لقد استفدنا في هذه الدراسة - لاستخراج رؤية الإمام الخميني عليه السلام حول الديمقراطية الدينية - من «مسار البحث التنظيري للمعطيات الجوهرية»^(٢٨). وهو أسلوب في التحقيق العام يعتمد على المنهج الاستقرائي والتفسيري، وقد ابتكره «ليو شتراوس»^(٢٩) و«دونالد غلاسر»^(٣٠) سنة ١٩٦٧ م. وتعود جذور هذا الأسلوب البحثي إلى نظرية التفاعل المتبادل الجذري التي أسسها «بلومر» سنة ١٩٣٧ م. ومنذ إبداع

الإمام للبحث في جميع الكلمات الواردة في جميع مؤلفات الإمام، ودراسة جميع الفقرات والنصوص المشتملة على تعريف الإمام للحكومة أو أيّ مسألة تتناول رؤية الإمام حول الحكومة. وفي التفسير الأولي تمّ إصاق شفرة أولية بها على أساس المفهوم المندرج في العبارات. وفي تفسير المستوى الثاني - أو على حدّ تعبير «تشارماز»: التفسير المرکز^(٣٧) - تم اعتماد تقنية الانتخاب من بين الشيفرات الأولية. إن هذا الأمر يُعدّ من أقوى الأدوات التحليلية في تويب المقولات^(٣٨).

وفيما يتعلق بكل واحدة من هذه الشيفرات تمّ إعداد مذكرة أو شرح أيضاً، وانتقلنا بعد ذلك إلى المرحلة الثانية على أساس أخذ العيّنات النظرية.

وفي مرحلة أخذ العيّنات النظرية تتبعنا أفضل وأشمل شاهد على كل مفهوم في الصحيفة، وقد واصلنا ذلك إلى حدّ الإشباع النظري، بمعنى أننا واصلنا البحث حتى لم يعد بمقدورنا العثور على معلومات جديدة في هذه المعطيات^(٣٩). وفي إطار تلخيص المسائل والإحجام عن تكرار الفاهيم، اكتفينا بذكر نموذج واحد من كلام الإمام تحت عنوان «مذكرة». وفي المرحلة الثانية، تمّ في

من أجل الحصول على المفاهيم، وبمثابة «البحث عن المعادن»^(٣٥) بغية استنباط المعاني. وعلى هذا الأساس يقوم الفرض على اشتغال المعطيات على المفاهيم، وأن مهمة المحقق في البين تتلخص في اكتشاف تلك المفاهيم^(٣٦).

يشتمل تحليل المعطيات في هذا الأسلوب والمنهج على ثلاثة مراحل، وهي: التفسير المفتوح، والتفسير المحوري، والتفسير الانتقائي. حيث تعرّض المقولة الأولى إلى التحليل والمقارنة وتويب المعطيات، وأما المرحلة الثانية فشمّت على بيان العلاقات الاجتماعية القائمة بين المقولات الكلية والجزئية، وتعرّض المرحلة الثالثة إلى إقامة الأسس النظرية للمعطيات الجذرية على أساس ارتباط المقولات المتعددة بالمقولة الأساسية والمركزية. أما المرحلة الغائية في نظرية المعطيات الجذرية فهي الحصول على نموذج نظري من طريق تحليل وتويب المفاهيم والمقولات.

وفي هذه الدراسة تمّ اعتماد مرحلة التفسير المفتوح من طريق انتخاب العبارات. وفي هذه المرحلة تمّ تفسير جميع المعلومات المستحصلة من صحيفة الإمام. ولهذه الغاية تمّ اعتماد برمجة مرنة مناسبة حول صحيفة

السياسي، بيد أنه يرى أن الحكومة تشتمل على الكمال والمسؤولية وأداء واجباتها^(٤٣).

طبقاً لهذا المسلك يكون القيام بجميع أنواع ردود الفعل واجباً على شكل المسؤولية للحصول على السعادة الحقيقية، وأن على الدولة (الحكومة) أن تتكفل بجميع وسائل الهداية إلى السعادة في جميع الشؤون. وإن الولاية والبراءة بالنسبة إلى الحكومة يردان على أساس الوظيفة الحقيقية، وليس مجرد أمر اعتباري.

وإن مسؤولية الحكومة في هذا المسلك أبعد بكثير من مجرد توفير الأمن. وفي هذا المسلك يُمثّل «الحق» محوراً لجميع الأعمال^(٤٤). وعلى هذا الأساس يوجد في نموذج الديمقراطية الدينية سماحة الإمام الخميني عليه السلام نوع من «الديمقراطية التي تتمحور حول الفضيلة والكمال»، وهي التي تشكل الديمقراطية الشعبية.

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التشفير المحوري، عبارة عن: المسؤولية المركزية، والتكليف العام، والتكليف الخاصة بالدولة، والدولة الخادمة والمسؤولة، ومحورية الحق والواجب السياسي.

المجموع خفض الشيفرات إلى سبع مقولات أساسية أو شيفرات محورية^(٤٥) لآراء الإمام حول الديمقراطية الدينية، وقد أفضى ذلك في نهاية المطاف إلى النموذج النظري^(٤٦) لرؤية الإمام في حقل الديمقراطية. يشتمل هذا النموذج على المقولات الأساسية ومقولة مركزية أو شيفرة منتخبة^(٤٧).

نتائج البحث

يتمّ في هذا القسم - المشتغل على تقديم نتائج البحث والمقولات - التعريف بالمقولة المركزية والمقولات الأصلية.

١ - المقولة المركزية للنظام السياسي المسؤول والمتمحور حول الواجبات

تشير الدراسة إلى أن المقولة المركزية في إقامة النظام الديمقراطي الديني - من وجهة نظر الإمام الخميني عليه السلام - تتمثل في العمل بالواجبات وأداء التكليف. تشتمل هذه المقولة على نقطتين أساسيتين، وهما عبارة عن: «محورية العمل» و«أصالة التكليف». إن هذا الرأي - في قبال النظام الليبرالي الديمقراطي الذي يرى الغاية النهائية في الحصول على السلطة والنظام السياسي - يصحح وجوب العمل على إقامة النظام

٢- المقولة الأساسية للقيادة والولاية

يرد السؤال في مقولة «القيادة» على الشكل الآتي: من الذي له الحق في الحاكمية والذي يكون أهلاً لاستلام الحكم والسلطة؟ وما هو الأصل الذي يكون الحاكم على أساسه محقاً في قيادة الناس؟ وما هو مصدر اختصاصه بهذا الحق؟^(٤٥)

يجب على الذي يتربّع على كرسي الحكم الولاية في الفقه الشيعي أن يكون منصوباً من قبل الله. وإن فقهاء الشيعة يضعون الولاية المشروعة في قبال ولاية الجور، ويطلقون عليها مصطلح «الولاية العملية» أيضاً. إن الفقه السياسي لدى الشيعة لا يبحث في أسلوب الحكومة والدولة فقط، وإنما ينظر إلى أداء الحكام أيضاً. إن المسافة بين ولاية العدل وولاية الجور في الفقه الشيعي، لا تتمثل في فاصلة الكل أو لا شيء.

فإن تحدّث الفقهاء في بعض الموارد عن الحرمة الذاتية أو النفسية للولاية، فليس مرادهم نفي أصل الحاكمية والولاية. وقد ذهب الإمام الخميني عليه السلام - على أساس هذه الرؤية - إلى الاعتقاد بالقيادة الولائية، وقال في الجواب عن الإشكال القائل بأن هذه

الرؤية تؤدي إلى الدكتاتورية الدينية: إن الشروط التي يجب أن تتوفر في «الولي الفقيه» تمنع من حدوث مثل هذه المعضلة.

وهناك من المحققين من ذهب - بالنظر إلى رؤية فقهاء الشيعة والإمام الخميني عليه السلام إلى «ولاية الفقيه»، وأنها ليست حاكمية للفرد، وإنما هي حاكمية «قانون الإسلام» - إلى تسميتها بـ «الولاية القانونية». وهناك من عمد إلى تعريفها بـ «الديمقراطية المتمحورة حول الفقه»، وهناك من أطلق عليها مصطلح «ولاية الفقاها والعدالة» أيضاً.

وفيما يتعلق بالإشكالات العلمية المطروحة بشأن القيادة الولائية ولا سيما بالالتفات إلى تبلورها ضمن ولاية الفقيه في نظام الجمهورية الإسلامية، نحتاج إلى المزيد من الدراسة التي لا يستوعبها هذا المقال، وعليه نكتفي هنا بمجرّد الإشارة إلى هذه النقطة، وهي أن قياس نجاعة القيادة الولائية على أساس المعايير العلمية، يمكن له أن يكشف لنا عن حقيقة الأمر بشكل واضح لا لبس فيه^(٤٦).

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التشفير المحوري، عبارة عن: الإلهية (الجعل الإلهي)، والاعتماد على آراء

وطرح رؤية سماحته المقرونة بخلفياتها في المصادر الإسلامية.

إن حقوق الإنسان تشمل على الحقوق الثلاثة الرئيسة، وهي: الحقل السياسي، والحقل الاجتماعي، والحقل الاقتصادي والقضائي. وإن الحقوق السياسية تشمل الأحزاب والجماعات ومجالس الشورى وحق الناس في التصويت. وإن الحقوق المرتبطة بالحقلين الاجتماعي والاقتصادي - تقوم على محور رفاه الأفراد في المجتمع والحريات الفردية والشخصية، والتي تضمن تمتع الأفراد بنعم الحياة في المجتمع، وهي تشمل حق الأفراد في التعلم والحصول على فرص العمل. والحقوق القضائية تشمل الحقوق الخاصة بالمجرمين والمتهمين والسجناء وأصحاب الشكاوى، والحقوق المرتبطة بطريقة تعقب الأشخاص وإلقاء القبض عليهم، والتحقق معهم واستجوابهم وما إلى ذلك من الأمور التي ترتبط بالسلطة القضائية.

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التشفير المحوري عبارة عن: حصول المرأة على حقوقها، وحق الحرية للجميع، والتساوي في الحقوق، ووجود دعامة الحقوق.

الأغلبية، والمساواة مع النبي والإمام في شؤون الحكم، والولاية أمر خطير، وإرشاد البشر.

٣- المقولة الرئيسة لحقوق الناس

إن استقرار النظام السياسي - الاجتماعي يتوقف على رعاية حقوق الناس، وهو الأمر الذي تم التأكيد عليه كثيراً في رؤية الإمام الخميني رحمته الله. وللتعريف على آراء الإمام الراحل رحمته الله في حقل الديمقراطية الدينية، لا بد من التعرف على حقوق الإنسان بشكل أكبر. وإنما تتجلى ضرورة ذلك بشكل أوضح عندما نأخذ بنظر الاعتبار القراءات المختلفة لآراء سماحته حول هذه الموضوعات. ومن ناحية أخرى فإن من شأن الرجوع إلى المصادر الإسلامية أن يساهم في حل المشاكل التي تعترض طريق تفسير وتحليل بعض آراء ونظريات سماحته. وحيث أن سماحته عالم متخصص في الإسلام - قبل أن يكون منظرًا سياسياً - وأن مختلف آرائه السياسية والاجتماعية تقوم على فهمه وتفسيره للمصادر الإسلامية، فإن الذين يمكنهم فهم آرائه بشكل أفضل هم الأقرب إلى هذه المصادر، وعليه من الضروري للعثور على النماذج المذكورة أن نعمل على بيان

٤- المقولة الأصلية للحريات المدنية

تعدّ الحريات المدنية والتنوّع السياسي من المعايير الهامة في الأنظمة الديمقراطية، وهي لأهميتها بوصفها مفهوماً مستقلاً في النموذج النظري للديمقراطية الدينية، تقع في مركز دائرة الاهتمام.

يذهب سماحة السيد الإمام الراحل رحمه الله إلى الاعتقاد بأن الله سبحانه وتعالى قد وهب الحرية للناس، ومن هنا فقد ذهب إلى اعتبارها حقاً طبعياً للناس، ولم يكن يرى معنى للتعبير بمنح الحرية للناس، بل كان يرى في ذلك جريمة؛ إذ قال في هذا الشأن:

«إن عبارة (لقد أعطينا الحرية للناس) تمثل جريمة، فالحرية هي ملك للناس، والقانون هو الذي أقرّ ذلك لهم، وإن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلق الناس أحراراً، وإن الدستور قد أقرّ بهذه الحقيقة»^(٤٧).

لقد كان سماحته يعتبر الحرية حقاً أولياً وطبيعياً للبشر، ويذهب إلى الاعتقاد بأن الحياة وقيمتها رهن بحرية الناس.

لقد كان سماحته يؤمن بالحرية لجميع الناس، ويرى حدود الحرية في إطار قانون الدولة، ويعتقد بأن على جميع الأشخاص في المجتمع أن يلتزموا بالقانون على الصعيد

العملي، ولكن يمكن لهم أن يسجلوا اعتراضهم على مستوى الآراء والأفكار. وعلى هذا الأساس حيث كان سماحته يرى الحرية لجميع الأفراد أياً كان معتقدتهم، يكون هناك معنى لحرية المخالف الديني وغير الديني أيضاً. والملفت للانتباه في تفكير سماحته أنه لم يعمل على تبويب الناس فيما يتعلق بالحريات، ولا نجد له كلاماً يثبت اعتقاده بتقسيم الناس إلى فئات فيما يتعلق بالحريات الاجتماعية، بل على العكس من ذلك يرى الحرية حقاً للجميع، ويرى حدود الحريات متاحة للجميع على نسق واحد.

وبشكل عام فإن الإمام الراحل رحمه الله يضع مفهوم الحرية بشكلها الإيجابي في قبال عدد من المفاهيم السلبية الأخرى، ويؤكد على مواطن اختلافها عن الحرية. حيث يستعمل الإمام الحرية في قبال مفاهيم، من قبيل: «التهتك» و«التأمّر»، وينتقد الحرية «الغريبة» و«الحيوانية».

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التفسير المحوري عبارة عن: الحرية في تحديد المصير، وحرية التفكير، وحرية المرأة، وحرية الإعلام، والحرية في حدود القانون.

٥- المقولة الأصلية لترعة القانونية

إن جوهر رأي الإمام الخميني عليه السلام في حقل القانون هو أنه يرى وجوب أن يكون القانون الإلهي هو الحاكم، وإن قانون الإسلام هو الذي يميّز النظام الديمقراطي الديني من سائر الأنظمة الديمقراطية الأخرى. وقد تحدّث الإمام عن القانون للمرة الأولى في كتاب (كشف الأسرار)، وقال بأن القانون الأجدر بالاتباع هو القانون الممتزج بالإيمان والعقيدة، والذي يرى الناس أن من قام بسنّه وتشريعه هو شخص صالح. وإن جميع الأهداف والغايات الثلاثة، وهي: «النظم» و«العدالة» و«التقدم»، تمثل في رؤية الإمام الخميني أهدافاً للتقنين والتشريع في الدولة الإسلامية.

وفي النظام القائم على أصالة التكليف يوجد هناك قانون، ويكون هذا القانون من باب «جدوائية» مبنى الأعمال، وهو ضروري جداً. وإن على جميع الناس إطاعة القانون من باب التكليف. فإذا كان الشارع هو الذي يحدد هذا التكليف، كان الناس «مكلفين شرعاً» بإطاعة القانون، وهذا الأمر أقوى بكثير من القواعد الأخلاقية، من قبيل: قاعدة الوفاء بالعهود^(٤٨).

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التشفير المحوري عبارة عن: القانون القائم على الشريعة، والقانون الديمقراطي، والدولة (الحكومة)، والقانون، والقانون المتكافئ.

٦- المقولة الأصلية لمعيارية المصلحة

إن للمصلحة والخير العام مكانة مرموقة في الحقوق الإسلامية والفلسفة السياسية. وفي الحقيقة فإن للمصلحة في الأبواب غير العبادية من الدين - من قبيل: الحكم والدعوة والمعاملات والأحكام - دوراً في غاية الأهمية.

وإن تشخيص المصالح يقع على عاتق الولي الفقيه والحاكم الإسلامي. ولا شك في أن لهذا الأمر جذوراً في العقل والشرع. إذ أن من ضروريات اتصاف الحاكم بـ «التدبير» هو القدرة على تشخيص المصالح، وليس هناك من هو أولى من الحاكم في تشخيص المصالح، وإن وجوب أن يكون الحاكم قادراً على تشخيص المصالح لتصريف الأمور بالشكل الأمثل والأحسن، أمر بديهي وعقلي، ومن ناحية أخرى فإن تشخيص المصالح يُعدّ من اللوازم الكبيرة التي تترتب

الحقيقة فقد عمد الإمام الراحل تخويل مجلس الشورى الإسلامي بتشخيص المصلحة، بل وحتى تشخيص الضرورة التي هي من الأحكام الثانوية أيضاً.

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التفسير المحوري عبارة عن: رعاية المصلحة في الأمور والعلاقات، ورعاية المصلحة في اختيار المسؤولين، ورعاية المصلحة في منح الحرية (الحقوق)، وتقديم المصلحة العامة.

٧- المقولية الأصلية للسياسة العالمية

إن الاهتمام بالمسلمين في العالم والأمة الإسلامية بالدرجة الأولى، وجميع المحرومين والمستضعفين في العالم، من الأصول الجوهريّة في الفكر السياسي لسماحة الإمام الخميني عليه السلام، ومن هنا فقد عمدنا إلى بحث هذه المقولة بوصفها مقولة أصلية.

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التفسير المحوري عبارة عن: الحكومة العالمية للإسلام، وسعادة جميع البشر، والدفاع عن المحرومين في العالم، وإحياء الهوية الإسلامية للمسلمين.

على أصل التدبير والتعقل الذي هو من شرائط إمام الجماعة.

وعلى الرغم من عدم اشتغال مؤلفات الإمام الخميني عليه السلام على عنوان محدد ومعيّن باسم مرجعية «تشخيص المصلحة»، إلا أن فحوى كلماته وكذلك سيرته العملية وطريقته في إدارة الدولة، تثبت أن المرجع هو الولي الفقيه المنصوب بالنصب العام من قبل الله سبحانه وتعالى، وهو المكلف بإدارة المجتمع المسلم^(٤٩). ولكن مما لا شك فيه أن الفرد - مهما كان مبلغ ذكائه وعقله - لا يستطيع لوحده إدراك جميع المصالح، ولا يمكنه الإحاطة بجميع المصالح البالغة التعقيد كما هو الحال في عصرنا على سبيل المثال.

لقد ذهب النائيني إلى الاعتقاد بضرورة التشاور في دائرة المباحات - حيث إصدار الأحكام الحكومية من قبل الولي القائد - وإن على القائد أن يستشير الآخرين لمعرفة الصالح وإصدار الأحكام المصلحية، وأن يتخذ من مجلس الشورى الإسلامي ظهيراً له في هذا الشأن. وقد أمضى سماحة الإمام الخميني عليه السلام هذه النظرية من الناحية العملية بعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران. وفي

٨- المقولة الأصلية للدولة والحكومة الإسلامية

إن الهدف من تشكيل النظام السياسي، إقامة الدولة الإسلامية التي تمّ تحديد أوصافها ومعالمها من قبل سماحة الإمام الخميني رحمته الله بشكل واضح. إن الإمام الخميني رحمته الله الذي تمكن من إقامة نظام الديمقراطية الدينية في هذه المرحلة الزمنية وفي إيران الإسلامية، قد أوقف نفسه - طبقاً لما تقتضيه تعاليم القرآن والعتره - على خدمة الناس، بل كان يفضّل تسميته بخادم الشعب بدلاً من وصفه بالقائد؛ لعلمه بأن خدمة الناس شرف كبير. وكان ينصح المسؤولين دائماً بالقيام والسهر على خدمة الناس وتلبية مطالبهم.

إن النظام الإسلامي والحكومة الإسلامية - من وجهة نظر الإمام الخميني - يجب أن تجعل من خدمة الناس هدفاً تضعه نصب أعينها. إن الدولة في الحكومة الإسلامية يجب أن تكون في خدمة الشعب وأن تعمل على تلبية مطالب الناس. ومن هنا يجب على المسؤولين في النظام الإسلامي، وعلى أساس الرؤية الإلهية - والتي على أساسها يرى أفراد المجتمع أنفسهم مكلفين

بالقيام بواجباتهم الدينية - أن ينظروا إلى خدمة المسلمين وعباد الله بوصفها من أهم مسؤولياتهم، لا أن يجعلوا من اللهاث وراء المناصب والعناوين والانخداع بهارج الدنيا الظاهرية والزائفة والعبارة والزائلة غاية مطمح لهم.

إن المقولات الرئيسة لهذا المفهوم على مستوى التفسير المحوري عبارة عن: الدولة الشعبية، والدولة المستقلة، والدولة الديمقراطية، ودولة القيم والأخلاق، والدولة المدافعة عن المصالح الاقتصادية للشعب المحروم (دولة المستضعفين).

وعلى هذا الأساس فإن المقولات الأصلية عبارة عن: «القيادة الولائية»، و«دولة القانون»، و«الدولة الإسلامية»، و«حقوق الإنسان»، و«الحريات المدنية»، و«السياسة العالمية»، و«معيارية المصلحة».

الاستنتاج

لقد تناولنا في هذا المقال دراسة الفكر السياسي للإمام الخميني رحمته الله في خصوص الديمقراطية الدينية بالبحث والتحليل، وتم التعريف بالمقولات والمفاهيم الأصلية في هذا الشأن. وطبقاً للنتائج الحاصلة من هذا

إيران قد بلغت مرحلة من الازدهار والنمو بحيث يمكن اعتبارها مدخلاً جديداً لنمذجة وإكمال الحياة الحضارية الإسلامية.

لقد جاء سماحة الإمام الخميني رحمته الله - بوصفه قائد الثورة - بالكثير من الأفكار والنظريات المختلفة في المسائل الاقتصادية والثقافية والصناعية والحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي. وأهم صفة تميّز بها سماحته هي قيادة الثورة الإسلامية، وتبلور هذه الثورة على شكل دولة إسلامية.

لقد كان سماحة الإمام الخميني رحمته الله في الحقيقة تجلياً ومظهرراً للعودة إلى الذات وجوهر القداسة الدينية والتفكير الديني. وقد كان هذا هو الهدف الأساسي والرئيس لسماحة الإمام الخميني رحمته الله بوصفه نتيجة لتشخيص ومعرفة ثابتة، يمكن على أساسها حل جميع المشاكل المعاصرة. وقد كان لدى سماحة الإمام الخميني رحمته الله - بوصفه قائد الثورة - الكثير من الأفكار والنظريات المختلفة في المسائل الاقتصادية والثقافية والصناعية والحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي.

وعلى هذا الأساس كانت الديمقراطية الدينية نمطاً جديداً من الأنظمة السياسية في

التحليل فإن النظام السياسي القائم على الواجبات والحقوق يمثل المقولة المركزية والإطار الأساسي لنظرية الديمقراطية الدينية القائمة على فكر ومنهج الإمام الخميني رحمته الله في الحكم وإدارة الدولة، وخير ما يعكس الوجه الذي يميّز الديمقراطية الدينية من سائر أنواع الديمقراطيات الأخرى. وفي هذه الرؤية سوف تتحقق الديمقراطية الدينية عبر إقامة نظام سياسي يدور حول محور الواجبات والحقوق.

لو تمّ أخذ القيم والتعاليم الدينية بوصفها شكلاً من أشكال الحكم أو أسلوباً من أساليب الحاكمية، لن يكون هناك تضاد بين الديمقراطية والدين، وسوف يعمل الناس على التوفيق بين مطالبهم وبين الأحكام الإلهية، وأن تدخلهم سوف يكون مقيّداً بالإطار الديني.

إن الموجة الجديدة من الصحوة الإسلامية التي بدأت منذ أواخر عام ٢٠١٠م، قد أثبتت أن الذي تحتاجه الأمة الإسلامية حالياً أكثر من أي شيء آخر، هو الحصول على نموذج للحكومة الإسلامية يسعى إلى تطبيق العدالة والتقدم على أساس الإسلام. هذا في حين أن الديمقراطية الدينية في

الذي يلي مطالب الناس دون امتنان عليهم، وعليه فإن المسؤولين في النظام الإسلامي حتى إذا قاموا بخدمة الشعب على أحسن وجه، ولكنهم إذا أحببوا خدمتهم بالمن، فإن ذلك سيثبت أنهم لم يدركوا حقيقة الديمقراطية الدينية.

وهذا التعبير أعلاه يدل على أن الناس هم «أولياء النعمة» على المسؤول، وأن حق الناس هو المتقدم بالقياس إلى حق المسؤولين. وعلى هذا الأساس تكون تلبية مطالب الناس والاهتمام بمشاكلهم واجباً على المسؤول وليس تشريعاً وامتيازاً له. إن الديمقراطية الدينية بهذا المعنى تدل على أن الشعب هو «صاحب الحق»، وأن على النظام واجب القيام بتلبية حقوق الناس، وإلا سيكون مسؤولاً أمام الشعب وأمام الله سبحانه وتعالى. وقد بلغت أهمية هذه «الخدمة» حداً عبر سماحة القائد المعظم عنها بأنها بمنزلة «العبادة»، وإن على الحكومة أن تحشد كل طاقاتها من أجل القيام بهذه الخدمة.

وحيث كان قوام الأمور والتلاحم الوطني رهناً باحترام القوانين ورعاية حدود التشريعات، لا يمكن تعريف الديمقراطية

العالم، حيث تبلورت على أساس المباني السياسية للإسلام، بتأثير من التعاليم النبوية والعلوية، ضماناً لحقوق الناس في حقل السياسة وإدارة المجتمع وتجنب النماذج الاستبدادية في الحكم، مع رعاية الأصول والمباني الأخلاقية، والعمل بذلك على تمييز النظام الإسلامي من النماذج العلمانية الغربية. وعلى هذا الأساس ظهر على مدى العقود الثلاثة الأخيرة نمط جديد من الحكومة الإسلامية، بعيداً عن سائر الأنظمة الاستبدادية والليبرالية. وقد عبّر سماحة آية الله السيد علي الخامنئي عن هذا الأسلوب الحكومي بمصطلح «الديمقراطية الدينية»، واعتبره بمنزلة النظرية والأسلوب في إدارة المجتمع الإسلامي على أساس الأصول والمبادئ التي ورد ذكرها بكثرة في كلمات سماحة الإمام الخميني رحمته الله وسماحة قائد الثورة الإسلامية.

وعلى أساس نظرية الديمقراطية الدينية، لا يجب على المسؤولين في النظام الإسلامي تلبية مطالب الشعب فقط، وإنما عليهم بالإضافة إلى ذلك أن يقوموا بذلك دون منة منهم على الناس. وبعبارة أخرى: إن النظام القائم على الديمقراطية الدينية هو

الزاوية يكون الجميع ملزماً بتطبيق الأصول والقواعد القانونية التي تمت المصادقة عليها من قبل الممثلين عن الشعب، وتمّ تأييدها وإمضاؤها من قبل الشارع المقدّس. كما تناول هذا المقال المفاهيم الرئيسة لهذا النظام من وجهة نظر سماحة الإمام الخميني رحمته الله.

بحيث تؤدي إلى نقض القانون والإطار الرئيس للنظام. وعلى هذه الشاكلة يتمّ التأكيد على أحد الأصول الهامة في «الديمقراطية»، ونعني بذلك رعاية القانون في مختلف وجوهه الأعم من تنظيم العلاقات المتبادلة بين الناس والعلاقة القائمة بين الشعب والحكام. ومن هذه

الهوامش:

(١) آية الله السيد علي الخامنئي، من كلمة له في لقائه بالشورى العامة لمكتب تعزيز أواصر الوحدة، بتاريخ: ١٣ / ١٠ / ١٣٧٩ هـ ش. www.khamenei.ir (مصدر فارسي).

(٢) Confrontationalists.

(٣) برنارد لويس (١٩١٦ - ٢٠١٨ م): أستاذ فخري بريطاني - أمريكي لدراسات الشرق الأوسط في جامعة برنستون. متخصص في تاريخ الإسلام والتفاعل بين الإسلام والغرب، تشتهر أعماله بشكل خاص حول تاريخ الدولة العثمانية. سعى الكثير من أصحاب القرار السياسي في الولايات المتحدة الأمريكية، ولا سيما منهم المحافظون الجدد من أمثال (جورج دبليو بوش) إلى الحصول على استشاراتهم. المرّب.

(٤) صاموئيل فيليبس هاتينغتون (١٩٢٧ - ٢٠٠٨ م): سياسي أمريكي، بروفيسور في جامعة هارفارد على مدى ٥٨ عاماً. مفكر محافظ، تصفه جامعة هارفارد بمعلم جيل من العلماء في مجالات متباينة على نطاق واسع، وأحد أكثر علماء السياسة تأثيراً في النصف الثاني من القرن العشرين للميلاد. من أشهر أعماله: (صراع الحضارات). عمل محططاً أميناً في إدارة الرئيس الأمريكي (جيمي كارتر)، وشارك في تأسيس مجلة فورن بوليسي. ترأس عدّة مراكز دراسات بحثية. كان ديمقراطياً وعمل مستشاراً لنائب الرئيس (ليندون جونسون). المرّب.

(٥) سيمور مارتن لبيست (١٩٢٢ - ٢٠٠٦ م): عالم اجتماع سياسي أمريكي. زميل متميّز في معهد هوفر في جامعة ستانفورد، كما كان أستاذاً في السياسة العامة في جامعة جورج ميسن. يتمثل عمل لبيست الرئيس في مجالات علم الاجتماع السياسي والتنظيم النقابي والتقسيم الطبقي الاجتماعي والرأي العام وعلم اجتماع الحياة الفكرية. كما كتب بإسهاب عن شروط الديمقراطية من منظور مقارن. المرّب.

(٦) Accommodationists.

(٧) راي تقيّة (١٩٦٦ - ٤ م): باحث إيراني - أمريكي في شؤون الشرق الأوسط. ولد في طهران، وحاز على

شهادة الدكتوراه من جامعة أوكسفورد في عام ١٩٩٧ م. المرّب.

(٨) إدوارد وديع سعيد (١٩٣٥ - ٢٠٠٣ م): منظر أدبي فلسطيني حامل للجنسية الأمريكية. كان أستاذاً جامعياً للغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة الأمريكية. من الشخصيات المؤسسة لدراسات ما بعد الكولونيالية. كما كان مدافعاً عن حقوق الإنسان للشعب الفلسطيني. من أشهر كتبه (الاستشراق). وقد ربط الدراسات الاستشراقية بالمجتمعات الإمبريالية واعتبرها منتجاً لتلك المجتمعات. مما جعل من أعمال الاستشراق عملاً سياسياً في جوهرها وخاضعة للسلطة، ولذلك فقد شكك في مصداقيتها ونزاهة نواياها. وقد أثارت أطروحته اختلاف العديد معه، ومن بينهم برنارد لويس. ظل إدوارد سعيد نشطاً حتى آخر حياته، وتوفي بعد صراع طويل مع اللوكيميا سنة ٢٠٠٣ م عن عمر ناهز الثامنة والستين عاماً. المرّب.

(٩) حامد أجار (١٩٤٠ م): أستاذ الدراسات الإسلامية واللغة الفارسية في جامعة كاليفورنيا. حاصل على شهادة الدكتوراه من جامعة كمبرج، والدكتوراه الفخرية من جامعة طهران، وقد كتب مئة مقالة في موسوعة إيرانيكا. ولد أجار في إنجلترا، ثم اعتنق الإسلام على منهج التشيع الإمامي. ترجم الكثير من أعمال المفكرين السياسيين المعاصرين، ومن بينها كتاب (ولاية الفقيه) للسيد الإمام الخميني، وكذلك بعض مؤلفات الدكتور علي شريعتي، والشهيد الشيخ مرتضى المطهري، والسيد محمود الطالقاني. المرّب.

(١٠) Islamic fundamentalists.

(١١) Islamic reformers.

(١٢) Lewis, Bernard ١٩٩٣, Islam and Liberal Democracy, The Atlantic Monthly, ٢٧١(٢): ٨٩-٩٩. p. ٩١

(١٣) Huntington, Samuel, ١٩٩٦, The West Unique, Not Universal, Foreign Affairs, ٧٥(٦): ٢٨-٤٦. p. ٣٧

(١٤) Lipset, Martin, ١٩٩٣, The Social Requisites of Democracy Revisited, American Sociological Review, ٥٩(١), ١-٢٢. p. ٥

(١٥) Kramer, Gurdun, ١٩٩٣, Islamist Notions of Democracy, Middle East Report, ١٨٣, ٢- ٨

(١٦) Takeyh, Ray, ٢٠٠١, Faith - Based Initiatives: Can Islam bring democracy to the Middle East/ Foreign Policy: ٦٧- ٧٠

(١٧) Said, E. W, ١٩٩٧, Covering Islam: How the media and the experts determine how we see the rest of the world, New York, pantheon.

(١٨) Algar, Hamid, ٢٠٠٨, ECHO, ٢١٤, Retrieved from <http://www.itf.org.ir/MagPdfFiles/echo٢١٤.pd> in November. ٢٢

(١٩) انظر: پور فرد، مسعود، مردم سالاري ديني (الديمقراطية الدينية)، پژوهشگاه علوم و فرهنگ اسلامي، قم، ١٣٨٤ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٠) انظر: المصدر أعلاه.

(٢١) أفروغ، عماد، رابطه دين ودموکراسي (العلاقة بين الدين والديمقراطية)، صحيفة: قدس، عام ١٣٧٩ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٢) انظر: لك زائي، نجف، سير تطوّر تفکر سياسي إمام خميني (مسار التطوّر في الفكر السياسي للإمام الخميني)، سازمان انتشارات پژوهشگاه فرهنگ واندیشه اسلامي، طهران، ١٣٨٤ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٣) مسار التطوّر في الفكر السياسي للإمام الخميني.

(٢٤) انظر: لك زائي، نجف، سير تطوّر تفکر سياسي إمام خميني (مسار التطوّر في الفكر السياسي للإمام الخميني)، ١٣٨٤ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٥) انظر: وحيد منشي، مباني مقايسه مردم سالاري ديني ودموکراسي ليبرالي (أسس المقارنة بين الديمقراطية الدينية والديمقراطية الليبرالية)، ١٣٨٤ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٦) أسس المقارنة بين الديمقراطية الدينية والديمقراطية الليبرالية.

(٢٧) انظر: علي الخانمئي، مردم سالاري ديني (الديمقراطية الدينية)، مستندات مردم سالاري ديني از ديدگاه مقام معظم رهبري (وثائق الديمقراطية الدينية من وجهة نظر سماحة قائد الثورة)، ص ١٤٩ - ٢٥٣، سروش، طهران، ١٣٨٨ هـ.ش. (مصدر فارسي).

(٢٨) Grounded Theory Approach.

(٢٩) ليو شتراوس (١٨٩٩ - ١٩٧٣ م): فيلسوف أمريكي يهودي من أصل ألماني. يعدّه البعض الملهم لأيدولوجيا المحافظين الجدد التي تسود حالياً داخل الحزب الجمهوري الأمريكي. عاش في عزلة طويلة، وكان يعلن بصراحة شديدة كراهيته للديمقراطية الليبرالية. المغرب.

(٣٠) دونالد آرثر غلاسر (١٩٢٦ - ؟ م): عالم فيزياء أمريكي. حاز على جائزة نوبل للفيزياء عام ١٩٦٠ م. وحاز على جائزة عن اختراعه لغرفة الفقائيع التي يمكن من خلالها مشاهدة وتصوير مسارات الجسيمات النووية المشحونة في السوائل ودراسة تفاعلاتها مع ذرات السائل. المغرب.

(٣١) Urquhart, Cathy, ٢٠١٣, Grounded Theory for Qualitative Research: A practical Guide U. K. Sage publications, p. ١٩٢-١٩٣

(٣٢) انظر: إيمان، محمد تقى، مباني پاراديمي روشهاي تحقيق كمي وكيفي در علوم إنساني (المباني المنهجية

- لأساليب التحقيق الكمي والكمي في العلوم الإنسانية)، ص ٣٣١، پژوهشگاه حوزه و دانشگاه، طهران، ١٣٨٨ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٣٣) See: Cribich, Cavel. ٢٠٠٧. Qualitative Data analysis: an Introdushion, ٧٠ London: sage. p.
- وانظر أيضاً: فراستخواه، مقصود، روش تحقیق کیفی در علوم اجتماعی با تأکید بر (نظریه بر پایه) (أسلوب التحقيق الكيفي في العلوم الاجتماعية من خلال التأكيد على النظرية الجذرية)، ص ٨٨ - ٩٣، گراندد تئوري، نشر آگاه، طهران، ١٣٩٥ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٣٤) Urquhart, Cathy, ٢٠١٣. Grounded Theory for Qualitative Research: A practical Guide U. K. Sage publications. p. ١٩٢-١٩: ٧٩-٨١: ١١٨-١١٦ Mining. (٣٥)
- (٣٦) See: Corbin, Juliet. & Anselm Strauss, ٢٠٠٨. Basic of Qualitative Research: techniques and Procedures for Developing Grounded Theory, London: sage. p. ٦٦
- وانظر أيضاً: فراستخواه، مقصود، روش تحقیق کیفی در علوم اجتماعی با تأکید بر (نظریه بر پایه) (أسلوب التحقيق الكيفي في العلوم الاجتماعية من خلال التأكيد على النظرية الجذرية)، ص ١٢٠، گراندد تئوري، ١٣٩٥ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٣٧) Focused coding.
- (٣٨) See: Charmaz, Cathy, ٢٠١٤. Constructing Grounded theory ٢nd Edition, London: sage. p. ١٣٨
- (٣٩) للمزيد من المعلومات، انظر: شتراوس، وأنسلم، وجوليت كوربن، أصول روش تحقیق کیفی، نظریه مبنايي: رویه ها و روشها (قواعد أسلوب التحقيق الكيفي للنظرية المبنائية: الاتجاهات والمباني)، ص ١٨٧، پژوهشگاه علوم انساني ومطالعات فرهنگي، طهران، ١٣٨٨ هـ ش؛ فيلك آفيه، روش تحقیق کیفی (أسلوب التحقيق الكيفي)، ترجمه إلى اللغة الفارسية: هادي جليلي، ص ٨٧ - ٩٢، نشرني، طهران، ١٣٨٢ هـ ش.
- (٤٠) Axial code.
- (٤١) Theoretical Model.
- (٤٢) Selective code.
- (٤٣) انظر: لاريجاني، محمد جواد، جريان شناسي اصلاحات (معرفة التيارات الإصلاحية)، مجلة: كتاب نقد.

- العدد: ١٦، ص ١٣٨ - ١٤٢، ص ١٢، و ٢٠ و ٦٦ و ٩٣، ١٣٧٩ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٤٤) انظر: لاريجاني، محمد جواد، كاوشهاي نظري در سياست خارجي (الأبحاث النظرية في السياسة الخارجية)، ص ٢٦١ - ٢٦٢، شركة انتشارات علمي وفرهنگي، طهران، ١٣٧٤ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٤٥) انظر: مزيناني، محمد صادق، حكومت ومشروعيت در قراءت شهيد مطهري در جمعي از نويسندگان مجله حوزة، طلايه دار صبح: برگي از اندیشه هاي زلال شهيد مطهري در كارنامه مجله حوزة، ص ٥٥٢، بوستان كتاب، قم، ١٣٨٣ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٤٦) انظر: ذو علم، علي، تجربه كارمدي حكومت ولايي (تجربة جدوائية الحكومة الولائية) پژوهشگاه فرهنگ واندیشه اسلامي، طهران، ١٣٨٨ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٤٧) الإمام الخميني، روح الله، صحيفه نور (صحيفة النور)، ج ٢، ص ٦٧.
- (٤٨) انظر: لاريجاني، محمد جواد، حكومت، مباحثي در مشروعيت وكارآمدي (الدولة: أبحاث في المشروعية والجدوائية)، ص ٢٥ - ٢٦، سروش، طهران، ١٣٧٣ هـ ش. (مصدر فارسي).
- (٤٩) انظر: تقوي، سيد محمد ناصر، حكومت ومصلحت (الدولة والمصلحة)، ص ١٥٠، طهران، أمير كبير، ١٣٧٨ هـ ش. (مصدر فارسي).

دور الإمام السيستاني في وأد الفتنة الطائفية في العراق ومقاومة الاحتلال ٢٠٠٤ - ٢٠١٠م

د. علي أبو الخير

كاتب وأستاذ جامعي / مصر

مقدمة

إن دور آية الله العظمى السيد علي السيستاني في كبح جماح الفتنة الطائفية في العراق بعد الاحتلال الأمريكي لأرض الرافدين هو دور رسالي في المقام الأول، وهو دور إسلامي محمدي يحاول الكثيرون من المنتسبين للإسلام من التكفيريين التغطية عليه أو تشويهه لخدمة أغراضهم المذهبية الضيقة، خاصة إذا علمنا أن هؤلاء التكفيريين هم الذين يؤججون نيران وفتن الصراع الطائفي الذي كانوا يريدون أن ينشروه في العراق ثم تفزيع المسلمين في العالم من التشيع لأهل بيت رسول الله الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم منه تطهيراً، ولكن السيد وضع الأمور في نصابها ولم ينجر معهم للفتنة التي كانوا يريدون أن يصبغوها بدماء المسلمين من الشيعة والسنة على السواء، فقد قتلوا السيد محمد باقر الحكيم وهدموا قبة الإمامين

الأمة حتى لو وقع الظلم على الشيعة خاصة، وذلك ما قام به سماحة السيد علي السيستاني رحمته الله، وهو الموقف الذي أشاد به المنصفون من علماء أهل السنة؛ لأنهم رأوا أن الأكثرية الشيعية في العراق لم تتأر لما يحدث لها من قتل وتزييف للحقائق، ومن ثم حق لصحفي سعودي أن يشيد بالسيد وبدوره الذي وأد الفتنة في مهدها فقال ^(١) : إن المرجع الديني آية الله العظمى السيد علي السيستاني رحمته الله، ورغم كل الجرائم التي اقترفت تحت يافطة الإسلام والسنة في العراق وقف بوجه عمليات الأخذ بالثأر من قبل الشيعة ليحول دون غوص العراق في بركة من الدماء، ولو كان آية الله السيستاني يحذو حذو المتشددين من السلفية وبفتي بقتل السنة فما كان يحدث؟! أليس بإمكان شخص من الشيعة تفجير سيارة مفخخة أمام مسجد للسنة في يوم الجمعة ويقتل بعض الأشخاص؟ هل بإمكاننا أن نتصور نجاحا لهذه المجازر التي تطال العراقيين على أيدي هؤلاء المتشددين؟

إن الشخص الوحيد الذي بعث الهدوء في صفوف الشيعة هو سماحة آية الله السيد السيستاني، ولذلك ألا يجدر بان يتوجه شيخ الأزهر ومفتي الديار العربية السعودية والشيخ

العسكريين، وقتوا الشيعة في الكاظمية وفي الحلة وبغداد وغيرها من أرض العراق، كما قتلوا أهل التصوف في مسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني وقتلوا المسيحيين واليزيديين، هؤلاء هم التكفيريون الذين أردوا الكيد للإسلام باسم الإسلام، والإسلام منهم براء، وأرادوا النيل من المخالفين لهم في المذهب من كل المسلمين من الشيعة والسنة، وغير المسلمين من المسيحيين واليزيديين والصابئة، وحاولوا تفزيع المسلمين من الشيعة والتشيع، واستغلوا أقوال بعض الساسة العرب عن خطر الهلال الشيعي، أو أن ولاء الشيعة لإيران دون أوطانهم، أو فتاوى شيوخهم التي تحرض على قتل الشيعة، أو أقوال شيخ كبير مثل الدكتور يوسف القرضاوي الذي يدعي أن الشيعة يروجون لمذهبهم في البلاد السننية الخالصة كما يزعمون، وكلها أقوال باطلة، ولكن اتخذ منها التكفيريون دليلا عن صحة ما يزعمون، ثم يقتلون ويزيفون الحقائق، وفي ظل تلك الفتن المظلمة كقطع الليل المظلم كان موقف السيد السيستاني موقفا رساليا ثابتا، وهو الموقف الذي اتخذته أئمة أهل البيت طوال تاريخ المسلمين، ثورة ومقاومة للظلم والاستبداد والاحتلال، وحرص على وحدة

موقف الكثيرين الذين يخشون على أنفسهم من بطش التكفيريين فلا يعلنون توافقهم على أن سماحة السيد له الدور الرائد في كبح الفتنة، وأيضا مقاومة الاحتلال في آن واحد، ولكن الأبواق الأخرى السياسية والتكفيرية تضيّع مثل هذه الأصوات، وتحاول التعمية على موقف سماحته، وتدّعي ليس على موقفه فقط، ولكن على موقف حوزة النجف الأشرف برمتها، رغم أن الحوزة النجفية هي أول من يخاصم الظلم ويحاربه، ومن النجف الأشرف خرجت ثورة العشرين الكبرى ضد الاحتلال الإنجليزي، ومن حوزة النجف خرجت الفتاوى التي ناصرت المسلمين جميعا ضد الاحتلال في الجزائر وفلسطين وإيران وإريتريا ومصر أثناء العدوان الثلاثي وغيرها من دول الإسلام، وموقف سماحة السيد هو نفس الموقف الذي لا يعود للعصر الحديث فقط، بل هو الموقف الذي قامت عليه فكرة التشيع لأهل البيت، ومن ثم فهو موقف الرسول الأعظم ﷺ وموقف الأئمة من أهل بيته الكريم.

ولذا فإن هذه الدراسة تكشف موقف سماحة السيد الرسالي من منطلق الحرص على وحدة الأمة ليس داخل العراق فقط، بل

القرضاوي والآخرين إلى النجف الأشرف لتقبيل أيدي سماحته؟ إن الكاتب الأمريكي الشهير (توماس فريدمن) أعلن من قبل أن آية الله السيد السيستاني جدير بإحراز جائزة نوبل للسلام، مستدلا في هذا المجال بأن سماحته اضطلع بدور هام وأساسي في إجراء أول انتخابات حرة في العراق، كما كان متيقظا أمام المؤامرات الرامية لتأجيل الانتخابات في هذا البلد، وإنني - والكلام لجمال خاشقجي - لا أرحب باقتراح (فريدمن) فحسب بل سأرشح المرجع السيستاني لإحراز جائزة (الدعوة للتضامن الإسلامي) التي خصصها الملك فيصل لمن يخدم الإسلام، خاصة وأن الأدلة التي طرحتها أنا - الحديث لخاشقجي - لجدارة آية الله السيستاني تختلف عن الأسباب التي قدمها (فريدمن) والآخرين واعتقد أن أدلتي هي الأهم.

إن سماحته بذل جهودا واسعة للحيلولة دون إشعال فتيل الحرب بين الشيعة والسنة في العراق، كما أنه دعا الشيعة إلى التعاطي مع السلفيين والسنة انطلاقا من المنطق والعقل والصبر...

هذا رأي منصف لسماحة السيد، وهو

د. علي أبو الخير □

سماحة السيد السيستاني وموقفه من الطغاة والاحتلال، ثم موقفه من الوضع الطائفي في العراق ودوره في وأد الفتنة المذهبية.

في كل العالم، ومقاومة الاحتلال أيضا، ولذا تنقسم الدراسة إلى ثلاثة مباحث هي: وحدة الأمة في ميراث أهل البيت ودور النجف الأشرف في وحدة المسلمين، ثم سيرة

المبحث الأول

وحدة الأمة في ميراث أهل البيت عليهم السلام

إن الخلفية الدينية الرسالية لسماحة السيد علي السيستاني تعود لتراث أهل البيت عليهم السلام، وهو التراث الذي يحرص على وحدة الأمة، والثورة ضد الظلم في آن واحد، وإن حدث أن وحدة الأمة تعارضت مع أحقية أهل البيت، فإنهم يقدمون الوحدة على حقهم خاصة، وعندما نقرأ سيرة الإمام علي سنجد أن حياته كلها كانت عطاء متواصلًا من أجل خدمة قضايا أمته، ونشر رسالة الإسلام إلى العالم، والتضحية بمصالحه الشخصية من أجل مصالح الأمة، والصبر على الجراح والمعاناة من أجل إسعاد الآخرين؛ بل والتنازل عما يراه حقه في الحكم والخلافة من أجل حفظ وحدة المسلمين، وتقوية الإسلام؛ وهذا هو من أعظم العطاء. كان الإمام علي يقول للناس: «اتَّقُوا اللَّهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلَادِهِ فَإِنَّكُمْ مَسْئُولُونَ حَتَّىٰ عَنِ الْبِقَاعِ وَالْبَهَائِمِ»^(٢)، إن الخلافة - عند الإمام علي - لم تكن قضيه أساسية، بحيث يجمد حياته إن لم يحصل عليها، لأن التطلع للمناصب يمكن أن يخالج نفوسنا نحن، فإذا لم نحصل على ذلك المنصب أو الموقع نشعر وكأننا فقدنا دورنا في هذه الحياة، لذلك نجد بعضنا ينكفي على نفسه، ويشعر بالأسى لفقدانه منصبًا كان يتطلع إليه، أو موقعًا كان يحتله، لكن علي بن أبي طالب لم يكن هكذا، لأن الخلافة لم تكن في يومٍ من الأيام غاية مطمحه.

يقول عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ دَخَلْتُ عَلَىٰ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ بِذِي قَارٍ وَهُوَ يَخْصِفُ نَعْلَهُ، فَقَالَ لِي: «مَا قِيمَةُ هَذَا النَّعْلِ؟» فَقُلْتُ: «لَا قِيمَةَ لَهَا»، فَقَالَ: «وَاللَّهِ لِيَهِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَمْرِنَا إِلَّا أَنْ أُقِيمَ حَقًّا أَوْ أُدْفَعَ بَاطِلًا»^(٣).

الحق في الخلافة والإمامة، فكان مع الخلفاء ومع الأمة، يحضر المسجد، ويشارك في صلاة الجماعة، يُسْتَشَارُ ويشير فيعطي رأيه، وينقذ الأمة، ويساعد الخلفاء في مواقف كثيرة.

فهناك أكثر من تسعين موردًا في قضايا عسكرية واقتصادية وسياسية ودينية استشار فيها الخليفة عمر الإمام علياً وأخذ برأيه، ولذلك نتساءل: كيف كان يستشير علي بن أبي طالب إن لم يكن يثق بعلي ويطمئن إلى رأيه؟ فعلي ما كان ينظر إلى الخلفاء كأعداء يكيد لهم ويسعى للانتقام منهم، وهم في المقابل كانوا ينظرون لعلي كمعين ومساعد فيما هو لمصلحة الأمة والدين، وإلا لو كان عمر وأبو بكر ينظران لعلي كعدو لما رجعا إليه ووثقا برأيه، والإمام علي - في المقابل - ما كان يتعامل من موقع العداوة الشخصية، وإنما كان يخصهم بالنصيحة ويشير عليهم بما ينفع الأمة وكيان المسلمين آنذاك، حتى أُثِرَ عن الخليفة عمر أنه كان يتعوذ بالله من معضلة ليس لها أبو الحسن علي، وكان عمر يقول لعلي إذا سأله ففرج عنه، لا أبقاني الله بعدك يا علي، وقال لعلي وقد سأله عن شيء فأجابته: أعوذ بالله أن أعيش في يوم لست

إننا عندما نعرف نظرة الإمام علي لقيمة هذه المناصب، لا يمكننا أن نحصر حياته بين وفاة الرسول وتسلمه الخلافة بأنها عبارة عن حياة عزلة وألم.

إن الدور الذي قام به الإمام علي بعد وفاة رسول الله هو من أهم تجليات إخلاصه لمصلحة الدين والأمة، وسمو نفسه عن تأثير العواطف والمصالح الشخصية الذاتية.

لقد حفظ الإمام وحدة الأمة في ذلك الظرف الخطير، ورعى مصلحة الكيان الإسلامي الذي كان بحاجة إلى آرائه الصائبة، ومعرفته العميقة بمفاهيم الدين وتطبيقات أحكامه.

حينما نقرأ سيرة الإمام علي بعد رحيل الرسول نرى أن الخلاف قد حصل حول تسلم موقع الخلافة وقيادة الأمة، وكان الإمام يرى نفسه صاحب هذا الحق، وأنه الأولى بهذا الموقع، لكنه لم يجعل ذلك سبباً للصراع والصدام، بل احتفظ برأيه، دون قطيعة مع مخالفيه، ولم ييخل عليهم بنصيحتهم، ولم يتوان عن بذل جهده في خدمة الدولة والأمة^(٤).

أمير المؤمنين كان رجل الوحدة ورائدها، ففي الوقت الذي يرى نفسه صاحب

ابن ملجم ينتمي إلى الخوارج، ويعرف أنهم هم من دفعوه إلى ارتكاب هذه الجريمة، لكنه ما أراد لمقتله أن يكون سبباً جديداً لمشكلة في واقع الأمة، ولذلك قال في وصيته: «يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَلْفَيْنَكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ خَوْضاً تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي، انظُرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ صَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاصْرُبُوهُ صَرْبَةً بِصَرْبَةٍ وَلَا تُمَثِّلُوا بِالرَّجُلِ»^(٦).

إن سيرة علي تؤكد إخلاصه العميق للدين، وحرصه الشديد على وحدة الأمة، فهو يتعبد إلى الله تعالى بالحفاظ على الوحدة، ويتمسك بها كطريق إلى ثواب الله ورضوانه، فالوحدة مبدأ ديني، وفريضة شرعية، قبل أن تكون قضية سياسية أو مصلحة ووقية، وصدق أمير المؤمنين حينما قال: «وَلَيْسَ رَجُلٌ فَأَعْلَمُ أَحْرَصَ عَلَى جَمَاعَةِ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ وَالْفَتْهَا مِنِّي، أُتْبَعِي بِذَلِكَ حُسْنَ الثَّوَابِ، وَكَرَمِ الْمَأْبِ، وَسَافِي بِالَّذِي وَأَيْتُ عَلَى نَفْسِي».

حكومة الإمام علي عليه السلام

استطاع الأمام من أن يجعل فترة حكمه التي شابها الكثير من المعارضة والفتن الداخلية من قبل من كانوا متنفذين

فيه يا أبا الحسن، وروى - أيضاً - عن عمر قوله: «لولا علي لهلك عمر»، ودعاؤه أيضاً «اللهم لا تنزل بي شدة إلا وأبو الحسن إلى جنبي»، ونصوص كثيرة في كتب التاريخ وكتب الفريقين من السنة والشيعه^(٥).

ومع أن الإمام أبدى عدم رضاه عن بعض السياسات في عهد الخليفة عثمان، وبخاصة دور البطانة التي كانت حول الخليفة، إلا أنه ما انفك يقدم النصيحة والرأي لعثمان، وحاوّل كثيراً أن يعالج موضوع التمرد على الخليفة، فكان واسطة وسفيراً بين المعارضين والخليفة أكثر من مرة، ولكن الأمر خرج من يده، وحينما حوصر عثمان ومُنِعَ عنه الماء استنجد بعليّ، فبعث الإمام ولديه الحسنين بِقَرَبِ الْمَاءِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا إِلَى بَيْتِ عِثْمَانَ.

وفي نصوص تاريخية مذكورة في مختلف كتب السنة والشيعه أمر ولديه الحسنين أن يبقيا على باب عثمان حراسةً له ولكن المعارضين تسلقوا من بيوت الجيران على دار الخليفة.

هكذا كان علي بن أبي طالب عليه السلام، فألى آخر لحظة من لحظات حياته كان يهتم بوحدة الأمة، فقد كان يعلم أن قاتله الشقي

حاكم ووالي، لذلك كان لا يتواني في إرشاد وتوجيه ومعاقبة من يخطئ من ولاية ولاياته، ولا يجامل أحدا منهم على حساب العامة من الشعب واستعمل منهم في كل البقاع الإسلامية من خيار المسلمين الثقة حفاظا على حقوق العامة «أمثال مالك الأستر، ومحمد بن أبي بكر، وسهل بن حنيف، وحبر الأمة عبد الله بن عباس، ونظرائهم من الذين توفرت فيهم الخبرة النامة في شؤون الحكم والإدارة» وقد كان الأمام يزودهم قبل توليهم برسالة يحدد لهم مسار الحكم ورؤيته حول العدل بين الرعية وهو العدل في وقته وزمانه وكان دائم التفكير في حقوق الناس وكان غزير الدمعة إزاء أحوال المسلمين وكثير الخوف من الله سبحانه وتعالى وكان يحمل من الأخلاق الحميدة ما تزود منه من المدرسة المحمدية التي قال فيها الله سبحانه وتعالى في محكم كتابة (انك لعلی خلق عظیم).

وكان في المجتمع الإسلامي في الكوفة من الذين استفادوا في العهود السابقة ممن كانوا يحاولون أن يدسوا الدسائس والمكائد فلذلك كان الأمام عليه السلام يحاول أن يصلح الناس بالطرق السلمية فكان يحاول أن

ومساهمين في عرقلة المسيرة العادلة لفترة حكم الإمام، وهو الذي لم يجبر احد على مبايعته لا من العامة ولا من السادة^(٧).

وقد وضع أحد الكتاب ذلك بقوله (ولعلنا لا نغالي إذا قلنا أن ديمقراطية هذا الرجل وصلت إلى درجة يعجز عن الوصول إليها كثير من حكام القرن العشرين).

لذلك استشاط هؤلاء الناس الذين لم يعجبهم عدله غضبا وأكالوا كل التهم لهذا الأمام وشرعوا في جعل المؤامرات تأخذ كل حيز تفكير الأمام في إدارته للدولة، ولولا هذه المؤامرات لوصل الأمر إلى أن يصنع دولة تتمتع من حقوق الإنسان جانبا مهما وكبيراً، فقد كان لا يفرق بين من هو من صلبه وعامة الشعب كما جاء في إحدى رسالاته إلى أحد ولاته ويقول فيها «فوالله لو أن الحسن والحسين فعلا مثل الذي فعلت ما كانت لهما عندي هواده، ولما تركتهما حتى أخذ الحق منهما» وهذا الدليل الأكبر على أن الأمام كان ينظر إلى الناس سواسية كأسنان المشط.

إن الحكم عند الأمام هو الفرق بين الحق والباطل وبين ما تعتمر به قلوب العامة هو نفسه الذي يجب أن يعتمر في قلب كل

فيها خارج الخلافة وفي الخلافة تمثل البعد التاريخي للإنسانية اليوم وغدا وحتى قيام الساعة وقد كانت نظرتيه البعيدة من قوله «نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ، وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَبَسَرْتُ فِي آثَارِهِمْ» وقد استقى هذا من أشرف خلق الله محمد ومن كلام الله سبحانه وتعالى أي من المدرسة المحمدية الشريفة المستقاة علومها من الله سبحانه وتعالى كما قال الإمام: «عَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَلْفَ بَابٍ مِنَ الْعِلْمِ، كُلُّ بَابٍ يَفْتَحُ أَلْفَ بَابٍ»^(٨).

كان الأمام ثائرا من الطراز الأول ضد الترف والانحراف الذي يضر الإنسان بغض النظر عن دينه وجنسه لذلك كان مريديه قلة لأن الأفكار التي كان يناهز بها تسابق العصر الذي كان يعيش به وقد كان سلام الله عليه مثال للتجديد الديمقراطي في حكم الدولة الإسلامية الناشئة ولم يكن إلا رجل استطاع أن يأسر قلوب المؤمنين ويعيش في دولة أرادها الله سبحانه وتعالى ضوء ونبراس لكل الأحرار وليثبت للعالم اجمع أن الإسلام هو الأب الشرعي للديمقراطية وحرية الرأي وهو في الواقع آخر حاكم في تاريخ الإسلام أخذ يبعته طوعا واختياراً.

وقد أشار هو إلى ذلك حيث قال: «أن

يصلحهم بالحوار والجدال متخذاً من مبدأ حرية الرأي وكان بإمكانه أن يطيح برؤوسهم وان يزهجهم في السجن وهو الحاكم المطلق لأربع قارات بدون منازع ولكن كانت أخلاقه تمنع من أن يتخذ هذا القرار الصعب على الصالحين فيقول: «لولا أن المكر والخداع في النار لكنت أمكر الناس» فقد كان الأمام يتمتع بالأخلاق المحمدية الشريفة فقد كان مصداقاً بارزاً للآية الكريمة التي تقول «كونوا قوامين بالقسط» وقد كان أقسط الناس بعد الرسول الكريم وكان إذا تساوى نفسه مع عامة الناس وكان يخيط ملابساً بنفسه ويخصف نعله وكان اصبر الناس على الضيم والظلم وقد كان يسد جوعته بكسرة خبز يابسة، ويأتمد الملح ليكون مستوى معيشته كأضعف الناس، ويقول: (إن الله فرض على أئمة العدل أن يقدروا أنفسهم بضعفه الناس كيلا يتبع بالفقير فقره) فقد كان الأمام يصور لنا نظرتيه إلى العمق التاريخي للبشرية ويحتكم إلى الإنسان في كل الأمور ولم يكن يطرح في كلامه وحياته البعد الإسلامي فقط بل كان إنسانياً بكل معنى الكلمة فقد كان يقول «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» مما يدل على بصيرة جلية على أن هذا الأمام كانت كلماته وعظاته وحياته التي كان

المسلمين من الإراقة، ومن نقاط الاشتراك بين السنة والشيعة وبقية المذاهب أن الحسن اختير خليفة من قبل خيار الصحابة والتابعين، وبهذا الاختيار وجب طاعته من قبل جميع المسلمين وفي جميع الأمصار، وكل من رفض طاعته يعتبر عاصيا شاقا لوحدة المسلمين، ويجب على المسلمين إعادته للطاعة، وقد تمرد معاوية على خلافة الإمام علي فجهز الإمام جيشا لا عادته للطاعة، وللحفاظ على وحدة الدولة؛ لكي لا تتمزق إلى دولتين: الأولى في العراق والثانية في الشام، ولكن الظروف لم تساعد على إخماد التمرد، وقد تبدلت لتكون في صالح معاوية، أو على الأقل استمرار القتال دون حسم لصالح القضية الإسلامية الكبرى. وقد وجد الإمام الحسن عليه السلام في إيقاف القتال والقبول بالصلح مصلحة عليا للإسلام وللمسلمين ووحدة الدولة والأمة الإسلامية فأثر الصلح لأنه المنسجم مع المصلحة العليا والوحدة الإسلامية.

وحدة الدولة والأمة

قال الإمام الحسن عليه السلام: «إلا وإن ما تكروهون في الجماعة خير لكم مما تحبون في الفرقة»، فالقتال، وحسب الظروف، لم

العامة لم تبايعني لسلطان غالب ولا لعرض حاضر». أما الخاصة فقد بايعه معظمهم، وحين رفض بعضهم بيعته تركهم أحرارا، فلم يجبر أحد منهم عليها، وإنما خلى بينهم وبين ما أرادوا من الاعتزال، وقبل منهم ما قدموا من عذر، وقام دونهم يمنع الثائرين من أن يصلوا إليهم، وهذا إذا دل فإنما يدل على عمق الحرية والديمقراطية التي كان يتمتع بها الإمام والتي غابت على الإسلام والمسلمين منذ استشهاده وحتى الآن التي غابت ونسيها المسلمون وما كانت فلسفته في الحرية والديمقراطية لا يمكن أن تصاغ في الوقت الحاضر وممارستها حتى إلى اقرب الناس إلية ألا وهم أبناءهم ومنهم الإمامين الحسن والحسين عليهما السلام (٩).

كما قام الإمامان الحسن والحسين عليهما السلام بدور بارز في صيانة وحدة الأمة، أي أنهما امتداد للإمام علي والرسول الأكرم المصطفى.

الإمام الحسن ووحدة الأمة

الدور الذي قام به الإمام الحسن بن علي بن أبي طالب دور كبير حافظ من خلاله على وحدة الأمة الإسلامية في عصره، حيث تنازل عن الخلافة وهي حقه حفظا لدماء

أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم».

تكمن أهمية صلح الإمام الحسن عليه السلام تاريخياً في أنه شكل منعطفاً كبيراً في مسيرة الدولة الإسلامية، وفي أنه أعلن عن بداية مرحلة جديدة في حركة الأمة، وفي أنه أظهر الخط الثاني القائم على أساس تتبع مسيرة الأمة من زاوية المعارضة.

وتكمن الأهمية كذلك من الناحية العلمية في أنه قدم للمسلمين تجربة غنية قامت على أساس التصدي لانحراف اجتماعي خاص.

بناءً على ما تقدم يتسنى لنا أن نعلم بأن الإقدام على الصلح كان يمثل شجاعة نابعة من حكمة في التعامل مع القضية المصيرية التي هي أهم من الحكم نفسه وهي الحفاظ على مسيرة الإسلام وسلامة الأمة من الانحراف، ومن هنا فإن الوظيفة الشرعية هي التي حكمت على الإمام الحسن بأن يصلح؛ وذلك حفاظاً على تلك القضية المحورية التي لا بد أن تكون الحرب كما يكون السلم في خدمتها.

من هنا ندرك أن قضية السلطة عند الإمام الحسن لم تكن إلا إقامة العدل كما

يكن في صالح الدولة التي يقودها الإمام؛ لأن استمراره سيؤدي إلى إراقة الدماء دون حسم، أو توافق، ولكن المستفيد هو القوة المتمردة التي ستستولي على الدولة دون قيود وشروط، أو يؤدي القتال إلى ضعف القوتين، وبالتالي تحرك الدول الكافرة لحسم الموقف لصالحها، أو قيام دولتين ضعيفتين، وفي جميع الأحوال فإن الأمر يؤدي إلى ضعف الدولة والوجود الإسلامي، وكلاهما خسارة فادحة^(١٠).

حقن الدماء

قال الإمام الحسن عليه السلام: وقد رأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، ولم أرد بذلك إلا إصلاحكم وبقاءكم.

وقال أيضاً: «إن معاوية نازعني حقا هو لي، فتركته لصالح الأمة، وحقن دماءها.. ورأيت أن حقن الدماء خير من سفكها، وأردت صلاحكم وان يكون ما وصفت حجة على من كان يتمنى هذا الأمر».

وقد كانت شروط الصلح للمصلحة الإسلامية العليا؛ حيث جاء فيها: «إن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله، في شامهم وعراقهم وتهامهم وحجازهم، وعلى أن

انتماؤه وموقفه وعبوديته لربه، أما الحياة مع الظالمين دون أن يواجههم ودون أن يقوم بأي عمل، فإنها تمثل الحياة التي برم بها الإنسان، بمعنى أنه لا يشعر فيها بالحيوية ولا يشعر فيها بالحياة، لذلك كان الإمام الحسين يركّز على هذا الجو من خلال تصوير المسألة في جانبها النفسي بالإضافة إلى الجانب الموضوعي «ألا ترون أن الحق لا يعمل به وأن الباطل لا يُتناهى عنه»، ثم يقول: «ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»^(١١).

وهكذا نجد أن الحسين عليه السلام وهو يتحرك كان يريد أن يعمّق الرسالة في نفوس كل الذين ينطلق معهم، فعندما كان يقف مع معسكر ابن سعد في كربلاء كان يعظهم بين وقت وآخر، وكان يحاول أن يضعهم في أجواء روحانية وعظية تنقلهم إلى الآخرة وتجعلهم في مواجهة حقارة الدنيا، ففي غداة يوم عاشوراء خاطبهم بقوله: «عباد الله اتقوا الله وكونوا من الدنيا على حذر، فإن الدنيا لو بقيت لأحد أو بقي عليها أحد كانت الأنبياء أحق بالبقاء وأولى بالرضا وأرضى بالبقاء، غير أن الله خلق الدنيا للبلاء وخلق أهلها للفناء، فجددها بالٍ ونعيمها مضمحلّ وسرورها مكفهّر

جاء به الإسلام وعبر عنه الرسول الأكرم في سيرته الشريفة، وعندما رأى أن خصومه لن يكفوا عن الحرب حتى لو أريقَت فيها الدماء أنهاراً، صبر واحتسب وصالح معاوية، ووضع شروطاً في الصلح منها، أن يترك معاوية أمر الخلافة من بعده شورى بين المسلمين، وهو الشرط الذي لم يف به، وجعل البيعة من بعده لابنه يزيد، وهو ما جعل الإمام الحسين يخرج عليه عندما رأى الإسلام نفسه قد تغير وتبدل، فكانت الثورة الحسينية، مع العلم أن الحسين لم يخرج طالباً للحكم، ولكنه كان طالب إصلاح، وطالب وحدة الأمة كما نرى..

ووحدة الأمة

كان الإمام الحسين عليه السلام يعيش الرسالة كإمام للرسالة وكمسلم أيضاً، ويعتبر أن الرسالة تمثل رضا الله سبحانه وتعالى، وأن رضا الله فوق كل شيء، لذلك كان يعيش أزمة نفسية ليست شخصية، بل رسالية، ولذا عبّر عنها بقوله: «ليرغب المؤمن في لقاء ربه حقاً، فإني لا أرى الموت إلا سعادة والحياة مع الظالمين إلا برماً»، فهو لا يريد أن يعبر عن حالة يأس، ولكنه يريد أن يعبر عن حالة رفض، وأن الموت في خط الجهاد يعتبر سعادة، لأن الإنسان يؤكد رسالته ويؤكد

والمنزل بلغة والدار قلعة، فتزودوا فإن خير الزاد التقوى، فاتقوا الله لعلكم تفلحون». فلو كانت المسألة عند الحسين مجرد مسألة سياسية لكان تحدّث معهم بلغة سياسية، في حين نراه يتحدّث معهم بلغة قرآنية وبلغة وعظية، لأن الحسين كان يعرف أن مشكلة المجتمع الإسلامي آنذاك، كما هي مشكلة المجتمع الإسلامي في كثير من المراحل، هي أن الناس قد أغلقوا قلوبهم عن الله سبحانه وتعالى، وأنهم لا يفكرون بالآخرة وإنما يستغرقون في الدنيا، ولذلك عندما ندرس الكثير من كلمات الإمام الحسين عليه السلام في سيرته من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى كربلاء، نرى أن كل أحاديثه وعظية تفتح القلب وتفتح الروح، لأنه كان يريد أن ينتج مجتمعاً إسلامياً، صحيح أن الحسين كان يريد أن يكون هو الذي يحكم، لكنه لم يكن ليطلب الحكم لذاته، بل لرسالته ليغيّر الواقع من خلال تجربة الحكم. ولذلك لا بد لنا أن نقرأ الحسين رسالة شاملة، فلا نقرؤه في السياسة وحدها، ولا نقرؤه في الأماسة وحدها، ولا نقرؤه في الكثير مما يتعارفه الناس، بل نقرأ الحسين كما نقرأ رسول الله، مع الفارق طبعاً، لأن رسول الله قال: «حسين مني وأنا من

حسين»، فهذا الاندماج بين الرسول وبين الحسين لم يكن اندماجاً نسبياً، بل كان اندماجاً رسالياً، لأن الحسين قد تحول إلى تجسيد لرسالة رسول الله ورسول الله هو التجسيد الحي للرسالة، لذلك فإن هناك رسالة اندمجت في رسالة، فالحسين منه باعتباره انطلق من رسالة رسول الله في وجوده الرسالي، «وأنا من حسين»، لأن رسول الله من الرسالة التي تجسدت بالحسين في مرحلته، وهكذا يجب أن نفهم المسألة.

الحسين رمز الوحدة الإسلامية

أعتقد أننا نستطيع أن نقدم الحسين رمزاً للوحدة الإسلامية، لأن المسلمين أجمعهم يلتقون عليه، ولذلك نحب أن ننبّه على تعبير ينطلق في كتب التاريخ وهو تعبير (يا لثارات الحسين عليه السلام) بأن علينا أن لا نجعل هذا التعبير يتحرك في المستوى الشعبي الساذج ليتصور البعض أن هناك عدداً من المسلمين يتحركون للأخذ بثأر الحسين من ظالم قتله، ولكن نحن نعمل لثارات الحسين من كل مستكبر ومن كل طاغية ومن كل منحرف ومن كل سلطان جائر يستحلّ حرم الله وينكث بعهده ويخالف سنة رسول الله ويعمل في عباد الله بالإثم

النقيض تلك الوحدة الأموية التي دعا إليها يزيد بن معاوية، فهي الوحدة القائمة على السيف، وقوة القهر، واستبداد الرأي، وبالفهم الحقيقي لمعنى الوحدة التي دعا إليها الدين، نستوعب عناية الإمام الحسين بها، فلقد التزم طيلة عشر سنين بالقبول بخلافة معاوية التزاماً منه بالصلح الذي عقده الإمام الحسن عليه السلام معه، التزم بذلك بالرغم من مخالفة معاوية لجل شروط الصلح إن لم نقل جميعها، وخصوصاً بعد رحيل الإمام الحسن، كما وأن حركة الإمام الحسين كانت ملتزمة بطلب الحوار والقبول به إلى آخر لحظة من حياته، فبالرغم من كل مظاهر الاستعداد التي ظهر بها الجيش الأموي في كربلاء للنيل منه فإنه كان يعظّمهم ويدعوهم إلى تحكيم الدين والعقل، فيطلب منهم أن يذكروا نسبه تارة، ويجادلهم في خيارات أن يتجه ركبهم إلى يزيد حتى يحاوره باعتبارهما كلاهما من قريش، أو أن يرجع إلى مدينة جده ما دام أهل الكوفة الذين أكثروا إليه كتبهم قد نكثوا بوعودهم، ثم بيدي أعلى درجات المرونة والمسؤولية اتجه الواقع الإسلامي ووحدته وسلامته عندما يطلب منهم أن يتجه إلى ثغر من ثغور المسلمين مجاهداً ومدافعاً عن مصالحهم. ولكنهم

والعدوان، فهؤلاء هم الذين نثار للحسين منهم، لأن الحسين انطلق من خلال قضية تنطبق على الشخص الذي عاصره وعلى أمثاله، سواء كانوا من المسلمين أو من الكافرين، وحتى قولنا «السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره»، فثار الله إنما هو من خلال أن الله سبحانه وتعالى يثار لدينه ويثار لرسالاته ويثار لكل أنبيائه وأوليائه، ولذلك فإن الثار هنا لا يتصل بحالة خاصة وإنما يتصل بالخط العام في كل مواقع الحياة. وعلينا أن نبقي الحسين في عقولنا في الدائرة الإسلامية الواسعة، وإذا كانت الدائرة الإسلامية الواسعة تفتتح على الدائرة الإنسانية الواسعة، فلأن الإسلام منفتح على الإنسانية كلها، وعند ذلك فإن الحسين لا يعيش في الجو الشيعي فقط، ولكنه يفتتح على الجو الإسلامي كله وعلى الجو الإنساني كله.

ومن هنا نفهم الوحدة التي دعا إليها الإمام الحسين، والوحدة التي دعا إليها الأمويون، فالوحدة الحسينية تتحدث عن اجتماع الناس حول المبادئ والقيم التي علمهم إياها رسول الله وأوصاهم بها: (إنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي، أريد أن أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأسير بسيرة جدي وأبي)^(١٢)، بينما كانت على

والمعرفة، وإن الحديث عن الحوزة النجفية يستلزم الحديث عن مدينة النجف الأشرف ذاتها، تلك المدينة التي برزت وأصبحت مدينة متميزة بين البلدان الإسلامية لما لها من موقع مؤثر في نفوس المسلمين في جميع البقاع لوجود المشهد المقدس لأمير المؤمنين علي عليه السلام، فقد أوصى علي عليه السلام بعد أن ضربه اللعين ابن ملجم بالسيف المسموم بأن يحمل على ظهر الناقة وتترك الناقة تسير حتى تبرك ويدفن جثمانه الشريف في تلك البقعة من الصحراء. وأدرك بنظرته الثاقبة أن القبائل العربية سوف تقطع الطريق على الغزاة عندما يتوجهون إلى النجف الواقعة على حافة الصحراء لزيارة مرقده.

من هنا تجسدت الرؤية المستقبلية للإمام عليه السلام في اختياره لهذه البقعة قبرا شريفا له ومزارا لمن يحمل الولاء له في كل البلدان، وأثبت أن من يقصد زيارته هو المحب لهم وستكون النجف حول قبره الشريف مركزا لنشر أفكاره ومبادئه ومركز التشيع، والقوافل الموائية ستشد الرحال براكيبيها إلى مزاره الشريف لتعلن أنه باب مدينة العلم.

أدرك الأمام ميزات موقع النجف

كانوا يصدون أمام كل تلك الخيارات مشددين على رضوخ الإمام الحسين ونزوله على أمر أميرهم أو الشهادة، فما كان جوابه إلا أن قال: «ألا وإن الدعي بن الدعي قد ركز بين اثنتين، السلّة والذلة، وهيهات منا الذلة، يأتي الله لنا ذلك ورسوله والمؤمنون». فإن كانت المسؤولية التاريخية اتجاه حفظ الإسلام في قيمه الأساسية، وفي مفاهيمه المرتبطة بالحكم والمشروعية والكرامة تتطلب من الإمام الحسين الدماء، فهو على كامل أهبته لتقديم الدماء، ليكتفي بالنداء: (اللهم إن كان هذا يرضيك، فخذ حتى ترضى)^(١٣).

وقد استمر هذا الدور الوجودي للأئمة من أهل البيت، فقد كانوا أحرص الناس على وحدة المسلمين، وهو الدور الذي مثلته الحوزات العلمية الشيعية، وخاصة حوزة النجف الأشرف، فمن خلال هذه الحوزات قامت الثورات ضد الاحتلال وضد الطغيان، وهو ما نكتب عنه في السطور التالية.

البعد الديني للنجف

مثلت الحوزة العلمية في النجف الأشرف الامتداد الجغرافي والثقافي لفكر أهل البيت، لأن حوزة النجف أصّلت الحفاظ على ذلك الفكر وتلك الثقافة من حيث نشر العلم

الأساس لعبت النجف دورا بارزا في النهضة الفكرية للعراق وقيام الحركات السياسية.

لقد أسست أول مدرسة في النجف سنة ١٠٥٦ م على يد العلامة الشيخ الكبير أبو جعفر محمد الطوسي رحمته الله، عندما احتل السلاجقة بغداد وهاجموا بيته ونهبت وأحرقت مكتبته ولم يعد العلامة قادرا على التدريس، وقيل إن ٣٠٠ طالب كان يدرس فيها، وهاجر عدد كبير من العلماء الإيرانيين والأفغان إلى كربلاء والنجف بعد الاحتلال الأفغاني لأصفهان سنة ١٧٢٢م وسقوط الدولة الصفوية مما عزز من موقف النجف كمركز علمي، وكانت هناك عوامل كثيرة أثرت على وضع النجف لإحرازها مركز الصدارة، حيث انتقلت المرجعية الشيعية إلى الحلة في أوائل القرن الثالث عشر وحتى القرن الخامس عشر ثم انتقلت إلى كربلاء في حوالي (١٧٣٧م)^(١٤).

ثم استعادت النجف مركزها الديني من جديد في زمن المجتهد الأكبر السيد مهدي بحر العلوم رحمته الله والمجتهد الأكبر الشيخ الكبير جعفر آل كاشف الغطاء رحمته الله حيث صد الشيخ الكبير آل كاشف الغطاء رحمته الله الغزو الوهابي، وأكد أن رجل الدين يجب أن يكون

الجغرافي، فهي قريبة من القبائل العربية، وخط الاتصال مفتوح معها، وليس هناك عوائق تحول دون الوصول إليها، فهي بمثابة القلب والمركز بالنسبة إلى المناطق المحيطة بها كالعراق وسوريا والأردن والجزيرة العربية، وبحكم موقعها الصحراوي بعيدة عن أنظار الحكام الذين يختارون مواقع المدن على الأنهار.

ودحض الإمام علي عليه السلام قانون الاختيار الطبيعي الذي يفرض انقراض الأجناس التي لا تناسبها البيئة الجديدة، حيث ازدهرت النجف بفعل الإيمان والعقيدة رغم عدم توفر المياه والأرض غير الصالحة للزراعة.

دور النجف في النهضة الفكرية

إن حوزة النجف الأشرف كان لها دور بارز في النهضة الفكرية الإسلامية لكل المسلمين على اختلاف مذاهبهم، ولكن تذبذبت مدارس النجف بسبب الظروف السياسية والاجتماعية بين مبدئين، مبدأ استعمال القوة والأخر انتهاج سبل الإقناع عقائدياً وفكرياً، وقد برعت النجف في استعمال هذين المبدئين حسب الظروف المناسب والزمان المناسب، وعلى هذا

لديها السلوك العلمي مع الفكر النظري، وبمعنى آخر إن رجل الدين مسؤول عن تطابق النظرية والفعل، فهما متلازمان، والاختلال في التوازن بينهما يؤدي إلى فقدان رجل الدين مكانته العلمية والاجتماعية، وتأخذ الطبقات الأخرى موقعها في السلم الاجتماعي بناء على إمكانياتها المادية وما تقدمه من خدمات والتزامات للمجتمع^(١٥).

النجف ومواجهة الغزو

كان هناك تبادل في وجهات النظر بين زعماء العشائر في الفرات الأوسط ورجال الدين نتيجة التشيع والولاء للمذهب الجعفري، فضلا عن العلاقات المعرفية، وقد التحق البعض منهم بالمدارس الدينية، ونتيجة لتلاحم العشائر العراقية مع المرجعيات الدينية تصدت العشائر للغزو الوهابي على النجف بعد تصاعد قوتهم في السعودية، وكانت الهجمات الوهابية تستهدف النشاط الاقتصادي للنجف والذي يعتمد على الهبات الخيرية والزيارات. وكانت العشائر العراقية في الفرات الأوسط والجنوب تشكل موردا بشريا لأنهم مؤمنون ومتبرعون

قوة مسلحة، وأن المدارس العلمية تعتبر الدين الإسلامي هو الأساس في بناء الحضارة الإسلامية بتنوعها، وإنه مهما تعددت الاحباطات وتغيرت الأحداث فإن هناك حقيقة ثابتة كامنة وراء ذلك، وهي إن مذهب التشيع هو مذهب الجميع وإن الانحرافات التي حدثت كانت بسبب اضطهاد وقسوة وظلم الخلفاء الأمويين والعباسيين وأطماع البعض ممن تعرهم الدنيا.

النجف والامساواة العلمية والاجتماعية

لم يكن مجتمع النجف مجتمع تحكمه القوة والسلطة، فقد كان وعلى مر السنين مجتمع يخلو من السيد والعبد والتابع والمتبوع، ولم يكن مجتمع الإقطاعيات الكبيرة التي تحتاج إلى إجراء يقومون بإدارتها وخدمتها ويكون السادة هم الإداريون والأجراء يقومون بكل الأعمال.

إن مجتمع النجف يتميز بنوع من الامساواة المبنية على فوارق الكفاءة العلمية والعطاء الاجتماعي، فطبقة رجال الدين تتمتع بالكفاءة الروحية والعلمية ويتطابق

البراق نكتب هذه الوثيقة لضمان الوحدة والتلاحم فيما بيننا، لقد تنادينا وأصبحنا يدا واحدة ودما واحد، ونسير وراء بعضنا البعض إذا وقع مكروه على حيٍّ من الأحياء الأخرى، وسنهب معا ضد كل غريب ليس منا سواء كانت النتيجة لنا أو علينا وشروط اتحادنا هي الآتي^(١٦):

١ - إذا قتل غريب فعلى القاتل أن يدفع خمس ليرات وتدفع العشيرة كلها المتبقي من دية القتيل.

٢ - إذا قتل احد من اتحادنا فان نصف الفصل (الدية) يؤول لعائلة القتيل والنصف الآخر للاتحاد.

٣ - إذا قتل احد آخر من عشيرته وليس للعشيرة شيخ مسؤول، فان القاتل يجب أن يرحل عن المكان سبع سنوات، وكل من يساعده يطرد لنفس الفترة، ويكون الفصل ثلاثين ليرة ذهباً، والفرشة خمس ليرات وعشر قطع قماش من الحرير.

٤ - من يجرح أحداً من عشيرته ويسفر الجرح عن نزيف، يدفع ليرة واحدة.

٥ - من يصوب بندقية على صديقه دون أن يطلق النار يسلم البندقية.

٦ - من يجرح آخر ويتسبب الجرح في

وزوار يؤدون الشعائر الدينية، وتحالف العشائر العراقية مع رجال الدين في العقد الأول من القرن التاسع عشر ظهر واضحاً عندما استطاع المجتهد الشيخ الكبير جعفر آل كاشف الغطاء تجنيد المحاربين لحماية النجف من الغزو الوهابي.

ولكن القيم العشائرية ظلت راسخة وتأخذ دورها في تنظيم بنية المجتمع العشائري رغم الممارسات الفعالة للعبادات الدينية والطقوس والشعائر التي تؤكد الهياكل الدينية.

وقعت النجف تحت تأثير أسر (الزغرت) و(الشميرت) وهما من أصول عربية، فقد ارتبطت الزغرت بآل كاشف الغطاء والشميرت بالملاي وأبرزهم ملا محمد طاهر حاكم النجف واستطاعت الكتلتان طرد العثمانيين في سنة ١٩١٥ والسيطرة على الأحياء الأربعة في النجف، فقد سيطر الزغرت على إحياء العمارة والحويش والبراق، والشميرت على حي المشراق وكان الشيخ عطية البوكلل وكاظم صبي مسؤولين على العمارة والحويش والبراق، أما الحاج سعد حجي راضي فكان مسؤولاً على حي البراق وصنعوا دستور (حي البراق) المشهورة جاء فيه: (نحن سكان حي

المازندراني بهدف تحديد مسؤولية الحكام على ضوء الشريعة الإسلامية، وأن تكون الأحكام غير معطلة لثوابت الإسلام، وقد امتدت هذه الحركة إلى النجف، وحدثت مناقشات حامية بين المجتهدين الذين أيد البعض منهم الحركة الدستورية، والبعض الآخر أبدى معارضته لها وكان لدور الحركة الدستورية اثر كبير على الوعي الفكري والسياسي في النجف.

وفي سنة ١٩٠٩م تم فتح مدرستين هما المدرسة العلوية والمدرسة المرتضوية بدعم من أنصار الحركة الدستورية، والفتوى التي أصدرها المجتهد الأعلى آية الله كاظم الخراساني رحمته الله بدراسة مادة الرياضيات والإنكليزي في المدرستين، واعتبرها البعض بداية التعليم العلماني الشيعي، وقبل ذلك فتحت مدرسة شيعية في بغداد اسمها (مكتب الترقى الجعفري العثماني) سنة ١٩.

ثم سميت المدرسة الجعفرية وتم تدريس الرياضيات والفرنسي فيها بدعم من السيد علي بازرگان السني المهتم بشؤون الشيعة وجعفر أبو التمن وأيدت بالفتوى الصادرة من المجتهد آية الله محمد سعيد الحبوبى حيث دخلها حوالي ٣٠٠ طالب ^(١٧).

مرضه، عليه أن يدفع خمس ليرات ويسلم سلاحه ويغادر المدينة لفترة قصيرة، وأي مبلغ إضافي يدفع سيعطى لثله إلى شيخنا كاظم صبي، وثلثان للاتحاد.

٧ - إذا وقع أذى بواحد منا وهو يسرق أو يسطو أو ينهب أو يفسق فإننا لا نكون غير مسؤولين فحسب، بل ولا نكون له أصدقاء.

٨ - إذا أوقفت الحكومة واحد منا عن أفعالنا أو سجنته، فإننا ندفع كل نفقاته الوارد أعلاه لنا جميعا، إننا موحدون مع كاظم سواء كان في المدينة أو لم يكن، وعلى هذا نحن جميعا نضع توقيعنا وكلنا نوافق عليه والله على ما نقول شهيد...).

وألغيت سلطة هذا الميثاق عام ١٩١٨ عقب احتلال البريطانيين واعدم كاظم صبي ونفي الآخرين.

النجف ومناصرة الإسلام

برز دور النجف الأشرف في نصرة الإسلام والمسلمين منذ بداية تأسيسها وحتى العصر الحديث، فمثلا عندما قامت الحركة الدستورية في إيران سنة ١٩٠٥ - ١٩١١ التي تزعمها المجتهد آية الله محمد كاظم الخراساني رحمته الله والمجتهد آية الله عبد الله

واسماعيل بن صدر الدين العاملي ومحمد حسين المازندراني فتوى تؤكد على وحدة المسلمين ودفاعهم عن بيضة الإسلام، وفيما يلي نص الفتوى: (قد رأينا اختلاف كلمة العلماء في غير ما يتعلق بأصول الديانة والشقاق بين سائر طبقات المسلمين هو السبب الموجب لانهطاط دول الإسلام واستيلاء الأجانب على معظم الممالك الإسلامية، فلأجل المحافظة على الكلمة الجامعة الدينية والمدافعة عن الشريعة الشريفة المحمدية، قد اتفقت الفتاوى من المجتهدين العظام الذين هم رؤساء الشيعة الجعفرية ومن علماء أهل السنة الكرام المقيمين بدار السلام على وجوب الاعتصام بحبل الإسلام كما أمرهم الله به، وعلى وجوب اتحاد كافة المسلمين في حفظ بيضة الإسلام وصون جميع الممالك الإسلامية من العثمانية والإيرانية عن مداخلات الأجانب وتشبثاتهم... وقد اتحد الرأي منا جميعا تحفظا على الحوزة الإسلامية أن نبذل تمام قوانا ونفوذنا في ذلك ولا نكف عن كل إقدام يقتضيه المقام واثقين بكمال اتحاد الدولتين العليتين الإسلاميتين وعناية كل منهما بحفظ استقلال الأخرى وحقوقها، وقد

وعند ما تعاضم التغلغل الروسي في الأراضي الإيرانية والعثمانية في صيف ١٩٠٨ ودخول القوات الروسية في شمال إيران لتأمين مصالح روسيا، خشي المجتهدون في النجف على العتبات المقدسة، وخاصة أن بريطانيا وروسيا كانت تنويان كل منهما منح قروض للشاه وبذلك يكون حكم الشاه تحت سيطرتها ويزداد نفوذ هاتين الدولتين في إيران..

لم يقف رجال الدين في العراق مكتوفي الأيدي فأرسل ثلاثة من مجتهدي النجف رسائل إلى القنصل البريطاني والروسي والفرنسي وأوضح المجتهدون الثلاثة محمد كاظم الخرساني وعبد الله المازندراني وحسين مرزا جميل في رسائلهم أن القروض التي قدمت إلى إيران ملغية وأن القروض التي تقدم مستقبلا لن تسدد.

ثم واصلت النجف دورها السياسي، وفي تموز عام ١٩٠٩ عقد المجتهدون اجتماعا مع القنصل البريطاني في بغداد يطالبون روسيا فيه بالانسحاب من الأراضي الإيرانية، وفي كانون الأول سنة ١٩١١ أصدر المجتهدون آية الله محمد كاظم الخرساني وعبد الله المازندراني وشيخ الشريعة الاصفهاني

مسعاهم أية الله محمد كاظم اليزدي في إدانته للاحتلال، رغم انه من المعارضين للحركة الدستورية وسار موكب كبير من الكاظمية إلى بغداد يقوده علماء سنة وشيعة، وكان العلماء السنة يهتفون (لا اله إلا الله)، وكان العلماء الشيعة يجيبون (محمد رسول الله)، واعتبرت اللغة العربية من الخصائص الأساسية لصيانة الإسلام، وهذا ما أكده المجاهد الأكبر الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء في كتابه الدين والإسلام، وان العرب عليهم واجب صيانة الإسلام ورد العالم الإسلامي في كلمته المشهورة (كلمة التوحيد ووحدة الكلمة)، واخذ الشعراء الشيعة مثل الشيخ محمد رضا الشبيبي والشيخ علي الشرقي وعبد المطلب الحلبي ينشدون القصائد التي تؤكد على تميز العرب عن الفرس والترك، ولكن على أن لا يسمح بان نتخلى عن مناصرة الإسلام والدفاع عنه حين يسعى البعض في الوقت الحاضر إلى التغذي على التفرقة وتشتيت الجهود^(١٨).

واستطاعت النجف أن تطوع ١١٨ ألف شيعي من سكان الفرات ووضعوا أنفسهم في يامرة القيادة التركبية السنية، وذلك بعد أن كانت المساجد في العتبات المقدسة تحت

أعلننا لجميع المسلمين اتفاق فتاويننا واتحاد كلمتنا في ذلك كما أعلننا لعموم الملة الإيرانية وجوب السكون والتعاون في حفظ استقلال دولتها العلية وحماية حمى مملكتها وصيانة ثغورها عن مداخلة الأجانب... ونذكر عامة المسلمين الأخوة التي عقدها الله تعالى بين المؤمنين ونعلن لهم وجوب التحرز والتجنب عما يوجب الشقاق والنفاق، وأن يبذلوا جهدهم في حفظ نوااميس الأمة والتعاون والتعااض وحسن المواظبة على اتفاق الكلمة حتى تصان الراية الشريفة المحمدية ويحفظ مقام الدولتين العليتين العثمانية والإيرانية... وسيؤدي في نهاية المطاف إلى ثورة المسلمين في الهند وبخاري والقفقاس...).

وقد استبشرت الدولة العثمانية بهذه الفتوى باعتبارها حركة شيعية تصد الخطر الأوربي، كما أيدها من مصر محمد رشيد رضا صاحب جريدة (المنار)، وقال إنها مؤشر على الوحدة السنية والشيوعية لإعلاء وحدة المسلمين.

وفي تشرين الثاني عام ١٩١١م احتلت إيطاليا ليبيا فأصدر المجتهدون الشيعة في النجف فتوى تدين الاحتلال وتدعو إلى الجهاد، وشارك مع المجتهدين وأيدهم في

الكثيرون من مراجع النجف بإعطاء أجزاء من الخمس للفلسطينيين، وهي أدوار كثيرة وعديدة ومتنوعة لا يمكن ذكرها جميعا في هذه الدراسة غير المطولة، ولكننا ذكرنا أمثلة لنؤكد أن سماحة السيد السيستاني حمل على عاتقه تراثا هائلا ومميزا ورساليا مستمدا من فكر النبي والأئمة عليهم السلام، وكذلك ما قامت به حوزة النجف الأشرف والنجفيون من دفاع عن الإسلام في كل العصور، ولذلك جاءت مواقف السيد متناغمة ومتوافقة لكل ذلك الإرث من الماضي المجيد والحاضر الفريد، ولكن وقبل الحديث عن الدور الذي اضطلع به سماحة السيد في وأد الفتنة المذهبية في العراق، وخاصة بعد الاحتلال الأمريكي لأرض الرافدين، لا بد من إلقاء الضوء على سيرته الكريمة المتفقة مع تراث الولاء الثقافي والفكري لأهل البيت.

على الجهاد ضد الاحتلال البريطاني، وكان على راس المجاهدين العلماء الأعلام وحجج الإسلام والمسلمين شيخ الشريعة الاصفهاني رحمته الله ومهدي الخالصي رحمته الله، والمجتهد محمد سعيد الحبوبي ومصطفى الكاشاني ومهدي الحيدري ومحسن الحكيم (قدس سرهم جميعا)، وبذلك استطاعت النجف بمالها من قوة فكرية أن تكون ذات اثر فعال في ثورة العشرين، كما ساهمت النجف الأشرف بالدفاع عن مصر أثناء العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ بأن أصدرت الفتاوى الداعية للجهاد، وبناء على تلك الفتاوى قام العراقيون بقط خطوط النفط الذي يمر إلى شمال العراق إلى تركيا والذي تستفيد منه بريطانيا وفرنسا، كما كان لعلماء النجف دور بارز في الدفاع عن الثورة الجزائرية، أما القضية الفلسطينية فكانت ومازالت في الوجدان النجفي، وقد أفتى

المبحث الثاني سيرة ومسيرة السيد

مما سبق من شرح حول حرص الأئمة على وحدة الأمة، والدور العلمي والنهضوي لحوزة النجف الأشرف تتضح الخلفية الدينية والمكانية لسماحة السيد السيستاني، ومن أجل فهم موقف السيد المعاصر لابد من العودة لسيرته ومسيرته، ولا نكتب سيرته من أجل التعرف عليها فقط، ولكن من أجل الوصول إلى حقيقة أن السيد في تعلمه كان يعود بأصوله الفكرية والتربوية والروحية لفكر النبي الأعظم والأئمة من أهل البيت سلام الله عليهم، ولذا عندما نكتب في هذا المبحث عن سيرة السيد وعلمه ومنهجه، فإننا نتعرف فيما بعد عن أصوله التي يقف عليها عندما يؤدي حربة الفكر والمذهب، وحرمة دم الإنسان، خاصة وهو يؤدي عمليا ما قال به الإمام علي عليه السلام: «الناس صنفان: إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق»، أي أن العامل المشترك بين البشر هو الإنسانية التي يجب أن تُحترم، وهو ما عليه السيد الآن في مواقفه العملية التي ترسخ ذلك السلوك النبوي الرسالي، وعليه نكتب عن سيرته كيف أثرت في مرجعيته..

فقد ولد السيد في مدينة مشهد المقدسة شرق إيران في ٤ آب ١٩٩٣. (١٩) ربيع الأول ١٣٤٩ هـ^(١٩).

وقد نشأ في أسرة علمية دينية ملتزمة لعائلة من رجال الدين، عرف السيد بالسيستاني نسبة إلى مدينة سيستان الواقعة في الجنوب الشرقي من إيران، بعد أن كانوا يسكنون مدينة أصفهان في عهد الصفويين، فقد عُين جده الأعلى (السيد محمد) في منصب «شيخ الإسلام» في سيستان بزمَن السلطان حسين الصفوي، فانتقل إليها وسكنها هو وذريته من بعده، إلا أن جده الأدنى (السيد علي) هاجر منها فيما بعد إلى مدينة مشهد.

مسيرة تحصيله العلمي

بدأ سماحة السيد علي السيستاني وهو في الخامسة من العمر بتعلم القرآن الكريم ثم دخل مدرسة دار التعليم الديني لتعلم القراءة والكتابة ونحوها، وفي عام ١٩٤١ بدأ بتوجيه من والده بقراءة مقدمات العلوم الحوزوية، فأتتم قراءة جملة من الكتب الأدبية، وحضر في المعارف الإلهية دروس العلامة المرحوم الميرزا مهدي الاصفهاني المتوفي سنة ١٩٤٦ كما حضر بحوث الخارج للمرحوم الميرزا مهدي الآشتياني والمرحوم الميرزا هاشم القزويني وفي عام ١٩٤٩ هاجر إلى مدينة قم لإكمال دراسته فحضر عند العلامتين المعروفين السيد حسين الطباطبائي البروجردي والسيد محمد الحجة الكوهكمري، وكان حضوره عند الأول في الفقه والأصول وعند الثاني في الفقه فقط^(٢٠).

وفي عام ١٩٥١ هاجر من مدينة قم إلى النجف الأشرف، فسكن مدرسة البخارائي العلمية وحضر بحوث آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي والعلامة الشيخ حسين الحلبي في الفقه والأصول، ولازمها مدة طويلة، وحضر خلال ذلك أيضاً بحوث بعض

الأعلام الآخرين منهم الإمام الحكيم والسيد الشاهرودي.

في عام ١٩٦١ عزم على السفر إلى موطنه مشهد وكان يحتمل استقراره فيه فكتب له أستاذه آية الله العظمى السيد الخوئي وأستاذه العلامة الشيخ الحلبي شهادتين ببلوغه درجة الاجتهاد، كما كتب شيخ محدثي عصره الشيخ أغا بزرك الطهراني شهادة أخرى يطري فيها على مهارته في علمي الحديث والرجال

وعندما رجع إلى مدينة النجف الأشرف في أواخر عام ١٩٦١ ابتداءً بإلقاء محاضراته الدرس الخارج في الفقه وأعقبه بشرح العروة الوثقى، وقد كانت له محاضرات فقهية أخرى خلال هذه السنوات تناولت كتاب القضاء وأبحاث الربا وقاعدة الإلزام وقاعدة التقية وغيرها من القواعد الفقهية. كما كانت له محاضرات رجالية شملت حجية مراسيل ابن أبي عمير وشرح مشيخة التهذيبين وغيرهما

مرجعيته، بعد وفاة آية الله السيد نصر الله المستنبت اقترح مجموعة من العلماء على الإمام الخوئي إعداد الأرضية لشخص يُشار إليه بالبنان، مؤهل للمحافظة على المرجعية والحوزة العلمية في النجف

ب - الربط بين الفكر الحوزوي والثقافات المعاصرة، ففي بحثه حول المعنى الحرفي في بيان الفارق بينه وبين المعنى الاسمي، وهل هو فارق ذاتي أم لحاظي؟ اختار اتجاه صاحب الكفاية في أن الفرق باللحاظ، لكن بناه على النظرية الفلسفية الحديثة، وهي نظرية التكثر الإدراكي في فعالية الذهن البشري وخالقيته، فيمكن للذهن تصور مطلب واحد بصورتين، تارة بصورة الاستقلال والوضوح فيعبر عنه بـ (الاسم)، وتارة بالانقباض والانكماش ويعبر عنه بـ (الحرف).

وعندما دخل في بحث المشتق في النزاع الدائر بين العلماء حول اسم الزمان، تحدث عن الزمان بنظرة فلسفية جديدة في الغرب، وهي انتزاع الزمان من المكان بلحاظ تعاقب النور والظلام، وفي بحثه حول مدلول صيغة الأمر ومادته وبحثه في التجري فقد طرح نظرية بعض علماء الاجتماع من أن تقسيم الطلب لأمر والتماس وسؤال نتيجة تدخل صفة الطالب في حقيقة طلبه من كونه عالياً أو مساوياً أو سافلاً.

وكذلك جعل ضابط استحقاق العقوبة عنوان تمرد العبد وطغيانه على المولى، وأن ذلك مبني على التقسيم الطبقي للمجتمعات

الأشرف، فكان اختيار سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني، بعد وفاة السيد الخوئي عام ١٩٩٢ تصدى آية الله السيستاني لشؤون المرجعية وزعامة الحوزة العلمية، بإرسال الإجازات، وتوزيع الحقوق، والتدريس على منبر الإمام الخوئي في مسجد الخضراء، وبدأ ينتشر تقليده وبشكل سريع في العراق والخليج ومناطق أخرى، كالهند وأفريقيا وغيرها^(٢١).

منهجه في البحث والتدريس

وهو منهج متميز على مناهج كثير من أساتذة الحوزة وأرباب البحث الخارج، فعلى صعيد الأصول يتجلى منهجه بعدة خصائص^(٢٢):

أ - التحدث عن تاريخ البحث ومعرفة جذوره التي ربما تكون فلسفية، كمسألة بساطة المشتق وتركيبه، أو عقائدية وسياسية كبحث التعادل والتراجيح الذي أوضح فيه أن قضية اختلاف الأحاديث فرضتها الصراعات الفكرية العقائدية آنذاك والظروف السياسية، التي أحاطت بالأئمة عليهم السلام ومن الواضح أن الإطلاع على تاريخ البحث يكشف عن زوايا المسألة ويوصلنا إلى واقع الآراء المطروحة فيها.

د - الإبداع والتجديد: هناك كثير من الأساتذة الماهرين في الحوزة من لا يملك روح التجديد، بل يصب اهتمامه على التعليق فقط والتركيز على جماليات البحث لا على جوهره، فيطرح الآراء الموجودة، ويعلق على بعضها، ويختار الأقوى في نظره، ويشغل نفسه بتحليل عبارات من قبيل: فتأمل أو فافهم، ويجري في البحث على أن في الإشكال إشكاليين، وفي الإشكاليين تأملاً، وفي التأمل توقف.

هـ - إمامه بمقتضيات عصره: كجواز نكاح أهل الشرك وقاعدة التزامم التي يطرحها الفقهاء والأصوليون، كقاعدة عقلية أو عقلائية صرفة، فيدخلها السيد تحت قاعدة الاضطرار التي هي قاعدة شرعية أشارت لها النصوص، نحو (ما من شيء حرمه الله إلا وقد أحله لمن اضطر إليه)، فإن مؤدى قاعدة الاضطرار هو مؤدى قاعدة التزامم بضميمة فهم جعل التطبيق.

وأحياناً قد يقوم بتوسعة القاعدة كما في قاعدة (لا تُعاد) حيث خصها الفقهاء بالصلاة، لورود النص في ذلك، بينما سماحة آية الله العظمى السيد جعل صدر الرواية المتضمن لقوله لا تُعاد الصلاة إلا من خمسة مصداقاً

البشرية القديمة من وجود موالٍ وعبيد، وعالٍ وسافل، وما أشبه ذلك، فهذه النظرية من رواسب الثقافات السالفة التي تتحدث باللغة الطبقية، لا باللغة القانونية المبنية على المصالح الإنسانية العامة.

ج - الاهتمام بالأصول المرتبطة بالفقه، وأن الطالب الحوزوي يلاحظ في كثير من العلماء إغراقهم وإسهابهم في بحوث أصولية، لا يُعد الإسهاب فيها إلا ترفاً فكرياً، لا ينتج ثمرة عملية للفقيه في مسيرته الفقهية، كبحثهم في الوضع وكونه أمراً اعتبارياً أو تكوينياً، وأنه تعهد أو تخصيص، وبحثهم في بيان موضوع العلم وبعض العوارض الذاتية في تعريف الفلاسفة لموضوع العلم، وما شاكل ذلك.

ولكن الملاحظ في دروس سماحة السيد هو الإغراق وبذل الجهد الشاق في الخروج بمبنى علمي رصين في البحوث الأصولية المرتبطة بعملية الاستنباط، كمباحث الأصول العملية، والتعادل والتراجيح، والعام والخاص، وأما البحوث الأخرى التي أشرنا لبعض مسمياتها، فبحثه فيها بمقدار الثمرة العملية في بحوث أخرى أو الثمرة العملية في الفقه.

نهى إداري لمصلحة موضوعية اقتضتها الظروف آنذاك، ولا يُستفاد منه تشريع الحرمة ولا الكراهة. والسيد هو من النمط الثاني من العلماء في التعامل مع النص.

ز - توفير الخبرة بمواد الاستنباط: إن سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله يركز دائماً على أن الفقيه لا يكون فقيهاً بالمعنى الأتم حتى تتوفر لديه خبرة وافية بكلام العرب وخطبهم وأشعارهم ومجازاتهم، كي يكون قادراً على تشخيص ظهور النص تشخيصاً موضوعياً لا ذاتياً، وأن يكون على إطلاع تام بكتب اللغة وأحوال مؤلفيها ومناهج الكتابة فيها، فإن ذلك دخیل في الاعتماد على قول اللغوي أو عدم الاعتماد عليه، وأن يكون على إحاطة بأحاديث أهل البيت عليهم السلام وروايتها بالتفصيل، فإن علم الرجال فن ضروري للمجتهد لتحصيل الوثوق الموضوعي التام بصلاحية المدرك.

وله آراء خاصة يخالف بها المشهور مثلاً ما اشتهر من عدم الاعتماد بقده ابن الغضائري، أما لكثرة قدحه أو لعدم ثبوت نسبة الكتاب إليه، فإن لا يرتضي ذلك، بل يرى ثبوت الكتاب، وإن ابن الغضائري هو المعتمد في مقام الجرح والتعديل أكثر من

لكبرى أخرى تعم الصلاة وغيرها من الواجبات، وهذه الكبرى موجودة في ذيل النص ولا تنقض السنة الفريضة، فالمناط هو تقديم الفريضة على السنة في الصلاة وغيرها، ومن مصاديق هذا التقديم هو تقديم الوقت والقبلة... الخ على غيرها من أجزاء الصلاة وشرائطها؛ لأن الوقت والقبلة من الفرائض لا من السنن.

و - النظرة الاجتماعية للنص: إن من الفقهاء من هو حر في الفهم بمعنى أنه جامد على حدود حروف النص من دون محاولة التصرف في سعة دلالات النص، وهناك من الفقهاء من يقرأ أجواء النص والظروف المحيطة به ليتعرف مع سائر الملابس التي تؤثر على دلالاته.

فمثلاً ما ورد من أن رسول (الله صلى الله عليه وآله وسلم) حرم أكل لحم الحُمُر الأهلية يوم خيبر، فلو أخذنا بالفهم الحرفي لقلنا بالحرمة أو الكراهة لأكل لحم الحمر الأهلية، ولو اتبعنا الفهم الاجتماعي لرأينا أن النص ناظر لظرف حرج، وهو ظرف الحرب مع اليهود في خيبر، والحرب تحتاج لنقل السلاح والمؤنّة، ولم تكن هناك وسائل نقل إلا الدواب ومنها الحمير، فالنهى في الواقع

الحاجة للبحث، كما صنع سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله عندما دخل في بحث استعمال اللفظ في عدة معان، حيث بحثه الأصوليون من زاوية الإمكان والاستحالة، كبحث عقلي فلسفي لا ثمرة عملية تترتب عليه، وبحثه من حيث الوقوع وعدمه، لأنه أقوى دليل على الإمكان، وبحثه كذلك من حيث الاستظهار وعدمه.

وعندما دخل في بحث التعادل والتراجيح رأى أن سر البحث يكمن في علة اختلاف الأحاديث، فإذا بحثنا وحددنا أسباب اختلاف النصوص الشرعية انحلت المشكلة العويصة التي تعترض الفقيه والباحث والمستفيد من نصوص أهل البيت عليهم السلام، وذلك يغنينا عن روايات التريج والتغيير، كما حملها صاحب الكفاية على الاستحباب، وهذا البحث تناوله غيره كالسيد الصدر رحمته الله ولكنه تناوله بشكل عقلي صرف، أما السيد فإنه حشد فيه الشواهد التاريخية والحديثية، وخرج منه بقواعد مهمة لحل الاختلاف، وقام بتطبيقها في دروسه الفقهية أيضاً.

هـ - المقارنة بين المدارس المختلفة: إن المعروف عن كثير من الأساتذة حصر البحث في مدرسة معينة أو اتجاه خاص، ولكن

النجاشي والشيخ وأمثالهما، ويرى الاعتماد على منهج الطبقات في تعيين الراوي وتوثيقه، ومعرفة كون الحديث مُسنداً أو مُرسلاً على ما قرره السيد البروجردي رحمته الله.

ويرى أيضاً ضرورة الإلمام بكتب الحديث، واختلاف النسخ، ومعرفة حال المؤلف، من حيث الضبط والتثبت ومنهج التأليف، وما يشاع في هذا المجال من كون الصدوق أضبط من الشيخ فلا يرتضيه، بل يرى الشيخ ناقلاً أميناً لما وجدته من الكتب الحاضرة عنده بقرائن يستند إليها.

فهذه الجهات الخيرية قد لا يعتمد عليها كثير من الفقهاء في مقام الاستنباط، بل يكتفي بعضهم بالظهور الشخصي من دون أن يجمع القرائن المختلفة لتحقيق الظهور الموضوعي، بل قد يعتمد على كلام بعض اللغويين بدون التحقيق في المؤلف، ومنهج التأليف وقد لا يكون لبعض آخر أي رصيد في علم الرجال والخبرة بكتب الحديث.

إلا أن سماحة السيد والسيد الشهيد الصدر رحمته الله يختلفان في هذا المنهج، فيحاول كل منهما محاولة الإبداع والتجديد، أما في صياغة المطلب بصياغة جديدة تتناسب مع

بالفكر القانوني المعاصر تزود الإنسان بخبرة قانونية يستعين بها على تحليل القواعد الفقهية وتوسعة مداركها وموارد تطبيقها.

ج - التجديد في الأطروحة: إن معظم علمائنا الأعلام يتلقون بعض القواعد الفقهية بنفس الصياغة التي طرحها السابقون، ولا يزيدون في البحث فيها إلا عن صلاحية المدرك لها أو عدمه، ووجود مدرك آخر وعدمه، أما سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله فإنه يحاول الاهتمام في بعض القواعد الفقهية بتغيير الصياغة، مثلاً بالنسبة لقاعدة الإلزام التي يفهمها بعض الفقهاء من الزاوية المصلحية بمعنى أن للمسلم المؤمن الاستفادة في تحقيق بعض رغباته الشخصية من بعض القوانين للمذاهب الأخرى، وإن كان مذهبه لا يقرها، بينما يطرحه سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله على أساس الاحترام، ويسميها بقاعدة الاحترام، أي احترام آراء الآخرين وقوانينهم، وانطلاقه من حرية الرأي وهي على سياق - لكل قوم نكاح - هل هناك أروع من تلك المفاهيم التي تعلمها السيد صغيراً، وعلمها للناس مرجعاً!؛

سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله يقارن بحثه بين فكر مدرسة مشهد وفكر مدرسة قم وفكر مدرسة النجف، فهو يطرح آراء الميرزا مهدي الإصفهاني رحمته الله من علماء مشهد، وآراء السيد البروجردي رحمته الله كتعبير عن فكر مدرسة قم، وآراء المحققين الثلاثة والسيد الخوئي رحمته الله والشيخ حسين الحلبي رحمته الله كمثال لمدرسة النجف، وتعدد الاتجاهات هذه يوسع أماننا زوايا البحث والرؤية الواضحة لواقع المطلب العلمي.

وأما منهجه الفقهي فله فيه منهج خاص يتميز في تدريس الفقه وطرحه، ولهذا المنهج عدة ملامح وهي ^(٢٣):

أ - المقارنة بين فقه الشيعة وفقه غيرهم من المذاهب الإسلامية الأخرى، فإن الإطلاع على الفكر الفقهي السني المعاصر لزمان النص كالإطلاع على موطأ مالك وخراج أبي يوسف وأمثالهم، يوضح أماننا مقاصد الأئمة عليهم السلام ونظرهم حين طرح النصوص.

ب - الاستفادة من علم القانون الحديث في بعض المواضيع الفقهية، كمراجعته للقانون العراقي والمصري والفرنسي عند بحثه في كتاب البيع والخيارات، والإحاطة

معالم شخصيته

النجم معروفة بالحوار الساخن بين الزملاء أو الأستاذ وتلميذه، وذلك مما يصقل ثقافة الطالب وقوته العلمية، وأحياناً قد يكون الحوار جدلاً فارغاً لا يوصل لهدف علمي، بل مضمونه إبراز العضلات في الجدل وقوة المعارضة، وذلك مما يستهلك وقت الطالب الطموح، ويبعده عن الجو الروحي للعلم والمذاكرة، ويتركه يحوم في حلقة عقيمة دون الوصول للهدف.

أما بحث سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله فإنه بعيد كل البعد عن الجدل وأساليب الإسكات والتوهين، فهو في نقاشه آراء الآخرين أو مع أساتذته يستخدم الكلمات المؤدبة التي تحفظ مقام العلماء وعظمتهم حتى ولو كان الرأي المطروح واضح الضعف والاندفاع، وفي إجابته لاستفهامات الطالب يتحدث بانفتاح وبروح الإرشاد والتوجيه، ولو صرف التلميذ الحوار الهادف إلى الجدل الفارغ عن المحتوى، فإن سماحة السيد السيستاني رحمته الله يحاول تكرار الجواب بصورة علمية، ومع إصرار الطالب فإن السيد الأستاذ حينئذ يفضل السكوت على الكلام.

ج - خلق التربية: التدريس ليس وظيفة

بيروي المقربون من السيد بأن من يعاشر سماحة آية ويتصل به يرى فيه شخصية فذة تتمتع بالخصائص الروحية والمثالية التي حث عليها أهل البيت عليهم السلام، والتي تجعل منه ومن أمثاله من العلماء المخلصين مظهرًا جلياً لكلمة عالم رباني، ومن أجل وضع النقاط على الحروف؛ نطرح بعض المعالم الفاضلة التي رأها أحد تلامذته عند اتصاله به درساً ومعاشرة (٢٤):

أ - الإنصاف واحترام الرأي: إن سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله انطلاقاً من عشقه للعلم والمعرفة ورغبة في الوصول للحقيقة، وتقديساً لحرية الرأي والكلمة البناءة، تجده كثير القراءة والتتبع للكتب والبحوث، ومعرفة الآراء حتى آراء زملائه وأقرانه أو آراء بعض المغمورين في خضم الحوزة العلمية، فتراه بعض الأحيان يشير في بحثه لرأي لطيف لأحد الأفاضل مع أنه ليس من أساتذته، فطرح هذه ومناقشتها مع أنها لم تصدر من أساطين أساتذته يمثل لنا صورة حية من صور الإنصاف واحترام آراء الآخرين.

ب - الأدب في الحوار: إن بحوث

العلمية به، وكان يدفعنا لمقارنة بحثه مع البحوث المطبوعة، والوقوف عند نقاط الضعف والقوة، وكان يؤكد دائماً على احترام العلماء والالتزام بالأدب في نقاش أقوالهم، ويتحدث عن أساتذته وروحياتهم العالية، وأمثال ذلك من شواهد الخلق الرفيع.

د - الورع: إن بحوث النجف ظاهرة جلية في كثير من العلماء والأعظم، وهي ظاهرة البعد عن مواقع الضوضاء والفتن، وربما يعتبر هذا البعد عند بعضهم موقفاً سلبياً لأنه هروب من مواجهة الواقع وتسجيل الموقف الصريح المرضي للشرع المقدس، ولكنه عند التأمل يظهر بأنه موقف إيجابي وضروري أحياناً للمصلحة العامة ومواجهة الواقع، وتسجيل الموقف الشرعي يحتاج لظروف موضوعية وأرضية صالحة تتفاعل مع هذا الموقف.

فلو وقعت في الساحة الإسلامية أو المجتمع الحوزوي إثارات وملاسات، بحيث تؤدي لطمس بعض المفاهيم الأساسية في الشريعة الإسلامية وجب على العلماء بالدرجة الأولى التصدي لإزالة الشبهات وإبراز الحقائق الناصعة، فإذا ظهرت البدع وجب على العالم أن يظهر علمه فإن لم يفعل سلب

رسمية أو روتينية يمارسها الأستاذ في مقابل مقدار من المال، فإن هذه النظرة تبعد المدرس عن تقويم التلميذ والعناية بتربيته والصعود بمستواه العلمي للتفوق والظهور، كما أن التدريس لا يقتصر على التربية العلمية من محاولة الترشيد التربوي لمسيرة الطالب، بل التدريس رسالة خطيرة تحتاج مزاولتها لروح الحب والإشفاق على الطالب، وحثه نحو العلم وأدابه، وإذا كان يحصل في الحوزة أو غيرها أحياناً رجال لا يخلصون لمسؤولية التدريس والتعليم، فإن في الحوزات أساتذة مخلصين يرون التدريس رسالة سماوية، لا بد من مزاولتها بروح المحبة والعناية التامة بمسيرة التلميذ العلمية والعملية.

وقد كان الإمام الحكيم عليه السلام مضرب المثل في خلقه التربوي لتلامذته وطلابه، وكذلك كانت علاقة الإمام الخوئي عليه السلام بتلامذته، فلقد رأيتُ هذا الخلق متجسداً في شخصية سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني عليه السلام فهو يحث دائماً بعد الدرس على سؤاله ونقاشه فيقول: اسألوا ولو على رقم الصفحة، لبحث معين أو اسم كتاب معين حتى تعادوا على حوار الأستاذ والصلة

المعاصرة، بحيث تكون الفتوى، في نظره طريقاً صالحاً للخير في المجتمع المسلم.

سماحة السيد يتصدى للظفيان

من الخصال العظيمة التي تحلّى بها علماء الشيعة المراجع - علي مّر التاريخ - أنهم يعيشون آلام الناس ويتحسسون مشاكلهم ويندمجون مع القواعد الشعبية، ويقدمون لهم الخدمات الجليلة في شتى المجالات، ولهم النصيب الأوفر في المساهمة لحل المشكلات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تعانيها المجتمعات الإسلامية فضلاً عن تبيان وتبليغ أحكام الشريعة المحمدية الغراء والإجابة على مسائل الحلال والحرام محل الابتلاء، وأبرز ما يميز المرجعية الشيعية منذ وجودها الأول، انفصالها عن الأنظمة السياسية الحاكمة بكل شيء واعتمادها على إمكاناتها الخاصة وأبناء الطائفة الشيعية في كل ما يلزم لبقائها واستمرارها كقيادة شرعية وزعامة روحية يلجأ إليها الناس عند الأزمات لترشدتهم إلى الحلول الصحيحة.

ومع تقادم الظروف السيئة التي فرضها النظام السابق البعثي في العراق على

منه نور الإيمان، كما جاء في الحديث، ولكن لو كان مسار الفتنة مساراً شخصياً وجوياً مفعماً بالمزايدات والتعصبات العرقية والشخصية لمرجع معين أو خط معين، أو كانت الأجواء تعيش حرباً دعائية مؤججة بنار الحقد والحسد المتبادل، فإن علماء الحوزة منهم سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله يلتزمون دوماً الصمت والوقار والبعد عن هذه الضوضاء الصاخبة، كما حدث بعد وفاة السيد البروجردي رحمته الله ووفاته السيد الحكيم رحمته الله، وما يحدث غالباً من التنافس على الألقاب والمناصب والاختلافات الجزئية، كما هو الحال في يومنا الحاضر، مضافاً لزهده المتمثل في لباسه المتواضع ومسكنه الصغير الذي لا يملكه وأثاثه البسيط.

هـ - الإنتاج الفكري: سماحة آية الله العظمى السيد السيستاني رحمته الله ليس فقيهاً فقط، بل هو رجل مثقف مطلع على الثقافات المعاصرة، ومتفتح على الأفكار الحضارية المختلفة، ويمتلك الرؤية الثاقبة في المسيرة العالمية في المجال الاقتصادي والسياسي، وعنده نظرات إدارية جيدة وأفكار اجتماعية مواكبة للتطور الملحوظ، واستيعاب للأوضاع

عناء بالغاً من جراء ذلك، وكاد أن يسفر عدة مرات، وتم تسفير مجاميع من تلامذته وطلاب مجلس درسه في فترات متقاربة، ثم كانت الظروف القاسية أيام الحرب العراقية الإيرانية، ولكن على الرغم من ذلك فقد أصر السيد على البقاء في النجف الأشرف، وحدد النظام البعثي إقامته، وظل ممنوعاً من الحديث حتى سقوط النظام البعثي الذي جرّ العراق للاحتلال الأمريكي بسبب فساده وطغيانه، ولقد واجه السيد المحنة بعد الانتفاضة الشعبانية عام ١٩٩١ عندما قتل صدام حسين مئات الآلاف من الشيعة في الجنوب، وذلك بدون أن يقدم لهم أحد أية معونة، بل كانت الدول العربية والأوربية عوناً لصدام بعد انسحابه الذليل من الكويت ضد الشيعة، ولكنهم وفي ذات الوقت منعوا صدام من الخروج وراء الأكراد، بل منعه من عبور الحدود الشمالية في كردستان، وتركوه يفعل بالشيعة كل قتل دون أن يعترض أحد من العرب، ورغم هذا الموقف المشين لم يقم السيد أبو القاسم الخوئي أو السيد علي السيستاني من بعده بإصدار أي فتوى ضد أهل السنة على الإطلاق، ولمن يريد التأكد أن يرجع لفتاوى السيد وغيره من الإعلام من

المناطق الشيعية والمدن المقدسة كالنجف وكربلاء، تصدى المرجع الديني آية الله العظمى السيد علي الحسيني السيستاني لحل واحدة من أكبر المشاكل التي يصطنعها النظام للنيل من أبناء الطائفة الشيعية التي عرفت بجهادها لحكمه الجائر المتجبر، تلك هي مشكلة انقطاع التيار الكهربائي عن المدن (المقدسة)، وفق برنامج ظالم لا يراعي أبسط قواعد الأخلاق ولا يعترف بأية حقوق للإنسان، فقام المرجع السيستاني بنصب مولدات للطاقة الكهربائية على حسابه الخاص لتغذي أغلب المناطق السكنية في مدينة النجف الأشرف، كما أنه خصص من أموال الخمس رواتب شهرية للعديد من العوائل المحتاجة والمتضررة من سياسة النظام الرعناء، إلا أن ذلك لم يرق لزمرة العفالة الحاكمين فقاموا باستدعاء سماحته للمرة الثانية خلال الأشهر الخمسة الأخيرة وتحذيره من الاستمرار في مشروعاته الإنسانية قائلة له بالحرف الواحد (لا تتدخل بالسياسة)، ولكنه صمد ضد الطغيان، ثم قام حزب البعث الحاكم في العراق سابقاً بعمليات تسفير واسعة للعلماء وسائر الطلاب الأجانب في حوزة النجف، ولاقى السيد السيستاني

حتى الذين لعبوا دورا في مباشرة في قتل الأبرياء، ويعزو البعض لهذه الفتاوى الفضل في الإسهام بحفظ الأمن والنظام إلى حد كبير في المناطق الشيعية من البلاد.

كما يعزى إليها الفضل في الحد من عمليات السلب والنهب والفضى التي عاثت في البلاد فسادا عقب سقوط النظام المخلوع، وأكد السيستاني في هذه الفتاوى المنشورة على موقعه على الإنترنت على ضرورة أن لا يتم القصاص من مرتكبي الجرائم من عناصر النظام المخلوع إلا «بعد ثبوت الجريمة في المحكمة الشرعية».

كما أفتى السيستاني بعدم جواز الاحتفاظ بمقتنيات المتحف العراقي التي نهبت بعد الحرب أو شرائها من قبل الناس، وأوجب على من يقع في يده شيء من تلك المقتنيات «إعادته إلى المتحف العراقي».

وأفتى السيد السيستاني أيضا بحرمة استخدام الممتلكات المسروقة من الدوائر الحكومية والتصرف بها، حاثا الناس على تسليم تلك المواد «إلى الجهات ذات الصلاحية».

وسماحته بهذه الفتاوى وضع الأمور في نصابها، وأكد أنه لا تار بدون محاكمة عادلة،

شيعه أهل البيت، أي أن موقف التسامح في زمن الإرهاب الفكري الشرقي والغربي على السواء، وقد تعامل السيد مع الطغيان الصدامي بموقف الحكيم الذي يمنع الأذى عن الناس، وهو ما قام به السيد بعد أن احتلت الولايات المتحدة الأمريكية العراق عام ٢٠٠٣م.

سماحة السيد وموقفه من احتلال العراق

أدرك السيد علي السيستاني أن احتلال العراق ليس إلا مقدمة طويلة لهذا الاحتلال فسعى منذ البداية نحو أمرين هامين، وأعتقد أنهما ساهما في استقرار العراق رغم أنف الاحتلال، ويعتبران من ضمن المقاومة لذلك الاحتلال الأمريكي..

الأول: هو منع الشيعة والسنة من التار من عناصر كانت تحكم وتعذب أيام صدام حسين لأنه يعلم أن التار لا يجاب إلا التار والمتضرر الوحيد هو الشعب العراقي، ولذلك فإنه أصدر، منذ أن وضعت الحرب أوزارها، سلسلة من الفتاوى تحت العراقيين على عدم اللجوء بأنفسهم إلى أعمال تارية ضد عناصر في نظام الرئيس العراقي المخلوع صدام حسين وأجهزته الأمنية وأعضاء حزب البعث،

لسماحة السيد كما أنه طالب بعدم استخدام الرموز الدينية في الانتخابات، ونصح بعدم استخدام الرموز الدينية وصوره الشخصية من قبل الكيانات والمرشحين في الانتخابات، وقد كان ذلك تمهيدا لمقاومة الاحتلال سلميا أقسى من كل أنواع المقاومات، وفي ظل الوضع الأمني المتفجر، خاصة عندما دخل التكفيريون العراق وتحالفوا مع أذنان النظام البعث، فقد أرادوا تفجير الوضع، وقتل الشيعة على وجه الخصوص لكي تنتهيا لهم أرضية انسحاب الشيعة من الحكم رغم أنهم الأغلبية، وكان موقف السيد من تلك الهجمة غير المسبوقة هو احتواء الفتنة التي أراد الاحتلال والتكفيريون معا لأهداف مختلفة، ولكنها تتفق على منع الشيعة من الحكم، وقد قال الزرقاوي القاتل: لو قتلناهم أو قتلنا منهم الكثيرين لتراجع الشيعة عن مكاسبهم في الحكم، ولا نعلم كيف يستقيم هذا الفهم الأعوج للأمور، ومن جعل الزرقاوي القاتل وغيره متحدثين اسم الإسلام أو باسم أهل السنة، وعلى العموم كان موقف سماحة السيد رائعا ورساليا، وكان هو الذي فوت الفرصة على التكفيريين والمحتلين والبعثيين، فجميعهم أردوا الاقتتال بين

فكان السيد يدور في فلك الفتنة بحنكة الرسالي، فقد اتخذ مقولة الإمام علي عليه السلام: «الفتنة إذا أقبلت شبهت إذا أدبرت نبهت، فكن فيها كابن اللبون لا ضرعا فيحلب ولا ظهرا فيركب»، وقد خرج السيد بالعراقيين إلى جو الوئام مبكرا^(٢٤).

أما الثاني: فهو مقاومته للاحتلال منذ البداية، وهي مقاومة سلمية أتت أكلها، فتمكنت من كبح غرور قوات الاحتلال، فبعد الاحتلال مباشرة حاول بول بريمر أن يقابل سماحته مرارا كثيرة، ولكنه رفض، وأعلمه أن من الخير للأمريكان أن يجلوا عن العراق، وعندما حاول بريمر نقل السلطة للعراقيين، أصر سماحة السيد على ضرورة إجراء انتخابات عامة قبل انتقال السلطة إلى العراقيين بحلول الأول من يونيو ٢٠٠٤م، في حين عارض مجلس الحكم العراقي ذلك، معتبرا أنه يتعذر إجراء انتخابات بعد انتقال السلطة للعراقيين، وقد ثبت صدق السيد وفراسته، وقد جرت الانتخابات بالفعل واتت بمن يحكم العراق الذين سواء اختلفنا أو انفقنا معه، لا يمكن إنكار أنهم جاؤوا عبر انتخابات نزيهة بالمقارنة بأية انتخابات تجري في أي دولة عربية، والفضل في ذلك يرجع

بوحدة الصف، ولعل ما حدث في لبنان يؤكد تلك النظرة، فبعد انتصار حزب الله على الكيان الصهيوني عام ٢٠٠٦م، تكالبت كل القوى الدولية على لبنان لتؤجج الصراع الطائفي وتفرغ النصر الذي تحقق من مضمونه، فقد تم إنشاء جناح تكفيري في نهر البارد ليوازي حزب الله، ولكنه اصطدم مع السلطة، وما يعيننا أن رؤية سماحة المرجع الأعلى هي رؤية صائبة، وهو ما نقرأه في السطور التالية.

السنة والشيعية، كل حسب ما خطط له، ولكن السيد منع ذلك بحكمته السياسية وصدقه الديني، فقد رأى أن المقاومة المسلحة ضد الاحتلال في ظل الفرقة بين العراقيين وقيام التكفيريين بقتل غيرهم من الشيعة والسنة والأكراد والمسيحيين واليزيديين يعني خدمة الاحتلال وإطالة أمده، وأي محاولة للمقاومة في ظل تلك الفرقة والقتل على الهوية لن يخدم المقاومة، ومن ثم كانت مواقفه رائعة وبقينية ومستمدة من رؤية الإسلام، لأن الاستعداد للعدو بالقوة، لا يكون أولاً إلا

المبحث الثالث

دور سماحة السيد في وأد الفتنة في العراق

مما سبق وأوضحناه عن علم وزهد وورع السيد، وأيضا مقاومته للظلم البعثي والعدوان الاستبدادي، وكذلك خلفيته المرجعية المنتمية لتراث أهل البيت عليهم السلام، نجد أنه عندما قامت الولايات المتحدة باحتلال العراق، حاولت أن تفرق العراقيين على أسس مذهبية، من خلال الصراع بين السنة والشيعة، كما أن الأخطر من ذلك هو دخول التكفيريين إلى العراق من أجل قتل كل المخالفين لهم في المذهب وخاصة الشيعة، بالإضافة إلى التصريحات السياسية التي اختلطت بالدين، تلك الني خوفت السنة من التمدد الشيعي أو الهلال الشيعي، وأيضا زعم البعض من السياسيين بأن ولاء الشيعة لإيران أكثر من أوطانهم، وإذا أضفنا شيوخ الوهابية التكفيرية التي نادت بنصرة أهل السنة في العراق، وهي نداءات باطلة، ولكن التكفيريين استغلوها لصالحهم، وأقاموا المجازر للمسلمين غير التكفيريين، ولكنهم خصّوا الشيعة بالقتل أكثر من غيرهم، وصبغت الدماء العتبات المقدسة، وكان على السيد أن يتعامل مع كل تلك القضايا، وهو ما قام به بالفعل، فقد أكد أكثر من مرة وفي مناسبات متعددة على حرمة دم كل مسلم سنياً كان أو شيعياً وحرمة عرضه وماله، والتبرؤ من كل من يسفك دماً حراماً أيّاً كان صاحبه.

ودعا سماحته أبناء الأمة الإسلامية إلى رص الصفوف ونبذ الفرقة والابتعاد عن النعرات الطائفية وتجنب إثارة الخلافات المذهبية، والتركيز على توثيق أواصر المحبة والمودة بين أبناء الأمة، ومشيرا بأن هناك بعض الأشخاص والجهات يعملون على تكريس الفرقة والانقسام وتعميق هوة الخلافات الطائفية بين المسلمين، والذين زادوا من جهودهم في الآونة الأخيرة في

ومفيدا بان الهدف من نشر تلك الفتاوى هو النيل من المرجعية الدينية.

ونخص بالذكر تصريحاته القيمة المستمرة المؤكدة على هامشية الخلافات بين الشيعة والسنة، والتي منحها تصريحه في افتتاح الملتقى الأول لعلماء السنة والشيعة في العراق الذي انعقد في مدينة النجف الأشرف بتاريخ ٢٨/١١/٢٠٠٧، بعدم وجود خلافات حقيقية بين السنة والشيعة، ودعوته للشيعة بالدفاع عن الحقوق الاجتماعية والسياسية للسنة قبل أبناء السنة أنفسهم.

وتوصيته للشيعة بأن لا يقولوا «إخواننا السنة» وأن يقولوا بدلا من ذلك: «أنفسنا أهل السنة».

وكذلك قوله «بأن الإسلام هو الذي يجمعنا معا، وأنا متحدون في كعبة واحدة وصلاة واحدة وصوم واحد»،. وسؤاله ممن يريد التحول إلى التشيع من أهل السنة: لماذا؟ وتأكيدهم له بأن أئمة السنة دافعوا عن ولاية أهل البيت عليهم السلام.

وكل ذلك يكشف عن عمق إيمانه بالوحدة الإسلامية، وبضرورة تجاوز الصراعات الطائفية القديمة والبائدة.

سماحة السيد يبرئ السنة من تفجير

أعوام ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٧م، بعد تصاعد الصراعات السياسية في المنطقة واشتداد النزاع على السلطة والنفوذ فيها، مستخدمين أساليب الدسّ والبهتان لتحقيق ما يصبون إليه من الإساءة إلى مذهب معين والتفكيك من حقوق أتباعه وتخويف الآخرين منهم.

وأوصى السيد أتباعه ومقلديه في التعامل مع إخوانهم من أهل السنة بالمحبة والاحترام، ولأن هناك من يتربص بالشيعة خصوصا والعراق عموما، فقد أعلن التكفيريون فتاوى منسوبة ظلما وبهتاننا للسيد، على أساس أنه هو الذي أصدر تلك الفتاوى التي تحرض على المسلمين السنة، فأصر مكتب سماحته بيانا الصادر فيه توضيح ورد السيد على ما يقوم به البعض عبر نشر فتاوى غريبة تسيء إلى المذاهب الإسلامية وتزيد من الاحتقان الطائفي.. وتنسبها إليه، داعيا إلى اخذ الفتاوى من مصادرها الموثوقة - ككتب السيد الفتوائية المعروفة الموثقة بتوقيعه وختمه - وليس فيها ما يسيء إلى المسلمين من سائر الفرق والمذاهب أبداً، ويعلم من له أدنى إمام بها كذب ما يقال وينشر خلاف ذلك.

كما أصدر مكتب السيد السيستاني بياناً بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لتفجيرات سامراء، دعا فيه الشيعة لأن «يراعوا أقصى درجات الانضباط» خلال إحيائهم لهذه المناسبة، وذلك بـ «عدم الإساءة قولاً أو فعلاً للعراقيين من أهل السنة، والذين هم براء من تلك الجريمة النكراء، ولا يرضون بها قولاً أو فعلاً»^(٢٦).

تأييد سماحة السيد لمؤتمر الدوحة للتقريب

وفي سبيله لدعم الوحدة الإسلامية، فإنه وبعد مؤتمر التقريب بين المذاهب الذي استضافته العاصمة القطرية الدوحة بمشاركة أكثر من مائتي عالم وأكاديمي من السنة والشيعة، دعا سماحة السيد السيستاني يوم ٢٠٠٧/٢/٣م كافة العراقيين إلى وحدة الصف ونبذ الفرقة والابتعاد عن النعرات الطائفية وتجنب إثارة الخلافات المذهبية، مؤكداً على ما دعا إليه مؤتمر الدوحة من ضرورة التركيز على المشتركات لتوثيق أواصر المحبة، وبذل ما في وسع أبناء الأمة الإسلامية في سبيل التقريب بينهم.

وشدد السيد السيستاني في بيان صدر

مرقد الإمامين العسكريين، وفي إحدى هذه التصريحات برأ السيد السيستاني طائفة السنة من تفجير مرقد الإمامين علي الهادي والحسن العسكري بمدينة سامراء، ودعا الشيعة لعدم التعرض لهم بالقول أو الفعل، وفي تصريح ثان دعا الحكومة لمعاقبة مرتكبي جرائم الاغتصاب بغض النظر عن انتمائهم المذهبي، وفي ثالث شدد على أهمية وحدة المسلمين سنة وشيعة^(٢٥).

وأبدى أئمة السنة ارتياحهم لهذه التصريحات، داعين حكومة بلادهم ذات الأغلبية الشيعية للانصياع لنداءات السيد السيستاني باعتباره مرجعية شيعية كبيرة، حظيت الحكومة بدعمه في فترات طويلة، ومنها الصادر عن مكتبه الداعية للوحدة والإنصاف، جاءت على لسان ممثله أحمد الصافي أثناء إلقائه خطبة الجمعة ٢٣ - ٢ - ٢٠٠٧ في مدينة كربلاء؛ حيث طالب «بمعاقبة مرتكبي الجرائم (الاعتصاب) بغض النظر عن مذاهبهم وانتمائهم السياسي».

ودعا الصافي الحكومة العراقية «إلى تطبيق خطة أمن بغداد على جميع مناطقها، وعدم استثناء أي منها لاعتبارات سياسية أو طائفية».

في العراق من تناحر طائفي نتج عن عدم التمسك بنهج المصالحة بين العراقيين بقوله: «لو جرى الجميع وفق هذا المنهج مع من يخالفونهم في المذهب لما آلت الأمور إلى ما نشهده اليوم من عنف أعمى يضرب كل مكان وقتل فظيع لا يستثني حتى الطفل الصغير والشيخ الكبير والمرأة الحامل، وإلى الله المشتكى»، ونعم فالإلى الله المشتكى، ولذلك فقد عقد في النجف مؤتمرا لعلماء العراق من سنة وشيعة خرجوا منه بضرورة نهج المصالحة، وقد صب المؤتمر في النهاية في اعتقاد كل العراقيين بأن هذا النهج التصالحي هو السبيل الأوحده لوحدة الصف العراقي، كما أن منهج السيد السيستاني هو الذي فرغ الدعوات الطائفية التي جاءت من خارج العراق، فقد كانت هذه الدعوات الطائفية التي تزعم مناصرة السنة في العراق توجب القتل الطائفي الذي يقوم به التكفيريون، ولا ننسى علماء من خارج العراق دعوا لنصرة أهل السنة والجماعة، وعالم آخر هاج وادعى أن الشيعة يحاولون تشييع البلاد السنية، وكل هذا الدعوات الزائفة انهارت بفضل مواقف السيد، ولا أحد يستطيع المزايدة عليه أو على مواقفه

عن مكتبه على أهمية «التركيز على المشتركات بين طوائف الأمة» قائلا: «ينبغي لكل حريص على رفعة الإسلام وورقي المسلمين أن يبذل ما في وسعه في سبيل التقريب بينهم، والتقليل من حجم التوترات الناجمة عن بعض التجاذبات السياسية لئلا تؤدي لمزيد من التفرق والتبعثر وتفسح المجال لتحقيق مآرب الأعداء الطامعين في الهيمنة على البلاد الإسلامية والاستيلاء على ثرواتها»^(٢٨).

إن تصريحات السيد السيستاني المستمرة الداعية لوحدة الصف العراقي، وعدم التعرض لأهل السنة في العراق اعتبرها علماء سنة في العراق مهمة ومفيدة للحفاظ على وحدة العراق، خصوصا مع استمرار الخطابات والدعوات الطائفية التي تحرك من ورائها عناصر الميليشيات التي تقتل وتهجر على الهوية والطائفة، وكان ذلك من أهم الأسباب التي جعلت العراقيين ينفرون من التكفيريين والقاعدة، ومن ثم قل العنف الذي كان يقوم به هؤلاء التكفيريون، ولولا سماحته ما قل العنف بهذا الشكل.

المصالحة

لقد اعتبر سماحة السيد أن ما يحدث

العوامل والأسباب المؤدية إلى بث التفرقة واسترخاض دم المسلم وغيره.

كما طالب الكربلائي في خطبته بـ «وقف الخطابات التحريضية ذات الطابع الطائفي وتلك التي تدعو إلى تكفير الآخرين»، مشيراً إلى أن «هذه الخطابات لم تعد تهدد العراق فحسب بل أصبح خطرها على الأمة الإسلامية وأساءت إلى سمعة الإسلام أمام شعوب العالم»^(٣٠).

واعتبر أن «الحوار يمثل ركيزة أساسية للوصول إلى حل ناجح وليس من الصحيح تأطيره في إطار طائفي مع التسليم بوجود اختلاف عقائدي وفقهي بين الطائفتين الشيعية والسنية».

إن مواقف السيد السيستاني رحمته الله تتناقض مع مواقف كثيرة لعلماء عراقيين سنة دعوا كثيراً للفتنة ربما عن حسن نية وليس عن سوء قصد، ولكنهم في النهاية كانوا يخدمون التكفيريين بدون أن يدروا، فهذا عالم دين كبير يستصرخ في مؤتمر اسطنبول أهل السنة في العالم ضد الشيعة، ويقول إنهم يقتلون السنة في العراق، في بغداد الرشيد، وآخر يدعي زورا وبهتاناً بأن القتل في الفلوجة والرمادي كانوا مقاومين رغم أنهم قتلوا الشيعة

المستمدة من الإسلام الذي جاء على محمد صلوات الله عليه وآله وما مثله في أهل بيته الكرام عليهم السلام.

موقف السيد من مؤتمر مكة المكرمة

عندما انعقد مؤتمر مكة لقيادات الشيعة والسنة كان السيد أشد المناصرين له، لأن يتفق مع توجهه الرسالي، وأعلن رئيس الوقف الشيعي بالعراق صالح الحيدري أن آية الله السيد علي السيستاني يبارك جهود مؤتمر مكة المكرمة للقيادات السنية والشيعة العراقية، وأنه: يبارك كل الخطوات الخيرة لإيقاف نزيف الدم العراقي^(٢٩).

وأتي الإعلان عن مباركة السيد السيستاني للمؤتمر بعد دعوة الشيخ عبد المهدي الكربلائي وكيل سماحة السيد السيستاني المؤتمرين بمكة إلى وضع وثيقة «تمنع الخطابات التحريضية وتكفير الآخرين» وعدم الاكتفاء بالمطالبة بـ «وقف نزيف الدم».

وخلال خطبة الجمعة التي ألقاها أمام آلاف المصلين في مرقد الإمام الحسين في كربلاء قال الكربلائي: «لا بد من وضع وثيقة تحرم ليس فقط الدم وإنما جميع

لمواقفه شأن آخر، أي أن موقف سماحة السيد من الاتفاقية الأمنية بين العراق والولايات المتحدة الأمريكية يتفق مع كل مواقفه الداعية لوحدة الشعب العراقي ووحدة أرض العراق ومقاومة الاحتلال، لقد رأي سماعته بأن العراق تعرض للاحتلال بسبب الاستبداد، وهو يرى أن الاحتلال أسوأ من الاستبداد، وأن الشعب العراقي هو الذي يجب أن يختار الاتفاقية، ليس فقط من خلال أعضاء البرلمان العراقي، ولكن جموع الشعب نفسه، فقد قال سماعته بأن المرجعية تترك حكم القبول أو عدمه على الاتفاقية للشعب العراقي من خلال الاستفتاء الذي سيجري بعد عدة أشهر وهو ما سوف يحدث في صيف عام ٢٠٠٩، وفي نفس الوقت عبّر سماعته عن قلقه من أمور عدة؛ أولها «عدم حصول التوافق الوطني هو ما يتسبب في عدم استقرار أوضاع البلاد، وعدم تكامل الاتفاقية ووضوحها في بعض المسائل كمسألة القضاء، ومسألة دخول وخروج القوات الأمريكية».

وقال «إن المرجعية قلقة من عدم ضمان خروج العراق من البند السابع، وامتلاكه سيادته المعترف بها بين الدول،

والسنة وأقاموا المحاكم السورية وقتلوا الأبرياء وتحصنوا في المساجد، ولكن السيد السيستاني لم يصدر منه إلا كل تبرئة لأهل السنة، يقابل الإساءة بالإحسان عن علم ووعي، وعن فقه وورع، عن خلفية تراثية رسالية قرآنية ونبوية وإمامية، تحرص على وحدة الأمة حتى لو كانت الشيعة وحدهم هم المتضررون من تلك الوحدة، وهو ما حدث في الماضي البعيد على يد الأئمة، وهو ما أصله سماحة السيد ومازال يمثل ويؤصله اليوم.

موقف سماعته من الاتفاقية الأمنية

لابد من التأكيد على أن سماحة السيد يدخر خيار المقاومة المسلحة كخيار أخير، وهو يعلم والكل يعلم بمن فيهم الأمريكيان أن أية فتوى مسلحة ضد الاحتلال ستقوم لها الدنيا وتقع وأن مثل تلك الفتوى ستأخذ مأخذها الجدي، ولكن السيد يدرك أن قوات الاحتلال ليس لديها أي ضمير، وأنها تقل الجميع سنة وشيعة، نساء وأطفال، وهنا فإن السيد حرصا منه على دماء العراقيين أجمعين ترك الباب للحكومة للتوقيع على الاتفاقية، ثم أخذ رأي الشعب العراقي عليها في استفتاء، وإذا رفضها العراقيون، ستكون

الناس على خروج القوات الأمريكية، وقد قال في ذلك: إن الدول الأوروبية تمكنت من الوحدة، وأنا يجب علينا الوحدة لأن الذي يجمعنا أكثر بكثير من الذي يفرقنا، وأن ديننا الحنيف يحضنا على الوحدة والتعاون والإخلاص، فالوحدة كما يراها سماحة السيد هي التي تقف في وجه الاحتلال، وهي التي ترغمه على الانسحاب بدون أية اتفاقيات أو مفاوضات، ومن ثم فإن السيد عندما شرط موافقة العراقيين على الاتفاقية من خلال الاستفتاء العام، فإنه يريد أن يضع العراقيين جميعاً في خندق واحد، أي أن السيد خدم موقفين هما: موقف وحدة العراق والأمة بطبيعة الحال، وأيضا موقف المقاوم للاحتلال من واقع الوحدة المنشودة، وهي كلها مواقف لم يقم بها أحد غيره داخل العراق أو خارجه^(٣١).

وحفظ موارده المالية، وقدرة الحكومة على تنفيذ الاتفاقية حتى على وضعها الحالي وعدم تعرضها للضغوط الأمريكية في تنفيذ فقراتها).

وكان سماحة السيد السيستاني شدد قبل إقرار الاتفاقية على ضرورة أن يحترم أي اتفاق ينهي الوجود الأجنبي سيادة العراق، وأن يحصل توافق وطني عليه، ومن هذا المنطلق علّق موافقته الأخيرة - بعد توقيع الاتفاقية - على رأي الشعب العراقي في الاستفتاء الذي سيتم إجراؤه، وهو بهذا المنطلق لا يفتت رأي الجماهير العراقية، أي أن السيد الكريم حرص على التعليق على الاتفاقية من واقع تنوير رأي الشعب، لأن الاتفاقية فيها عيوب كثيرة، وهو الذي يعطي دفعه لكل الشعب العراقي في التصويت عليها، وفي ذلك نجده أحرص الناس على وحدة شعب العراق، وأحرص

مصادر الدراسة

(١) مجلة أخبار العرب الدولية بالإنجليزية في ١/٣/٢٠٠٨م، ونلاحظ هنا كمّ التزييف للحقائق التي يروجها الطائفون والتكفيريون والسياسيون في العالم العربي، فكل طائفة تدّعي على سماحة السيد بما يخدم مواقفها، فقالوا عنه بأنه الحوزة الصامتة أو أن ليس عراقيا، وأنه وأنه، وهي كلها من أوهام الساسة والطائفيين، لكن سماحته لم يعلق على ذلك، وهو يعلم أن أحدا من هؤلاء لم يمتنع الظلم الذي فرضه النظام البعثي السابق، بل كانوا أعوانه في ضرب شيعة أهل البيت عام ١٩٩١ في انتفاضة الجنوب الثائر، فلم ترمش لهم عين وهم يرون آلاف القتلى بعد أن تركه العرب والأمريكان جميعا لكي يقتل الشيعة، ورغم كل ذلك لم يصدر عن

سماحة السيد الكريم أي فتوى ضد هؤلاء جميعا.

(٢) نهج البلاغة

(٣) نفسه.

(٤) الشيخ حسن الصفار - علي رجل الوحدة

(٥) نفسه.

(٦) نفسه.

(٧) نفسه

(٨) نفسه

(٩) نفسه.

(١٠) حسن الصفار مرجع سابق.

(١١) نفسه

(١٢) نفسه

(١٣) نفسه

(١٤) موقع التجف الأشرف

(١٥) نفسه

(١٦) نفسه

(١٧) نفسه

(١٨) نفسه

(١٩) الموقع الرسمي لآية الله العظمى السيد علي السيستاني

(٢٠) نفسه

(٢١) نفسه

(٢٢) نفسه

(٢٣) نفسه

(٢٤) نفسه

(٢٥) نهج البلاغة

(٢٦) السيستاني يخرج عن صمته وينصف السنة - إسلام أون لاين. نت - أنس العبيدي.

(٢٧) نفسه

(٢٨) جريدة الحياة اللندنية في ٢ / ٤ / ٢٠٠٧م.

(٢٩) السيستاني يبارك جهود مؤتمر مكة - أحمد العمودي - مازن غازي - إسلام أون لاين.

(٣٠) نفسه

(٣١) لمن لا يعرف فقد عُد مؤتمر سري كشف عنه موقع المخابرات الفرنسية، وذلك بين مديري مخابرات الكيان الصهيوني وأربعة من مديري مخابرات دول عربية وذلك في نوفمبر من العام ٢٠٠٦م، وذلك بع النصر الذي حققه حزب الله ضد الكيان الصهيوني في صيف نفس العام، وخرج المؤتمر (كما ذكر موقع المخابرات الفرنسية) بضرورة وجود صراع موازي للصراع الصهيوني الإسلامي، وهو كما رأوا أن يكون صراعا سنيا شيعيا، يخدم التوجه الأمريكي الصهيوني، وقد رأينا خلال حرب حزب الله ضد الكيان الصهيوني ما قام به الأتقاء العرب ضد الحزب لتفريغ نصره الذي حققه وروّع الصهيونية والأمريكية، فقد قالوا عن الذي فعله الحزب مغامرة، أو نهاية حزب الله الذي خيب كل ظنونهم، كما رأينا وسمعنا الفتاوى التي تكفر حزب الله وأمانة العام السيد حسن نصر الله، ثم محاولات شبوخ التكفير إبعاد المسلمين عن الحزب بعد أن فرحوا بالنصر ودعوا لمقاتليه، ولكنهم فشلوا في ذلك كثيرا، وكل ذلك يؤكد أن رؤية سماحة السيد علي السيستاني بضرورة وحدة العراقيين أولا قبل كل مقاومة، حيث اختلط في العراق كل شيء، وصار من العسير التمييز بين من يقاوم الاحتلال، ومن يقتل العراقيين الأبرياء.

مطارحات

في السياسة والاجتماع

❖ مكانة اسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية منذ أحداث

التغيير العربي

❖ تحديات التنمية المستدامة في العراق «التحديات

الاجتماعية والبيئية أنموذجاً»

مكانة إسرائيل في الاستراتيجية الأمريكية منذ أحداث التغيير العربي

د. علي جبار حافظ الربيعي

جامعة بغداد

توطئة

تعد إسرائيل الدولة الإقليمية الأكثر تأثيراً في الشرق الأوسط في عالم اليوم، نتيجة لما تمتلكه من مدخلات القوة والتأثير والتي أهلتها لأن تمارس دور الهيمنة والتأثير في العلاقات الإقليمية الشرق أوسطية، وباتت بذلك ضابط الإيقاع الإقليمي، حيث امتلكت إسرائيل مثلث القوة القائم على المقومات العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية ومارست تأثيرها من هذا المنطق في الإستراتيجية الأمريكية، مما أثار وبشكل كبير في التراتبية الإقليمية والدولية، وآلية توزيع القوة والأدوار للقوى الإقليمية الأخرى، من ثم التأثير في طبيعة وتوجهات الإستراتيجية الأمريكية حيال الشرق الأوسط.

أن التحولات التي أعقبت احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق في عام ٢٠٠٣،

أن هذا الانهيار المتسارع للأنظمة العربية ولد تساؤل كيف ستتعامل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل مع هذا التغيير في البنية السياسية الإقليمية؟ وهل ستظل الولايات المتحدة وإسرائيل القوة الأكثر فاعلية بعد التغيير؟ وما هي الأدوات التي اتخذتها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل في ظل هذه المرحلة؟ وما مدى تأثير التغيير في المنطقة العربية على مكانة إسرائيل المستقبلية في الإستراتيجية الأمريكية؟، كثير من الأجوبة التي سنجدها في هذا الفصل المقسم إلى مباحث ثلاثة رئيسية وهي:

المبحث الأول: الفوضى الخلاقة في الإستراتيجية الأمريكية ومكانة إسرائيل فيها.

المبحث الثاني: المتغيرات الإقليمية والدولية وانعكاساتها على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية.

ولدت نهاية عصر جديد في المنطقة العربية، فالأنظمة السياسية العربية التي تشكلت عبر مراحل تاريخية طويلة قد استنفذت طاقتها على التطور ومواكبه المستقبل. وعبر التحليل المنطقي للأنظمة العربية، وجدنا أنها توصف بعناصر الضعف والتسلط والاستبداد، وهذا منح الولايات المتحدة الأمريكية فرصة لتضييق الخناق عليها، مما سبب حالة من التسارع في انهيار هذه الأنظمة في ظل تسارع غير محسوب من قبلها، فهناك من يرى أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل أعدت العدة جيداً لهذا بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣ عبر الترويج في سياستها الخارجية لمفاهيم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وبذلك أصبحت ممارستها ممارسة تدخليه في المنطقة العربية بغرض فرض سياسة المحاصرة وتقويض الدول الأخرى في المنطقة العربية.

المبحث الأول

الفوضى الخلاقة في الإستراتيجية الأمريكية ومكانة إسرائيل فيها

يعد مفهوم الفوضى الخلاقة إحدى الأفكار التي وضفتها الولايات المتحدة الأمريكية في إستراتيجيتها حيال الشرق الأوسط بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، حالها كحال الأفكار الأخرى من الديمقراطية والحرية واحترام حقوق الإنسان، ومن أجل توظيفها في الإستراتيجية الأمريكية طرح مشروع الشرق الأوسط الكبير في عام ٢٠٠٤ الهادف إلى التغيير في المنطقة العربية. وعملت إسرائيل على إيجاد دور لها في الإستراتيجية الأمريكية من أجل تنفيذ هذه الفكرة، لاسيما بعد التغييرات التي عصفت بالأنظمة العربية منذ عام ٢٠١١.

لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن التغيير في البلدان العربية هو نتيجة توجيه خارجي فقط، بل أن هنالك جملة من العوامل والمسببات التي تراكمت معاً في الإطاحة بالأنظمة العربية، أولاً: عوامل داخلية، أي أن الشعب العربي عانى من الداخل من غياب الحريات والاضطهاد والكبت والحرمان والضعف الاقتصادي وعدم المشاركة السياسية أو المشاركة السياسية الشكلية، فضلاً عن إلى أسباب أخرى دفعت الجماهير العربية في الرغبة بالتغيير، وثانياً: العامل الخارجي، المتمثل في الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، اللذان عملاً معاً

الأمركي - الإسرائيلى يهدف إلى توظيف فكرة الفوضى الخلاقة بالتوازي مع التغيير فى الأنظمة العربية، وتبعاً لذلك سنتناول هذه الأفكار وغيرها من الأفكار الأخرى فى مطالب ثلاثة ضمن هذا المبحث المقسم إلى:

المطلب الأول: الفوضى الخلاقة فى المدرك الإستراتيجى الأمريكى - الإسرائيلى.
المطلب الثانى: الأهداف الأمريكية - الإسرائيلىة من وراء توظيف الفوضى الخلاقة.

المطلب الثالث: آليات ونماذج الفوضى الخلاقة.

على استغلال هذه الأسباب والعوامل من أجل تحريض الجماهير العربية على الإطاحة بهذه الأنظمة، حيث نجد أن الكثير من الخطابات الأمريكية - الإسرائيلىة تصب فى هذا الاتجاه، ودائماً ما نجد القادة الإسرائيليين سواً فى الجمعية العامة للأمم المتحدة، أو فى الكونغرس الأمريكى، يقولون أن إسرائيل البلد الديمقراطى الوحيد وسط مجموعة من البلدان العربية المتسلطة، المستبدة، منها خطاب رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو فى الكونغرس الأمريكى فى عام ٢٠١١، مما شكل العامل الخارجى، الحافز للجماهير العربية المحرومة فى الإطاحة بهذه الأنظمة. ومما لا شك فيه، أن هذا الدوافع

المطلب الأول الفوضى الخلاقة

في المدرك الإستراتيجي الأمريكي الإسرائيلي

لعبت الأفكار والدراسات التي أنتجتها المراكز البحثية، دوراً كبيراً في صنع المدرك الإستراتيجي الأمريكي، وساهمت بدور كبير في خلق الكثير من المفاهيم والمصطلحات السياسية والتي غالباً ما يتبناها الرؤساء الأمريكيان لتصبح حجر الزاوية في الإستراتيجية الأمريكية وجزءاً مكماً من سياستهم الخارجية^(١)، ومن بين هذه الأفكار، هي فكرة الفوضى الخلاقة، التي وظفتها الولايات المتحدة الأمريكية في إستراتيجيتها حيال منطقة الشرق الأوسط بعد هجمات ١١ أيلول عام ٢٠٠١، رغم أنها روجت لها بعد الحرب الباردة لكن بغير معنى^(٢)، وهذا ما أظهرته المحادثات التي عقدت بين وزير الخارجية الأمريكي الأسبق جيمس بيكر في عهد الرئيس الأمريكي الأسبق جورج بوش الأب، وبين وزير خارجية العراق الأسبق طارق عزيز في جنيف عقب احتلال العراق للكويت في عام ١٩٩١، حيث قال بالحرف الواحد: «أن العراق سيعود إلى العصر الحجري» مما يعني أن هذه التعبيرات عكست السلوك والتفكير للإدارات الأمريكية المتعاقبة إزاء العراق خلال السنوات العشر ١٩٩١ - ٢٠٠٣^(٣).

وظهرت فكرة الفوضى الخلاقة بوضوح في المشروع الأمريكي حيال منطقة الشرق الأوسط عبر احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق عام ٢٠٠٣، فكان الشعار الذي رفعته الولايات المتحدة الأمريكية أن التغيير سيبدأ من العراق من خلال إزالة واحد من الأنظمة الأكثر استمرار في الحكم^(٤)، وباعتبار أن العراق يمثل أهمية إستراتيجية للولايات المتحدة

العربية والشرق أوسطية مفادها أن الولايات المتحدة الأمريكية جادة في موضوع التحول الديمقراطي وأنها مصممة على استخدام كل الوسائل المتاحة لإنجاحها، وأنها لا تخشى من الفوضى المحتملة جراء عملية التغيير هذه، حتى وأن كان وصول الجماعات الإسلامية إلى السلطة، مما يعني أن هذه التصريحات كانت بمثابة الإنذار نحو التغيير في المنطقة العربية^(٦).

ولم تكن الأوساط الإسرائيلية بعيدة عن فكرة الفوضى الخلاقة، بل يتضح أنها كانت منسجمة مع الإدارة الأمريكية في هذه الأفكار، من خلال ما أعلنه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن صراحةً في احد المؤتمرات الصحفية التي نشرتها صحيفة نيويورك تايمز بالقول: «إن أردتم الإطلاع على مفهومي للإستراتيجية الأمريكية فاقروا كتاب نتان شيرانسكي^(٧)، فانه سيساعدكم على فهم الكثير من القرارات التي اتخذت والتي قد تتخذ»^(٨)، وعنوان هذا الكتاب (قضية ديمقراطية) يشرح فيه نظريته للفوضى الخلاقة، ويدعو فيها الولايات المتحدة الأمريكية لاستخدام الطائفية كوسيلة للقضاء على محور الشر

الأمريكية، كونه يمثل القلب لمنطقة الشرق الأوسط، والقلب للعالم، لينطلق بعد ذلك التغيير إلى المنطقة العربية ومن ثم إلى كافة أجزاء منطقة الشرق الأوسط^(٥)، وبذلك كان الاحتلال الأمريكي للعراق بمثابة زلزال إقليمي أحدث تبديلاً عميقاً في المعالم السياسية للمنطقة، وأبدت وزيرة الخارجية الأمريكية في ذلك الحين كونداليزا رايس حماسة كبيرة للتحول الديمقراطي في العراق ومن بعدها منطقة الشرق الأوسط، في حديثها إلى صحيفة الواشنطن بوست عام ٢٠٠٥، وقالت «أن هذا التحول سيشمل دول الشرق الأوسط، وأن أدى إلى استبدال الأنظمة الحليفة والمالية، وعندما قيل أن التفاعلات التي تموج بها هذه المنطقة لا تترك مجالاً آخر سوى للاختيار بين الفوضى أو سيطرة الجماعات الإسلامية على السلطة، ولن يؤدي بالضرورة إلى انتصار الديمقراطية»، فإنها أي كونداليزا رايس لم تتردد بالقول: «أن الوضع الحالي ليس مستقراً، وأن الفوضى التي تفرزها عملية التحول الديمقراطي هي من نوع الفوضى الخلاقة»، وعلى ما يبدو أن كونداليزا رايس أرادت بتصريحاتها هذه إيصال رسالة إلى الدول

الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن خطوات متقدمة من خلال مخاطبة النظم العربية بالذات والعالم الإسلامي عموماً بأن الولايات المتحدة الأمريكية سوف تصرف في الوقت وبالطريقة التي تلائمها وتراها مناسبة عندما تتوصل إلى قناعة بضرورة دعم التغيير في المنطقة العربية^(١١)، وفي التقرير الأمريكي الصادر في ٢١/١١/٢٠٠٨ من مكتب الاستخبارات الأمريكية، أشار إلى أن منطقة الشرق الأوسط مقبلة على تغييرات جوهرية بما فيها هزات سياسية ستشهدها في العقدين المقبلين، وأضاف ماثيو باروز المستشار في مجلس الاستخبارات الأمن القومي الأمريكي: «أن المنطقة مقبلة على حالة من عدم الاستقرار شبيهة إلى حد ما بالفوضى الخلاقة»^(١٢).

وفي هذه المرحلة توالى التصريحات الأمريكية حول الشرق الأوسط الهادفة إلى إدخال التغيير إلى منطقة الشرق الأوسط بالمعايير الأمريكية^(١٣)، والتغيير الذي تسعى إليه الولايات المتحدة الأمريكية، حسب رؤية الباحث الأمريكي مايكل ماكفيل في مجلة ريفو بولسي، يجب أن يكون عدواني بطبيعته، ويرى باحث آخر أن عبارات

وتحقيق الديمقراطية في المنطقة العربية، وهو بذلك يدعم سياسة المحافظين الجدد في إستراتيجيتهم نحو الفوضى الخلاقة في الشرق الأوسط، ذلك إنهم يرون وجوب أن تتبدل صورة هذه المنطقة طوعاً أو كرهاً تحت مزاعم محاربة الإرهاب، على أن يتم إعادة تشكيلها لتصبح سائرة في فلك السياسة الأمريكية ومتقبلة لفكرة التدخل الأمريكي في شؤون دولها. كما ويرى ننان شيرانسكي أن الفوضى الخلاقة تحقق لإسرائيل ما تبتغيه في الشرق الأوسط كدولة طبيعية معترف بها من جميع دول المنطقة^(٩)، مما يعني أن الجماعات الصهيونية دفعت باتجاه توضيح الأفكار حول الفوضى الخلاقة في الجسد السياسي الأمريكي خصوصاً في حقبة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، بما يحقق المصالح الأمريكية - الإسرائيلية^(١٠).

ومن الملاحظ أن الإدارة الأمريكية في عهد الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن صممت على أن تقوم الولايات المتحدة الأمريكية بنفسها بمهمة إعادة الهيكلة الشاملة للوطن العربي والعالم الإسلامي فيما يعرف بمشروع الشرق الأوسط الكبير، وأتخذ

الثبوت قطعية الدلالة، عبر العقيدة الإسلامية خصوصاً، وحضارتها المعرفية بوجه عام، وهذا ما ظهر واضحاً من خلال التفتيت الثقافي والسياسي للعراق بعد احتلاله عام ٢٠٠٣، تحت شعار إقامة الديمقراطية لتكون واحة ومثالاً للديمقراطية في الشرق الأوسط، لكن النتيجة التي تمخضت عنها تدمير العراق وتمزيقه قومياً وطائفاً وأثنياً^(١٥).

مما يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية حين تطلق عبارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، أنها تدفع باتجاه الفوضى الخلاقة، أي أن النتيجة الحتمية لأحداث التغيير العربي الذي حدث في كل من تونس ومصر وليبيا واليمن وسوريا هي الفوضى، في رؤية مطابقة للمدرك الأمريكي - الإسرائيلي، رغم كل التسميات التي وصفت بها، من أنها احتجاجات من أجل تحقيق إصلاحات اجتماعية واقتصادية وسياسية، أو بالانتفاضات في وجه الحكام المستبدين من أجل الحصول على أبسط الحقوق المدنية^(١٦).

الديمقراطية هي الطريق الأمثل الذي تتعامل به الولايات المتحدة الأمريكية مع دول الشرق الأوسط، باعتبارها الوجهة الأخر المؤدي إلى للفوضى الخلاقة، والعكس صحيح^(١٤)، فقد ظهر جلياً أن الولايات المتحدة الأمريكية لا تريد الديمقراطية، بالمعنى المتعارف عليه، كأداة لتحقيق العدل، وإزالة الاستبداد والتسلط، وإجراء الانتخابات وإطلاق الحريات، وتمكين الشعب من تداول السلطة، واختيار الحكام ومحاسبتهم، بل تستعملها كـ «أداة»، للفوضى من أجل تفكيك المنظومة الفكرية والثقافية للشعوب، وذلك من خلال ترسيخ وتطبيق مضمون الديمقراطية الذي يقوم على أسس الفردية والمادية واستهداف المصلحة والمنفعة الشخصية، مما يعني أن كل شي خاضع للتغيير في كل المجالات الأخلاقية والدينية والثقافية والسياسية، وإذا ما أخذنا بمبدأ نسبية الحقيقة، فإن ذلك سيؤدي إلى زعزعة أحكام ثابتة في وجودنا العربي ذاته، كأحكام العقيدة والعبادة والأسرة، لأنها تستند إلى نصوص قطعية

المطلب الثاني

الأهداف الأمريكية - الإسرائيلية

من وراء توظيف الفوضى الخلاقة

تعد الفوضى الخلاقة من أولى الخيارات الإستراتيجية التي وضعتها الولايات المتحدة الأمريكية حيال الشرق الأوسط بعد أحداث ١١ أيلول عام ٢٠٠١، في إطار حربها المعلنة على الإرهاب، وانطلقت في تنفيذها من خلال احتلال العراق عام ٢٠٠٣^(١٧)، وقد أجاد علي علاوي^(١٨) توصف الوضع الإقليمي بعد احتلال العراق قائلاً: «إن الدولة العراقية التي تم تشكيلها في عام ١٩٢١ وصلت إلى نهايتها الآن، وما سيفرز عن نهايتها بيئة إقليمية موسومة بالآزمات والصراعات والفوضى. وفي نفس الوقت أندر من انهيار كامل للنظام الشرق أوسطي، لتطلق الولايات المتحدة الأمريكية العنان للفوضى في السنين القادمة»، مما يعني أن الإستراتيجية الأمريكية حيال الشرق الأوسط والمنطقة العربية ظهرت بواردها في الاحتلال الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣^(١٩).

لذلك لم يعد هناك شك بأن الاحتلال الأمريكي للعراق كان جزءاً من رؤية إستراتيجية أمريكية متكاملة لإعادة ترتيب الأوضاع في منطقة الشرق الأوسط والمنطقة العربية، ومن منظور المصلحة القومية الأمريكية والتي تقوم على محاولة أبقاء الهيمنة الأمريكية على العالم وأدامتها أطول مدة ممكنة والحفاظ على مكانه الولايات المتحدة الأمريكية كقوة عظمى وحيدة على الساحة الدولية، وفي الوقت نفسه، فإن احتلال الولايات المتحدة الأمريكية للعراق واحتفاظها بوجود عسكري في المنطقة يحقق أهدافاً سياسية واقتصادية وعسكرية متكاملة يقوم

التكتيكات الإستراتيجية الأمريكية، منها تحسين صورتها في المنطقة، وفي المقابل الانتقال إلى تنفيذ الجزء الآخر من إستراتيجيتها^(٢٤)، المتمثلة في أحداث تغيير في المنطقة لكن بوسائل أخرى، بعد أن تحولت الحرب الأمريكية في العراق من حرب استباقية إلى حرب استنزاف مؤثرة ومنهكة للقوة الأمريكية العسكرية والسياسية والاقتصادية، لذلك كل هذا شكل دافعاً ومحفزاً قوياً لإدراك أمريكي واضح لضرورة إدخال تعديلات تمثلت في استخدام وسائل أخرى من أجل أحداث تغيير في الشرق الأوسط منها استخدام القوة الناعمة والقوة الصلبة والقوة الذكية أن لزم الأمر لذلك، من أجل إدخال الفوضى الخلاقة إلى المنطقة عموماً، قاصدةً من ذلك جملة دوافع وأهداف^(٢٥).

أولاً: التوظيف الأمريكية-الإسرائيلية للفوضى الخلاقة:

أبدئ ونستون تشرشل رئيس الوزراء البريطاني الأسبق ذات مرة ملاحظة شهيرة مفادها: «أن بإمكانك دائماً أن تعول على الولايات المتحدة الأمريكية أن تفعل أي شيء، والذي ينبغي فعله ولكن بعد أن تستنفذ

العراق بدور محوري فيها، فعلى الصعيد السياسي يقوم جوهر الرؤية الإستراتيجية الأمريكية على أن تغيير نظام الحكم في العراق يمثل خطوة أولى لإعادة ترتيب الأوضاع في الشرق الأوسط والمنطقة العربية، استناداً إلى فكره مؤداها أن احتلال العراق وإقامة نظام حكم ديمقراطي فيه سوف يكون مقدمة للتغيير في المنطقة ككل^(٢٠)، وهذا ما أشار إليه الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن في خطابه الشهير قبل الحرب على العراق في شباط عام ٢٠٠٣، حين قال: «أن إقامة عراق ديمقراطي سوف يكون نموذجاً للحرية والديمقراطية تستلهمه الدول الأخرى في منطقة الشرق الأوسط»^(٢١).

وعلى الرغم من انتقال سلطة الإدارة الأمريكية من الجمهوريين إلى الديمقراطيين بعد سنوات من احتلال العراق، والإعلان عن الانسحاب الأمريكي من العراق^(٢٢)، لكن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن هنالك تغيير في الإستراتيجية الأمريكية حيال الشرق الأوسط بعد الانسحاب الأمريكي من العراق في عام ٢٠١١^(٢٣)، بل أن هنالك تغيير في

المجتمع الدولي وسيادة الدول الصديقة للولايات المتحدة الأمريكية^(٢٧).

ومن هنا، فإن الولايات المتحدة الأمريكية، اتجهت في إستراتيجيتها حيال الشرق الأوسط، نحو تطبيق الفوضى الخلاقة، والتي تعني وجود عناصر متفاعلة مع بعضها بشكل صراعي، يصلح أن يكون أنموذجاً تطبيقياً لحالات الدول المختلفة، لأنه أحياناً، يترك الصراع للقوة الذاتية للحسم. والفوضى الخلاقة، شكل من أشكال التدمير الذي فلسف له البعض من مروجي الخطاب السياسي الأمريكي، بأن أشكاله التدميرية قادرة على الابتكار، مما يعني نقلة نوعية للشعب الذي تمارس ضده هذه السياسة، كما أنها تعبير دقيق للممارسات الأمريكية في حقل السياسة الخارجية، والمطبوعة بالفوضى والانفلات والإجبار، ولعل شواهد الحروب والتزامات والكوارث التي حدثت في عصر الهيمنة الأمريكية، تغني عن الاستدلال عن كارثية الفوضى الخلاقة، التي اعتمدها الولايات المتحدة الأمريكية كفيصل لها في المسرح السياسي الدولي، لاسيما وأن إستراتيجية هذه الفوضى قد أثبتت أذرعاً منفلته ومدمرة

الخيارات الأخرى لديها^(٢٦)، لهذا أن الولايات المتحدة الأمريكية عندما رأت الوقت مناسب انطلقت إلى توظيف الفوضى الخلاقة بدءاً من العراق، ومن ثم انتقلت إلى توظيفها في عموم المنطقة العربية، ولم تخفي دوافعها من وراء الفوضى الخلاقة، بل أنها أدعت بأن هنالك خطر محدد يهدد أمنها القومي في منطقة الشرق الأوسط، كوجود التنظيمات الإرهابية، والحركات الإسلامية المتطرفة وغيرها من الادعاءات الأخرى، وتحت ضرورات هذا الادعاء، أوغلت في ممارسة الفوضى والإزاحة والاقتلاع وكذلك في انتهاك سيادة الدول، وبما يكاد يدفع بالبلدان الأخرى إلى الخراب والفوضى، متكئة في ذلك على التفويض المطلق الذي حصلت من مجلس الأمن الدولي بقراريه (١٣٦٨) و(١٣٧٣) في استعمال القوة والعنف ضد أي طرف تعتقد الولايات المتحدة الأمريكية، بخطورته عليها أو على الأطراف الدولية الأخرى ولعل في غارتها التي شنتها لقتل «أسامة بن لادن» في باكستان عام ٢٠١١، دون علم أو موافقة أو تنسيق الجهات الباكستانية، وعد ذلك وكأنه تحدياً خطيراً للأعراف والقوانين في

ستريت جورنال في السادس من آذار عام ٢٠١١، قبيل اندلاع الثورات العربية، خبر يقول أن الإدارة الأمريكية تعمل على وضع إستراتيجية للشرق الأوسط للحفاظ على المصالح الأمريكية. ونسبت إلى دبلوماسيين لم تسهمهم القول أن الإدارة ترى أن كل مطالب الجماهير العربية لإرساء الديمقراطية مطالب مشروعة، على الرغم من أنها لا تلبى على الفور، ودعت الولايات المتحدة الأمريكية المحتجين إلى العمل مع القادة الحاليين من أجل الوصول إلى تغييرات في النظام، وفيما صرحت السفارة الأمريكية في القاهرة أنه خلال شهر جري أنفاق أربعين مليون دولار لدعم «الديمقراطية» في مصر، وأن طالبي «الدعم» الأمريكي بلغوا ستمئة هيئة من هيئات «المجتمع المدني». مما يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية أعلنت عن تخليها عن الأنظمة العربية، وعملت على الإطاحة بهذه الأنظمة بتوظيف أدوات من الداخل، ونصبت من نفسها قيمة على مخاض التغيير العربي، وحددت مسبقاً المسار الذي تريده لها، بما يحفظ مصالحها^(٢٨).

إن المنطق الإستراتيجي الذي انطلقت

وباتجاهات متعددة، دون أن تكون هذه الأذرع، متطابقة بضرورة التوجيه الواحد، بل قد تكون متوجهة نحو رسم خرائط جديدة لبعض المناطق في العالم، كمنطقة الشرق الأوسط وفق مفاهيم تراها الولايات المتحدة الأمريكية صائبة مثل الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان ليكون حدود هذه المنطقة «حدود الدم»^(٢٨).

وبسرعة غير مسبوقة في عام ٢٠١١، عملت الولايات المتحدة الأمريكية على إدخال الفوضى الخلاقة إلى المنطقة العربية، عبر حث الجماهير على الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، والتي أدت إلى ثورات لم تشهداها المنطقة منذ الخمسينات، وبدأ ذلك بقيام مواطنين بالمطالبة بأبسط حقوقهم الإنسانية الأساسية وبشكل سلمي، ثم زاد تعقيدها والعنف فيها عن طريق الالتقاء بالتأثير الخارجي، والأزمات الداخلية مما أدى إلى حالة من الانفجار بين النزاع الطائفي والتباين الاقتصادي وحقوق الإنسان والتكنولوجيا والصراعات حول الهوية والحدود، مما يعني دخول المنطقة بحالة من الفوضى^(٢٩).

وفي هذا الصدد، نشرت صحيفة وول

الحروب وتغذية والصراعات الكامنة والمعلنة وإشاعة العنف والدموية بين فئات قومية دينية عرقية يمثل احد أهم الدوافع الرئيسة لهذا التكتيك، الأمر الذي يجعل هذه الشعوب غير قادرة على الفهم الصحيح لحيثيات الأمور وشل تفكيرها، وبالتالي أن النتيجة الحتمية لذلك هو تصاعد الأزمات، وتراجع المجتمعات، والشلل في عمل الحكومات في هذه المرحلة^(٣٣)، وفي هذا الصدد ألقى وزير الدفاع الأمريكي تشاك هيغل كلمة في ندوة أقامها معهد واشنطن في العاصمة الأمريكية بتاريخ ٢٠١٣/٥/٩ جاء فيها: «أن الصورة الأنسب لحاضر الشرق الأوسط هي خريطة ترجع للقرون الوسطى لا تبدو فيها الحدود دقيقة واضحة، وهو ما أسماه بـ «عالم من ظلال النفوذ الغامضة والمتداخلة»^(٣٤).

وبذلك ينطلق تحليل الدوافع الأمريكي — الإسرائيلي من وراء توظيف الفوضى الخلاقة في منطقة الشرق الأوسط، من نقطة أساسية أولية ومبدئية تقوم على أن نمط التفكير الإستراتيجي الأميركي - الإسرائيلي كان ولا يزال يعتمد في منطلقاته وآلياته على مبدأ توظيف الصراعات والأزمات، وافتعال

منه الولايات المتحدة الأمريكية حيال التغيير العربي، يقول أن اللعبة الصفرية المحصلة انتهت، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ينبغي أن تخفض استثمارها العسكري والدبلوماسي في الشرق الأوسط، وتترك للبلدان العربية حرية إدارة شؤونها المحلية بالطريقة التي تختارها وتحسب ضمانتها العسكرية الغير مشروطة لأمن إسرائيل، أي أن واشنطن ترفع يدها عن دعم الأنظمة العربية وقادتها ليواجهوا شعوبهم^(٣١)، مما يعني خلق حالة من الفوضى في البلدان العربية، وهذه الفوضى توفر للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل مناخ فكري يخلق لهما بيئة أمنة للتواجد المستقر في إطار المجتمعات العربية المسلمة المتفككة^(٣٢).

وما يعني من هذا، إن تكتيك الفوضى الخلاقة طُبق في أحداث التغيير العربي بدافع إحاطة الشعب بمشكلات مزمنة وأزمات داخلية وخارجية حادة متعاقبة ومستمرة تجعل نمط التفكير البشري مقيد ضمن حدود واطر حل هذه الأزمات وإيجاد حلولاً لها، مما يؤدي إلى القبوع والبقاء في نفس المكان، وربما التراجع إلى الوراء بالنسبة لهذه الشعوب، وان عملية افتعال

النظام القابلية والقدرة على التكيف الإيجابي، فتتحول مشاعر الناس في أية لحظة إلى مطالب ليست سهلة للوهلة الأولى، وأحياناً غير متوقعة، وتراكمها هو الذي يولد الاحتقان، مما يفرض على مؤسسات النظام ضرورة التكيف من خلال الإصلاح السياسي، وتوسيع المشاركة السياسية، واستيعاب تلك المطالب^(٣٦).

أن ما يؤشر على الثورات العربية التي انطلقت في عام ٢٠١١، هنا وهناك للمطالبة بالتغيير، أنها لم تكن تحمل معها مشروعاً متكاملًا لنظام بديل متفق عليه، لذا فإن الفترة الطبيعية والضرورية للتوصل إلى هذا المشروع البديل قد يشكل الفجوة المفتوحة للاستهدافات والمؤامرات، وفي مقدمتها إيجاد الصراعات الداخلية، ومن هنا يتضح أن ما تهدف إليه الفوضى الخلاقة هو إثارة الحروب الداخلية، والاضطرابات الطائفية والعرقية والإثنية من أجل أحداث تفكيك ثقافي وفكري واجتماعي وسياسي للمنظومة العربية بما يخدم مصالح إسرائيل ويرفع من مكانتها، وتوفير الأجواء الآمنة لها من حولها، عن طريق أضعاف الدول الشرق أوسطية، العربية منها والإسلامية^(٣٧).

الخلافات وإدارتها في العالم وبمختلف أشكالها والتحكم بها وضبطها والسيطرة عليها إن كانت قائمة وخلقها وإدكائها إن كانت ساكنة، لاسيما أن الشرق الأوسط كانت دائماً منطقة غير مستقرة - بالنسبة لدول وشعوب المنطقة - وتطرح عليه أسئلة أكثر مما تقدم له إجابات، فأية التعامل وتحقيق الأهداف ليست ثابتة مع جميع مناطق هذا الإقليم الشرق أوسطي، لذا يلحظ استخدام الأدوات الصلبة في بعض الأحيان وفي أحيان أخرى يتم اعتماد الأدوات الناعمة^(٣٥).

ثانياً: الأهداف الأمريكية - الإسرائيلية من وراء الفوضى الخلاقة:

إن الفوضى الخلاقة بنظر المفكر الأمريكي صموئيل هنتنغتون تمثل (فجوة الاستقرار)، وعبر عنها بالقول: «هي الفجوة التي يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغي أن يكون، فتعكس بضيقتها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو بآخر، فاتساعها يولد إحباطاً ونقمة في أوساط المجتمع، مما يعمل على زعزعة الاستقرار السياسي والاقتصادي»، لاسيما إذا ما اندمجت الحرب الاجتماعية والاقتصادية، وافتقدت مؤسسات

إن هذا لا يخفى أن الولايات المتحدة الأمريكية، تحاول طمس معالم الدين الإسلامي وتشويهه وتمزيقه، ومن جهة ثانية من المؤكد إن الولايات المتحدة الأمريكية لن تقوم بعمليات تبشيرية لجعل المسلمين يتركون دينهم ويتخلون عنه، ومن ثم ابتدعت هذا التكتيك، لكي تضرب الطوائف والمذاهب ببعضها وتجزأ المنطقة وتقسّمها وأيضاً لتصل إلى نقطة تفكيك الإسلام من الداخل، وهذا هو ديدن هذه الفكرة «فكرة الفوضى الخلاقة»، وبالفوضى الخلاقة توفر للولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل مناخ فكري يخلق لهما بيئة آمنة للتواجد المستقر في إطار المجتمعات العربية والمسلمة المتفككة^(٣٩).

فضلاً عن الأهداف السابقة، فإن أحد الأهداف الأمريكية - الإسرائيلية من جراء الفوضى الخلاقة والذي اليوم يبرز وبشدة على وجهه الخصوص، بعد أحداث التغيير العربي قضية التناحر الطائفي (السنّي - الشيعي)، باعتباره احد نتاجات الفوضى الخلاقة للمشروع الأمريكي - الإسرائيلي في منطقة الشرق الأوسط، والتي تعمل على تغذيته القنوات الإعلامية المعروفة مثل قناة

ومن هنا، فإن الأهداف الأمريكية - الإسرائيلية من وراء الفوضى الخلاقة، التي ركزت عليها معاهد الدراسات ومراكز الأبحاث الخاصة بالتخطيط الاستراتيجي، هي إعادة رسم خريطة جديدة لمستقبل منطقة الشرق الأوسط، وإسقاط النظم العربية المعادية لإسرائيل وأضعافها ومحاصرتها، ومن ثم تقسيم المنطقة إلى دويلات طائفية وعرقية وقومية لتسهيل إقامة إسرائيل العظمى، في محيط ضعيف وهش مجاور لها^(٣٨).

كما أن من بين أهداف الفوضى الخلاقة التي سعت إليها كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل في منطقة الشرق الأوسط هو إيصال الأحزاب الإسلامية إلى السلطة وخصوصاً في البلدان العربية، كما هو الحال في مصر وتونس، ومن ثم العمل على إيجاد أزمات داخلية يصعب حلها، اقتصادية وسياسية وعسكرية، أو إدخال البلدان بدوامة من الصراعات الداخلية طائفية، عرقية، قومية، قبلية، وبالتالي لا تستطيع هذه الحكومات الإسلامية مواجهة هذه الأزمات، مما يعكس حالة للجماهير من القصور في الأحزاب الإسلامية في معالجة القضايا الداخلية، إذ

(السنة)، والمحصلة النهائية لذلك أن العدو الأول للعرب والمسلمين المتمثل في إسرائيل قد تعرض للنسيان، وحل محلها التنافر الطائفي والحروب الأهلية بين الطرفين، لكي تكون المحصلة النهائية، خلق دول ضعيفة هشة متناحرة على أساس طائفي، وبما يضمن التفوق الإسرائيلي على كلا الطرفين المتناحرين^(٤٠).

(العربية والجزيرة)، المدفوعة كما هو معروف من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، من أجل تعميق الهوة والخلاف بين الطرفين، وافتعال من لا شيء شيء، بغرض أشغال جميع الأطراف العربية والإسلامية (شعوب وحكومات) بحروب داخلية، بما يحقق ويضمن توجيه المسلمين (السنة) إلى أن عدوكم هم (الشيعة)، وتوجيه المسلمين (الشيعة) على أن عدوكم هم

المطلب الثالث

آليات ونماذج الفوضى الخلاقة

نكتسب الإستراتيجية الأمريكية أهميتها وقوتها في العالم من المكونات والعناصر التي تركز عليها، سواء كانت موارد ذاتية «أي ما تملكه من موارد وإمكانيات»، أو عناصر خارجية جراء ما تتيحه البيئة الدولية من فرص قابلة لتوظيف الآليات المناسبة لها^(٤١)، والهدف من التوظيف الآليات هو محاولة تثبيت معايير حقيقية يتم بموجبها عرض نموذج القيادة الأمريكية لنظام الدولي، وتحقيق السيطرة الكونية على العالم^(٤٢)، عبر استخدام الآليات والوسائل المختلفة منها، العسكرية والاقتصادية والسياسية والتكنولوجية^(٤٣)، ومن الواضح، أن الولايات المتحدة الأمريكية رأت بعد أحداث ١١ أيلول عام ٢٠٠١ أن الاستقرار بحد ذاته يمثل عثرة في طريق المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، لذا سعت الإدارة الأمريكية إلى حالة من عدم الاستقرار الخلاق، بناء على اعتقاد أن حماية المواطنين والمصالح الأمريكية سوف تتحقق من خلال إحداث تغييرات أساسية في أنظمة الشرق الأوسط، وفي هذا الاتجاه أخذت الولايات المتحدة الأمريكية عدداً من الإجراءات القسرية وغير القسرية، بدءاً من الحرب على أفغانستان والعراق، ومن ثم عزل ياسر عرفات، ثم الضغط على مصر والسعودية للمضي في طريق الإصلاحات، ووصولاً إلى الانتفاضات العربية عام ٢٠١١^(٤٤).

وعلى الرغم من أن شكل الانتفاضات العربية التي حصلت ليس واحداً ومتطابقاً، مثلما هي أوضاع البلدان العربية كونها غير متماثلة في كل شيء رغم الكثير من المشتركات، فإن ذلك، فرض على الولايات المتحدة الأمريكية التعامل بآليات وأساليب مختلفة ومتنوعة، وبالقدر الذي يمنحها دوراً ونفوذاً أوسع، وكلما تنوعت الأحوال والأحداث في المنطقة العربية، كان رد الفعل

«القوة الصلبة» التي تعرض أيها العراق تحت الشعارات والذرائع، لا تتوقف عند حدود العراق، بل هو خطوة على طريق مشروع أكبر يكون فيه الوطن العربي، قاعدة، انطلاق لتحقيق المشروع الأمريكي، المتمثل بإطلاق الفوضى الخلاقة، وبآليات ووسائل مختلفة^(٤٦).

١- الإطار النظري للقوة الصلبة:

يشير جوزيف س. ناي^(٤٧) إلى أن القوة الصلبة: «تعني القوة المشتركة بين الإمكانيات العسكرية والاقتصادية، والقوة الصلبة في صورتها الخشنة التي تعني الحرب، التي تستخدم فيها الجيوش، وهذه القوة تعني الدخول في مزالق خطيرة، ونتاجها تكون في منتهى الخطورة على الدولة ذاتها، كما حدث مثلاً في الحرب العالمية الثانية مع اليابان وألمانيا النازية»^(٤٨)، أي أن القوة الصلبة، هي استخدام للقوة العسكرية والأمنية (السلاح) في الفعل المباشر من دولة ضد دولة أخرى ومن جيش ضد جيش آخر، وفي ذلك يقال أن الحرب هي امتداد للسياسة الخارجية لكن بوسائل الإكراه والقتل والتدمير، وان

الأمريكي يحتاج إلى حالة من التنوع ذاته. والولايات المتحدة الأمريكية لا تقتصر جهودها ودعمها للانتفاضات الحاصلة بقدر ما هي مهتمة بنتائجها وما سوف تسفر عنها، لذلك نجد أن هنالك اختلاف في طبيعة استخدام الآليات الأمريكية مع هذه الانتفاضات، ففي بعض الأحيان كان التركيز في التعامل مع الثورات العربية على استخدام القوة الناعمة، وفي أحيان أخرى على استخدام القوة الصلبة، وأن لزم الأمر تقوم باستخدام مزدوج أي ما يعني بالقوة الذكية، فضلاً عن طرق إستراتيجية أخرى^(٤٥).

أولاً: العراق أنموذجاً للتغيير بالقوة الصلبة:

لا يقبل المنطق، اعتماد الذرائع الأمريكية في تفسير حربها على العراق، واحتلالها إياه، فالقاعدة، هي أن ذرائع أي حرب تستتر خلفها الدوافع والأهداف الحقيقية للاحتراب، أن تدمير أسلحة الدمار الشامل وزعم تهديد العراق للسلم والأمن الدوليين، والتظاهر بالدفاع عن حقوق الإنسان هي من ذرائع لا يمكن لها أن تحول دون تحري دوافع الاحتلال ومرامييه. أن الهجوم العسكرية المتمثلة باستخدام القوة العسكرية

بعد ذلك إلى تطبيق الفوضى الخلاقة بكل ما تضمنته من تدمير بنية الدولة ومؤسساتها بدعوى تنظيفها من أعضاء النظام السابق، وطبقاً للفوضى الخلاقة، سمحت الولايات المتحدة الأمريكية للسراق والفوضويين أن يسرقوا ويحرقوا كل مؤسسات الدولة باستثناء وزارة النفط، ومن ثم حل قوات الأمن والشرطة والجيش ووزارة الإعلام، وثم بدأت تتعامل مع الشعب العراقي على كونه مجموعات عرقية ودينية وطائفية، لتلغي بذلك الرابطة الوطنية، مما أدى تفتت الثقافة السياسية والوطنية والتركز على الثقافات الفرعية، والانتماءات الضيقة للوطن^(٥٣)، وما لبث حتى تم تفجير الإمامين، علي الهادي وحسن العسكري[^] في عام ٢٠٠٦ بمدينة سامراء، ليدخل العراق مرحلة جديدة من الاقتتال الطائفي^(٥٤)، محققة بذلك الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ما يرغبون فيه من خلق دولة فاشلة^(٥٥)، ولهذا أن العراق يمثل البداية الحقيقية لتطبيق الفوضى الخلاقة في منطقة الشرق الأوسط، ولطالما حذر العديد من الزعماء العرب من أن الهجوم على العراق سيفتح «بوابات جهنم»، أي خوفاً من

السياسة الخارجية هي امتداد للسياسة الداخلية، مما يعني أن القوة الصلبة آلية تتبعها دولة اتجاه دولة أخرى، أو مجموعة من الدول^(٤٩).

٢- العراق نموذجا للقوة الصلبة:

مما لا شك فيه أن التغلغل الإسرائيلي في إدارة الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن كبيرة جداً ودفعت باتجاه الحرب على العراق^(٥٠)، وعلى الرغم من جميع المبررات التي أطلقتها الولايات المتحدة الأمريكية من أجل حربها على العراق، إلا أن في نهاية المطاف قامت الولايات المتحدة الأمريكية بتحديد مسار القوة العسكرية «القوة الصلبة» ضد العراق، ففي يوم ٢٠٠٣/٣/١٩ الذي أعلن الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن، بأن القوات العسكرية المتواجدة حول العراق التي قومها ١٥٠ ألف جندي، بدأت تضرب أهدافاً ذات أهمية عسكرية، لتقويض الجيش العراقي على شن الحرب^(٥١)، ولم تلبث الحرب طويلاً حتى احتلت الولايات المتحدة الأمريكية العراق في يوم ٢٠٠٣/٤/٩^(٥٢).

وسارعت الولايات المتحدة الأمريكية

تعديل الدساتير الوطنية، وإقرار قوانين محاربة الإرهاب، وتسخير الإعلام الأمريكي بكافة أشكاله والفضائيات ووسائل الإعلام المقروءة والمكتوبة الأجنبية والعربية التابع للإعلام الأمريكي والإسرائيلي كالفضائيات والإذاعات الناطقة بالعربية، وخدمات التواصل الإلكتروني المجاني ك تويتر والفيس بوك والمواقع التي تعج بها شبكة الانترنت، والتواصل المكثف مع النشطاء والحقوقيين، والتركيز على بعض المسؤولين الحكوميين والأكاديميين الذين تلقوا تعليمهم في الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا والموالين لإسرائيل^(٥٨)، وهذا بدوره ولد حالة من التلاعب بعواطف الجماهير المتعطشة للحرية والديمقراطية ومحاربة الفساد وتحقيق التنمية والتغيير والإصلاح، إذ تتخذ الولايات المتحدة الأمريكية مواقف ازدواجية بشأن كل حالة من حالات التغيير أو حراك، بما يخدم مصالحها ومصالح إسرائيل، مع تأجيج نيران الفوضى في كل منطقة حدث فيها هذا التغيير لترسيخ وزرع بؤرة فوضوية جديدة تضمن فيها أن يكون الصراع ممتداً ومعقداً، ويمكن تلمس ذلك من خلال مفاصل القوة الناعمة وكالاتي^(٥٩):

التغيير الذي سوف يطولهم، وأخيراً فتحت البوابات على مصراعها، وفي هذا الصدد تحدث وزير الدفاع الأمريكي الأسبق دونالد رمسفيلد قائلاً: «ما سيتبع لن يكون تكراراً لأي صراع آخر، سيكون هناك قوة ومجال ودرجة تفوق غير مسبوق بالنسبة لما شوهد حالياً» ولكن المرحلة الأولية عن طريق الحرب بـ «القوة الصلبة»، وما هو قادم باليات أخرى^(٥٦).

ثانياً: تونس ومصر أنموذجاً للتغيير بالقوة الناعمة:

يقول جوزيف س. ناي: «رغم أن الدولة الفاعل الأبرز في التفاعلات الدولية، إلا أنها ستجد نفسها من الصعوبة في عالم اليوم أن تسيطر على جزء كبير من الشعب، بسبب تدفق المعلومات وسرعة الاتصال والتحول التكنولوجي، كما هو الحال تونس ومصر أبان الثورات العربية»^(٥٧)، مما يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية في إستراتيجيتها حيال الشرق الأوسط جندت الكثير من الإمكانيات، والعديد من وسائل الجذب والضغط والإقناع الإيديولوجي، على مختلف الأصعدة الإعلامية والاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، ومن ذلك: الحث على

١- الإطار النظري للقوة الناعمة:

إن السبب في توجه الولايات المتحدة الأمريكية حيال تكتيك القوة الناعمة في إستراتيجيتها، هو نتيجة الاستخدام المفرط للقوة الصلبة، وهذا أدى إلى خلق الكثير من العداء للولايات المتحدة الأمريكية خصوصاً في العالم الإسلامي، مما شكل علامة فارقة في التحول نحو القوة الناعمة، أذن ما هي القوة الناعمة، حسب جوزيف س. ناي: «أنها القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام أو دفع الأموال». وهي تنشأ من جاذبية ثقافة بلد ما، ومثله السياسية، وسياساته، فعندما تبدو سياستنا مشروعة في عيون الآخرين، تتسع قوتنا الناعمة، أن استماع الشباب إلى الموسيقى الأمريكية ونشرت أخبار إذاعة أوروبا الحرة، والطلبة الصينيين وهو يرمزون في احتجاجاتهم بخلق نسخة من تمثال الحرية، والشباب الإيرانيين وهم يتفرجون خلسة على أشرطة الفيديو الأمريكية الممنوعة وما تذيعه محطات التلفزة عبر الأقمار الصناعية في داخل خصوصياتهم، كل هذه أمثلة من قوة أمريكا الناعمة. فعندما تتمكن من جعل الآخرين يعجبون بمثلك ويريدون ما تريد،

فإنك لن تضطر إلى الإنفاق كثيراً على العصي والجزرات (أي على عوامل الإرغام والإغراء) لتحريكهم في اتجاهك فالإغراء أكثر فاعلية من الإرغام على الدوام، وكثير من القيم الأمريكية مثل الديمقراطية، والحرية، وحقوق الإنسان، تمثل دافع للقوة الناعمة^(٦٠).

وبهذا المعنى، أن إستراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية تضع جدول الأعمال من أجل اجتذاب الآخرين في السياسة العالمية، وليس فقط لإرغامهم على التغيير بتهديدهم بالقوة العسكرية أو العقوبات الاقتصادية، أي جعل الآخرين يريدون ما تريد تختار الناس بدلاً من إرغامهم، وبهذا فإن الولايات المتحدة الأمريكية تعمل على أفتان الآخرين بالرغبة في أن تفعل ما تريده، فعندئذ لن تضطر إلى استخدام الجزر والعصي لتجعل الآخرين يفعلون ما تريده^(٦١)، لذا أن القوة الناعمة التي طرحها جوزيف س. ناي تقوم على استخدام كل الأدوات غير العسكرية منها الدبلوماسية والثقافية والاجتماعية والفكرية، بهدف تعميم القيم الأمريكية حول العالم^(٦٢)، والترويج لضرورة بث روح الديمقراطية في الشعوب التي تعاني من

كانت تنظر عن كثب لتونس قبل الثورة، وكثفت وسائل الاتصال عليها، وكانت بانتظار شرارة الثورة^(٦٥)، ولم يتصور أحد أو يتوقع أن تكون تونس شعلة الثورات العربية فقد كان الرئيس الأسبق لتونس زين العابدين بن علي ونظامه يفتخرون ويتميزون بأجهزتهم الأمنية العالية التنظيم والكفاءة، إلا أن الشاب التونسي محمد البوعزيزي البالغ ٢٧ عاماً والعاطل عن العمل الذي أضرم النار بجسده في ١٧/١٢/٢٠١٠ احتجاجاً على مصادرة عربته اليدوية، وأهانته من قبل شرطية، وقالت له «ارحل» فأصبحت الكلمة شعاراً لثورة تونس ولجميع الثورات العربية، لتنتقل الثورة من قرية سيدي بوزيد إلى جميع أنحاء تونس^(٦٦)، وسرعان ما تناقلت شبكات التواصل الاجتماعي (فيس بوك، تويتر، واليوتيوب) وغيرها من المواقع الأخرى التي سهلت عملية الاتصال بين المتظاهرين، والتي أدت إلى حشد الجماهير في الساحات وتحريك المشاعر، كما أن التظاهرات دعمت عبر تسهيلات الكترونية وفرتها الهواتف النقالة في الإنترنت وأجهزة الجيب لتسهيل عملية التواصل والاتصال ونقل الأحداث وتداولها، فضلاً عن تسليط

حرمان المشاركة السياسية، وتشجيعهم على المطالبة بحقوقهم وضرورة الحصول على أكبر قدر من الديمقراطية ودعم الحركات التي ترغب بالتححرر والانفصال وتقرير المصير^(٦٣).

٢- تونس ومصر نموذجاً للقوة الناعمة:

لا شك، أن طرح الإستراتيجية الأمريكية عبر سياستها الخارجية حيال المنطقة العربية، لقيم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، أحدث تغييرات في البيئة الفكرية والثقافية العربية، أو أحدث التمهيد لحدوث هذا التحول من خلال فتح الأبواب على مستوى واسع للحرريات الفكرية، في أن تطرح وأن تناقش عبر شبكات التواصل الاجتماعي (الانترنت)، وبعيداً عن الإقصاء والتخوين، مما مهد لانطلاق الثورات العربية في عدد من البلدان العربية الواحد تلو الآخر^(٦٤)، وهنا سنسلط الضوء على تونس ومصر من خلال الآتي:

أ- تونس نموذجاً للقوة الناعمة:

أظهرت إحدى الوثائق المسربة عبر ويكيليكس أن وكالة المخابرات الأمريكية

الأخرى في أحداث التغيير^(٧٠).

ب- مصر نموذجاً للقوة الناعمة:

أثبتت الأنظمة العربية السلطوية وبصورة مذهلة أنها ضعيفة أمام الاحتجاج العلني الذي انطلق من تونس وصولاً إلى باقي البلدان العربية الأخرى^(٧١)، فبعد التظاهرات التي اندلعت في تونس انتقلت شرارتها إلى مصر في ٢٥/١١/٢٠١١ ضد الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك، والتي لم تدم طويلاً حتى أدت إلى انهيار النظام المصري، وتخلي الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك عن السلطة في ١١/٢/٢٠١١^(٧٢)، وعلى الرغم من أن الدلالات الأولى للثورة الشعب المصري تشير إلى المطالبة بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وتحسين الظروف المعاشية، وغيرها من المطالب المشروعة الأخرى^(٧٣)، إلا أن ذلك لا يقف بأي حال من الأحوال أمام تطلعات الولايات المتحدة الأمريكية للتغيير في مصر، سوى باستخدام آلية القوة الناعمة أو غيرها من الآليات، عبر طرح مشروع الشرق الأوسط الكبير الرامي إلى إشاعة الفوضى في المنطقة العربية، وهذا ما

الضوء عبر القنوات الإخبارية لاسيما (العربية، الجزيرة) على التظاهرات^(٦٧).

ولم تخفي الولايات المتحدة الأمريكية تخليها على الرئيس التونسي الأسبق زين العابدين بن علي عبر تصريح وزير الخارجية الأمريكية السابقة هيلاري كلينتون لقناة الجزيرة الفضائية: «أن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر عن كثب للثورة في تونس، من دون أن تقف إلى جانب النظام»^(٦٨)، وعلى ما يبدو أن الطابع السلمي هو الذي غلب على المظاهرات لاسيما عندما أعلن الجيش وقوفه على الحياد وعدم تدخله في الأحداث، وان دوره سوف يقتصر على حماية المتظاهرين وحماية الممتلكات العامة والأمن والنظام العام^(٦٩)، وفي يوم ١٤/١١/٢٠١١ غادر الرئيس التونسي الأسبق زين العابدين بن علي تونس بحماية ليبيا إلى مدينة جدة في المملكة العربية السعودية، لكن لم تكن مغادرة بن علي نهاية للأحداث في تونس بل سادت فيها حالة من الفوضى الخلاقة، وتفجر الصراع بين النخب السياسية والثقافية حول قضايا كثيرة منها علاقة الدين بالدولة في ظل نظام ديمقراطي، وبذلك ألهمت الثورة التونسية البلدان العربية

المتحدة الأمريكية على استخدامها من أجل ربط التواصل بين الشعوب بمختلف توجهاتها الفكرية، متجاوزة بذلك الحدود السياسية والثقافية التي فرضتها الدول على شعوبها، والعزلة الحضارية التي كانت تعيشها بين مختلف الجماعات البشرية، كذلك استخدام وسائل الإعلام من الفضائيات من أجل نقل الأفكار والأخبار والقيم والعادات، وعلى الرغم من أن تأثير هذه الوسائل لم يرق للأنظمة العربية، بسبب قوة تأثيرها على شعوبها من خلال تناول كل مجالات الحياة السياسية والاقتصادية والثقافية، إلا أنها في نهاية المطاف استطاعت الولايات المتحدة الأمريكية أحداث التغيير في المنطقة العربية^(٧٦).

أن التدخل الأمريكي كان واضحاً في استخدام تكنولوجيا الاتصالات في الثورة المصرية من خلال إعادة الانترنت إلى المجتمع المصري، بعد أن أقبلت الحكومة المصرية على قطعه، ما يعني إعادة الأداة إلى عملها لأنها لو توقفت لتوقفت حالة الهيجان الشبابي نسبياً أو خف تأثيرها في حشد الناس وتوجيههم، لهذا أن ما يؤشر على المواقع والشبكات وشركات الانترنت من ارتباطات

عبر عنة جمال نجل الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك بالقول: «أن السياسة الأمريكية - الإسرائيلية في المنطقة وفرت مرتعاً خصباً للفوضى، وقال نرفض الرؤى الخارجية الأمريكية التي تسعى إلى تقويض الأمن في الكيان العربي والجهود العربية المشتركة»^(٧٤).

ولا يخفى أن الولايات المتحدة الأمريكية لطالما عملت على استخدام القوة اللينة أو القوة الناعمة في سياستها الخارجية من أجل اختراق شعوب الشرق الأوسط، والترويج لقيمها في داخل تلك الشعوب، أي محاولة اختراق المجتمعات الأخرى من أجل تعميم النموذج الثقافي الأمريكي عبر استخدام شعارات الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وبالتالي أحداث حالة من التغيير بدون أي استخدام للقوة العسكرية «القوة الصلبة» ولا الحاجة لذلك، كما هو حال في أحداث التغيير العربي، وخصوصاً في مصر^(٧٥).

وما ساعد على استخدام القوة الناعمة في الإستراتيجية الأمريكية حيال التغييرات العربية، هو التطورات الحاصلة في تكنولوجيا الإعلام والاتصال، التي عملت الولايات

الحكام، أما الآن فنحن نعمل على كسب عمالة الشعوب وإدارة الشعوب عبر إعطائها ما تريد وتسييرها وتوجيهها كما نريد وإيهاها بأنها تذهب في الاتجاه الصحيح»^(٧٨).

ثالثاً: ليبيا أنموذجاً للتغيير بالقوة الذكية:

لم يكن تعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع الثورات العربية بمستوى واحد، بل اختلفت التكتيكات الإستراتيجية الأمريكية بين بلد وآخر، وإذا ما ركزت الولايات المتحدة الأمريكية على القوة الناعمة حيال الثورات في تونس ومصر، فإن الأمر لم يكن كذلك في ليبيا، وإنما لجأت الولايات المتحدة الأمريكية إلى القوة الذكية في تعاملها مع الثورة الليبية، وفي هذا الصدد ذكر البروفسور أستاذ العلاقات الدولية جوزيف ناي: أن على الولايات المتحدة الأمريكية وجوب التعامل بنحو انفرادي مع أي حالة من حالات الثورات العربية، وبما يضمن مصالح الولايات المتحدة الأمريكية، وذلك بسبب اختلاف الثورات العربية بعضها عن البعض الآخر، مع ضرورة تهيئة التغيير الديمقراطي للدول التي تتوافر فيها ظروف هذا التغيير، ولاسيما ليبيا التي تتوافر فيها

وثيقة بالإدارة الأمريكية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر. ومن المعروف أن هذه المواقع تعد أكبر مواقع لجمع المعلومات التجسسية عن الشعوب، لذا وظفت هذه الأداة التكنولوجية في عمليات تغيير الأنظمة حول العالم، وهذا ما حدث فعلاً في مصر، إذ أدت هذه المواقع دوراً مميزاً رئيساً وبارزاً في عملية أحداث هذا التغيير، ولما قامت به من عمليات تعبئة للرأي العام المصري، عبر مجموعة من المتخصصين والمتدربين في مجال الإعلام والتعبئة الجماهيرية إذ استطاعت أن تجمع الآلاف من المواطنين في مصر وأسقطت نظام الرئيس المصري الأسبق حسني مبارك^(٧٧).

يبدو ومما تقدم أن الولايات المتحدة الأمريكية حققت تغييراً في مصر، وفقاً لما أشار إليه جوزيف س. ناي بالقول: «أنه يمكن نشر القوة الجاذبة بطرائق شتى، كالثقافة الشعبية، وجعل الشعوب تأخذ ما تريد، وإيهاها بأنها فعلت ذلك بمحض إرادتها، وبالتالي نحقق ما نريد أن نحققه»، واثنت على هذا كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة بالقول: «عملنا طوال السنين السابقة على كسب عمالة

المجالات عدا القوة العسكرية والتي تصب في تعزيز الهيمنة الأمريكية على العالم عبر أساليب ليست بعسكرية، مما يعني أن القوة الذكية التي تعمل الولايات المتحدة الأمريكية في إستراتيجيتها: هي مزيج من القوة الصلبة والقوة الناعمة^(٨٢)، كما هو الحال في الثورة الليبية.

٢- ليبيا أنموذجاً للقوة الذكية:

لم تتوقف التظاهرات العربية عند حدود الإطاحة بالنظام التونسي والنظام المصري، بل تعدت ذلك لتمتد التظاهرات إلى ليبيا لتندلع فيها في ٢٠١١/٢/١٠ بمدينة بنغازي ضد النظام الليبي الذي يترأسه معمر القذافي الرئيس الأسبق لليبيا، وعلى النحو الذي اندلعت فيه في كل من تونس ومصر، ومنذ اليوم الأول للتظاهرات سادت في مدينة بنغازي مواجهات عنيفة واستخدام مفرط للقوة وبشكل مباشر، أدت في نهاية المطاف إلى اتساع رقعة التظاهرات لتشمل كامل مدينة بنغازي والمدن المحيطة بها، لتنتقل بعد ذلك لتشمل ليبيا بأكملها، باستثناء بعض المدن الموالية لمعمر القذافي الرئيس الأسبق لليبيا^(٨٣)، ولم تكن مطالب

هذه الظروف، إذ على الولايات المتحدة الأمريكية أن تتعامل معها بطريقة تصلح لمتغيرات المرحلة الراهنة، ووفق آليات مختلفة عن الثورة التونسية والثورة المصرية^(٧٩)، وعلى ضوء هذا ذهبت الولايات المتحدة الأمريكية إلى استخدام القوة الذكية حيال الثورة الليبية، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال الآتي:

١- الإطار النظري للقوة الذكية:

إن القوة الذكية تتلخص في القدرة على الجمع بين القوة الصلبة الصارمة وقوة الجذب الناعمة في إستراتيجية واحدة^(٨٠)، أي أنها تعمل على التوازن بين القوة العسكرية شديدة البأس والقوة الناعمة للدبلوماسية والتنمية والتبادل الثقافي والتعليم والعلوم كافة^(٨١)، وهذه القوة الذكية تتكون من شطرين أساسيين، هما: القوة الصلبة البحتة أي استخدام القوات المسلحة بصورة مباشرة لتحقيق الأهداف الإستراتيجية الأمريكية، والقوة الناعمة التي تشكل كتلة متكاملة من أدوات ثقافية ودبلوماسية واقتصادية فضلاً عن التعاون العلمي والتكنولوجي والصحي وكافة

الناثو من تدمير الجيش الليبي، لتستمر بعد ذلك في تنفيذ عمليات القصف الجوي حتى سقوط مدينة طرابلس، مما أدى إلى انهيار نظام معمر القذافي الرئيس الأسبق لليبيا^(٨٦).

وبقدر ما يتعلق الأمر بموضوع القوة الذكية والعمليات العسكرية، فإن ما حدث في ليبيا من تظاهرات واحتجاجات وظفت من قبل الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق القوة الناعمة باستخدام التكنولوجيا ووسائل الاتصال (اتويتر، فيس بوك، ويوتوب)، والقنوات الإعلامية (العريية والجزيرة)^(٨٧)، ودفعت الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بالتظاهرات حتى الوصول إلى المواجهة المسلحة المباشرة، عبر الدعم المباشر للمتظاهرين الليبيين بالسلح والعتاد وإرسال مجاميع أجنبية تابعة لقوات الناثو لكي يهيئوا ويدربوا الثوار الليبيين على كيفية القتال أثناء اندلاع الاشتباكات واستخدام الأسلحة المتطورة ولكي يتمكنوا من مجابهة النظام، وبهذه الطريقة احتدم الصراع مع الترويج لفكرة أن الغرب يحاول أن يحمي المواطنين من بطش النظام وخلق منطقة عازلة تحت ذريعة التدخل الإنساني، بعد حذر

المتظاهرين في ليبيا تختلف كثيراً عن مطالب المتظاهرين في كل تونس ومصر، كالمطالبة بالديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، ورفع المستوى المعاشي، والكرامة وغيرها من المطالب المشروعة الأخرى^(٨٤)، وسرعان ما حشد الرئيس الليبي الأسبق معمر القذافي الجيش وتوجه به إلى مشارف بنغازي محقق بذلك انتصارات كبيرة على الثوار، بعد أن تحولت التظاهرات إلى صراع مسلح، فتسارع الأحداث في ليبيا وما شهدتها من تطور ملحوظ وخطير دفعت الإدارة الأمريكية وحلفائها للدفع باتجاه استصدار قرارات دولية عبر مجلس الأمن بضرورة التدخل المباشر في ليبيا لأسباب كثيرة معلنة وغير معلنة أهمها النفط الليبي، وإسقاط النظام الذي يقتل وينتهك حقوق الإنسان^(٨٥).

وبذلك، انطلقت الولايات المتحدة الأمريكية لقيادة حلف الناثو، في توجيه ضربات جوية قوية إلى الجيش الليبي، الذي كان على حدود مدينة الثوار بنغازي يخوض معارك طاحنة، بعد صدور قرارين من مجلس الأمن ١٩٧٠ و١٩٧٣ يصران على الحظر الجوي على ليبيا، وبذلك استطاعت قوات

الحتمية للفوضى، سينتهي الصراع العربي - الإسرائيلي، وستكون جميع البلدان العربية بحاجة إلى إسرائيل القوية»^(٩٠)، مما يعني أن التحول الديمقراطي في البلدان العربية، في حقيقته باب من أبواب الفوضى الخلاقة التي عملت عليه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من أجل توظيفه في دول الشرق الأوسط العربية منها والإسلامية، وبالنتيجة الحتمية سترتفع مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية.

ولم ينتهي الأمر في التوظيف الأمريكي - الإسرائيلي للفوضى الخلاقة عند هذا الحد من البلدان العربية بل تعدى ذلك إلى بلدان أخرى مثل سوريا، التي انطلقت فيها التظاهرات على شاكلة البلدان العربية التي سبقتها، إلا أن نتيجة المتغيرات الدولية والإقليمية وانعكاساتها أصبحت القضية السورية مليئة بالأحداث والتعقيدات والتدخل في شأنها الداخلي والإقليمي والدولي مما دفع بسورية أن تصبح وكأنها ساحة صراع إقليمي ودولي، وانطلاقاً من هذا سوف تقوم بتسليط الأنظار على القضية السورية في دراسة مستفيضة من خلال المبحث القادم.

في التعامل مع القضية الليبية لاسيما في مجلس الأمن، فقد قام الغرب بتقديم الدعم المادي والمعنوي عبر إرسال الأموال والمساعدات الاقتصادية لاستدامة التظاهرات واستمرارها^(٨٨)، وهنا يكمن التمازج ما بين القوة الناعمة المتمثلة بالدعم المادي والاقتصادي والدعم الدبلوماسي والمدني والمالي العربي للثوار، وبين القوة الصلبة المتمثلة بالتدخل العربي العسكري للئاتو في عمليات مباشرة على ليبيا تشترك فيها اغلب دول الناتو، وفي نهاية المطاف تحقق من خلال آلية القوة الذكية الإطاحة بالرئيس الأسبق معمر القذافي^(٨٩).

وبناءً على ما تقدم، يرى المحلل السياسي دوري جولد الذي شغل سابقاً منصب المستشار السياسي لرئيس الوزراء الصهيوني بنيامين نتنياهوو خلال مدة رئاسته الأولى في مقال لصحيفة «إسرائيل اليوم»: «بأن التحول الديمقراطي في العالم العربي يشكل مصلحة إسرائيلية»، وأضاف قائلاً: «أن التحول الديمقراطي في البلدان العربية يؤدي في حقيقته إلى حالة من الصراع والفوضى والأزمات، وقد يؤدي إلى تفتت البلدان العربية في المستقبل، والنتيجة

المبحث الثاني

المتغيرات الدولية والإقليمية وانعكاساتها

على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية

توطئة:

مما لا شك فيه أن أحداث التغيير العربي التي عصفت بالبلدان العربية أفرزت واقعاً جديداً من المتغيرات الدولية والإقليمية، انعكست بدورها على منطقة الشرق الأوسط، وتعتبر هذه التغييرات من بين أشد التحولات أثراً في المنطقة منذ أن أخذت المنطقة شكلها الحالي بعد الحرب العالمية الأولى. وإذا ما كان التغيير قد حدث في بعض بلدان الشرق الأوسط، فإن اقتران هذا التغيير وخلفيته المتشابه، كان له انعكاساً إقليمياً جارفاً، تغيرت على أثره العلاقات بين دول منطقة الشرق الأوسط.

ولا ريب أن هذه التغييرات بلغت ذروتها في تطوراتها الدراماتيكية التي شهدتها حينما امتدت التظاهرات إلى سوريا، باعتبار أن سوريا تمثل بيضة القبان في العلاقات الدولية والإقليمية، ولهذا أن الأزمة السورية أصبحت لها انعكاسات واضحة المعالم على الصعيد الدولي ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين، باعتبار أن هنالك رغبة روسية - صينية في تبوء مكان لها على الصعيد الدولي، وهذا دفع بها إلى منافسة الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

ومن اجل التعرف على هذه المتغيرات الدولية والإقليمية، ومدى انعكاسها على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية، تم تقسيم هذا المبحث إلى مطلبين رئيسيين هما:

المطلب الأول: انعكاس المتغيرات الدولية على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية.

المطلب الثاني: انعكاس المتغيرات الإقليمية على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية.

أما من حيث المتغيرات الإقليمية فأن انعكاساتها أشد تأثيراً على الصعيد الإقليمي، باعتبار أن الأزمة السورية لها أبعاد مترامية الأطراف، فهي من جهة على تماس مع العديد من الدول العربية والإسلامية في منطقة الشرق الأوسط، ومن جهة أخرى أنها على تماس مع إسرائيل، خصوصاً وأن إسرائيل تعمل على تأجيج الصراع من أجل إيجاد فجوة ما بين الدول العربية والإسلامية، بهدف خدمة مصالحها ومصالح الولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط.

المطلب الأول

انعكاس المتغيرات الدولية

على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية

باتت منطقة الشرق الأوسط محط الاهتمام المركزي للعلاقات الأمريكية - الإسرائيلية منذ زمن بعيد، وغالباً ما كانت تهيمن على المحادثات بين صانعي السياسة لكلا البلدين، مسائل التهديدات المحيطة وعملية السلام والاستقرار في هذه المنطقة، باعتبارها من أكثر المناطق توتراً في العالم. ولهذا سميت بهلال الأزمات، باعتبار أن الشرق الأوسط يواجه أزمات ممتدة من فلسطين إلى لبنان، ومن سوريا إلى العراق، وإيران، وأفغانستان، وباكستان، وهذه الأزمات تحدث في المنطقة بسبب ثلاثة أسباب رئيسية^(٩١):

١ - أن هذه المنطقة مهمة على الصعيد الإستراتيجي، من حيث توفير الأمن الأساسي للولايات المتحدة وأوروبا.

٢ - تعتبر المنطقة على صلة وثيقة بالمسائل الإستراتيجية، كالإرهاب، وأسلحة الدمار الشامل، ومخزونات الطاقة، والنزاعات الدينية، والسلام.

٣ - تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية وأوروبا، أنهما لن يكونا بأمان ما دامت النزاعات موجودة في منطقة الشرق الأوسط.

ونظراً لأهمية المنطقة في التنافس الدولي^(٩٢)، دأبت الولايات المتحدة الأمريكية باستمرار على تعزيز تدخلها الإستراتيجي في المنطقة لاسيما على خلفية هجمات ١١ أيلول عام ٢٠٠١، وهذا التدخل ظهر بشكل واضح في احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وعلى الرغم من الاعتراض

الشرقية) بغية حماية المصالح الأمريكية وإجهاض أي توجه ألماني - فرنسي نحو دور أكبر لها في العالم، لاسيما في المناطق ذات المصالح المهمة للولايات المتحدة الأمريكية، كمنطقة الشرق الأوسط^(٩٤).

واستمر التدخل الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط حتى بلغ ذروته في ظل أحداث التغيير العربي الذي انطلق في بداية عام ٢٠١١، وظهر بصورة جلية وواضحة في ظل الأزمة السورية، فالدور السياسي الدبلوماسي الأمريكي في هذه القضية مبني على أسس وتصورات إستراتيجية نظر لها العديد من الخبراء الإستراتيجيين منهم د. ماكس ج. مانورنك^(٩٥)، الذي أعطى روية إستراتيجية متكاملة للتكتيك الإستراتيجي الأمريكي حيال الصراع في السورية^(٩٦)، مما يعني أن الأزمة السورية أعطت أوضح صورة من صور التدخل الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط، كما أن هذا التدخل الأمريكي أخذ بنظر الاعتبار تحطيم ونخر سوريا من الداخل مقابل الحفاظ على أمن إسرائيل، التي هي على تماس حدودي مباشر مع سوريا، مما يدل على أهمية التحالف الإستراتيجي بين الولايات المتحدة

الواضح من قبل الدول، روسيا، الصين، ألمانيا، وفرنسا، للولايات المتحدة الأمريكية في احتلالها للعراق، ورغبتها في الوقوف في الجانب المعترض للهيمنة الأمريكية على منطقة الشرق الأوسط، إلا أنه سرعان ما حدث تغيير إستراتيجي في مواقف هذه الدول المعارضة بعد الاحتلال الأمريكي للعراق، وذهبت هذه الدول مسرعةً تبدي تبريراتها للولايات المتحدة الأمريكية في أنها لم تكن تنوي أن تقود أي تحالف ضد الهيمنة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط^(٩٣).

ولابد أن نشير هنا، إلى أن الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن كانت تركز في سعيها للحد من فاعلية المشروع الأوروبي وتأثيره في المسرح الدولي على الإطار الشامل للنظام العالمي، بدأت بالاهتمام بإدارة ومواجهة كل مشروع إقليمي على حده، إذ بدأت التركيز في سياستها على منع أوروبا من توسيع نفوذها بالاعتماد على قوتها الصناعية وطاقاتها الإنتاجية والاقتصادية والمالية وبالأخص الألمانية والفرنسية. وفي هذا السياق بدأت الولايات المتحدة الأمريكية بانتهاج سياسة تقوم على إعطاء دور أكبر للدول الأوروبية الجديدة (أوروبا

الأخرى، فهي تمتلك من مدخلات القدرة ما تؤهلها أن تكون طرفاً مؤثراً على المسرح السياسي الدولي، كالمقومات العسكرية والاقتصادية والجغرافية والعوامل الديموغرافية، لذلك أن هذه المؤهلات جعلتها تحتل مكانة مميزة على صعيد العديد من مناطق العالم ولاسيما منطقة الشرق الأوسط، التي تعتبر دولها حليفاً سابقاً للاتحاد السوفيتي السابق، الذي ورثته روسيا، مما يعني أن هذه المزايا التي تتمتع بها روسيا توفر لها الأجواء المناسبة نحو إعادة أمجادها في منطقة الشرق الأوسط، من اجل الحصول على أكبر عدد ممكن من مناطق النفوذ، التي تنافس من خلالها الهيمنة الأمريكية على المنطقة، لاسيما وأنها تتمتع بعلاقات جيدة مع دول كثيرة في منطقة الشرق الأوسط، كإيران وسوريا^(١٠٠).

كذلك لا بد أن نشير إلى الصين^(١٠١)

التي تعتبر إحدى القوى الدولية المرشحة لأداء دور فاعل في القرن الحادي والعشرين، إذ يمكن أن تسهم هذه الدولة العملاقة في صياغة شكل النظام الدولي القادم، فالصين تعيش مرحلة انتقالية مهمة من تأريخها المعاصر، تشهد فيها مؤشرات أداء وانجاز

الأمريكية وإسرائيل، ويبين بصورة بارزة مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية^(٩٧).

أما لو نظرنا إلى المتغيرات الدولية بعد أحداث التغيير العربي سوف نجد أن شدة التنافس الدولي له دور كبير في التأثير على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية. وتمثل روسيا والصين من اكبر المنافسين الدوليين للولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، فلو لاحظنا انه أي نظام يمثل عدوا للولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط، نراه صديق وشريك استراتيجي من جهة ثانية لروسيا والصين، وإيران وسوريا مثالين واضحين، لهذا تعد عملية التفاعل السياسية في منطقة الشرق الأوسط من الأمور المعقدة والمتشعبة، بسبب المتغيرات الدولية الهائلة التي تعصف بالمنطقة خصوصاً بعد أحداث التغيير العربي^(٩٨).

ومن نافلة القول، لا بد أن نشير هنا على أن روسيا^(٩٩) تعد إحدى الأطراف الدولية المرشحة للصعود في النظام الدولي، والمنافسة بشدة للولايات المتحدة الأمريكية على الزعامة العالمية، وهذا ينبع من المزايا التي تتمتع بها والتي قلما تتوفر لدى الدول

التعددية القطبية، وبمشاركة دول منظمة البريكس^(١٠٣)(١٠٤)، وروسيا من جانبها اعتبرت أن دعمها للنظام السوري، يؤدي في الوقت نفسه إلى زيادة النفوذ الروسي في منطقة الشرق الأوسط، وجعلت روسيا، بمعنى من المعاني، من نفسها أنها راعية للمحور الإيراني - السوري - اللبناني، على الرغم من أن هذه الإستراتيجية من الممكن أن تأتي بنتائج عكسية إذا ما سقط النظام السوري^(١٠٥)، إلا أن الأهمية الإستراتيجية التي تتمتع بها سوريا دفع بروسيا التمسك بصورة كبيرة بدعم النظام السوري، باعتبار أن سوريا المعقل الأخير لروسيا على المياه الدافئة المتمثلة في «ميناء طرطوس» على البحر الأبيض المتوسط، كما أن سوريا تحتل مكانة مميزة عند روسيا من حيث مبيعات الأسلحة الروسية إلى سوريا، أي أن سوريا تعتبر من بين الزبائن القلائل في العالم إلى روسيا^(١٠٦).

وانطلاقاً من هذا، إن روسيا مستمرة في دعم النظام السوري وهذا ما جاء على لسان الرئيس الروسي فلاديمير بوتين بالقول: «لن أتخلى عن النظام السوري حتى لو وصل القتال إلى شوارع موسكو»^(١٠٧)، ولم يختلف

على المستوى الاقتصادي والتكنولوجي وحتى العسكري، وهذا بحد ذاته دفع الكثير من خبراء الإستراتيجية والعلاقات الدولية للرهان على منافستها للولايات المتحدة الأمريكية، ولاسيما وأن الصين أدركت بشكل مبكر طبيعة التحولات العالمية ومتطلبات المرحلة الجديدة وقوانينها وكذلك استحقاقاتها في ظل أحداث التغيير العربي، لذلك أن تعامل بكين مع واشنطن في ظل أحداث التغيير العربي كان ينطلق من أساس دورها وموقعها في بنية النظام الدولي الجديد كقوة عظمى، وهذا دفعها إلى تسجيل حضوراً مادياً ومعنوياً مباشراً ومؤثراً في الأمم المتحدة، من خلال اتخاذ الكثير من القرارات في مجلس الأمن أما (الفيتو أو رفض التصويت) الراضة من خلالها للهيمنة الأمريكية وخصوصاً في ظل الأزمة السورية^(١٠٢).

وانطلاقاً من هذا، اعتبرت الصين أن تحالفها مع روسيا في شأن الأزمة السورية أنما نابع من الرغبة في مواجهة النفوذ الأمريكي في منطقة الشرق الأوسط، وكذلك من اجل تأسيس نظام دولي جديد خارج السيطرة الأمريكية، وهذا النظام قائم على

الروسية - الصينية جاءت بصورة علنية لتدخل الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وبريطانيا وباقي الدول الأوربية في سوريا على خلفية مفاهيم حقوق الإنسان والديمقراطية والحرية، مبدئين خشيتهم من أن التدخل الأمريكي - الأوربي، سيكون خطوة متقدمة من أجل كبح النفوذ الروسي - الصيني^(١٠٩).

وعلى الرغم من الإعلان الغربي المتمثل بالقيادة الأمريكية عن نيته تزويد المعارضة السورية بالسلاح، والذي تم الإفصاح عنه في مؤتمر أصدقاء سوريا^(١١٠) في الدوحة، في حزيران عام ٢٠١٣، والتي وصفت هذه الخطوة من قبل المحللين على أنها من أجل خلق توازن في دائرة الصراع الدولي ما بين المعسكرين الأمريكي - الروسي الداعم بالسلاح للنظام السوري، مما يعني أن منطقة الشرق الأوسط أصبحت منطقة صراع دولي كبير بين القوة المتنافسة دولياً، وعلى الرغم من ذلك القرار الغربي الرامي إلى تسليح المعارضة السورية، إلا أن التحركات الغربية الأخرى الرامية إلى إقامة حظر جوي للطيران العسكري فوق سوريا، من أجل توفير أرضية مناسبة للمعارضة السورية من أجل التحرك على الأرض،

الأمر كثيراً عن الصين التي أبدت تأييدها ودعمها للنظام السوري بشكل واضح كجزء من تلك الأسباب، وعادةً ما تتوافق بكين مع موسكو على عدم إضفاء أي شرعية على الضغط الغربي المتمثل بالقيادة الأمريكية الرامي إلى إسقاط النظام السوري، وتأييده للمعارضة السورية، والهادف إلى تقليل النفوذ الروسي - الصيني في منطقة الشرق الأوسط^(١٠٨).

مما يعني، أن هذه المواقف الدولية المتصلبة من قبل الدول العظمى المتمثلة في روسيا والصين لها دور كبير ومؤثر على الأزمة السورية، وهذا بحد ذاته نابع من التخوف الروسي - الصيني من الهيمنة الأمريكية على منطقة الشرق الأوسط، وخصوصاً في ظل الصراع في سوريا، الذي تعتبره كل روسيا والصين أن السيطرة الغربية المتمثلة بالولايات المتحدة الأمريكية على سوريا سيكون ببساطة معنى ذرائعي لتوسيع نطاق النفوذ الغربي في منطقة الشرق الأوسط، الذي قد يستخدم ضدهم فيما بعد، ولهذا يعتبر المشهد الجيوبوليتكي من أكثر المشاهد حساسية في الأزمة السورية بالنسبة إلى روسيا والصين، ولهذا أن المعارضة

على سوريا. وعندما تكررت الضربات الجوية العسكرية الإسرائيلية على سوريا جاء الإعلان الروسي سريعاً على أنها سوف تقوم بتزويد النظام السوري بصواريخ ذات تقنية عالية الدقة وبعيدة المدى من نوع C ٣٠٠. لذلك سرعان ما قام الرئيس الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بزيارة سريعة إلى موسكو، في اليوم التالي من إعلان موسكو عن نيتها تزويد النظام السوري بهذه الصواريخ، والتقى بنيامين نتنياهو مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين، الذي أعلن بصورة واضحة: «أن إسرائيل إذا ما قامت مرة أخرى بتوجيه ضربات عسكرية جوية إلى سوريا، فإن روسيا لا تقف مكتوفة الأيدي، بل أنها ستقوم على الفور بتزويد النظام السوري بصواريخ C ٣٠٠»^(١١٣).

ولابد أن نشير هنا، إلى أن هذه القوة التي تتمتع بها إسرائيل، وتنفيذها للضربات الجوية العسكرية لسوريا التي تعتبر ساحة نفوذ لموسكو، إنما هو نابع في حقيقته من حجم الدعم التي تحصل عليه في كافة الاتجاهات من الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا من أجل جعل إسرائيل تتفوق على جميع الدول العربية والدول الشرق أوسطية

تصادم بالموقف الروسي المتصلب الراض إلى إقامة الحظر الجوي فوق سوريا^(١١١).

إن هذه المتغيرات الدولية كان لها انعكاس واضح على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية، أي أن بزوغ المنافسين للولايات المتحدة الأمريكية على المسرح الدولي، لاسيما في منطقة الشرق الأوسط وفر الفرصة المناسبة لإسرائيل في الإفصاح على نفسها على أنها أحد الأذرع المهمة للولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط، التي من الممكن أن تستخدمها واشنطن في كبح النفوذ الروسي - الصيني في منطقة الشرق الأوسط، من خلال توجيه ضربات مؤلمة إلى الدول التي تعتبر أنها ساحة نفوذ روسي - صيني، كما هو الحال في توجيه إسرائيل ضربات جوية عسكرية متعددة إلى سوريا، بحجة وجود الأسلحة الكيميائية في سوريا التي من الممكن أن تهدد بها الأمن الإسرائيلي^(١١٢).

وما يدل على أن الولايات المتحدة الأمريكية تقوم باستخدام إسرائيل في كبح النفوذ الروسي في المنطقة، هو إعلان موسكو بصورة واضحة عن رفضها وشجبها لأولى الضربات الجوية العسكرية الإسرائيلية

في الوقت نفسه مع الرغبة الإسرائيلية - الأمريكية الرامية إلى توسيع دائرة نطاق نفوذها في منطقة الشرق الأوسط، من خلال الرغبة في كبح التوجه الإيراني للحصول على السلاح النووي^(١١٦)، إذا ما نظرنا إلى إيران أنها على الخط الموالي لروسيا، لاسيما وأن إيران تمتلك من الصواريخ القادرة على الوصول إلى أوروبا وإسرائيل والهند^(١١٧).

وانطلاقاً من هذا قامت الولايات المتحدة الأمريكية ببناء نظام دفاعي صاروخي لحماية أوروبا في إسرائيل، يضاف إلى أن إسرائيل تعمل مع الهند لتطوير أنظمة أقمار صناعية للتجسس على إيران^(١١٨)، وذلك بهدف توفير الإنذار المبكر في حال قيام إيران بتوزيع أماكن صواريخها المحمولة، يضاف إلى كل ذلك أن إسرائيل تطلق أقمارها الصناعية من قاعدة فضائية هندية بهدف تغطية الجزء الآخر من منطقة الشرق الأوسط، وبهذا تستطيع الولايات المتحدة الأمريكية التحرك من إسرائيل لكبح نفوذ القوى الأخرى في المنطقة باعتبار أن إسرائيل قاعدة قوية وثابتة في منطقة الشرق الأوسط^(١١٩).

وبناءً على ما تقدم، يتضح أن

كما ونوعاً، ولا يقف الأمر عند هذا الحد بل أن إسرائيل تعتبر الدولة الوحيدة التي تمتلك سلاحاً نووياً في منطقة الشرق الأوسط، ومن جانبها الولايات المتحدة الأمريكية عملت على اتخاذ سياسة غض الطرف عن إسرائيل، وعملت على جعل هذا السلاح حكراً على إسرائيل، وفي المقابل انتهجت سياسة شديدة وقاسية ضد جميع دول الشرق الأوسط سواء كانت عربية أم غير عربية، للحيلولة دون امتلاك السلاح النووي أو التقنية النووية، حتى وأن كانت لأغراض سلمية^(١١٤).

وبناءً على هذه القوة التي تمتلكها إسرائيل (سبق وأن اشرنا إليها في الفصل السابق) وتفوقها على دول منطقة الشرق الأوسط، إضافةً إلى ما تملكه من السلاح النووي، تستطيع إسرائيل أن تتحرك بكافة الاتجاهات براً وجواً وبحراً في المنطقة، لذلك تعتبر إسرائيل قوة رادعة قوية في منطقة الشرق الأوسط، توفر للولايات المتحدة الأمريكية المرونة في كبح كافة المنافسين الدوليين في المنطقة، مما جعل من إسرائيل تحتل مكانة عالية المستوى في الإستراتيجية الأمريكية^(١١٥)، وهذا تزامن

التنافس الدولي من اجل كبح النفوذ الروسي - الصيني في المنطقة، وعلى الرغم من حجم الانعكاسات الايجابية على مكانة إسرائيل في ظل المتغيرات الدولية، إلا أن المتغيرات الإقليمية من الممكن أن تكون أكثر مردوداً على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية.

المتغيرات الدولية المتمثلة في التنافس الدولي ما بين الولايات المتحدة الأمريكية وروسيا والصين، وخصوصاً في منطقة الشرق الأوسط على خلفية الصراع الدائر في سوريا، وفر فرصة مناسبة لإسرائيل من أجل رفع مكانتها في الإستراتيجية الأمريكية، باعتبارها قوة إقليمية قادرة على أن تستخدمها الولايات المتحدة الأمريكية في

المطلب الثاني

انعكاس المتغيرات الإقليمية

على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية

شهدت منطقة الشرق الأوسط متغيرات إستراتيجية خلال العقد الأخير من القرن العشرين انعكست سلباً على مكانة إسرائيل في الإستراتيجية الأمريكية، تمثلت في التحول البنيوي الذي ارتبط بانتهاء الحرب الباردة، وتراجع الموقف الاستراتيجي للدول العربية، وهذا بحد ذاته جعل من إسرائيل تفقد الحافز الذي تقتل من خلاله الأزمات في منطقة الشرق الأوسط، وفي المقابل حتمت هذه المتغيرات على الدول العربية إعادة صياغة سياستها الخارجية تجاه الولايات المتحدة الأمريكية، وهنا أدركت إسرائيل بضرورة العمل على تحسن الوضع الاستراتيجي خاصة بهأ لاسيما وان الولايات المتحدة الأمريكية لها دوراً مهيمناً في منطقة الشرق الأوسط^(١٢٠).

كما أن انتهاء الحرب الباردة ترافق مع هزيمة العراق في حرب الخليج الثانية في العام ١٩٩١، مما ولد حالة من تبخر في الاعتبار الإستراتيجية التي كانت قد وضعت إسرائيل والعراق على الخط الجيوسياسي نفسه في القسم الأخير من القرن العشرين، ولهذا سرعان ما وجدت إسرائيل نفسها، في غياب أي عدو مشترك لها مع الولايات المتحدة الأمريكية، مما استدعى إلى إعادة رسم النظام الإقليمي بعد الإجهاز على الجيش العراقي، وتولد خوف إسرائيلي من حالة بروز إيران كقوة عظمى في الشرق الأوسط، لذلك طالبت إسرائيل الولايات المتحدة الأمريكية بتصنيف إيران، إلى جانب العراق، بالدول الشريرة التي يتعين احتواؤها^(١٢١)، وازدادت الفرص المتاحة لإسرائيل من اجل تعزيز مكانتها بعد احتلال العراق بشكل مباشر من قبل

يبدو جوهرياً في السياسة الخارجية الأمريكية، إذ أن السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ظلت توازن بصورة تقليدية ما بين صيانة مصالحها الحيوية وضمان استقرار النظم الصديقة من ناحية، وبين مطالب الديمقراطية وحقوق الإنسان من ناحية أخرى، وكانت الإدارات الأمريكية تتفاوض تقليدياً عن قضايا الديمقراطية وحقوق الإنسان في الدول العربية الصديقة لضمان مصالحها إلا أن المسؤولين في الإدارة الأميركية ذهبوا بعد احتلال العراق، إلى الإعلان بأن مهمتهم تقضي بضرورة أحداث تغيير في منطقة الشرق الأوسط وفي كل مكان من العالم الإسلامي، وفي هذا الصدد قال الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن: «لقد مضى ستون عاماً على الدول الغربية وهي تحاول إيجاد الأعذار المناسبة لدول الشرق الأوسط بسبب التراكمات التي سببها نقص الحريات في تلك الدول، ومع ذلك فإن هذه الأعوام السابقة لم تجعلنا في مأمن من الأخطار التي تهددنا»^(١٢٤).

وانطلاقاً من هذا، يعد العامل الخارجي المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية من العوامل المؤثرة جداً في عملية التغيير التي

الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٣ الحليف الرئيس لإسرائيل في المنطقة والعالم، وهذا الاحتلال ترافق مع التأكيد الأمريكي المستمر على نشر الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان في منطقة الشرق الأوسط^(١٢٢).

مما يعني أن غزو العراق واحتلاله في عام ٢٠٠٣، شكل هدفاً حيويًا للولايات المتحدة الأمريكية، من خلال نشر الديمقراطية في العراق، والذي اعتبرته الولايات المتحدة الأمريكية سيكون قاعدة أنموذجية قادرة من خلاله على قيادة التغيير الديمقراطي في المنطقة، لأنه يتسم بتنوع عرقي ومذهبي، الأمر الذي سيقود إلى تحولات كبيرة لا في العراق فحسب، وإنما في عموم منطقة الشرق الأوسط. بل أن وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة كونداليزا رايس ذهبت أبعد من ذلك، حينما أكدت أن: «العراق سوف يكون مفتاح التغيير في العالم الإسلامي»^(١٢٣).

لذا أصبح العمل على دعم التحول الديمقراطي في الدول العربية مكوناً رئيساً من مكونات الإستراتيجية الأمريكية بعد احتلال العراق وهو ما يمثل بحد ذاته تحولاً

اجتاحت المنطقة العربية، وقدموا لهم التدريب والتمويل عبر جماعات منظمة مثل المعهد الجمهوري والمعهد الديمقراطي الوطني ومنظمة حقوق الإنسان «فريدوم هاوس». لذلك يعد نشاط هذه المجموعات مصدر حرج على الأنظمة العربية، وعادةً ما كان يثير تحركهم التوتر بين واشنطن وبين زعماء الدول العربية، بسبب شعورهم أن سلطتهم تتعرض للتقويض من خلال دعم واشنطن لتلك الجماعات». مما يعني أن أحداث التغيير العربي ترتبط بمؤثر خارجي واضح يتجسد في الولايات المتحدة الأمريكية^(١٢٦).

ولهذا، أن ما شهدته منطقة الشرق الأوسط من متغيرات إقليمية عميقة بعد أحداث التغيير العربي، تمثلت في الإطاحة بعدد من الأنظمة العربية، ووصولاً إلى الأزمة السورية، إنما نابع من تخطيط مسبق من قبل الإدارة الأمريكية^(١٢٧)، ولو نظرنا إلى منطقة الشرق الأوسط قبل بداية أحداث التغيير العربي وواقع اليوم لوجدنا شيئاً مختلف، حيث كانت تسود في إسرائيل روية ثنائية للمنطقة، بصفتها ساحة صراع بين محورين أساسيين هما، المحور الأول: محور

شهدتها المنطقة العربية على كافة الأصعدة سواء كان إعلامياً أو سياسياً أو عسكرياً مباشراً. وتذكر صحيفة النيويورك تايمز في تقرير لها بالقول: «بينما ضخت الولايات المتحدة الأمريكية مليارات الدولارات في برامج عسكرية أجنبية وحمولات لمكافحة الإرهاب، هناك جزء صغير من الميزانية تم تكريسه لتمويل حركات تعزيز الديمقراطية في الدول العربية الديكتاتورية، إلا أن الأموال التي أنفقت على هذه البرامج تعد شيئاً بسيطاً بالمقارنة بالجهود التي قامت بها وزارة الدفاع الأمريكية من أجل أحداث تغيير في المنطقة العربية، ولكن حالياً حينما ننظر إلى التغيير العربي، نكتشف بأن هنالك دوراً أمريكياً في تأجيج الاحتجاجات العربية كان أكبر مما كان يتصور من قبل، وقد أتضح من خلال ذلك أن قادة حركات الاحتجاج قد تم تدريبهم من قبل الأمريكان عبر حملات ومنظمات بواسطة وسائل الاتصال الحديثة»^(١٢٥).

ووفقاً لمقابلات مع مسؤولين دبلوماسيين أمريكيين حصلت عليها ويكليكس فإنه قد التقوا مع عدد من الأفراد المرتبطين مباشرة مع الثورات العربية التي

٣ - صراع دولي، متمثل ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والغرب من جهة، وما بين روسيا والصين من جهة أخرى، لهذا أن سوريا بعد كانت لاعباً مهماً في منطقة الشرق الأوسط، أصبحت اليوم ملعباً للصراع.

وانطلاقاً من هذا، ومع انطلاق شرارة الاحتجاجات في سوريا منتصف آذار عام ٢٠١١، أبدى السياسيون والمحللون الإسرائيليون اهتماماً كبيراً بتطورات الثورة السورية، انطلاقاً من عوامل الخصوصية التي تمثلها الحالة السورية بالنسبة لإسرائيل، باعتبار إن سوريا دولة مجاورة لإسرائيل، وإن أيّ تغييرات سياسية فيها، ستؤثر بالضرورة في إسرائيل أمنياً وسياسياً وعسكرياً، كما إن سوريا خلافاً لمصر والأردن، لم توقع معاهدة سلام مع إسرائيل، وتعتبر رسمياً في حالة حرب معها، لاسيما وأنها تمتلك ترسانة من الأسلحة الصاروخية المتطورة، والأسلحة الكيماوية، التي تمثل خطراً على أمن إسرائيل^(١٣٠)، إضافةً إلى إن سوريا ترتبط بعلاقات وثيقة مع دول ومنظمات تعتبرها إسرائيل «محرراً للشرق»، وتقصّد بذلك إيران وحزب الله وفصائل المقاومة الفلسطينية، وعلى رأسها حركة حماس، مما يعني أن

الدول والحركات الراديكالية بقيادة إيران، ويشمل هذا المحور كلاً من إيران، وسوريا، وحزب الله، وحركة حماس، وهذا ما يسمى (محور الممانعة أو المقاومة)، ويتميز بتحدي الوضع الراهن، سواء بالنسبة إلى إسرائيل في منطقة الشرق الأوسط، أو بالنسبة إلى مكانة الولايات المتحدة الأمريكية والغرب وتدخلهما في المنطقة وعلاقتها بالدول العربية، ويرفع هذا المحور لواء مواجهة الأطواق المذكورة والأنظمة العربية المتعاونة معها. أما المحور الثاني: فهو الذي يشمل الدول المسماة «معتدلة»، بزعامة مصر والسعودية، والذي سعى للمحافظة على استقرار الوضع الراهن وعلى منع محور الممانعة من الاستقواء عليه، ويشمل محور الدول المعتدلة معظم الدول العربية الأخرى وتركيا^(١٢٨).

أما اليوم وفي ظل المتغيرات الإقليمية، والأزمة السورية فهناك ثلاث دوائر رئيسية للصراع في منطقة الشرق الأوسط تتمثل في^(١٢٩):

- ١ - صراع طائفي داخلي (سني - شيعي).
- ٢ - صراع إقليمي ما بين محور الممانعة، ومحور الدول المعتدلة لإسرائيل.

مما يعني، أن النظام السياسي الإيراني وضع كل ثقله خلف النظام السياسي السوري، وقدم تفسيراً شبيهاً للتفسير الذي قدمه النظام السوري من أن الحراك السوري الداخلي قد يكون مشروعاً، لكن هناك من يسيء الاستفادة منه لتسوية الحسابات مع النظام السوري. وهذه تسوية الحسابات مرتبطة بالسياسة التي تنتهجها سورية، لاسيما المرتبط منها بدعم حركات المقاومة المسلحة كحزب الله في لبنان وحركة حماس الفلسطينية هؤلاء الراضين جميعهم للوجود الإسرائيلي - الأمريكي في المنطقة^(١٣٣).

ولم يختلف موقف حزب الله اللبناني عن الموقف الإيراني، باعتبار أن هناك روابط أيديولوجية تجمع بين حزب الله والجمهورية الإسلامية الإيرانية وسوريا، ودائماً ما يطرح على أن حزب الله هو امتداد طبيعي لإيران عبر سوريا في لبنان، التي هي في الوقت نفسه مجاورة لإسرائيل، لذلك اعتبر أن حزب الله خطر إيراني يهدد إسرائيل، ولاسيما وأن حزب الله احد اذرع محور الممانعة^(١٣٤)، لهذا أن حزب الله منذ بداية التظاهرات السورية كان داعماً للنظام السوري، وهذا ما

إسرائيل تعتبر النظام السوري احد أهم الحلفاء لإيران في منطقة الشرق الأوسط^(١٣١).

لذلك أن الموقف الإيراني كان ثابتاً منذ الوهلة الأولى لانطلاق التظاهرات في دعم النظام السوري، ورأت إيران أن ما يحدث في سوريا إنما هو نتيجة مخطط خارجي مرسوم من قبل الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل، وهذا ما جاء على لسان السفير الإيراني السيد أحمد الموسوي في سوريا بالقول: «أن هنالك مؤامرة يحيكها أعداء النظام السوري، وأن التظاهرات فتنة، وأن المتظاهرين عملاء للخارج ويتلقون أوامرهم من إسرائيل للإطاحة بالنظام الممانع والمقاوم لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط»، وفي ١٢ / ٤ / ٢٠١١ أعلن رامين مهمانياراست، المتحدث باسم الحكومة الإيرانية في مؤتمر رسمي: «أن التظاهرات السورية مخطط غربي، وعمل مدفوع من الخارج، خصوصاً من الأمريكيين والصهاينة، ووسائل الإعلام المدفوعة أمريكياً تحاول خلق تظاهرات وهمية، ولا يجب على أحد أن ينخدع بهذه اللعبة الأمريكية - الإسرائيلية»^(١٣٢).

نهاية المطاف ضربة عسكرية لإيران، في ظل هذا الوضع الراهن». لهذا انطلقت إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في تأجيج وتحريك الطرف الآخر، من أجل تصفية الحساب معهما^(١٣٦).

واستخدمت إسرائيل في ذلك تركيا كأداة لها ضد المحور الآخر، التي هي في الوقت نفسه تتمتع معها بعلاقة قوية على أثر اتفاق التعاون الإستراتيجي الذي وقع بين الطرفين عام ١٩٩٦، والذي كان واره عدة أسباب، أهمها: خلاف بعض الدول العربية مع كلتا الدولتين، ولتفوقهما عسكرياً على جميع دول المنطقة، وخاصة العربية منها، وارتباطهما بعلاقات وطيدة مع الغرب ولاسيما الولايات المتحدة الأمريكية الذي يتبنى أجندة مغايرة للأجندة لبعض الدول العربية والإسلامية في المنطقة، مما ولد تخوف واضحاً لدى الدول العربية والإسلامية من الموقف التركي، باعتبار أن تركيا بلد محاذي لبعض الدول العربية والإسلامية، وهذه الدول بطبيعتها على خلاف مصيري مع إسرائيل بشأن عدة قضايا، كما أن هذه الدول ذاتها التي لم تعترف بإسرائيل، وترى أنه لا فائدة من السلام معها، وهي سوريا

جاء على لسان السيد حسن نصر الله مرات متكررة، نذكر ما جاء في واحدة منها بالقول: «أن حزب الله لن يسمح بكسر ظهر سوريا، محور المقاومة لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية»^(١٣٥).

مما يعني أن إسرائيل اعتبرت الأزمة السورية الفرصة السانحة لها من أجل تصفية هذا المحور المعادي لها، والذي في الوقت نفسه معادي للولايات المتحدة الأمريكية، لاسيما وأن على مدار السنوات المنصرمة، أشارت مصادر أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية - الأمريكية في الحديث عن أن أي ضربة عسكرية إسرائيلية مفترضة على إيران، سوف تجابه بردة فعل منسقة من المحور الذي تقوده إيران، المتمثل في حزب الله، وحماس، وسوريا، مما يعني نشوب حرب إقليمية شاملة، وخسائرها جسيمة في الأرواح داخل إسرائيل وحتى أمكانية أن تتطور إلى ضرب القوات الأمريكية المرتكزة في منطقة الشرق الأوسط، هذه التكهنات صبت في صلب التحليلات التي وضعها القائد السابق لجهاز الموساد مئير داجان، والذي أكد ذلك أيضاً في حزمة توصيات علنية، «معتبراً أن إسرائيل ستتحاشى في

الأخرى، ووضح هذا التقارب بشكل جلي من خلال الأزمة السورية^(١٣٨)، لذلك أن الدعم التركي باتجاه تأجيج الصراع في الأزمة السورية كان مبكر جداً، بهدف تعزيز العمق الإستراتيجي لتركيا وملء الفراغ الناجم عن احتمالية ضعف الحكومة السورية أو انهيارها، كما نادى بذلك وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو^(١٣٩).

ولم يقتصر التأثير الأمريكي - الإسرائيلي على تركيا فقط بل تعدى ذلك إلى منح كل السعودية وقطر دور لهما في المنطقة، تمثل في اجتماعات دورية بين الأمريكيين والإسرائيليين وحلفائهم في المنطقة، (سعودية وقطر)^(١٤٠)، وهذا الدور قائم على عدد من التوجيهات الأمريكية، التي من شأنها أن تجعل لهؤلاء الحلفاء دوراً وظيفياً إقليمياً مهماً، ولأعباءً مشاركاً في تشكيل صورة للصراع بين المحورين، محور المقاومة المتمثل بالطائفة الإسلامية (الشيعية)، وبين المحور الآخر المتمثل بالطائفة الإسلامية (السننية) والجماعات السلفية، ولا يقتصر الأمر في هذا على المحور المعتدل، بل أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل حرصت على زج وتحريض جميع الشعوب

والعراق وإيران، وقد شعرت هذه الدول، كل على حدة، أن التحالف العسكري موجه ضدها لتكون تركيا منصة للتجسس الإسرائيلي عليها وقاعدة لانطلاق أي هجمات ضدها^(١٣٧).

وفي هذا الصدد، لا يفوتنا أن نقول أن التوجه الأمريكي - الإسرائيلي حيال تركيا من أجل ممارسة دور لها في أحداث التغيير العربي، ترافق مع الرغبة التركية ذاتها الرامية إلى رؤية ثاقبة، المدركة لأهدافها المتمثلة في الرغبة من أجل السيطرة على الدول العربية وإعادة أمجادها، وكما وصفت من قبل المراقبين بـ (العثمانية الجديدة)، المستندة إلى قوة اقتصادية صاعدة، وقوة عسكرية، ودبلوماسية هادئة تسعى من خلالها تصفية كل مشكلاتها الخارجية، اعتماداً على إستراتيجية «تصفير المشاكل»، مع توظيف جيد لمصادر القوة الناعمة من تجارة، وثقافة، وفنون، حتى إن الدراما التركية قد غزت كل بيوت العالم العربي، فضلاً عن أنها عملت على توظيف البعد الديني المذهبي حيال الدول العربية، باعتبار أن هنالك تشابه في وحدة المذهب بين دول الخليج العربي ومصر وباقي الدول العربية

الأمريكية من خلال هذه الحكومات من جهة، ومن خلال المملكة السعودية وقطر من جهة أخرى، على أخراج حماس من دائرة اللعبة في سوريا^(١٤٢)، وتوجت هذه المساعي من خلال الزيارة التي قام بها أمير قطر إلى قطاع غزة، والطلب الرسمي الذي قدمه إلى قادة حماس من أجل فك الارتباط مع محور المقاومة، وخصوصاً إيران، وفي المقابل منحت قطر إلى حركة حماس مبالغ مالية وفيرة بما يقارب ٤٠٠ مليون دولار بحجة دعم مشاريع الأعمار في غزة^(١٤٣).

ولم يدم الأمر طويلاً حتى أعلنت حركة حماس في كانون الأول عام ٢٠١١ قرار حزم أمتعتها ومغادرة مكاتبها في سوريا، وإعلانها بصورة واضحة تخليها عن الرئيس السوري بشار الأسد، والوقف إلى جانب قطر والمملكة السعودية وتركيا ومصر، وبالتالي نجحت مساعي إسرائيل في بعثرة قادة حماس في عموم منطقة الشرق الأوسط، كذلك نجحت إسرائيل في توجيه ضربة قاضية إلى أحد أذرع محور الممانعة المتمثل في حركة حماس وأبعادها عن دائرة الأزمة السورية^(١٤٤).

وبعد ذلك، عملت كل من إسرائيل

التي تنتمي إلى الطائفة الإسلامية (السنية)، والعمل على تأجيج هذا الصراع من خلال القنوات الإعلامية المرتبطة بالأذرع الأمريكية - الإسرائيلية، المتمثلة في قناتيه (الجزيرة والعربية)، وتوظيفها بواسطة التركيز على الحدث الذي تراه مناسباً في خدمة الأهداف المرسومة وافتعال منه شيء يصب في مصلحتها، إضافة إلى التمويل وإجراء المقابلات مع الشخصيات والمجموعات المسلحة، التي يمكن أن تسير على وفق التوجيهات الأمريكية - الإسرائيلية، وتنفيذ سعودي - قطري^(١٤١).

كما إن إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية عملتا على إخراج حماس من دائرة الصراع الدائر في سوريا من جهة، ومن محور المقاومة ككل من جهة أخرى، بعد أحداث التغيير العربي، واستندت كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية في ذلك، على أن حركة حماس الفلسطينية هي إحدى فروع الإخوان المسلمين، وتنتمي إلى الطائفة الإسلامية (السنية)، وأن الحكومات التي تشكلت بعد أحداث التغيير العربي تنتمي إلى الإخوان المسلمين كالسلطة في مصر، وبذلك سعت إسرائيل والولايات المتحدة

وما زاد من تعقيد الأزمة السورية، هي الثورة في مملكة البحرين المطالبة بتغيير النظام الملكي في البحرين، وعكست هذه الثورة تجاذب بين دول منطقة الشرق الأوسط، وتحولت هذه التظاهرات في بعدها الإقليمي إلى نقطة صراع بين الدول الشرق أوسطية. ففي الوقت الذي تقف إيران بالضد من الثورة السورية فأنها تقوم بتأييد الثورة البحرينية، مما يعكس حالة من المد الأيديولوجي (الطائفي) ما بين إيران وبين الثورة البحرينية، ولم يختلف الأمر كثيراً في موقف الدول العربية وخصوصاً دول الخليج العربي عن الموقف الإيراني، ففي الوقت الذي تقف فيه دول الخليج العربي بالضد من الثورة البحرينية، فأنها تقوم بدعم المعارضين للنظام السوري، مما عكس حالة من المد الأيديولوجي (الطائفي) ما بين الدول الخليجية والمعارضين السوريين، وبناءً على هذا قامت المملكة العربية السعودية بإرسال قوات عسكرية إلى البحرين لحماية الحكومة البحرينية وبدعم أمريكي. وهذه المواقف أدت بطبيعتها إلى امتداد تداعيات هذا الانقسام إلى عموم منطقة الشرق الأوسط، مما يعني أن الانتفاضة في مملكة البحرين

والولايات المتحدة الأمريكية على الإعلام المدعوم وفق أجندة معينة تهدف إلى إيجاد بؤرة للصراع ما بين المسلمين، وانطلقوا في ذلك على تصوير سوريا وإيران وحزب الله على أنهم معادين للدول العربية الأخرى، ووصموهم بالتطرف الخطر على المنطقة العربية أكثر منها قوة شرعية لمقاومة إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. وكذلك عملوا في الوقت ذاته على تحويل التظاهرات السورية إلى صراع داخلي ومن ثم صراع إقليمي، أكثر من تظاهرات تطالب بتغيير النظام السوري، وبذلك أصبح الترويج من قبل هؤلاء إلى حرب طائفية ما بين المسلمين أمراً شائعاً على أرض سوريا، وعكس نقشي هذا الصراع شد الطائفي بين المسلمين في منطقة الشرق الأوسط، وأدى إلى حالة من عدم توازن القوى الإقليمية جميعها، وتنتج عنه الضعف والانقسام العرقي والمذهبي والقومي والأثني في جميع الدول المجاورة لسوريا، وأبرز محوراً واحداً على السطح، وهو أن سوريا وإيران وحزب الله معسكر للمقاومة في جانب، والولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل ودول الاعتدال العربي في جانب آخر^(١٤٥).

لسوريا (تركيا، الأردن، لبنان، إسرائيل)، وما يلفت للنظر هنا هو كشف الصحف الغربية، أن بعض المساجد في البلدان العربية والإسلامية تدعوا إلى تجنيد المقاتلين (المتطرفين) وتوجيههم إلى سوريا بدعوى قتال النظام السوري، مما يعني الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل والمتطرفين يقفون في صفاً واحداً، ويتشاطرون عدواً واحداً متمثلاً في حكومة الرئيس السوري بشار الأسد، والجهات الداعمة له، المتمثلة في إيران وحزب الله^(١٤٩).

ولم يقف الطرف الآخر المتمثل في إيران وحزب الله الموقف المتفرج من ذلك، بل عملت إيران على تجنيد المتطوعين إلى سوريا من كافة البلدان العربية والإسلامية، وتحت الصبغة الأيديولوجية العاطفية المتمثلة في الدفاع عن المراقد المقدسة^(١٥٠)، ومقاتلة الجماعات المتطرفة وتنظيم القاعدة المتمثل في (جبهة النصرة) الذين يحاولون تدنيس المقامات الإسلامية. إلا أن الأمر في حقيقة لا يعدو في كون أن إيران تقوم بذلك من أجل الدفاع عن النظام السوري الذي يعتبر منطقة نفوذ لإيران على البحر الأبيض المتوسط والمحاذي لإسرائيل العدو الأول

كان لها تأثير جلي في أسباب الانقسام والصراع والمواجهة الواسعة النطاق في سوريا^(١٤٦).

لهذا وبعد فشل المبادرة العربية في إيجاد حل للأزمة السورية من خلال إرسال مراقبين عرب إلى سوريا، وما تلاها من فشل مهمة المبعوث الدولي كوفي عنان، وأخيراً الغموض الذي يحيط بمهمة المبعوث العربي الجديد الأخضر الإبراهيمي الذي أكد أكثر من مرة على أن: «أزمة سوريا شديدة التعقيد وأنها مفتوحة على أبواب خطيرة جداً». لذلك أصبحت الأزمة السورية تشكل تحدياً كبيراً للنظام الإقليمي العربي^(١٤٧)، ومن الواضح أن الولايات المتحدة الأمريكية غير ميالة أكثر فأكثر إلى أخذ أي نوع من أنواع التعاطي الهادف مع نظام الرئيس السوري بشار الأسد، فهي ميالة إلى تحشيد الجهود من أجل انهيار النظام السوري، ومن ثم خلق دولة فاشلة في سوريا^(١٤٨).

وبناءً على هذا، عملت الولايات المتحدة الأمريكية بالتعاون مع إسرائيل على توفير أرضية مناسبة لتوريد المقاتلين (المتطرفين) إلى سوريا ومن جميع البلدان العربية والإسلامية عبر الدول المجاورة

الإستراتيجية، المتمثلة في الهيمنة على منطقة الشرق الأوسط»^(١٥٣).

وقد بلغ الصراع الطائفي أشده في سوريا حينما أعلن حزب الله الدخول بصورة رسمية في الحرب إلى جانب النظام السوري على خلفية الصراع الدائر في سوريا وخصوصاً أثناء معركة القصير^(١٥٤)، لهذا سرعان ما تلاقفت الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل هذا التصعيد، لتضيف الزيت على النار المشتعلة من خلال إعلان الولايات المتحدة الأمريكية عن البدء في تزويد المعارضة السورية بالأسلحة والمعدات الحربية، مما أدى إلى دخول الأزمة السورية مرحلة جديدة من الصراع، امتدت في تناقضاتها إلى الصعيد الدولي^(١٥٥).

بناءً على ما جاء آنفاً، فإن هذه المتغيرات الإقليمية المترتبة على الأزمة السورية، أصبحت ذات مردوداً إيجابياً على مكانة إسرائيل في الشرق الأوسط، لذلك عرضت بعض التحليلات والدراسات الصادرة في إسرائيل، بأن هنالك العديد من المكاسب التي من المحتمل أن تجنيها إسرائيل بفعل الصراع الدائر في سوريا، ومن أهم هذه المكاسب^(١٥٦):

لإيران، وكذلك تسعى من خلال ذلك على المحافظة على الممر الأمن لحزب الله في لبنان الذي يتم الاتصال به عن طريق سوريا، مما يعني أن انهيار النظام السوري سيؤدي إلى خسارة إيران إحدى أذرعها ومناطق نفوذها في منطقة الشرق الأوسط^(١٥١).

وقد عدّ البعض أن دخول إيران وحزب الله بهذه المعركة أنهما يرتكبان بموقفهما خطأ إستراتيجياً فادحاً، كلفهما وسيكلفهما الكثير بسبب حسابات أنية خاطئة، لأن دخولهما وفر الأجواء المناسبة لإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية من أجل التخلص منهما معاً في حرب لا تنتهي، كحرب المئة عام المسيحية التي حدثت في أوروبا ما بين البروتستانت والكاثوليك^(١٥٢)، وفي هذا السياق يرى السياسي البريطاني والنائب البرلماني السابق سيريل تاونسند: «أن النزاع في سوريا أصبح حرب (سنيّة، شيعية)، ويرى أن التحشيد المتقابل بين الخصمين تحول إلى نزاع طائفي صرّف تغذّيه أطراف إقليمية تقف من وراءها إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، ويهدفان من خلال هذا، إلى تحقيق مصالحهما

الله وإيران، وهو ما يشكل بالتالي مصلحة إسرائيلية، كما يرى رئيس الاستخبارات السابق عاموس يادلين وعدد كبير من المحللين الإسرائيليين، خصوصاً أولئك الذين ينظرون إلى الاحتجاجات في سوريا من وجهة نظر طائفية، ويعتبرونها انتفاضة موجّهة من الأغلبية السنيّة إلى الأقلية العلوية الحاكمة، وهو ما يدفعهم للاعتقاد إلى أنّ انتصار المعارضة على النظام السوري سيجعل انهيار تحالف سوريا مع إيران أمراً محتوماً.

٤ - إنّ انشغال الجيش والأمن السوري، بالحفاظ على النظام وضبط الأمن داخل البلاد، سيخفف الضغوط الأمنية على إسرائيل، حسب تقديرات القيادة الشمالية للجيش الإسرائيلي، كما أنّ أيّ ضعف في النظام السوري، سيهدّد «الجبهة الحربية» على إسرائيل، حسب ما نقل عن الرئيس الإسرائيلي شمعون بيريز أثناء زيارة التفقدية للحدود الشمالية لإسرائيل قرب الجولان.

وبالتالي نستطيع القول أنّ المتغيرات الإقليمية التي حدثت في منطقة الشرق الأوسط في ضوء تأثير الأزمة السورية رفعت من مكانة إسرائيل في الإستراتيجية

١ - إن أي تراجع في قوة النظام السوري يشكل ضربة موجعه لإيران، التي تواصل سعيها لزيادة تأثيرها في ساحات مختلفة، وتدعم حلفاءها بالمال والسلاح، حسب ما جاء في تقرير هيئة المخابرات العسكرية الإسرائيلية السنوي، الذي قدمه الجنرال أيف كوخافي في الثالث من شهر نيسان عام ٢٠١٢، وقد اعتبر التقرير أنّ إيران تشعر بالانزعاج من احتمال خسارة سوريا «كإحدى الجهات الرئيسة في محور الشر» وهو ما يشكل بالنسبة إلى إسرائيل مكسباً يرفع من مكانتها، لأنها ترى في أيّ ضعف إيراني مكسباً سياسياً وأمنياً لإسرائيل.

٢ - يرى بعض المحللين الإسرائيليين، أنّ إضعاف النظام السوري سيعطي الفرصة المناسبة لخصوم المعسكر الإيراني في لبنان لتقوية أوضاعهم في الساحة الداخلية، تمهيداً للقضاء على قوة حزب الله في لبنان، وهو ما يصبّ في نهاية المطاف في مصلحة إسرائيل.

٣ - إنّ تغيير النظام في سوريا، قد يؤدي حسب وجهة نظر عدد من المحللين الإسرائيليين إلى قيام نظام تقوده أطراف موالية لإسرائيل «مؤمنة بالسلام»، وتعمل على قطع علاقاته مع حركة حماس وحزب

المردودات الإيجابية التي تحققها إسرائيل للولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن هذا لا يعني بأي حال من الأحوال أن إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية لم يضعوا في حساباتهم احتمالات مستقبلية من شأنها أن تخدم مصالحهما في منطقة الشرق الأوسط وخصوصاً بعد أحداث التغيير العربي.

الأمريكية باعتبار أن إسرائيل تمتلك من المقومات المادية والمعنوية ما تؤهلها إلى تكون قوة إقليمية مهيمنة على منطقة الشرق الأوسط، إضافةً إلى عامل الاستقرار السياسي الذي تتمتع به، وهذا بحد ذاته أهلها إلى خدمة المصالح الأمريكية في منطقة الشرق الأوسط. وعلى الرغم من هذه

الهوامش:

- (١) د. صباح عبد الرزاق كبة، دور المراكز البحثية الأمريكية في الحياة السياسية وصنع القرار السياسي الخارجي الأمريكي، مجلة العلوم السياسية، العدد ٤٠، (جامعة بغداد: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠١٠)، ص ٩٣.
- (٢) ميشال بين، صناعة الثورات المخملية، مجلة شؤون الأوسط، العدد ١٢٣، (بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية، عام ٢٠٠٦)، ص ١٤٧.
- (٣) فاضل الربيعي، الاحتلال الأمريكي للعراق: تكتيك الهروب من كابوس الشرق الأوسط الجديد: نتائج وتداعيات، بحث منشور في كتاب الاحتلال الأمريكي للعراق صورة ومصائر، ط ١، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠٠٥)، ص ١٣٥.
- (٤) د. جيرمي سولت، تفتت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، ط ١، (دمشق: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، عام ٢٠١١)، ص ٤١٩.
- (٥) صلاح النصراني، العراق في الإستراتيجية الأمريكية: مشروع الدولة الجديدة، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٦٢، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، أكتوبر ٢٠٠٥)، ص ٥٤.
- (٦) د. يحيى الكبيسي، كونداليزا رايس والدفاع عن الشرق الأوسط القديم، صحيفة المدى، العدد ٢٦٦٣، بتاريخ ٢٠١٢/١٢/١.
- (٧) نتان شيرانسكي يهودي ولد في الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٤٨، وهاجر إلى إسرائيل في عام ١٩٨٦، أصبح عضواً في الكنيست الإسرائيلي، ومن ثم أصبح وزيراً للعلاقات مع الشتات في حكومة شارون لمرحلة واحدة، أستقبله الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الابن في البيت الأبيض، مبدياً إعجابه بكتابه - قضية ديمقراطية.
- (٨) للاستفاضة أنظر إلى: د. مسفر بن علي القحطاني، الفوضى الخلاقة في نسختها الطائفية، أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:

http://www.Islamtoday.net/articles/show_content.cfm?id

- (٩) المصدر نفسه.
- (١٠) د. رغيد كاظم الصلح، العلاقات العربية - الأمريكية من منظور عربي: الثوابت والمتغيرات، ط ١، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، عام ٢٠٠٣)، ص ١٩.
- (١١) د. أحمد ثابت، النزعة الإمبراطورية الأمريكية وإعادة هيكلة الوطن العربي، مجلة شؤون عربية، العدد ١٢٣، (القاهرة: الأمانة العامة لجامعة الدول العربية، عام ٢٠٠٥)، ص ٦٩.
- (١٢) د. مسفر بن علي القحطاني، مصدر سبق ذكره.
- (١٣) د. أحمد ثابت، مصدر سبق ذكره، ص ٧٠.
- (١٤) هومز كوهاري، فوضى الديمقراطية، مجلة المحور المتمدن، نشرة الالكترونية، العدد ١٦٧٦، بتاريخ ٢٠٠٦/٩/١٧.
- (١٥) د. داليا فؤاد، الغرب والثورات العربية: محاولات الاحتواء والتأثير، مجلة حمورابي للدراسات، العدد ١، (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، عام ٢٠١١)، ص ٩٦.
- (١٦) حسين علي ظاهر، «الربيع العربي» الأسباب والتداعيات الإقليمية والدولية، مجلة شؤون الأوسط، العدد ١٤٢، (بيروت: مركز الدراسات الاستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ٤٩.
- (١٧) Felant Leftt, The road Ahead — Middle east policy in the Bush administrations second trem, first edition, (U. S, Brookings institution, year ٢٠٠٥ p ٢٣).
- (١٨) علي علاوي: هو وزير الدفاع العراقي، في أول حكومة تم تشكيلها بعد احتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية في عام ٢٠٠٣.
- (١٩) جوين دايار، الفوضى التي نظمها: الشرق الأوسط بعد العراق، ترجمة غسان شيحا، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، عام ٢٠٠٨)، ص ٧.
- (٢٠) شاهر إسماعيل الشاهر، أولويات السياسة الخارجية الأمريكية بعد ١١ أيلول ٢٠٠١، ط ١، (دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠٠٩)، ص ١٨٧.
- (٢١) احمد إبراهيم محمود، العراق الجديد في الإستراتيجية الأمريكية للشرق الأوسط، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٥٤، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠٠٣)، ص ٦٣.
- (٢٢) نبيل محمد سليم، العلاقات العراقية - الأمريكية على خلفية انتهاء أمد اتفاقية سحب القوات الأجنبية من العراق، مجلة دراسات دولية، العدد ٤٧، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١١)، ص ٤٣ - ٤٤.
- (٢٣) د. هيفاء احمد محمد، الانسحاب الأمريكي وأثره في الوضع الأمني في العراق، سلسلة أوراق دولية، العدد ٢٠٠، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١١)، ص ٩.
- (٢٤) د. خلود محمد خميس، العلاقات العراقية - الأمريكية: رؤية مستقبلية، سلسلة أوراق دولية، العدد ١٩٧،

- (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١١)، ص ٨.
- (٢٥) نبيل محمد سليم، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣ - ٤٤.
- (٢٦) تشاس فريمان، نهاية الاحتواء المزدوج: العراق وإيران والعقوبات الذكية، ط ١، (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الإستراتيجية، عام ٢٠٠٣)، ص ٩.
- (٢٧) د. حميد حمد السعدون، الفوضى الأمريكية: دراسة في الأفكار والسياسة الخارجية «العراق نموذجاً»، ط ١، (بغداد: دار ميزوبوتاميا للطباعة والنشر والتوزيع، عام ٢٠١٣)، ص ١٩٨.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ١٩٩.
- (٢٩) Chuck Hagel, U. S. defense policy in the middle east, Symposium and delivered keynote remarks at the Institute's ٢٠١٣ in Washington, (Washington: The Washington institute for near east policy, ٢٠١٣/٥/٩, p ٢.
- (٣٠) عوني فرسخ، مصر بين الثورتين، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٢)، ص ٢١٠.
- (٣١) جوين دايار، مصدر سبق ذكره، ص ٤٣.
- (٣٢) نعيم عبد القوي خير الدين، شعوب في مختبرات التجارب الأمريكية، ط ١، (بيروت: دار البيارق للنشر والتوزيع، عام ٢٠٠٩)، ص ٧٩.
- (٣٣) صافي الستاني وخالد عبد الحميد النجداوي، الأزمات المزمته في الشرق الأوسط بعد أحداث أيلول ٢٠٠١: خروج من النفق أم البقاء في الظلام، ط ١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر والتوزيع، عام ٢٠٠٨)، ص ١٤٣.
- (٣٤) Chuck Hagel, op cit, ٢p.
- (٣٥) محمد عبد السلام، إقليم بلا نظام: البحث عن مفاتيح لفهم مستقبل منطقة الشرق الأوسط، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٨٥، (القاهرة، مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١١)، ص ٦ - ٧.
- (٣٦) هيفاء احمد يحيى، الفوضى الخلاقة وزرعها المتنامي داخل الدول العربية، مجلة الحوار المتمدن، النسخة الالكترونية، العدد ٣٤٨٦، ٢٠١١/٩/١٤.
- (٣٧) د. داليا فؤاد، مصدر سبق ذكره، ص ٩٥.
- (٣٨) د. غازي حسين: الشرق الاوسط الكبير بين الصهيونية العالمية والامبريالية الأمريكية، ط ١ (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، ٢٠٠٥)، ص ٢٣.
- (٣٩) نعيم عبد القوي خير الدين، مصدر سبق ذكره، ص ٧٨ - ٧٩.
- (٤٠) للاستفاضة أنظر إلى: سليمان تقي الدين، الطائفية والمذهبية وآثارها السياسية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٠٨، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٣)، ص ٤٣ - ٤٨.

- (٤١) د. خضر عباس عطوان، سياسات القوة الأمريكية: رؤيا مستقبلية، مجلة قضايا سياسية، العدد ١١، (جامعة النهرين: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠٠٦)، ص ٥٠.
- (٤٢) د. سمر عبد الستار أمين، نموذج القيادة الأمريكية للنظام العالمي الجديد: دراسة تحليلية، مجلة دراسات دولية، العدد ٣٥، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠٠٨)، ص ٩٥.
- (٤٣) د. سداد مولود سبع، تداعيات الاحتلال الأمريكي على شكل النظام السياسي في العراق، سلسلة أوراق دولية، العدد ١٩٥، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١٠)، ص ٩.
- (٤٤) د. شريف عبد الرحمن، الفوضى الأمريكية الخلاقة أو الإصلاح من خلال الفوضى، مجلة المسلم المعاصر، العدد ١٣٧ - ١٣٨، (بيروت: بلا، عام ٢٠١٠)، ص ١٨.
- (٤٥) د. حميد حمد السعدون، رياح التغيير في الوطن العربي ومواقع التأثير الأمريكي، مجلة دراسات دولية، العدد ٥٠، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١١)، ص ٢٢.
- (٤٦) د. توفيق نجم الانباري، الاحتلال الأمريكي للعراق: الخلفية والمستقبل، مجلة قضايا سياسية، العدد ١٢، (جامعة النهرين: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠٠٧)، ص ٣٥.
- (٤٧) جوزيف س. ناي هو أحد الأكاديميين والمؤثرين في العلاقات الدولية والسياسة الخارجية الأمريكية، والذي أسس بالاشتراك مع روبرت كوهين، مركز الدراسات الليبرالية الجديدة في العلاقات الدولية. وابتكاره مصطلحي «القوة الناعمة»، و«القوة الذكية»، شكل ناي كيف يفكر العالم وناقش الشؤون الدولية. وكانت كتاباته مصدرا رئيسيا لتطور السياسة الخارجية في عهد الرئيس الأمريكي باراك لأوباما. جوزيف س. ناي، أستاذ بجامعة هارفارد والعميد السابق لكلية كيندي للحكومة، وهو يرأس حاليا أميركا الشمالية باللجنة الثلاثية. ويتضمن عمل جوزيف س. ناي بالمراكز الرسمية: مساعد وزير الدفاع للشؤون الأمنية الدولية، ورئيس مجلس الاستخبارات الوطني. وقد نشر ما يزيد عن ١٢ كتابا بما في ذلك «القوة الناعمة: وسائل النجاح في السياسة الدولية»، «فهم النزاع الدولي»، «قوة القيادة» و«وثبة نحو القيادة: الطبيعة المتغيرة للقوة الأمريكية». للاستفاضة أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:
http://www.majalla.com/arb/07/2011/article_2156
- (٤٨) محمد سعد الدين فهمي، مبادرة الدفاع المشترك والأمن الجماعي، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، عام ٢٠١٠)، ص ١٨٩.
- (٤٩) طلعت رميح: روسيا وأمريكا: القوة الصلبة والقوة الناعمة، بحث منشور بتاريخ ٢٧/١٠/٢٠١٢ على شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي: <http://www.almoslim.net/node/101251>
- (٥٠) حسني عايش، أمريكا الإسرائيلية وإسرائيل الأمريكية، ط ١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ٢٠٠٦)، ص ١٧٦.
- (٥١) جورج دبليو بوش، مذكرات جورج دبليو بوش: قرارات مصيرية، ترجمة سناء حرب، ط ١ (بيروت:

د. علي جبار حافظ الربيعي □

- شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، عام ٢٠١٢)، أنظر ص ص ٣٠٧ - ٣٠٨، كذلك أنظر ص ٣٣٨ - ٣٣٩. (٥٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٢.
- (٥٣) د. منعم صاحي العمار، الإستراتيجية والديمقراطية وتساوب قوى الجذب بينهما: الولايات المتحدة الأمريكية أنموذجاً، مجلة قضايا سياسية، العدد ١٦، (جامعة النهرين: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠٠٩)، ص ١٤.
- (٥٤) علي الصراف، جمهورية الموت: الحرية الشهيدة في عراق ما بعد صدام حسين، ط ١، (الجزائر: دار قرطبة، عام ٢٠٠٧)، ص ٩٩.
- (٥٥) مارينا أوتاواي، وآخرون، الشرق الأوسط الجديد، منشورات مؤسسة كارينغي للسلام الدولي، بيروت، عام ٢٠٠٨، ص ٦.
- (٥٦) د. جيرمي سولت، تفتيت الشرق الأوسط: تاريخ الاضطرابات التي يثيرها الغرب في العالم العربي، ترجمة د. نبيل صبحي الطويل، ط ١، (دمشق: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، عام ٢٠١١)، ص ٤١٤ - ٤١٥.
- (٥٧) جوزيف س. ناي، القوة والسياسة في عصر المعلومات، ترجمة علاء عبد الغفور محمد، سلسلة دراسات إستراتيجية مترجمة، العدد ٥، (جامعة النهرين: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠١١)، ص ٣.
- (٥٨) عمر محفوظ، دور دوائر الأعلام والصحافة في تسويق الأفكار الغربية، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، عام ٢٠١١)، ص ١٢٧.
- (٥٩) سيف النبوي، شامل فوال، الفرق الأمريكي في مستنقع الشرق الأوسط الكبير، ط ١، (القاهرة: مكتبة مدبولي، عام ٢٠٠٨)، ص ١٩٨.
- (٦٠) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، ترجمة محمد توفيق البجيرمي، ط ١، (الرياض: مكتبة العبيكان، عام ٢٠٠٧)، ص ١١ - ١٢.
- (٦١) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، مصدر سبق ذكره، ص ٢٥.
- (٦٢) Joseph s. nye (U. S. A: public affairs), first edition, the future of power, ١٩٩٧, (٢٠١١) year, ٩٩P.
- (٦٣) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، مصدر سبق ذكره، ص ١٣ - ١٤.
- (٦٤) فايز سارة، العرب وتحديات القرن: مطالع الثورة ومقدمات الربيع العربي، ط ١، (بلا: منشورات إي - كتب، دار نشر بريطانيا، عام ٢٠١١)، ص ٢٤.
- (٦٥) US embassy cables: Tunisia — a US foreign policy conundrum ١٧, july ٢٠٠٩; <http://www.guardian.co.uk/world/us-embassy-cables-documents/217138>.
- (٦٦) فهد بن عبد الله الربيع، د. مبارك بن عبد الله الربيع، مختصر الثقافة السياسية، ط ١، (عمان: دار أبين

- الجوزي للنشر والتوزيع، عام ٢٠١٣)، ص ١٧٠.
- (٦٧) فهد بن عبد الله الربيعه، د. مبارك بن عبد الله الربيعه، مصدر سبق ذكره، ص ١٦٢.
- (٦٨) توفيق المدني، الطور الثاني من الثورات الشعبية العربية: العوائق والعثرات، مجلة حمورابي للدراسات، العدد ١، (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، عام ٢٠١١)، ص ٥٣.
- (٦٩) يزيد الصايغ، العلاقات المدنية - العسكرية في الشرق الأوسط، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٨٦، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١١)، ص ٥١.
- (٧٠) صلاح الدين الجورشي، الدولة والهوية: إشكالية العلاقة بين الديني والسياسي - تونس مثلاً، مجلة المستقبل العربي، العدد ٤٠٧، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٣)، ص ٦٠.
- (٧١) ناثان ج. براون، التغيرات في النظام الداخلي في الشرق الأوسط، منشورات مؤسسة كارنيجي للسلام الدولي، بيروت، عام ٢٠١٢، ص ٢.
- (٧٢) علي يوسف، الأخوان في ثورة يناير، مجلة أبحاث إستراتيجية، العدد بلا، (بغداد: مركز بلادي للدراسات والأبحاث الإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ١٧٦.
- (٧٣) د. ناظم فواد الشمري، إشكالية التحول الديمقراطي في البلدان العربية، مجلة المستنصرية للدراسات العربية والدولية، العدد ٣٩، (الجامعة المستنصرية: مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، عام ٢٠١٢)، ص ١٢٥.
- (٧٤) جون آر برادلي، في قلب مصر: أرض الفراغة على شفا الثورة، ترجمة شيماء عبد الحكيم طه، كوثر محمود محمد، ط ١، (القاهرة: مركز كلمات عربية للترجمة والنشر، عام ٢٠١٢)، ص ١٩٥ - ١٩٦.
- (٧٥) د. حسام الغرابوي، العولمة آثارها الثقافية، مجلة قضايا سياسية، العدد ٣١، (جامعة النهدين: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠١٣)، ص ١١.
- (٧٦) مرسي مشري، شبكات التواصل الاجتماعي الرقمية نظرة في الوظائف، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٢)، ص ١٤٩.
- (٧٧) نقلا عن مقال منشور في مجلة الفورن افيرس لكريكوري كوس، لماذا لم يتم دراسة الشرق الاوسط كما يجب، على شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:
http://www.foreignaffairs.com/articles/٦٧٩٣٢/f_gregory_gause_iii
- (٧٨) سليمان البرصان، دبلوماسية الولايات المتحدة الناعمة وقوتها المدنية الجديدة، ط ١، (الرياض: مكتبة العبيكان، عام ٢٠١١)، ص ٢١٥.
- (٧٩) د. عبد علي كاظم العموري، أمريكا: من الهزيمة الإستراتيجية إلى المناورة التكتيكية، مجلة حمورابي للدراسات، العدد ١، (بيروت: دار بيسان للنشر والتوزيع، عام ٢٠١١)، ص ١٤.
- (٨٠) جوزيف س. ناي، القوة الناعمة وسيلة النجاح في السياسة الدولية، مصدر سبق ذكره، ص ٦٢.
- (٨١) جوزيف س. ناي، مفارقة القوة الأمريكية، ترجمة د. محمد توفيق الجيرمي، ط ١، (الرياض: مكتبة

- العبيكان، عام ٢٠٠٣)، ص ١٦.
- (٨٢) علي بشار أغوان، القوة الذكية والمجالات التطبيقية في الإستراتيجية الأمريكية في مصر وتونس وليبيا كمثال تطبيقي، مجلة دار ناشري للنشر الإلكتروني، بتاريخ ٢٠١١/٧/٣٠، للاستفاضة أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي: <http://www.nashiri.net>
- (٨٣) يوسف محمد الصواني، ليبيا بعد القذافي: الديناميات المتفاعلة والمستقبل السياسي، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٥، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٢)، ص ٩.
- (٨٤) منى حسين عبيد، أبعاد تغيير النظام السياسي في ليبيا، مجلة دراسات دولية، العدد ٥١، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١٢)، ص ٣٨ - ٣٩.
- (٨٥) زياد عقيل، عسكرة الانتفاضة: الفشل الداخلي والتدخل الخارجي في الجماهيرية الليبية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٨٤، (القاهرة، مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١١)، ص ٧٠ - ٧٣.
- (٨٦) هيثم التابعي، التدخل الدولي لـ «الناوتو» عامل الحسم في الثورة الليبية، صحيفة الشرق الأوسط، العدد ١٢٠٨٥، بتاريخ ٢٠١١/١١/٣٠.
- (٨٧) محمد بنهال، الإعلام الجديد ورهان تطوير الممارسة السياسية: تحليل لأهم النظريات والاتجاهات العالمية والعربية، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٩٦، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، عام ٢٠١٢)، ص ٣٩.
- (٨٨) صالح السنوسي، الثورة الليبية: الديمقراطية في ظل السلاح، بحث منشور على الشبكة «الانترنت» الدولية الجزيرة نت، بتاريخ ٢٠١٣/٦/١١، على الرابط الآتي: <http://www.aljazeera.net/opinions/pages/١٨df٠ed٤٧-٤٦١٤-٦bc-٨٩٦٠-١٧d٢ebe٦٦٢bc>
- (٨٩) هيثم التابعي، مصدر سبق ذكره.
- (٩٠) دوري غولد، التحول الديمقراطي في العالم العربي - مصلحة إسرائيلية، صحيفة إسرائيل اليوم، بتاريخ ٢٠١١/٢/١٨، أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي: <http://www.samanews.com/index.php?act=Show&id=٨٨٥٥٦>
- (٩١) أيفو دالدر، وآخرون، أمريكا وأوروبا ومنطقة هلال الأزمات، ترجمة حسان البستاني، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، عام ٢٠٠٦)، ص ٧ - ٨.
- (٩٢) نبيل فهمي، مستقبل الشرق الأوسط: فرص وتحديات، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٧٩، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١٠)، ص ١٥٥.
- (٩٣) John T. Rourke and Mark A. Boyer, levels of analysis, first edition, (New York: university of Connecticut, year ٢٠١٠ p ٦٦).
- (٩٤) د. حيدر علي حسين، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية ومستقبل النظام الدولي، ط ١، (بغداد: دار

الكتب العلمية للطباعة والنشر والتوزيع، عام ٢٠١٣)، ص ٨١.
 (٩٥) Dr. Max G. Manwaring, Venezuela as an exporter of ٤th generation warfare instability, first edition, (U. S. A: strategic studies institute, year ٢٠١٢ p ١٥).

(٩٦) طرح د. ماكس ج. مانورنك الذي يعمل في معهد الدراسات الإستراتيجية، بكلية الحرب في وزارة الدفاع الأمريكية، نظرية حول الجيل الرابع أو الصف الرابع من الحرب، وأشار إلى توظيفها في الإستراتيجية الأمريكية للمرحلة القادمة. وجوهر هذه الإستراتيجية يقوم على التوظيف الغير متمائل للحرب بين الولايات المتحدة الأمريكية وبين الدول الأخرى المعادية لها، وهذا التوظيف يكون بغض النظر ما أن كان الطرف الأخر يرغب أو لا يرغب، مستعد أو غير مستعد، يريد أو لا يريد، فانه سيكون مرغم ومكره على خوض هذه الحرب، وبالطريقة التي تفرضها عليه الولايات المتحدة الأمريكية، مما يعني أن العنصر الرئيس التي تستند عليه هذه الإستراتيجية في الحرب هو «الإرغام والإكراه». وأشار إلى أن، إذا كان في الماضي فكرة الحروب تقوم بين دولتين أو بين تحالفين دوليين، أو حروب بالنيابة، أي حروب بين جيوش، وتسخر الدول فيها كل مقوماتها، وتؤدي هذه الحروب في نهاية الأمر إلى تجاوز للحدود الدولة المستقلة والسيطرة عليها، فإن الدول عادتاً نجدها مهتمة بالدفاع عن نفسها من العدوان الخارجي أي الدول الأخرى التي تمتلك قوات نظامية تعبر بها الحدود، وتحتل الدول الأخرى. وهذا ليس ما نطرحه في الإستراتيجية الجديدة للولايات المتحدة الأمريكية. بل أن اليوم وتحت التجربة الحالية وخلال العشرين عاماً الماضية، وجدنا أن هذا النوع من الحروب أصبح مندثر، وما على الولايات المتحدة الأمريكية يجب توظيفه في إستراتيجيتها هو الحروب «الغير متمائلة». وأشار د. ماكس ج. مانورنك إلى أن العمود الفقري لهذه الإستراتيجية هو أيجاد إقليم يقع داخل سيادة دولة العدو، ولا تستطيع هذه الدولة أن تتحكم بهي، وهذا ما يطلق عليه مصطلح «إقليم غير محكوم». لكن من يتحكم بهذا الإقليم؟، أن الذي يتحكم بهذا الإقليم مجموعات غير تابعة لدولة العدو، وهذه المجموعات غير نظامية ومحاربة وعنيفة وشريرة، تقوم بإرسالها ونزودها بالسلاح، وهذه المجموعات ليست كلها رجال، أي فيهم نساء، وليس كلهم بالغين، أي فيهم أطفال، وهذه ما نستطيع أن نسميه «إقليم محكوم» من قبل هذه المجموعات، ومن ثم دفع هذه المجموعات إلى محاربة دولة العدو، التي هي في أرضه، أضافتاً إلى ذلك توظيف القدرات العقلية في هذه الحرب التي تعتبر السلاح الرئيسي في هذا الإطار، أي أن من يتحكم بهذا «الإقليم المحكوم» هي الولايات المتحدة الأمريكية. والهدف الرئيس لهذه الإستراتيجية هو ليس تحطيم المؤسسة العسكرية للدولة المعادية، أو القضاء على قدرتها في المواجهة العسكرية خارج حدودها. بل أن الهدف الرئيسي هو «الإنهاك والتآكل» ببطء للدولة المعادية، مما يؤدي إلى تحولها «دولة فاشلة»، ولكن بثبات إرادة الدولة المستهدفة أي الولايات المتحدة الأمريكية للدولة المعادية، وهذا يؤدي إلى «اكتساب النفوذ» في النهاية في الدولة المعادية، وبعد اكتساب النفوذ، ترغم الدولة المعادية على تنفيذ إرادتك، أي أن الهدف الحقيقي هو إرغام الدولة المعادية على تنفيذ أراذتك، لكن ما الذي سوف

د. علي جبار حافظ الربيعي □

يحصل للدولة المعادية؟، أنها لا تتلاشى، هي ما تزال موجودة لكن من يرعاها، لا بد من وجود طرف ما يرعاها، قبل أن يتحكم بها طرف آخر ويخطفها، أي قبل أن تصبح هذه الدولة المعادية ملاذ أمن للإرهاب، الدولة الأولى إي الولايات المتحدة الأمريكية. والقاسم المشترك في كل هذا هو ما نطلق عليه «زعزعة الاستقرار» للدولة المعادية، ونستطيع الحصول على هذا بدون أن نرسل قواتنا النظامية خارج حدودنا، أي خارج حدود الولايات المتحدة الأمريكية، لهذا أن زعزعة الاستقرار من الممكن أن يأخذ صوراً متعددة، وفي الغالب ما تكون حميدة، «ومن ينفذها هم مواطنون من دولة العدو»، وبالإكراه والإرغام، ما يحدث هو يخلق فكرة «الدولة الفاشلة»، مما يعني أن هذه «الحرب» حاصل تحصيل لها هو «الدولة الفاشلة». وبالتالي أن المحصلة النهائية لهذه الإستراتيجية هي كلمتين في قاموس الولايات المتحدة الأمريكية للفترة القادمة: الحرب هي الإكراه، سواء كانت قاتلة أم غير قاتلة لدولة العدو، والكلمة الثانية: هي خلق دولة فاشلة، وهذا ليس حدثاً أنياً بل هو عملية تنفذ بخطوات وبيطء وهدوء كافي وباستخدام مواطني دولة العدو، فسيستيقظ عدوك مبيتاً. للاستفاضة أنظر إلى:

Dr. Max G. Manwaring, I bid, p ١٥

(٩٧) مروان بشارة، أهداف الولايات المتحدة وإستراتيجياتها في العالم العربي، سلسلة دراسات سياسات عربية، العدد ١، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عام ٢٠١٣)، ص ٢.

(٩٨) علي عبد المعين خاوي، التوجه الصيني تجاه الشرق الأوسط: اصطدام التنين الصيني بالصقر الأمريكي، ط١، (القاهرة: مكتبة مدبولي، عام ٢٠٠٩)، ص ٢١٣.

(٩٩) أن روسيا تمتلك رقعة مترامية الأطراف تقدر بحوالي ١٧ مليون كيلومتر مربع، توفر لها الطبيعة حصانة جغرافية وبالأخص من ناحية العمق الجغرافي واتساع المساحة، وتحتل روسيا المرتبة السابعة بين دول العالم من حيث عدد السكان، حيث يبلغ عدد سكان روسيا بموجب آخر إحصاء سكاني عام ٢٠٠٦ (١٤٣.٦) مليون نسمة، فضلاً عن امتلاكها مقومات اقتصادية وثروات وموارد طاقة، إلى جانب نمو متصاعد في الاقتصاد بلغ ٧.٤ عام ٢٠٠٦، ويقدر أن يتواصل النمو الاقتصادي الروسي بمعدلات تتراوح ما بين ٦ - ٨ كما هو الحال عام في ٢٠٠٨، كما أن على الصعيد العسكري تمتلك روسيا الاتحادية قوة عسكرية ضخمة وترسانة نووية هائلة وقدرة على تدمير الخصوم بواسطة سلاحها النووي، كما أنها حققت توازناً إستراتيجياً مع الولايات المتحدة الأمريكية بامتلاكها هذا السلاح، أما من ناحية الأنفاق العسكري فقد بلغ الأنفاق الروسي حوالي ٦٠ مليار دولار في عام ٢٠٠٧ مقارنة بأنفاق الولايات المتحدة الأمريكية الذي بلغ ٥٤٠ مليار دولار في العام نفسه. للاستفاضة أنظر إلى: د. حيدر علي حسين، مصدر سبق ذكره، ص ٨٤ - ٨٥.

(١٠٠) المصدر نفسه، ص ٨٥.

(١٠١) تعد الصين اليوم أكبر قوة اقتصادية في شرق وجنوب شرق آسيا، وتتفوق على اليابان في الاستيراد والتصدير والنتائج القومي، وتجاوز ناتجها المحلي ضعف ناتج الهند وروسيا معاً حيث بلغ في عام ٢٠٠٥ (٢.٢٥٢) مليار دولار، ويتوقع وفق المعدلات الجارية للنمو الاقتصادي التي بلغت ٩ إلى ١٠٪ أن تتفوق

الصين على الولايات المتحدة الأمريكية بحلول عام ٢٠١٥ فيتوقع أن يصل الناتج المحلي للصين في ذلك العام إلى ١٢ تريليون دولار مقابل ١١ تريليوناً للولايات المتحدة الأمريكية. كما وتأتي الصين بعد الولايات المتحدة الأمريكية مباشرة من حيث حجم الدخل القومي، وبمستوى يقدر بنحو ٦.٨ تريليون دولار. كما ان الناتج الصناعي في الصين بلغ ٤.١١٪ وحجم الصادرات ارتفع في عام ٢٠٠٦ إلى ٢٨.٤٪ وكذلك حجم الاستيراد بلغ مليار دولار. وهذا يعبر عن مدى اندماج الصين في الاقتصاد الدولي. وعلى الجانب العسكري، فإن الصين أدركت مبكراً أهمية تطوير قدرتها العسكرية وبموازاة انفتاحها الاقتصادي، ولهذا تحركت الصين عبر بناء قدراتها العسكرية وإعادة فلسفة دورها من كيان إقليمي إلى قوة ذات مصالح واهتمامات عالمية. وكذلك الصين التحت لبناء قدراتها الدفاعية استناداً إلى عنصرين رئيسيين هما: القوة الصاروخية الضاربة، والقوة البحرية القادرة على الاشتباك في المضائق أعالي البحار، فضلاً عن القوة الجوية الضاربة، ومن الواضح أن القوة العسكرية للصين تعطى قوة دافعة لمنافسة الدول الأخرى في المجتمع الدولي لاسيما وأنها أحدى الدول النووية، وتملك اليوم الصين أكبر جيوش العالم، إذ يبلغ تعدادها ٢.٢٥٠ مليون جندي ومن الممكن أن يصل ٣.٢٥٠ مليون جندي، وكذلك يبلغ حجم الأنفاق العسكري الصيني ما بين ٣٠ - ٣٥ مليار دولار في السنوات ١٥ الماضية، ويعتقد البعض أنها أرقام أقل من المستوى الحقيقي، إلا أن وزارة الدفاع الأمريكي أن حجم الأنفاق الصيني يتراوح بين ٧٠ - ١٠٥ مليار دولار سنوياً، وبالمقارنة مع الولايات المتحدة الأمريكية فإن الأنفاق العسكري الأمريكي يزيد عن هذه الأرقام بكثير حيث يصل ٤٢٠ مليار دولار، إلا أن على الرغم من كل هذا، تعد الصين من أكثر الدول المنافسة للولايات المتحدة الأمريكية على الصعيد الدولي، ولهذا عادتاً ما نجد الولايات المتحدة الأمريكية تصدم بالجدار الصين في مجلس الأمن. للاستفاضة أنظر إلى: حيدر علي حسين، مصدر سبق ذكره، ص ١١٢ - ١١٦.

(١٠٢) المصدر نفسه، ص ١١٢ - ١١٣.

(١٠٣) منظمة البريكس، بريكس Brics تعني من حيث اللغة أنها تسمية تعبر عن الأحرف الأولى لأسماء الدول المشتركة فيها باللغة الإنكليزية، والبريكس عبارة عن منظمة تجمع خمس دول هي: البرازيل وروسيا والهند والصين وجنوب أفريقيا التي انضمت إليه لاحقاً في عام ٢٠١٠، وعقد المؤتمر الأول لمنظمة البريكس في ٢٠٠٩/٦/١٦ في روسيا، وحتى الآن عقد ما يقارب أربع مؤتمرات لمنظمة البريكس، والبريكس عبارة عن تجمع سياسي واقتصادي عالمي يسعى إلى تحقيق التعاون التجاري والسياسي والثقافي لدول المجموعة المشتركة فيها، كما تسعى إلى مساعدة الدول النامية لئتم تشجيعها ودعمها على إحراز نمو اقتصادي، علماً أن عدد سكان هذه الدول يبلغ نصف سكان العالم. أن الهدف الأساسي من إقامة منظمة البريكس هو الوقوف بوجهة الهيمنة الأمريكية، وهذا ما أعلنته روسيا صراحةً في المؤتمر الأول: «أن عالم وحيد القطب هو عالم غير مقبول، والهيمنة أمر لا يمكن السماح به، ورأت روسيا العالم لا بد أن يسود فيه تعدد في الأقطاب». للاستفاضة أنظر إلى: سامر عبد الله، منظمة «البريكس» والنظام الدولي الجديد، مجلة شؤون الأوساط، العدد ١٤٢، (بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ١٠٥ - ١١٠.

(١٠٤) غسان العزي، نظام عالمي جديد، مجلة شؤون الأوسط، العدد ١٤٢، (بيروت: مركز الدراسات الإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ١٣.

(١٠٥) مارينا أوتاوي، ناثان ج. براون، سياسة المشاركة الدولية، سلسلة مؤسسة كارينغي للسلام الدولي، بيروت، عام ٢٠١٢، ص ١٣.

(١٠٦) غسان العزي، مصدر سبق ذكره، ص ١٣.

(١٠٧) نادر مقابلة، بوتين والنظام السوري، مقال منشور بتاريخ ٢٧/٤/٢٠١٣ على شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:

http://alkhabarpres.com/%D%8A%8D%88%9D%8AA%D8%9A%D_86%9%D%84%9D.

(١٠٨) George Friedmam, consequences of the fall of the Syrian regime, translation by: Ali Al. Badiari, p ٢٨٥.

(١٠٩) George Friedmam, op cit, p ٢٨٥.

(١١٠) أصدقاء سوريا، عبارة عن مجموعة من الدول تقف على رأسها الولايات المتحدة الأمريكية وتضم عدد من الدول الأوربية الأخرى مثل فرنسا وبريطانيا، إضافة إلى عدد من الدول العربية مثل السعودية وقطر، ودول أصدقاء سوريا تعقد مؤتمرات الهدف منها دعم المعارضة السورية والجيش السوري الحر التابع للمعارضة، وقدم المؤتمر أصدقاء سوريا العديد من المساعدات للمعارضة، من بينها الدعم المالي، وتزويد المعارضة السورية بمعدات الاتصال، ووصولاً إلى تزويد الجيش السوري الحر بالسلح في المؤتمر الأخير الذي عقد في قطر. نقلاً عن صحيفة الحياة الإلكترونية، وزراء خارجية دول «أصدقاء سوريا» يجتمعون في الدوحة، بتاريخ ٢٢/٦/٢٠١٣، أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:

http://alhayat.com/Details/٥٢٥٩٦٤

(١١١) نقلاً عن صحيفة المشرق العراقية، أواماً يسلح التكفيريين المتطرفين ورفض العراق تمرير السلح، العدد ٢٦٧٧، بتاريخ ٢٤/٥/٢٠١٣، ص ٣.

(١١٢) بول براكن، العصر النووي الثاني: الإستراتيجية والأخطار وسياسات القوى الجديدة، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم - ناشرون، عام ٢٠١٣)، ص ١٨٥.

(١١٣) عبير بشير، روسيا والأزمة السورية، صحيفة المستقبل، العدد ٤٧٠٧، (بيروت: بلا، بتاريخ ٢٥/٤/٢٠١٣)، ص ١٩.

(١١٤) مصطفى إبراهيم سلمان الشمري، عسكريّة الخليج: الوجود العسكري الأمريكي في الخليج العربي، ط ١، (القاهرة: العربي للنشر والتوزيع، عام ٢٠١٣)، ص ١٧٤ - ١٧٥.

(١١٥) بول براكن، مصدر سبق ذكره، ص ١٧٠.

(١١٦) Hillary Rodham Clinton, Leading through civilian power redefining,

periodical foreign affairs, N ٦١ December year ٢٠١٠, p ٤.

- (١١٧) شاهرام تشوبين، طموحات إيران النووية، ترجمة بسام شيحا، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، عام ٢٠٠٧)، ص ٨٧.
- (١١٨) بول براكن، مصدر سبق ذكره، ص ٢٠٩.
- (١١٩) معين أحمد محمود، إسرائيل واختراق جبهة آسيا: رؤية جيو. استراتيجية، ط ١، (بيروت: مركز باحث للدراسات، عام ٢٠٠٩)، ص ٣٩ - ٤٠.
- (١٢٠) د. حسن يراري: امن إسرائيل صراعات الايديولوجيا والسياسة، سلسلة كراسات إستراتيجية، عدد ١٤٣، السنة ١٤، (القاهرة: مركز الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠٠٤)، ص ٥.
- (١٢١) تريتيا بارزي، حلف المصالح المشتركة: التعاملات السرية بين إسرائيل وإيران والولايات المتحدة، ترجمة أمين الأيوبي، ط ١، (بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، عام ٢٠٠٨)، ص ١٨ - ١٩.
- (١٢٢) زبير سلطان قدوري: السلام في المشروع الصهيوني: مصر نموذجاً، ط ١، (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، عام ٢٠٠٣)، ص ٩.
- (١٢٣) د. حميد حمد السعدون، الفوضى الأمريكية: دراسة في الأفكار والسياسة الخارجية «العراق أنموذجاً»، مصدر سبق ذكره، ص ٢٣٤.
- (١٢٤) د. كوثر عباس الربيعي، التأسيس لنهضة عربية جديدة: العرب في مواجهة الإستراتيجية الأمريكية، مجلة دراسات دولية، العدد ٤٩، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١١)، ص ٢٧ - ٢٨.
- (١٢٥) احمد عبد الكريم، غياب الايديولوجيا عن الثورات العربية، مجلة دراسات دولية، العدد ٥١، (جامعة بغداد: مركز الدراسات الدولية، عام ٢٠١٢)، ص ١٦٩ - ١٧٠.
- (١٢٦) د. وائل محمد إسماعيل، العالم العربي في مهب الريح: رؤية تشخيصية تحليلية في آليات التغيير، المجلة السياسية والدولية، العدد ٢٣، (الجامعة المستنصرية: كلية العلوم السياسية، عام ٢٠١٣)، ص ٦ - ٧.
- (١٢٧) علي حسين باكير، الثورة السورية في المعادلة الإيرانية - التركية: المأزق الحالي والسيناريوهات المتوقعة، مجلة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، كانون الثاني عام ٢٠١٢)، ص ٢.
- (١٢٨) شلومو بروم، إسرائيل والعالم العربي: قوة الشعب، مختارات من الصحف العبرية، (بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١١/١١/٢)، ص ٢ - ٣.
- (١٢٩) بول سالم، النظام الإقليمي، سلسلة منشورات مؤسسة كارينغي للسلام الدولي، بيروت، عام ٢٠١٢، ص ١٢.
- (١٣٠) يوسي أفر، المتغيرات الإقليمية والثورة السورية، صحيفة هآرتس الإسرائيلية، بتاريخ ٢٨/٣/٢٠١١،
أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:
http://peacenow.org/entries/qa_yossi_alpher_march_٢٨_٢٠١١

د. علي جبار حافظ الربيعي □

(١٣١) شهاب سمير، سوريا على الصفيح الساخن، مجلة شؤون اقتصادية دولية، العدد ١٢٨، (بيروت: بلا، عام ٢٠١١)، ص ٤٧.

(١٣٢) علي حسين باكير، الثورة السورية في المعادلة الإيرانية - التركية: المآزق الحالي والسيناريوهات المتوقعة، مصدر سبق ذكره، ص ٣.

(١٣٣) د. محجوب الزويري، إيران الثورية والثورات العربية: ملاحظات بشأن السياسة الخارجية الإيرانية ومآلاتها، مجلة المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، العدد بلا، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، عام ٢٠١٢)، ص ٥.

(١٣٤) د. عاطف عودة الرفوع، الإعلام الإسرائيلي ومحددات الصراع «الصحافة نموذجاً»، ط ١، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، عام ٢٠٠٤)، ص ٢٩١.

(١٣٥) صحيفة الميادين الإلكترونية، بتاريخ ٢٢/٩/٢٠١٣، للاستفاضة أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:

http://www.almayadeen.net/ar/news/lebanon_pUGg.VoRiU,DkKHJARXk0A.

(١٣٦) رافايل د. فرانكل، إبقاء حماس وحزب الله خارج الحرب مع إيران، سلسلة ترجمات الزيتونة، العدد ٧٣، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، عام ٢٠١٢)، ص ٥ - ٦.

(١٣٧) رنا عبد العزيز الحماش، العلاقات التركية - الإسرائيلية وتأثيرها على المنطقة العربية ١٩٩٦ - ٢٠٠٩، ط ١، (عمان: مركز دراسات الشرق الأوسط، عام ٢٠١٠)، ص ١٠١.

(١٣٨) أبو بكر الدسوقي، دور مصر الإقليمي في واقع جديد، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٩٠، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ٦.

(١٣٩) نقلاً عن أسماء رافة، «الحلم العثماني»: انعكاسات الأزمة السورية على السياسات الإقليمية التركية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٩١، (القاهرة: مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١٣)، ص ٤٤.

(١٤٠) شلومو بروم، مصدر سبق ذكره، ص ٤.

(١٤١) د. محسن صالح، الثورات العربية: السياق والتحديات: تدخل الدول الإقليمية برعاية ومتابعة أمريكية (السعودية وقطر أمودجاً)، مجلة حورابي للدراسات، العدد ٢، (بيروت: مركز حورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ١٢١.

(١٤٢) رافايل د. فرانكل، مصدر سبق ذكره، ص ١٧ - ١٨.

(١٤٣) ناصر الشمران، مجلة البيادر السياسي، نسخة الكترونية، العدد ١٠٣٥، السنة ٣٣، بتاريخ ٢٩/١/٢٠١٣.

(١٤٤) رافايل د. فرانكل، مصدر سبق ذكره، ص ٢١ - ٢٢.

(١٤٥) مارك لنج، السياسة الأمريكية تجاه إيران ومتغيرات الشرق الأوسط، ترجمة حسين شلوشي، آيات شحور، مجلة حورابي للدراسات، العدد ١، (بيروت: مركز حورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية،

عام ٢٠١١)، ص ١٦٦.

(١٤٦) مايكل ميلشتاين، شرق أوسط قديم جديد: التطورات الجارية وانعكاساتها على إسرائيل، سلسلة ترجمات الزيتونة، العدد ٦٧، (بيروت: مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات، عام ٢٠١١)، ص ١١.
(١٤٧) د. حسن أبو طالب، فاعلية مفقودة: تعقيدات الإدارة العربية للأزمة السورية، مجلة السياسة الدولية، العدد ١٩٠، (القاهرة، مؤسسة الأهرام للدراسات السياسية والإستراتيجية، عام ٢٠١٢)، ص ٣٩.
(١٤٨) فلينت ليفريت، دروب مختلفة إلى دمشق، ترجمة حسن البستاني، ط ١، (بيروت: دار العربية للعلوم - ناشرون، عام ٢٠٠٦)، ص ٩٨.

(١٤٩) صحيفة واشنطن بوست، المقاتلون الأجانب يتدفقون على سوريا، ترجمة صفاء عدليل غلاب، بتاريخ ٢٤/٦/٢٠١٣، للاستفاضة أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي: <http://www.egynews.net/wps/portal/journals?params=٢٣٨٣٥٥>

(١٥٠) أن الباحث لا يعني هنا، أنه لا يوجد اعتداء على المراقد المقدسة المتمثلة في: السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب عليها السلام، والصحابي الجليل حجر بن عدي عليه السلام الذي تم حفر قبره وإخراج جثته والتمثيل بهما، وتدمير مقام النبي إبراهيم عليه السلام، وغيرها من المراقد الأخرى. بل أن ما يعنيه الباحث هنا أن هذه الأعداء من ورائها أصابع أمريكية - إسرائيلية، كما هو الحال في الاعتداء على المرقدين الشريفين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام في مدينة سامراء العراقية التي أدت إلى الاقتتال الطائفي في العراق. أذن أن ما تهدف إليه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل من خلالها ذلك هو العمل على جذب الطرف الآخر المتمثل بالمسلمين الشيعة بدافع عاطفي، لغرض الدفاع عن المراقد المقدسة، مما يعني أن الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل تعمل على توفير أرضية مناسبة لصراع طائفي (سني - شيعي) في منطقة الشرق الأوسط.

(١٥١) ياسر الزعاطرة، الحريق المذهبي من سوريا ولبنان إلى العراق، صحيفة الدستور الأردنية، العدد ١٦٥١٩، عمان، بتاريخ ٦/٥/٢٠١٣، ص ٤.

(١٥٢) د. عزام التميمي، إيران وسوريا وحزب الله، مجلة الرائد الالكترونية، العدد ٢٧٦، عام ٢٠١١، ص ٢.
(١٥٣) سيريل تاونسند، الربيع العربي يتمخض عن حرب شيعية - سنية: هستريا حروب الوكالة والتشديد الطائفي في سوريا باتت على المكشوف، صحيفة النديبندت البريطانية، بتاريخ ٢٥/٢/٢٠١٣، للاستفاضة أنظر إلى شبكة المعلومات الدولية «الانترنت» على الرابط الآتي:

<http://www.maanpress.com/arabic/?action=print&id=١٦٤٤٧>

(١٥٤) التصير مدينة سورية تقع على الحدود السورية - اللبنانية، ويعتبر موقعها إستراتيجي للمعارضة السورية والنظام السوري، باعتبارها ممر للمقاتلين الأجانب القادمين إلى سوريا، سيطرت عليها المعارضة أثناء الأزمة السورية، ومن ثم دارت فيها معركة كبيرة بين المعارضة السورية والنظام السوري، وعلى أثر هذه المعركة تدخل حزب الله بصورة مباشرة، وبالتالي حسمت المعركة بالانتصار لصالح النظام السوري وحزب الله.

د. علي جبار حافظ الربيعي □

للاستفاضة أنظر إلى: بيتر بيومونت، الصراع في الشرق الأوسط ليس مجرد صراع ديني، ترجمة صحيفة الصباح، صحيفة الصباح العراقية، العدد ٢٨٤٤، بتاريخ ١٣/٦/٢٠١٣، ص ٤.
(١٥٥) بيتر بيومونت، مصدر سبق ذكره، ص ٤.

تحديات التنمية المستدامة في العراق

التحديات الاجتماعية والبيئية أنموذجاً

د. عدنان فرحان الجوارين

جامعة بغداد

شهدت مؤشرات التنمية المستدامة في العراق تدهوراً كبيراً خصوصاً خلال عقدي الثمانينات والتسعينات من القرن الماضي نتيجة لعوامل عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية، فضلاً عن الحروب التي خاضها العراق خلال تلك المدة والحصار الاقتصادي الذي تعرض له العراق ولمدة قاربت اثني عشر عاماً مما كان له أثر سلبي كبير في معظم مؤشرات التنمية المستدامة.

غير أن سقوط النظام السابق في عام ٢٠٠٣ وبدء مرحلة سياسية جديدة في تاريخ العراق وكذلك مرحلة اقتصادية جديدة شهدت تحول العراق من إتباع النظام الاشتراكي إلى إتباع فلسفة السوق الحر، فبدأت بعض تلك المؤشرات بالتحسن التدريجي إلا أنها ما زالت بعيدة عن المستويات المطلوبة ومستويات البلدان المجاورة، وهنا تواجه مسألة التنمية عدّة تحديات منها:

وفي الحقيقة فإن أيا من الأعمدة الثلاثة للتنمية المستدامة لا يمكن تحقيقه دون حل مشكلة عدم المساواة بين النساء والرجال (والتي يمكن قياسها من خلال المشاركة الاقتصادية، والصحة والتعليم والمشاركة السياسية للنساء في السلطة)، فأولا حماية البيئة تتطلب الفهم السليم لعلاقة المرأة بالموارد الطبيعية والبيئية، فضلا عن حقوق النساء وأدوارهم في التخطيط وإدارة الموارد، ثانيا الأداء الاقتصادي الجيد يتطلب مراعاة الفوارق بين الجنسين إذ تشير الإحصاءات إلى أن (٧٠%) من الفقراء المقدر عددهم في العالم والذين يعيشون في فقر مطلق هم من النساء، ثالثا إن العدالة الاجتماعية ترتبط أساسا بالمساواة بين الجنسين فالتمييز على أساس الجنس واللون والجماعة العرقية والإيمان والرأي السياسي أو المركز الاجتماعي والميول الجنسية هي مؤشرات واضحة من عدم المساواة الاجتماعية (Tchouassi, ٢٠١٢: ٣٨٧).

شكل عقد المرأة الأول ١٩٧٥ - ١٩٨٥ الذي تضمن مؤتمر الأمم المتحدة في المكسيك عام ١٩٧٥ دفعة قوية لتوجهات التنمية للمرأة. إذ شاع في أثناء ذلك العقد

التحديات الاجتماعية

أولا: ضعف مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي:

لفهم موضوع المشاركة في النشاط الاقتصادي يجب أولا أن ننظر إلى الفرص والقيود وأثار التغيير الاقتصادي والاجتماعي بوصف هذه جميعها تؤثر في الرجال والنساء. المشاركة والمساواة هي أساس العائلة القوية والمجتمعات الحيوية في عالم سريع التغير، وقد استبعدت النساء على مر التاريخ والمجتمعات من اتخاذ القرارات، إذ كان يجري التمييز بشكل منهجي ضد النساء ضمن أنظمة حكم تسمح بهيمنة عدد قليل من الفئات الاجتماعية على حساب الآخرين في جميع الفئات الاجتماعية، وأن بعض هياكل السلطة تسببت في زيادة اختلال التوازن بين الرجال والنساء وتهميش النساء وزيادة معاناتهن، إن خلق قدر أكبر من المساواة بين الرجال والنساء يساهم في بناء مجتمعات سليمة وديمقراطية ومزدهرة اقتصاديا (Tchouassi, ٢٠١٢: ٣٨٥).

التنمية المستدامة تتطلب المشاركة الكاملة والمتوازنة من قبل النساء في المستويات كافة، والمساواة بين الجنسين هي حجر الأساس في التنمية المستدامة،

والتحديات السياسية التي تتجسد في غياب الأمن وحالات العنف والتهجير فضلا عن التحديات الاجتماعية كال فقر والبطالة والتي تفاعلت جميعها معلنة عن محدودية الدور الاقتصادي للمرأة العراقية وضعف مشاركتها في عملية التنمية المستدامة. على الرغم من أن تقديرات عام ٢٠١٠ تشير إلى أن نسبة الإناث إلى مجموع السكان بلغت (٤٩.٧٪)، إلا أن هناك العديد من المؤشرات التي توضح ضعف مشاركة المرأة في النشاط الاقتصادي أهمها:

١ - ضعف مشاركة المرأة العراقية العاملة في النشاط الاقتصادي إذ أن معدل مشاركتها لم يتجاوز ٢٪. ١٤. عام ٢٠٠٣ ارتفعت لتصل إلى (١٨٪) فقط عام ٢٠٠٨ مقابل ٧٪. ٧٣. للذكور عام ٢٠٠٣ ارتفعت بشكل طفيف إلى ٩. ٧٤. عام ٢٠٠٨، إن انخفاض نسب مشاركة المرأة والتي هي في سن العمل ما هو إلا إعلانا ضمينا على ارتفاع معدلات البطالة بين النساء في سن العمل وتدني مساهمتها في النشاط الاقتصادي.

٢ - أظهرت نتائج مسح التشغيل والبطالة الذي تم تنفيذه من قبل الجهاز المركزي للإحصاء ارتفاع معدلات العمالة الناقصة بين

توجه المرأة في التنمية، والذي عمم الاعتراف باختلاف واقع وخبرة النساء في التنمية عن الرجال مما انعكس في رسم استراتيجيات موجهة لتنمية واقع المرأة في الدول النامية بدأ الاهتمام الأكبر بالدور الاقتصادي للمرأة في مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥، ثم مؤتمر جوهانسبرغ للتنمية المستدامة عام ١٩٩٢ ومؤتمر المرأة في بكين عام ١٩٩٥ وانتهاء بإعلان الأهداف الإنمائية للألفية الثالثة التي تضمنت تمكين المرأة حتى عام ٢٠١٥ وقد ترافق هذا الاهتمام مع تحول العديد من الاقتصادات نحو اقتصاد السوق وتطبيق سياسات الإصلاح الاقتصادي وما ترتب عليها من تغيير واضح في دور كل من الدولة والقطاع الخاص والذي تطلب تبني سياسات احتواء للنوع الاجتماعي على اثر النتائج السلبية القصيرة الأجل المترتبة على هذا النمط من التغيير كالإقصاء الاجتماعي وارتفاع معدلات الفقر والبطالة وخاصة بين النساء.

فيما يخص المرأة في العراق فإنها تعيش في مجتمع يحمل في ثناياه مجموعة من التحديات الاقتصادية أبرزها التضخم وانخفاض مستوى الدخل الفردي،

النساء الكثير من فرص العمل القليلة التي تذهب للرجال بسبب سياسة توظيف تقوم على تمييز ضد النساء واعتبار عملهن أقل أهمية من عمل الرجال، هذا بالنسبة للقطاع العام أما الخاص فهو الآخر توقف لانعدام مستلزمات نشاطه من وقود وكهرباء وقطع غيار وانتهاج سياسة كمركية تقوم على فتح الباب على مصراعيه أمام التجارة دون قيود تحمي الخدمات التي يقدمها القطاع الخاص. وقد أسهمت التهديدات الأمنية وهروب رأس المال العراقي إلى الخارج واختلال العملية الاستثمارية بفقدان المرأة الكثير من فرص العمل التي يقدمها هذا القطاع (اليسري، ٢٠٠٩: ٢).

٢ - العادات والتقاليد الاجتماعية التي أعطت صورة عن المرأة كونها كائناً ضعيفاً، قاصر العقل، لا يستطيع أن يؤدي أي دور فاعل ومؤثر خارج المنزل، بل إن بقاءها في المنزل هو حماية وحصانة لشرف الأسرة، وان العمل يعرضها لمغريات ولظروف انحرافية لا قبل لها بها.

٣ - تعاني النساء العاملات من انخفاض نسبي في عوائد العمل مقارنة بنظرائهن من الرجال ويزداد التفاوت في القطاع الخاص إذ

صفوف النساء من ٣٠.٤% عام ٢٠٠٣ إلى ١٥.٣% عام ٢٠٠٨ في حين لم تتجاوز النسبة عن ٤.١٩% عام ٢٠٠٣ للرجال ارتفعت إلى ٤.٢٣% عام ٢٠٠٨.

٣ - أشارت إحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء إلى أن نسبة الإناث في القيادات الإدارية العليا والوسطى في الحكومات المحلية في العراق لعام ٢٠١٠ بلغت (٦.٦%). فقط.

٤ - بلغت نسبة العاملات من الشابات في الفئة العمرية (١٥ - ٢٤ سنة) إلى مجموع السكان في عام ٢٠٠٩ حوالي (٣.٣%).، والبطالة في صفوف الشابات تعد تحدياً حقيقياً أمام الدولة والتي يمكن أن تنتج عن مستوى التعليم ونوعيته، والبطالة في صفوف العاملين الأقل تعليماً تدل على ضرورة تحسين فرص الوصول إلى التعليم، أما البطالة في صفوف المتعلمين فهي إشارة إلى الإخفاق في تحويل المكاسب التعليمية إلى تمكين اقتصادي (الاسكوا، ٢٠١٢: ٨).

وهناك العديد من الأسباب التي أدت إلى هذا الضعف يمكن إجمال أهمها بالآتي:
١ - عدم وجود سياسة واضحة المعالم لدى الحكومة فيما يتعلق بالتوظيف إذ فقدت

الاتصالات والمعلومات المتسارعة، لذا أخذ الفساد يتحرك على مستوى شبكي وليس على مستوى فردي يتمثل في تحوله إلى ممارسة اجتماعية يتداخل فيها عالما السياسة والاقتصاد ليشمل المؤسسات الاجتماعية ومنظومة القيم ككل وليس عارضاً يتوقف على الرشوة أو الانحراف عن المعايير والخلل التقني.

وقد أضحى الفساد في الآونة الأخيرة آفة تنخر في جسد الاقتصادات النامية على وجه الخصوص منتهكة بذلك كل القوانين والأعراف والقيم الإنسانية السليمة نتيجة لانعدام الشفافية وضعف أجهزة الرقابة الحكومية وتفشي المحسوبية والفئوية في تقلد المناصب والمسؤوليات، هذا فضلاً عن وهن السلطة السياسية العليا. وقد عرف البنك الدولي الفساد على أنه «إساءة استخدام المنصب العام للكسب الخاص»، وبالتالي انتشر الفساد في السنوات الأخيرة واتسعت مجالاته وأشكاله وأصبح ظاهرة عالمية فهو موجود في كل الدول وفي كل الثقافات والديانات وبصور ومسميات متعددة وان اختلفت نسبه، وهكذا أصبح الفساد ظاهرة تقوض جهود التنمية المستدامة

يتسم التوظف في الدوائر الحكومية والقطاع العام بدرجة أعلى من احترام القيد القانوني على المساواة في عوائد العمل (عبدالرضا، ٢٠١١: ٢).

٤ - أدت عمليات التهجير القسري والهجرة إلى جعل المرأة أكثر عزلة داخل منزلها، فضلاً عن تعدد المرجعيات التي تنص على لقضايا المرأة دون الجهة الرسمية نتيجة تهميش دور وزارة المرأة من قبل الجهات الرسمية على المستوى المحلي والدولي (عبدالرضا، ٢٠١١: ٢).

ثانياً: ارتفاع نسبة الفساد الإداري:

لقد انتشر الفساد في السنوات الأخيرة واتسعت مجالاته وأشكاله وأصبح ظاهرة عالمية فهو موجود في كل الدول وان اختلفت نسبته، وموجود في كل الثقافات والديانات وبصور متعددة، وأصبحت ظاهرة تهدد الاقتصاد القومي سواء على مستوى الدول المتقدمة أم الدول النامية، وتعود جذور الفساد إلى التاريخ الثقافي والاجتماعي للبلد، وقد أصبح الفساد اليوم قوة ذات تأثير اقتصادي واجتماعي وسياسي نتيجة للتحولات التي شهدها العالم كالعولمة وثورة

العام إلى زيادة الفساد الإداري والمالي وشاعت قيم المحسوبية والمنسوبية وتفتت الرشوة والسرقة، إذ تراجعت مؤشرات المحاسبة، والاستقرار السياسي، وفعالية الحكومة، وسيادة القانون، أما بعد عام ٢٠٠٣ فقد استفحلت ظاهرة الفساد إلى درجة مريعة، لم يعد بالإمكان التستر عليها أو تمويهها، وخصوصاً بعد أن احتل العراق للمدة (٢٠٠٣ - ٢٠١٢) المراتب الأخيرة في السلم العالمي للدول الأكثر فساداً في العالم، وأصبح الفساد وباء ينخر في الميادين كافة وبخاصة الاقتصادي منها الذي أعاق عملية النمو والتنمية.

في تقرير مدركات الفساد لعام ٢٠١١ صنّف العراق ضمن الدول العشر الأعلى فساداً في العالم، بعد أن سجل (٨.١) نقطة من أصل ١٠ نقاط يتكون منها مؤشر مدركات الفساد، وكان ترتيبه عالمياً ١٧٥ من بين ١٨٢ دولة شملها التقرير، وعريباً فقد حل العراق في المرتبة الثالثة بعد كل من الصومال والسودان؛ مما يشير إلى استمرار انتشار الفساد الإداري والمالي في العراق، الأمر الذي يؤثر سلباً في تنفيذ مشاريع التنمية الاقتصادية.

وتهدد الاقتصاد القومي بالتدهور سواء على المستوى الكلي أم الجزئي.

والفساد كظاهرة مجتمعية يضعف الدور الحكومي في توزيع الدخل لأن منافع الفساد تذهب إلى شريحة اجتماعية معينة وتشوه تخصيص الموارد، فضلاً عن تقليل إيرادات الضرائب وزيادة أعباء الإنفاق العام، وكلما كان حجم الإنفاق كبيراً ارتفعت مستويات الفساد، ويرى لابلومور (Labolomor ١٩٩٤) أن مشكلة الفساد تصبح أكثر سوءاً وتعقيداً في البلدان النامية حيث هيمنة القطاع العام وتدخل الدولة المباشر في الاقتصاد. وكلما كان الاقتصاد محكوماً بالقيود والتشريعات الحكومية فإنه يواجه تفشي الفساد خصوصاً بين أوساط الذين يقومون بتطبيق القوانين والإجراءات واللوائح (الصالح، ٢٠٠٧: ٤).

يعد العراق من الدول التي استشرى فيها الفساد في الأعوام المنصرمة وأصبح من التحديات الكبرى التي تواجه بناء الدولة والنهوض بالواقع الاقتصادي، فقد ابتلى العراق في الأنظمة السابقة بأفة هدر وتبذير المال العام خصوصاً بمرحلة التسعينات من القرن المنصرم، إذ أدى السلوك السياسي

٦ - تشكيل اللجان غير الضرورية في الكثير من الهيئات والمنظمات العامة.

٧ - فساد بعض موظفي القيادات الوسطية في الأجهزة الحكومية خصوصاً من لديهم صلاحيات باتخاذ قرارات تخص معاملات الناس، كأن يتأخر الموظف المسؤول عن منح التراخيص وإنجاز المهمات لفترات طويلة تعطل فيها مصالح المواطنين فيضطر المواطن إلي دفع رشوة لكي ينجز معاملته.

٨ - فساد البيروقراطية؛ الناتج عن كثرة الإجراءات والتعقيدات والرقابة على الجهات المختلفة.

٩ - الفساد الناتج عن كثرة تغيير القوانين وتعددتها، وبالتالي تنشأ ثغرات كثيرة تُمكن بعض الموظفين أو المسؤولين من الاستفادة من تلك الثغرات لتحقيق مكاسب ومنافع شخصية على حساب المصلحة العامة.

١٠ - الجمع بين الوظيفة العامة والعمل التجاري الخاص.

١١ - تلقي العمولات والرشاوى عن الصفقات الكبيرة التي تعقدتها الدولة، كصفقات الأسلحة، والمقاولات الحكومية وغيرها.

إن أشكال الفساد الإداري ومظاهره كثيرة ومتعددة، ويمكن تحديد أهم وأبرز تلك الأشكال والمظاهر في المجتمع العراقي بالآتي (الشدادي، ٢٠١٠: ٢):

١ - تفشي الرشوة، والتي تعد من أبرز مظاهر الفساد الإداري وأكثرها انتشاراً في الإدارة العامة العراقية، حتى غدت سلوكاً عادياً يمارسه كثير من الموظفين الحكوميين الذين أصبحوا يعتقدون بشرعية الرشوة ويعدون لها مصدراً للكسب المشروع.

٢ - إستغلال النفوذ أي ما يُعرف بالمحسوبية والوساطة في الأجهزة والمؤسسات العامة، والتي تمارس عادةً من قبل كبار موظفي الدولة وأصحاب الوجاهة والشخصيات الاجتماعية بهدف الحصول أو محاولة الحصول على منفعة أو مزية أو فائدة معينة من أحد المرافق أو المؤسسات الحكومية، سواءً كان ذلك لأنفسهم أم لغيرهم.

٣ - التلاعب بالمناقصات العامة.

٤ - قضايا الاختلاس والابتزاز والتزوير.

٥ - تعيين أبناء كبار الموظفين والمسؤولين وأقاربهم في الوظائف المهمة والمميزة.

١٢ - استغلال المال العام لتحقيق

مصالح سياسية وانتخابية.

وتعود أسباب تفشي ظاهرة الفساد في العراق إلى جملة من الأسباب أهمها (الجوارين، ٢٠١٣: ٢١٨):

١ - وفرة الموارد الطبيعية التي أهمها الثروة النفطية التي يتمتع بها العراق، والتي بدلاً من استخدامها لتحقيق التنمية الاقتصادية المنشودة، كانت مرتعاً للفساد المالي والإداري طوال العقود الماضية.

٢ - وجود نظام الحزب الواحد الذي حكم العراق منذ عام ١٩٧٩، مما مكن أفراد هذا الحزب، وخصوصاً النخبة منهم، من استخدام ذلك في الاستحواذ على الثروة الاقتصادية للبلد، وكان الفساد أحد الوسائل الرئيسة لهذا الاستبداد، الذي من خلاله تم توزيع الثروة بين أعضاء الحزب ومؤيديه سواء داخل العراق أم خارجه.

٣ - الحروب التي خاضها العراق بدءاً من الحرب العراقية - الإيرانية، مروراً بحرب الخليج الأولى (١٩٩١)، والحصار الاقتصادي (١٩٩١ - ٢٠٠٣)، وحرب الخليج الثانية (٢٠٠٣)، أدت إلى اتساع رقعة الفساد نتيجة غياب الرقابة، وتدني الدخل والقوة

والشرائية، وارتفاع معدلات التضخم.

٤ - بعد انهيار النظام السياسي السابق في عام ٢٠٠٣، أسهم عدم الاستقرار السياسي والأمني، والغياب شبه التام للرقابة، وتدني سلطة القانون في ارتفاع كبير في نسب الفساد جعلت العراق يهبط إلى المرتبة ١٧٥ في سلم الفساد.

٥ - تهميش الكفاءات العلمية ذات المهنية العالية واستبعادها من تبوء المراكز المهمة في مؤسسات الدولة بعد عام ٢٠٠٣، إذ احتل أناس لا يملكون الخبرة اللازمة لإدارة مؤسسات الدولة، وبعضهم من حملة الشهادات المزورة، ولا اعتبارات سياسية ومذهبية، العديد من المواقع الوظيفية في وزارات الدولة وأجهزتها، مما أسهم في تفشي الفساد والمحسوبية في أركان الدولة العراقية كافة.

إن مشكلة الفساد الإداري تعد تحدياً كبيراً للدولة العراقية كونه أصبح وباء ينخر في جسد هذه الدولة وبالمجالات كافة، لذا لا بد من مواجهة هذا التحدي ووضع الإجراءات الكفيلة بالحد من الفساد الإداري.

ثالثاً: مشكلة السكن في العراق:

تعد مشكلة السكن من أهم التحديات التي يواجهها المجتمع العراقي إذ تشير اغلب الدراسات الإسكانية إلى أن عدد الوحدات السكنية المطلوب إنشاؤها في العراق تتراوح بين (٢.٥ - ٣.٥) ملايين وحدة سكنية اعتماداً على المعدل الدولي لعدد الأفراد في الوحدة السكنية الواحدة، وهذا يؤشر حجم المشكلة وضخامتها، فضلاً عن شمولها مناطق البلاد كافة، وهذه المشكلة وليدة اليوم بل هي امتداد لأزمة السكن في العهود السياسية السابقة، وهي مأساة إنسانية عميقة لا بد من إيجاد حل جذري وعميق لها يأخذ في الحسبان الحاجة المتزايدة للسكن بمرور السنوات وهو واجب يقع على عاتق الحكومة في المرتبة الأولى، التي عليها التخطيط وتنفيذ المشاريع الكبرى ووضع البرامج للمشاريع الإنشائية لتوفير السكن المناسب والمريح للمواطن العراقي الذي يتناسب والنمو السكاني والذي يتضاعف كل ٢٥ سنة. وقد أدى تفاقم أزمة السكن إلى انتشار الأحياء العشوائية بشكل كبير في محافظات العراق كافة ونتيجة لافتقار هذه الأحياء لأنواع الخدمات كافة فضلاً عن البناء

العشوائي وبدون تخطيط فقد أسهم ذلك في زيادة الضغط على البنية التحتية وانتشار الأمراض والأوبئة في تلك الأحياء فضلاً عن التأثير الأمني الخطير لهذه الأحياء بسبب عدم وجود قاعدة معلومات متوافرة عن القاطنين في هذه الأحياء.

إن السبب الرئيس لمشكلة السكن في العراق هو عدم تحمل الدولة مسؤولياتها في هذا المجال من خلال تبني إستراتيجية فعالة يسهم في وضعها ذوي الاختصاص وأصحاب الخبرة والكفاءة فضلاً عن الفساد المستشري في جميع مفاصل الدولة، وهناك أسباب أخرى عديدة أهمها:

١ - تضخم أسعار العقارات: التضخم يعني الارتفاع المستمر في أسعار السلع والخدمات، وبالتأكيد فان العقارات سلع، ومن ثم فنظريات وبحوث التضخم تطبق قطعاً على أسعار العقارات. ونتيجة لوفرة السيولة النقدية والرغبة في الاحتفاظ بالأموال على شكل أصول أو لتبييض الأموال، اتجه عدد كبير من الأشخاص لشراء العقارات، الأمر الذي أسهم في حدوث ارتفاع كبير في أسعار هذه العقارات حتى أصبح الحصول على قطعة أرض أو منزل أمر

المواطنين في تشييد وحدات سكنية، بالنظر لضعف قدرتهم الشرائية.

وقد عملت الحكومات العراقية المتعاقبة بعد عام ٢٠٠٣ على محاولة إيجاد حل لهذه الأزمة لكن هذه المحاولة لم تأت أكلها بعد، فقد أقر مجلس النواب في عام ٢٠١١ إنشاء صندوق الإسكان الذي يعمل على تقديم قروض بدون فوائد لذوي الدخل المحدود لبناء دور سكنية خاصة بهم لكن هذه القروض، التي تبلغ ٣٠ مليون دينار (٢٥ ألف دولار أميركي) لسكان بغداد و٢٥ مليون دينار (٢١ ألف دولار أميركي) لسكان المحافظات، لا تكفي لبناء مسكن نظرا لعدم مراعاة القانون لأسعار مواد البناء وكلفة العمل فضلا عن تفشي الفساد الإداري في تقديم هذه القروض، كما تم إطلاق قروض المصرف العقاري لمستحقيها وهي (٣٠) مليون دينار لكل من يملك قطعة أرض ويرغب في بنائها وبدون فوائد، كما منحت الحكومة قرضا بمبلغ (٧٥) مليون دينار لكل من يرغب في الشراء في المجمعات السكنية الاستثمارية، غير أن هذه القروض لا زالت تعاني من مشكلة قلة التخصيصات نسبة إلى المستفيدين فضلا عن انتشار الفساد الإداري

بعيد المنال بالنسبة لذوي الدخل المحدود.

٢ - إيقاف توزيع قطع الأراضي: اقتصر توزيع الدولة لقطع الأراضي في السنوات السابقة على شريحة الموظفين والمنتسبين للسلك العسكري، في حين حرم بقية المواطنين من هذا الحق، فضلا عن توزيع هذه القطع دون توفير خدمات البنية التحتية التي تحتاجها، وبعد عام ٢٠٠٣ توقف توزيع قطع الأراضي حتى على شريحة الموظفين وأصدر مجلس الوزراء قراراً بمنع توزيع قطع الأراضي على المواطنين واقتصر توزيعها على الوزارات من أجل البناء العمودي.

٣ - محدودية المشاريع الخاصة بالإسكان وندرتها خلال الأعوام السابقة نتيجة لتوقف الدولة عن بناء المجمعات الإسكانية على الرغم من ارتفاع معدلات النمو السكاني.

٤ - الانخفاض الكبير في نسبة مساهمة القطاع الخاص في بناء المجمعات الإسكانية، فضلا عن ارتفاع أسعار مواد البناء.

٥ - توقف المصرف العقاري عن تقديم القروض إلى مستحقيها لسنوات طويلة الأمر الذي أسهم بإعاقة توجهات كثير من

في منح هذه القروض. من جانب آخر بدأت الحكومة المركزية وحكومات المحافظات بإقامة بعض المشاريع الإسكانية العملاقة أبرزها مشروع مدينة بسماية، وهو أول مشروع استثماري سكني من نوعه في العراق، تنفذه شركة «هانوا» الكورية الجنوبية بكلفة ٢٠ مليون دولار أميركي ويقع على مساحة تبلغ ٨٠٠٠ دونم جنوب شرق بغداد. ويحتوي المشروع على ١٠٠ ألف وحدة سكنية، فضلا عن المشاريع الاستثمارية في المحافظات وإن كانت أسعار هذه المشاريع مرتفعة نسبة إلى متوسط دخل الفرد العراقي فقد تراوح سعر متر البناء في الشقق السكنية التي في هذه المشاريع بين (٨٠٠ ألف إلى مليون دينار عراقي (٦٦٦ - ٨٣٣٣ دولاراً أمريكياً/ متر بناء).

ولحل مشكلة السكن في العراق نقترح الآتي:

١ - تشكيل مجلس أعلى للأعمار تناط به مهمة حل مشكلة السكن في العراق من خلال إعداد إستراتيجية واضحة المعالم للسنوات القادمة تعمل على حل مشكلة السكن بشكل تدريجي، وتمنح له الصلاحيات كافة من أجل الإسراع في تمليك الأراضي، واختصار الروتين في هيئات الاستثمار في المحافظات من أجل إحالة مشاريع الإسكان الاستثمارية.

٢ - نظرا لارتفاع نسبة الفقر في العراق (٢٣%) فإن المشاريع المذكورة أنفا لن يستفيد منها الفقراء لذا لا بد من إقامة مشاريع خاصة بهذه الفئة ومن فئة البناء واطى الكلفة ومقابل إيجار رمزي يدفعه المستفيد.

٣ - دعم القطاع الخاص من أجل التوجه لإنشاء المشاريع الإسكانية.

وعلى وفق إحصائية قسم العلاقات والإعلام في الهيئة العامة للإسكان فقد أنجزت وزارة الإسكان والتعمير من خلال الهيئة العامة للإسكان عدداً من الوحدات السكنية في بغداد والمحافظات منذ العام ٢٠٠٣، منها اثنا عشر مجمعا سكنيا، ثلاثة منها في بغداد واثان في محافظة بابل واثان في كركوك وواحد في ميسان والانبار ومجمع

الملوثات التي تطرحها هذه الصناعات يجب أن تكون على وفق المعايير البيئية التي يجب أن لا تزيد على حد معين، وعند تجاوزه يحصل الأذى الكبير وقد يكون أذى مميتاً أو يؤدي إلى خسائر اقتصادية كبيرة تسير بالاتجاه المعاكس للتنمية بحيث تصبح تنمية متخلفة.

إذن التلوث البيئي الناتج من الفعاليات الصناعية والزراعية وغيرها للتنمية الاقتصادية تؤدي إلى آثار سلبية عديدة أهمها (كمونة، ٢٠٠٧: ١):

- الخسائر الاقتصادية الكبيرة في معالجة هذا التلوث.

- الخسائر البشرية والصحية وتعطل القوى العاملة الحالية والمستقبلية بحيث تصبح الثروة البشرية القادمة أقل فعالية وهزيلة أو معاقة.

- الخسائر في الثروة الحيوانية والنباتية، وبالتالي في نوعية وكمية منتجات هذه الثروة.

- الخسائر المادية في الهياكل العمرانية القائمة من فعاليات تنموية سابقة نتيجة للتوطين الخاطئ للصناعات التي تنتج نواتج عرضية تؤدي إلى مشكلات بيئية للسكان.

٤ - منح الشركات العامة في وزارة الإسكان وعددها تسع شركات إمكانات كبيرة لتنفيذ المشاريع الإسكانية وتوفير المهارات والأيدي العاملة ذات الخبرة والكفاءة لهذه الشركات.

٥ - تهيئة الخدمات كافة لإنشاء مدن سكنية في أطراف المدن الكبيرة والدفع باتجاه توفير مستلزمات البناء بكلف غير مناسبة فضلاً عن جذب المستثمرين المحليين والأجانب من أجل المشاركة في بناء هذه المدن.

التحديات البيئية

التلوث البيئي في دولة ما له آثار سلبية عديدة على التنمية المستدامة في تلك الدولة، فعلى سبيل المثال لا الحصر القيام بإنشاء صناعات متباينة في مختلف أنحاء العراق كجزء من سياسة نشر ثمار التنمية في أقاليم البلاد، لكن التوطين الخاطئ للصناعة من الناحية البيئية كان إحدى سمات مراحل التنمية القومية الشاملة في العراق.

وأن لكل صناعة معاييرها البيئية في التوطين المكاني، حيث أن تراكيز أو نسب

- خسائر ثقافية وتراثية وأثرية نتيجة تآكلها.

كل هذه الخسائر تظهر إذا لم يتم الانتباه إلى أهمية المعيار البيئي التخطيطي في أثناء إعداد خطة التنمية القومية الشاملة. إذ أن الأخذ بنظر الاعتبار المعايير البيئية قد تمنع أو تسهم في منع التلوث البيئي كنتائج عرضي لفعاليات التنمية الاقتصادية.

ومن أهم التحديات البيئية في العراق ما يأتي:

أولاً: مشكلة المياه:

تعد ندرة مصادر المياه من أهم التحديات التي تواجهها التنمية المستدامة لأي بلد، ويمكن قياس مدى الندرة من خلال مؤشر متوسط نصيب الفرد من المياه، وفي العراق ونتيجة لارتفاع معدلات النمو السكاني واتساع رقعة الأراضي القاحلة وشبه القاحلة وانخفاض معدلات هطول الأمطار، فضلاً عن الاعتماد المتزايد على أنهار تتبع من خارج العراق وتتحكم في كميات مياه تلك الأنهار دول المنبع، ومما يفاقم من مشكلة المياه في العراق التخلص من مياه

الصرف الصحي وفضلات المصانع والمعامل في الأنهار، فضلاً عن تدني كفاءة استخدام المياه خصوصاً في القطاع الزراعي الذي يستحوذ على نسبة كبيرة من الطلب على المياه، وتعود نسبة كبيرة من مشكلة ندرة المياه في العراق إلى تآكل وتدني كفاءة خدمات البنية التحتية نتيجة للحروب التي خاضها العراق خلال العقود الثلاثة الأخيرة. ويتضح ذلك من انخفاض نسبة السكان الذين يحصلون على مياه شرب آمنة من (٨٣.٨٣%) عام ٢٠٠٠ إلى (٧٨.٧٨%) عام ٢٠١٠، وانخفاض متوسط نصيب الفرد من الماء من (٣٠٢.٢١) م^٣ عام ١٩٨٠ إلى (٥٠٧) م^٣ عام ٢٠٠٥ (الجهاز المركزي للإحصاء، ٢٠١١: ٦٣).

وأن نقص الموارد المائية يعد تحدياً كبيراً للعراق في المستقبل القريب جداً، ويتمثل هذا النقص في انخفاض نسبة واردات نهري دجلة والفرات نتيجة للمشاريع المائية المقامة على النهريين وروافدهما من قبل تركيا وسوريا، إذ أنشأت تركيا مجموعة من السدود في منطقة جنوب شرق الأناضول، وتمثل مشاريع (Cap) على منابع نهري دجلة والفرات تحدياً كبيراً للعراق إذ أن هذا

الفرات أدى إلى ارتفاع نسبة الملوحة في النهر إلى حوالي (١٨٠٠) ملغ / لتر، في حين يبلغ المعدل العالمي (٨٠) ملغ / لتر (سالم، ٢٠١٠: ٧٦).

كما تشير البيانات إلى أن توافر المياه العذبة قد انخفض في العراق بشكل كبير منذ عام ١٩٥٥ والذي كانت كمية المياه العذبة المتوافرة في ذلك الوقت سنويا ولكل فرد ما مقداره (١٨٤٤١ م^٣/فرد/سنة) ثم انخفضت هذه القيمة بمرور الزمن حتى وصلت إلى (٢٤٠٠ م^٣/فرد/سنة) عام ٢٠١٠ ومن المتوقع أن تصل إلى (١٧٠٠ م^٣/فرد/سنة) عام ٢٠٢٥ (وزارة البيئة، ٢٠١٣). مما يؤشر وبشكل كبير أن هناك شحة كبيرة في المياه العذبة قد تصل إلى درجة الأزمة مستقبلا ما لم توضع الخطط والاستراتيجيات المناسبة لعلاجها.

ونتيجة لهذه التحديات فإن الإحصائيات تشير إلى أن ما نسبته (٤٤.٤٤%) فقط من السكان ابدوا رضاهم عن نوعية المياه المقدمة إليهم خلال المدة (٢٠٠٦ - ٢٠١٠)، وبهذه النسبة احتل العراق المرتبة الأخيرة بين الدول العربية في مستوى الرضا بنوعية المياه (البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة،

المشروع يتضمن بناء (٢٢) سدا و(١٩) محطة توليد للطاقة الكهربائية، وتبلغ سعة الخزن للمشروع حوالي (٩٠) مليار متر مكعب مقارنة ب (١٦) مليار متر مكعب يخزنهما سدا الفرات وتشرين في سوريا و(١٢) مليار متر مكعب يخزنهما سدا حديثة والقادسية في العراق، وهذا يعني أن مجموع ما تحتزنه السدود التركية يفوق ثلاثة أضعاف كامل الوارد المائي لنهر الفرات (زنبوعة، ٢٠٠٧: ٨٥).

إن إقامة هذه المشاريع فضلا عن التلوث الذي لحق بالأنهر نتيجة لمشاريع الطاقة الكهربائية المقامة عليها قد أدت إلى حدوث نقص كبير في إمدادات المياه الواصلة إلى العراق مما سيؤثر وبشكل كبير في الوفرة المائية فضلا عن التأثير السلبي الكبير في القطاع الزراعي، إذ أن التقارير الدولية تشير إلى أنه في حالة حدوث نقص في المياه بمقدار مليار متر مكعب في السنة فإن ذلك سوف يؤدي إلى نقص حوالي (٢٦٠) ألف دونم من الأراضي الزراعية المروية، ورفع نسبة الملوحة في الأقسام الوسطى والجنوبية، وقد حدث ذلك عمليا في العراق حيث أن نقص واردات المياه في نهر

والري، فضلا عن الكارثة البيئية التي تسبب بها النظام السياسي السابق في العراق الذي حكم العراق قبل عام ٢٠٠٣ بتجفيف أهوار العراق إذ جفف أكثر من ٢٠٠٠٠ كم^٢ أي ما يعادل ٩٠% من مساحتها هذه التي كانت تمثل أوسع مساحة مائية في النظام البيئي في الشرق الأوسط إذ تزيد على ضعف مساحة لبنان. ومن المعروف أن الأهوار كانت غنية بمواردها النباتية والزراعية والحيوانية والسمكية فضلا عن محافظتها على التوازن البيئي (نعمة، ٢٠١٢، ٢).

تشير الدراسات العلمية إلى أن الأراضي الصحراوية تشكل ما نسبته (٤٢%) من مساحة العراق، وقد انعكست ظاهرة التصحر بصورة سلبية ومباشرة على واقع البيئة في العراق، وأثرت بصورة مباشرة على حياة الفرد العراقي، فقد أدت هذه الظاهرة إلى ارتفاع معدلات العواصف الرملية والترابية التي تصيب المدن الرئيسية وعلى فترات متقاربة خلال السنة، وتعود أهم أسباب ظاهرة التصحر إلى (وزارة البيئة، ٢٠١٢: ١٣):

١ - الظروف الطبيعية: إذ أن (٩٠%) من مناخ العراق يقع ضمن مناطق المناخ

(٢٠١١، ١٥٧ - ١٦٠) مما يوضح مدى عمق مشكلة المياه في العراق وتدهور نوعيتها، الأمر الذي يستدعي وضع حلول عاجلة وطويلة الأجل لهذه المشكلة.

ثانيا: مشكلة التصحر وجفاف الأراضي:

التصحر يعني تدهور الأرض في المناطق القاحلة وشبه القاحلة وفي المناطق الجافة وشبه الرطبة الذي ينتج من عوامل مختلفة تشمل التغيرات المناخية والنشاطات البشرية.

وبعد التصحر عملية هدم أو تدمير للطاقة الحيوية للأرض والتي يمكن أن تؤدي في النهاية إلى ظروف تشبه ظروف الصحراء وهو مظهر من التدهور الواسع للأنظمة البيئية الذي يؤدي إلى تقلص الطاقة الحيوية للأرض المتمثلة في الإنتاج النباتي والحيواني ومن ثم التأثير في إعاله الوجود من هنا يتبين إن التصحر أحد المشكلات البيئية الخطيرة، التي تواجه العالم حاليا، وتتسارع في العراق ظاهرة التصحر والتملح وتقدر نسبة الأراضي الزراعية التي تعاني من التملح ب ٥٠% بسبب الإهمال لسنوات قطاع الزراعة

د. عدنان فرحان الجوارين □

أهمها غاز النتروجين الذي يؤلف % ٠٩. ٧٨. منه وغاز الأوكسجين الذي يؤلف ما نسبته % ٩٤. ٢٠. والاركون بنسبة % ٩٣. ٠. وثاني أوكسيد الكاربون بنسبة قليلة جدا لا تزيد في الهواء النقي على % ٠. ٠٣٢. وهذه الغازات الأربعة تكون في مجموعها % ٩٩. ٩٩. من حجم الهواء والهواء الملوث بالدخان وغازات الاحتراق التي ترسلها مداخن المصانع والمدافئ المنزلية وعوادم وسائل النقل ومصادر اخرى عديدة يفتقر إلى الأوكسجين وهو مضر بسبب السموم التي يحتويها فقد يتعرض الإنسان وخاصة على المدى الطويل لأمراض القصبات والرئة (التهابات رئوية مزمنة، عجز التنفس، تسممات، سرطان) ويؤثر بصفة سيئة وخطيرة في القلب والدم وقد عرف خبراء منظمة الصحة العالمية تلوث الهواء بأنه الحالة التي يكون فيها الجو خارج أماكن العمل محتوياً على مواد بتركيزات تعد ضارة بالإنسان أو بمكونات بيئته (جابر، ٢٠١١: ٧).

بدأ التلوث في نوعية هواء المدن العراقية يبدو جلياً منذ عام ١٩٩١ بعد حرب الخليج الثانية نتيجة لقصف مواقع المصافي والمستودعات النفطية ومخازن المواد

الجاف مع ارتفاع درجات الحرارة في فصل الصيف الطويل، فضلاً عن ارتفاع نسبة التبخر وانخفاض نسبة الأمطار التي تصل في أغلب مناطق العراق إلى (١٥٠) ملم.

٢ - الأنشطة البشرية: وتشمل القطع العشوائي للنباتات الطبيعية والرعي الجائر وعدم توافر أنظمة وتقنيات مناسبة للري والبزل، فضلاً عن عدم وجود أنظمة فعالة للحفاظ على المساحات الخضراء والزحف العمراني والاستخدام غير المستدام للموارد الطبيعية.

لذا فان علاج مشكلة التصحر أصبح أمراً ضرورياً للبيئة العراقية من خلال وضع خطة شاملة للإكثار من مساحات الأراضي المزروعة عن طريق استحداث المشاريع الاروائية وتقديم الدعم المادي والمعنوي للمزارعين ولمنتجاتهم وغيرها من الطرائق الكفيلة بعودة العراق الى ماكان يعرف به «أرض السواد» مرة أخرى.

ثالثاً: تلوث الهواء الجوي:

الهواء هو ذلك الجزء من الغلاف الجوي الأقرب إلى سطح الأرض والذي عندما يكون جافاً وغير ملوث فانه يتكون من عدة غازات

الغبار في العراق يحتوي على ٣٧ نوعاً من المعادن ذات التأثير الخطير في الصحة العامة، فضلاً عن ١٤٧ نوعاً مختلفاً من البكتيريا والفطريات التي تساعد على نشر الأمراض.

تلوث الهواء له آثار سلبية عديدة تشمل كل الكائنات الحية أهمها (الفاقي، ٢٠١٣):

١ - على الإنسان: تؤدي زيادة الغازات السامة إلى الإصابة بأمراض الجهاز التنفسي والعيون، كما أن زيادة تركيز بعض المركبات الكيميائية كأبخرة الأمينات العضوية يسبب بعض أنواع السرطان، ولبعض الغازات مثل أكاسيد غاز النتروجين آثار ضارة على الجهاز العصبي، كذلك فإن الإشعاع الذري يحدث تشوهات خلقية تتوارثها إن لم يسبب الموت.

٢ - يؤدي وجود التراب والضبب إلى عدم إمكان الرؤية بالطرق الأرضية والجوية، فضلاً عن حدوث صدأ وتآكل للمعدات والمباني، مما يؤثر في عمرها المفيد، وفي ذلك خسارة كبيرة.

٣ - التلوث بمواد صلبة يحجز جزءاً كبيراً من أشعة الشمس، مما يؤدي إلى زيادة الإضاءة الصناعية.

٤ - على الحيوانات: تسبب الفلوريدات

الكيميائية مما أدى إلى احتراقها فضلاً عن الحرائق والانفجارات واستخدام أنواع الوقود الرديء في وسائل النقل ثم أستمرت التأثيرات السلبية خلال فترة عقد التسعينات بزيادة أبعاد هذه المشكلة من خلال شحة المواد الاحتياطية والمعدات اللازمة للحد من التلوث الناتج عن المعامل ولصيانة محركات وسائل النقل أو لإرتفاع ثمنها وتوقف أعمال التشجير وإقامة الأحزمة الخضراء وغير ذلك، وعلى الرغم من عدم وجود قياسات فعلية للهواء إلا من المعلوم أن التلوث هو ظاهرة مرافقة لنشاط الإنسان الذي يوفر مسببات التلوث ومصادره من خلال الأنشطة اليومية المعتادة. وتتسع هذه المشكلة في حالة ضعف التشريعات البيئية الرادعة للمخالفين أو عدم إتباع الأسس العلمية عند التخطيط لاستخدام الأرض (العمر، ٢٠٠٦: ١).

وفي ظل غياب الأرقام الدقيقة عن معدلات هذا التلوث لافتقار الجهات المعنية في العراق إلى المعدات والخبرات اللازمة، صدر تقرير دولي خاص بالبيئة العراقية، أعده فريق من الباحثين الأميركيين في «مركز دراسات الحرب» في نيويورك بالولايات المتحدة الأمريكية. وأشار التقرير إلى أن

الذرية والانفجارات النووية إلى تغيرات كبيرة في الدورة الطبيعية للحياة على سطح الأرض، كما أن بعض الغازات الناتجة من عوادم المصانع يؤدي وجودها إلى تكسير في طبقة الأوزون التي تحيط بالأرض

دراسة علمية أعدتها وزارة العلوم والتكنولوجيا في العراق أفادت بأن ٨٤ ألف طن من القنابل أقيمت على مساحة ٤٠٠٠ ميل مربع من جنوبي العراق، وأضافت أن ٧ مليارات غالون من الوقود العسكري استخدمت في حرب عام ١٩٩١ و٩٠٠ مليون غالون للطائرات وحدها في تلك الحرب ناهيك عن حرب عام ٢٠٠٣. ويوجد ٢٥ مليون نغم أرضي مزروعة في العراق. وان الاسلحة الكيميائية وذخائر اليورانيوم المستنفد أدت الى خلق ١٥ موقعا ملوثا.

وأدى احتراق هذه الكميات من الوقود - حسب الدراسة - في حرب عام ١٩٩١ إلى إنتاج ٦٥ مليون طن من ثاني أكسيد الكربون وستة آلاف و٣٧٠ طناً من جسيمات المواد المعدنية و٣٨ ألفاً و٥٩٧ طناً من أكسيد الكربون و٩٨ ألفاً و٣٦ طناً من أكسيد النتروجين و٢٥٤ طناً من ثاني أوكسيد الكبريت (الحكيم، ٢٠١١: ١).

عرجاً وكساحاً في هياكل المواشي العظمية في المناطق التي تسقط فيها الفلوريدات، أو تمتص بواسطة النباتات الخضراء وأن أملاح الرصاص التي تخرج مع غازات العادم تسبب تسمماً للمواشي والأغنام والخيول، وكذلك فإن ثاني اكسيد الكبريت شريك في نفق الماشية، أما الحشرات الطائرة فإنها لا تستطيع العيش في هواء المدن الملوث وعلى سبيل المثال انقرض نوع من الطيور كان يعيش في سماء مدينة لندن منذ حوالي ٨٠ عاماً، لأن تلوث الهواء قد قضى على الحشرات الطائرة التي كان يتغذى عليها.

٥ - على النباتات: تختنق النباتات في الهواء غير النقي وسرعان ما تموت، وأن تلوث الهواء بالتراب، والضباب والدخان والهباب يؤدي إلى اختزال كمية أشعة الشمس التي تصل إلى الأرض، ويؤثر ذلك في نمو النباتات وعلى نضج المحاصيل، كما يقلل عملية التمثيل الضوئي من حيث كفاءتها، وتساقط زهور بعض أنواع الفاكهة مثل البرتقال ومعظم الأشجار دائمة الخضرة، وتساقط الأوراق والشجيرات نتيجة لسوء استخدام المبيدات الحشرية الغازية.

٦ - على المناخ: تؤدي الإشعاعات

سكان البصرة و١٤% من سكان ميسان
بأمراض السرطان، ونبه الباحث المهندس
الفيزيائي خاجاك فروير وارتانيان - بيئة
محافظة البصرة - إلى أن السنوات الأربع
الأولى منذ سقوط النظام السابق، شهدت
ارتفاعاً ملحوظاً في حالات الإصابة بمرض
السرطان الصلب في البصرة، مسجلة ٦٢
حالة، في حين أن هذه النسبة لم تتجاوز الـ
٣٥ حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة عام ١٩٩٧
(المقدادي، ٢٠٠٨: ١).

لذا فإن مشكلة تلوث الهواء تعد تحدياً
كبيراً يواجه العراق وعلى وزارة البيئة والوزارات
المختصة الأخرى إيجاد السبل الناجعة
لمعالجة هذه المشكلة والحد منها ومن
أضرارها على الفرد العراقي والبيئة المحيطة
به.

وقد أظهرت بعض الدراسات حول
أمراض السرطان في مدينة البصرة أن نسبة
أمراض السرطان ارتفعت في السنوات
الماضية من ١١ حالة عام ١٩٨٨ إلى ١٢٣
حالة لكل ١٠٠ ألف نسمة عام ٢٠٠٢. وبينت
الدراسة التي نشرتها وكالة (ايرين) للأنباء
التابعة للأمم المتحدة إن حالات الإصابة
بالأورام وسرطان الدم لدى الأطفال تحت
سن ١٥ عاماً ارتفعت ٣ أضعاف منذ عام
١٩٩١ وارتفعت الإصابات في المناطق التي
استخدمت فيها أسلحة اليورانيوم، وفي عام
٢٠٠٤، توصل باحثون وممثلو ٤ وزارات هي:
الصحة، البيئة، الصناعة، والعلوم
والتكنولوجيا، شاركوا في ندوة علمية مشتركة
حول التلوث الإشعاعي، إلى أن تلوث البيئة
العراقية بالإشعاع سبب إصابة ٥% من
الولادات الحديثة بالتشوهات، و١٢% من

ملف العدد

الثقافة الإسلامية

الخصائص والمرتكزات والأبعاد الحضارية

١. الثقافة الإسلامية «قراءة في المفهوم»

٢. خصائص الثقافة الإسلامية

٣. مصادر الثقافة الإسلامية

٤. الثقافة الإسلامية والتقدم

٥. الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى

الثقافة الإسلامية قراءة في المفهوم

د. السيد ابراهيم الجعفري

مفكر وباحث إسلامي

رئيس وزراء العراق سابقاً، ووزير الخارجية الحالي

مقدمة

قد لا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن النشاط الإنساني الفكري بكل ما يحمل من تفاصيل تُختصر في لفظة (الثقافة)، ولكن يتعذر علينا ان نختصر مفهوم (الثقافة) عينه، وإن الإنسان يمكن أن يقترب منه ولكن من المستحيل أن يطاله، فذلك أشبه بمحاولة مسك الهواء، ومع كل هذا لا بأس بشرف المحاولة في أن نكون مثقفين، وهذه الحقيقة يقرّها القرآن الكريم حيث يقول الله تعالى شأنه: «وفوق كل ذي علمٍ عليم».

فبين ذي العلم والعلم مسافة شاسعة على الإنسان أن يسير فيها، ويحدث نفسه بأن يقطعها بكل ما أوتي من شهييق وزفير؛ ليصل إلى (أناته المدركة) ويحقق (الفوقية الدنيا) على أقل تقدير. وتجدد الإشارة إلى ان مفهوم «الحضارة» يتداخل مع مصطلحات أخرى في معظم اللغات العالمية ففي اللغات الأوروبية يُستخدم لفظان للدلالة على معنى الحضارة هما (culture)

التي سنتطرق إلى بعض جوانبها في ما يرد من حديث...

المحور الأول: أهمية الثقافة

«كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون»^(١).

لما كان هذا الحديث مع الشباب هو أول الأحاديث، فقد كان من الطبيعي أن نتناول في هذا البحث (المحاضرة) مبررات التأكيد على الثقافة العامة، والثقافة الإسلامية خاصة، حتى يتم التعامل مع ما يُطرح فيها من أفكار ومعارف على هذا الأساس.

قبل الحديث عن أهمية الثقافة؛ لا بُدَّ من أن نحدد معنى الثقافة؟ في اللغة: (تقف الشيء ثقفاً. حَذَقَهُ. ورجل ثقف وثقف.. حاذق فهم.. وثقف الشيء سرعة التعلم.. وثقف الرجل ثقافة أي صار حاذقاً خفيفاً.. ومنه المثاقفة.. غلام لقن ثقف أي ذو فطنة وذكاء، المراد منه أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه^(٢).

في الإصطلاح: (هي مجموعة العلوم، والفنون، والمعارف النظرية، التي تؤلف الفكر الشامل للإنسان؛ فتكسبه أسباب الرقي

و(civilization) ويبدو انهما قد مرتا بتطورات متشعبة في المفهوم لسنا بصدها هنا.

بيد أننا لا بدّ من أن نحدد المفهوم الذي يدور في نطاقه حديثنا الآن... فالثقافة (culture) مأخوذة من اللاتينية، ودلالاتها في العصور القديمة والوسطى مقصورة على معنى مادي هو (تنمية) الأرض ومحصولاتها، وتطورات في العصور الحديثة لتشمل مدلولين مادياً وعقلياً، كما تطورت مرة أخرى في القرن الثامن عشر؛ فأصبحت تدل على تنمية العقل والذوق، ثم إلى حصيلة هذه العملية أي المكاسب العقلية والأدبية والذوقية التي نعبر عنها بلغتنا بلفظ (الثقافة) و(المدنية) أحياناً، ولا يزال هذا المعنى هو السائد في اللغات الغربية، ومفهوم «الحضارة» لدينا هو المعنى الواسع والحقيقي الذي يتناول حياة الإنسان بأجمعها ليس بمظاهره الخارجية حسب، بل كذلك وبالدرجة الأولى نظم تلك الحياة وبرامجها الروحية والعقلية؛ لتطوير تلك الحياة، وإعلائها باستمرار طبق المبادئ والقيم الإنسانية، الثوابت فيها والمتغيرات.

وهذه هي خصائص حضارتنا وثقافتنا

كتلك التي تحصل في عمر الكهولة، وتتفاهم في الشيخوخة. كما أنّ خلوّ الذهن من أفكار ناضجة ومرتسخة، لدى الشباب هو الآخر يساعد في عملية التثقيف والتعاطي الثقافي.

إنّ الانضوج الذهني لدى الشباب لا يعني بحال نقصاً تكوينياً في شخصيته، وهو في مرحلته المبكرة، خصوصاً وهو يحمل استفهامات كبيرة حول كل ما يدور حوله من أمور، وفي شتى مناحي الحياة؛ في العقيدة، وفي الأخلاق، وفي السياسة، وفي الاجتماع... وهو ليس عاجزاً عن البحث عن الاجوبة، وعمّا يدور برأسه من تساؤلات، ولا مستسلماً لأيّ جواب. وإنّ جانب الحقيقة، وابتعد عن الدليل والبرهان، ولا مكابراً عما يستجد من دواعي المراجعة فيما يحمل من أفكار، وما يمارس من سلوك.

التربية هي الهدف الأساس من الثقافة؛ لذلك نجد القرآن الكريم يقدمها على التعليم «ويُزَكِّمُكُمْ وَيُعَلِّمُكُمْ» على الرغم من أنّ التعليم مقدّم على التربية، من حيث التسلسل بالتأثير، والوقوف على مفاهيم العقيدة، ومعاني الفضيلة والخُلُق، والتعرف على أحكام الشريعة الإسلامية، غير ان التربية هي الهدف وهي القيمة الحقيقية التي

والتقدم والوعي^(٣).

الثقافة الإسلامية في الاصطلاح هي: مجموعة المعارف، والتصورات، والعلوم النظرية التي تدور في فلك الإسلام لتنبثق عنها فكرة شاملة عن الكون، الإنسان، والحياة، والتي تؤثر في الفرد والمجتمع فتضفي عليهما طابعاً شخصياً^(٤).

(الثقافة الإسلامية على أساس أنها المفاهيم الصحيحة عن الله، والكون، والإنسان، والحياة... عن الله كخالق، وشارع للاحكام، والحدود، والأخلاق، وعن الكون كمسخر للانتفاع الإنساني، وعن الإنسان كمُستخلف في الأرض لاستعمار الكون، ومسؤول عن تصرفاته الحسنة والسيئة، وعن الحياة كمجال للعمل الإنساني على أسس اسلامية)^(٥).

وها نحن الآن نتعرض لأهمية الثقافة للشباب:

١- ثقافة التأسيس على المُسَلِّمات المبرهنة.

لا يخفى على أحد أنّ شخصية الشباب تمتلك من المرونة ما يجعلها مؤهلة لتقبل ما تحتاجه من المفاهيم من دون أيّ صعوبة

يستهدفها العلم والثقافة.

ونظرية «داروين»^(٧)، ومدعى «رينان»^(٨)، في أفضلية الجنس الأوروبي على باقي الأجناس: (جنس واحد بلد السادة والباطال هو الجنس الأوروبي، فإذا ما نزلت بهذا الجنس إلى متسوى الحضائر التي يعمل فيها الزوج والصبينون فإنه يثور؛ فكل ثائر في بلادنا هو بطل لم يتحل له ما خلق له، هو انسان ينشر حياة البطولة فإذا هو مكلف بأعمال لا تتفق وخصائص جنسه، إنَّ الحياة التي يتمرد عليها عمالنا يسعد بها صيني أو فلاح أو كائن لم يخلق لحياتنا^(٩) .

الشاب يريد أن يدشن عقله بكل ما يعتبره العقل، والعقل وحده، وقيم له وزناً، انه مسلمة عقلية؛ فهو غير مستعد لأن يجعل عقله عقل انعكاس «المُسلّمات غير المبرهنة»، بل يريد كما أراد له الله (تعالى) عقل «المسلّمات المبرهنة»، عملاً بالقرآن الكريم:

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين»^(١٠) .

٢- غياب أو ندرة (النموذج الإسلامي)

وهذا ما نلاحظه في شتى المجالات الاجتماعية، بسبب ما اعترى الاوساط

إنَّ (ثقافة التأسيس) بالغة الأهمية؛ لأنها القاعدة التي تُشاد عليها الكثير من التصورات، والمفاهيم اللاحقة في الأخذ؛ كما أنها تمتزج بشكل شعوري ولا شعوري في عواطفه، وإذا ما تعمقت فيه وأخذت طريقها الى وعاء مشاعره، يصبح من الصعب عليه أن يتجرد عنها، من دون دليل قوي ومعاونة بالغة؛ إنَّ موعد التثقيف في مجال العقيدة خاصة، لا يمكن ارجاؤه عن فترة المراهقة بالذات، لأنه يأتي على موعد مع التساؤلات الكبيرة، والحادّة، التي تتولد من تكامله الذهني في هذه المرحلة، حين يكون طابع المراهق في التلقي على أساس (التلقي بالافتناع)، بدلاً من (التلقي بالتلقين) الذي كان عليه في مرحلة الطفولة.

من هنا لم يكف من السهل تقديم أي فكرة للمراهق على أساس انها صحيحة، لأنها (مسلمة شخصية) كالإنسان ابن بيئته! أو (مسلمة عائلية) كالمحابة بين الجنسين! أو (مسلمة عرفية) كحشر مع الناس عيد، أو حتى (مسلمة علمية)! كمدعى «فرويد»^(٦) في تفسير السلوك الإنساني على أساس الغريزة الجنسية!

أمة تسمح لنفسها بأن تعيش الاقتتال بين ابنائها، والخنوع مع الاعداء! أمة تهجر العلم، الذي جعله الله مقياساً للتفاضل: «قل هل يتسوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون...»^(١١).

الامة اليوم تعيش في بعض جوانبها على «تخريف العقل»! حين ترضى لنفسها أن تتخلى عن الإسلام المعرفة والعلم والقيم، ويفتك بها كل ما لم ينزل الله به من سلطان. فمن أين جاءت النعرات القومية، والقبلية، والطائفية، ومتى سادت قيم الجاهلية، بدلاً عن القيم الحققة! يمثل هذه الاجواء ينشأ اليوم جيل من الشباب، يفتقر فيه إلى الانموذج الصالح، الذي يصلح للاقتداء، ويحتل موقع التوجيه والريادة؛ هذا يجعل الشباب امام مسؤولية تقصي الانموذج الصالح ممن يطبق الشريعة الصحيحة وليس فقط من يتحدث بها من المربين فقهاء أو مفكرين وكل واحد من هؤلاء لا يمثل الرسالة بمستوى الكمال فذاك هو المعصوم والمعصوم وحده.

٣- الجواب على (إثارات اوساط الغرب)

إنّ طبيعة معظم الاوساط الغربية مشبعة

الإسلامية من عادات وتقاليد وأفكار لا تمّت إلى الاسلام بصلة، (وهذه ليست جديدة)، فقد اقترنت هذه الظاهرة مع المسيرة الإسلامية منذ عصر الفتوحات، ومثلما امتدت الدولة بهيمنتها على بعض البلدان، امتدّ الفكر المضاد من تلك البلدان إلى المسلمين، ليشكل تحدياً لما يعتقدون؛ ما استدعى ولادة علم يتكفل بالدفاع عن العقيدة، ويوجب عن كل ما يثار حولها من شبهات، فكان (علم الكلام).

وها هي ساحة الأمة تشهد ابتعاداً عن المفاهيم العقيدية الحققة، والقيم الدينية؛ ما جعلها تتخبط في دياجير الجهالة، وترزح تحت نير (الاستعمار)، فتمزقت اوصالها، وصودرت خيراتها، ولم يكن امامها خيار غير خيار الإسلام، الذي يمثل سرّ قوتها.

بمثل هذا الجو الاجتماعي، يفتح جيل الشباب على واقع المسلمين الممزق، ليرى الكثير من العادات والتقاليد، مما لا يمت إلى الإسلام بصلة، كما يفتح على «فكر التكفير»! الذي يحكم على كل من يحمل وجهة نظر مخالفة! يفتحون على أمة تلتقي على رسول الله ﷺ العاطفة والتراث والعبادة، وتختلف عليه فكراً وسيرة.

اي تطور علمي أو حضاري، جاء في الرسالة، الجُرم على كل الذين يقولون ان الحبر الاعظم (البابا) الروماني بإمكانه، وعليه أن يتصالح ويتفاهم مع التطور، والحريّة، والحضارة الحديثة^(٢١).

مثل هذه المجتمعات، التي استمدت نظرتها على خلفية سيئة عن الدين، بمثل هذه الخلفية، وانتهت الى قرار الفصل التكد بين الدين والحياة، لا يتوقع لها أن تنظر للدين، والمتدين أكثر مما هو انسان غير واقعي، لا يصلح لإعمار الحياة من كل جوانبها الاجتماعية؛ غير أنّ عالم الغرب على الرغم من نظرتة القائمة للدين، يزخر بشرة علمية على الصعيد الاكاديمي، وتطور مشهود في الانظمة الحياتية المختلفة، على الصعيد الثاني، وآليات لاحترام حق المواطن على الصعيد الثالث.

فالشاب القاطن بمثل هذه الاوساط الاجتماعية لا بدّ من أن يعي هاتين الحقيقتين، حقيقة النظرة للدين وحقيقة النظرة اليه على هذه الخلفية، ولذلك يكون بحاجة إلى ثقافة اسلامية أصيلة لبناء حياته من جانب، وثقافة موضوعية عن الوسط الذي يتحرك فيه، حتى يعرف من موقع

بالاتهامات ضد الديانات عامة، والاسلام خاصة، باعتبارها أوساط علمانية ناهضت المؤسسات الدينية (الكنيسة) منذ زمن بعيد، وهدمت كل الجسور الممتدة بين العلم والإيمان؛ فقد ودّعته من حين استعرت المعركة بين الكنيسة، وباسم الدين - والعلم وما اودت تلك الحرب الظالمة بحياة خيرة العلماء من المخترعين والمكتشفين.

إن رجال الكنيسة هم الذين أمروا بضرب «برينللي» بالعِصِيّ لانه قال إنّ النجوم لا تقع، وهم الذين أخضعوا «كامبانيا» للاستجواب لتأكيد على لا نهائية العوالم وتلميحه لسر الخلق، كما أنهم هم الذين اضطهدوا «هارفي»^(١٢) لبرهنته على أنّ الدم يجري في الجسم؛ وباسم المسيح قبضَ على «غاليلو»^(١٣)، وباسم القديس «بولس» سُجِنَ (كريسوف كولومبس)^{(١٤)(١٥)} فاكتشاف قانون السماء كان كفرةً واكتشاف العالم كان هرطقة^(١٦)، والكنيسة هي التي ألقت الجُرم على «باسكال»^(١٧) باسم الدين، وعلى «مونتين»^(١٨) باسم الاخلاق، وعلى «موليي»^(١٩) باسم الأخلاق والدين^(٢٠)، وبلغت المشكلة ذروتها عام ١٨٦٤ م عندما اعلن البابا (Syllabus) قراره بعدم مهادنة

الإسلام في الزواج، والحجاب، وإحياء الشعائر، وممارسة بعض العبادات ذات الطابع العام...

فما لم يضع الشاب نصب عينه مهمة صناعة مثل هذا الواقع؛ سينعكس سلباً على الكثير من الآباء وأبنائهم، وبسيء إلى سمعة الإسلام، ويجعل الإسلام في ضمير كل إنسان مجرد فكرة، وعاطفة؛ ما يعطل طاقته الحركية في بناء الحياة، وتصبح المقارنة بين ما يحمله ويتعامل مع الواقع غير الإسلامي، في حالة غير متكافئة يعيش فيها اسلاماً غير واقعي، في واقع غير اسلامي، لا ينكر أحد شعور البنت المحجبة في وسط المدرسة، وهي تسبح في بحر اجتماعي يتعاطى السفور، ولا تجد في الحجاب إلا أنها فكرة آمنت بها، وتفاعلت من عمق احساسها معها، وراعت فكر واحاسيس أهلها، غير ان هذا كله لا يضيف على مفهوم الحجاب بعداً واقعياً، ما لم ترّ البنت بعض اخواتها يتعاطين الحجاب ذاته، وإن لم يكن من حيث الكم، عددهن قد بلغ ما يبلغه الوسط الآخر، فهن لا يصلن في بلد المهجر، مثلاً مستوى المجتمع الملتزم، ولكن يمكن أن يحققن مستوى التجمع الملتزم.

الوعي، ما هو «المقبول» وما هو «المرفوض» من هذه الاوساط؛ ليتسنى له من موقع الوعي رفض ما ينبغي رفضه، وقبول ما ينبغي قبوله، في اجواء عاطفية يتطرف فيها الكثير من القانطين بحيث يقبل بعضهم بما ينبغي رفضه من سوء العادات وقبيح التصرفات، أو يرفض ما ينبغي قبوله من آليات التنظيم واحترام الزمن واعتماد مبدأ التخصص الاعمال...

٤- بناء الواقع الاسلامي

لا ينبغي ان يقتصر الحديث مع الشاب على أساس بناء شخصيته وحسب، أو التوسع إلى أفراد أسرته ليس إلا، على ما لهذا الهدف من أهمية بالغة من دون أن يضطلع بدور المساهم الاساس في بناء التجمع الإسلامي الذي يمثل الانموذج المتحضر، والوسط الصالح للتعاطي مع كل الأفراد.

إن الإسلام دين عملي يستهدف بناء واقع المسلمين من كل الجوانب، ولا يمكن ان يتأتى مثل هذه الاهداف من دون أن تتظافر جهود الشباب كلها. إن واقعية الاسلام تتمثل بتجسيد أحكامه من زاوية اجتماعية في الكثير من الجوانب كنظرية

الاساس حركة شباب^(٢٤).

٥- مهمة حماية الإسلام

إنَّ ما يتعرض إليه الاسلام على مستوى العقيدة، والنظرية، والمشاعر، والمقدس، يستدعي من الشاب ان يتزود بأعلى ثقافة اسلامية، يجدر بها ان تقاوم التحديات الفكرية، وتنهض بمهمة تجلية الوجه المشرق للاسلام على الرغم من كل محاولات التشويه التي تسهم فيها الحملات المضادة للاسلام، ويروج لها بعض الجهّال، والمندسين، والمتحللين من ابناء الأمة.

وحيث إنَّ مثل هذه الدعوات المضادة تتلبس بلباس العلم، والفن، والحوار الموضوع، فإن رداً على هذا المستوى من الهجوم لا بُدَّ من أن يكون من موقع ثقافة الاحاطة بكل ما يثار بوجه الاسلام من تساؤلات، ويعتمد مبدأ الرد بالحجة، والبرهان:

«قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

ولا يعاني الإسلام من أزمة في أي شأن من شؤون الحياة، أو الرد على شبهة تثار حوله، إنما المشكلة تكمن في افتقار ابناء المسلمين للإمام بالفكر الاسلامي، وما فيه

عندها تكون المقارنة بين واقعين: واقع اسلامي، وواقع غير اسلامي؛ ما يمنح الملتزم زخماً من الثقة لا يتأتى له من موقع الانفراد، وهنا ومن أجل تحقيق هدف كهذا، لا بدّ للشاب من ثقافة تؤهله للنهوض بمثل هذا الدور، ولا شك في أنّ الشاب يمتلك مثل هذه القدرة؛ فقد قال رسول الله ﷺ: (لقد بعثني الله بالحنيفية السمحة، فخالفتني الشباب، وخالفتني الشيوخ).

وعن الامام الصادق عليه السلام للأحول: (أتيت البصرة؟ قال: نعم، قال عليه السلام: كيف رأيت مسارعة الناس في هذا الامر ودخولهم فيه؟ فقال: والله انهم لقليل، ولقد فعلوا ذلك وإن ذلك لقليل، فقال: عليك بالأحداث، فإنهم أسرع إلى كل خير)^(٢٢).

وقد فرضت هذه الحقيقة حقيقة دور الشباب في التلاحم مع الاسلام وحمل لوائه، على التاريخ الاسلامي بحيث انعكس ذلك على الكتاب والمؤرخين فقد جاء في كتاب «محمد في مكة» لـ «مونتغمري وات»^(٢٣) وهو يقول: (لقد انتمى الى الاسلام شباب، ينحدرون من أفضل العائلات، وأشهر القبائل، وإنَّ أهم فكرة نستخرجها من تاريخ المسلمين الأول، هو إنَّ الاسلام كان في

في مآمن من الوقوع تحت طائلة العقوبة القانونية.

يقول (نيتشه) الفيلسوف الألماني المعروف الذي روج لليهود لأفكاره، وأخلاقياته: (إذا استطعت أن تخرق القانون... بحيث لا تقع تحت طائلته فافعل بشرط أن تكون ذكياً فلا تنالك عقوبته - أي اقتل، أو اسرق، إذا استطعت ان تتجو من مؤاخذة القانون.. فالمانع إذن هو القانون لا الاخلاق، وهذا هو الفرق بين أخلاقهم واخلاقنا، وحضارتهم وحضارتنا...!)^(٢٥)، ومن البديهي ان الثقافة والادعاءات، مهما بلغت من القوة، لا تؤدي الغرض المطلوب مثلما يؤديها التجسيد الحي الذي يلمسه الآخرون.

٦- الحوار الحضاري

ونريد به اعتماد مبدأ الحوار القائم على أساس ابراز الفكر الإسلامي من موقع المشافهة نريد بالحوار الحضاري مبدأ الممارسة التطبيقية مع ابناء الحضارات الاخرى من موقع استيعاب المفردات الحضارية، الانسانية، المختلفة واليهي، والتي تجعل من الإنسان قيمة عليا يلتقي فيها الإسلام مع كل الحضارات الإنسانية..

من نتاج زاخر يغطي كل مجالات الحياة. إن محاولات تشويه الصورة الإنسانية للإسلام للحيولة دون جعله الطرف الاكفأ لحل المعضل البشري، وحلول الشقاء في شتى مناحي الحياة، وهو ما يجعل الشاب المسلم الذي يعيش أجواء غير إسلامية أمام مهمة عينية في طرح الإسلام الإنساني على حقيقته، وليس كما صورّه اعداؤه أو بعض المتطرفين من ابنائه.

لقد حاول الكثير من أعداء الإسلام تصويره على أنه دين يسمح لأبنائه: بالتمرد على كل ما من شأنه تنظيم الحياة، من قوانين أو تعليمات.. في الوقت الذي يهتم الإسلام فيه بتقوية الدوافع الذاتية التي تبعث المسلم من داخله على الالتزام بعيداً عن رقابة القانون، التي تعجز عن النفوذ إلى عمق الإنسان الداخلي كما توجد فيه قابلية الردع الذاتي التي تكفه عن إلحاق الضرر بأي إنسان: يقول أمير المؤمنين عليه السلام: (أوصيكم بتقوى الله ونظم أموركم).

بينما نجد المواطن في الدول الغربية عموماً يتقيد بالقانون، لكنه يستثمر أحياناً الفراغات القانونية، أو غفلة الجهات التنفيذية المعنية بالتطبيق، لتحقيق مصالحه ما دام

الآخري، وانها كانت صاحبة السبق في منح الامن لكل من يعيش في كنفها، وأنهم دخلوا في ذمة الإسلام، إن هذا يعكس أن المجتمع المدني يقوم من وجهة نظر إسلامية على أسس إنسانية، ما يجعل الانسان يعيش حراً في ظل الإسلام، بما لا يتاح له في ظل أي نظام آخر، قد يتهدد امنه، وسلامته، ومصيره لأتفه الأسباب.

التعاطي الحضاري من وجهة نظر بعض الدول الغربية، يعني حواراً لتحقيق مصالح، وإذا اعتقدت ان مصالحها قد تضررت فلا تألوا جهداً من أجل إعادة النظر بكل تلك المُدعيات، بحيث تبدأ الحرية بالتراجع، أو الزوال، والحوار بالاحتراب، وحقوق الانسان بالانتهاك، ومساعدة الدول الضعيفة بالهيمنة عليها، والتحكم بخيراتها.

المراجعة الموضوعية، لمسيرة الإسلام في التعامل مع ابناء الديانات، الآخري يفضي الى حفظ حقوقهم، وصيانتها من اي انتهاك، مهما كان السبب.

إنّ الإسلام دين يخاطب قلوب الناس، وعقولهم، ويكرمهم من دون ان يسمح بانتهاك حقوقهم، بل إنّه يبني المجتمع على أسس إنسانية، كل هذا الذي غاب عن وعي

إنّ هذا الدور - عادة - لا ينهض به إلا من كان له باع طويل في فهم الإسلام، وفهم الحضارات الآخري، وفهم المشتركات بينها، واجادة الاسلوب المناسب في إدارة الحوار من دون أن تتحول عملية الحوار الى صراع، او غلبة المادي القوي لتحقيق هيمنة ما على بني الانسان مهما كان مبررها.

إنّ الحضارة الإسلامية وفي أوج ذروتها ظلت انسانية، والمتتبع للتأريخ لا يجد ثمة صعوبة في ادراك ثلاث ظواهر، ظاهرة الامتداد بالمسلمين إلى كل بقاع العالم عبر التأريخ من دون أن يذوب في ممارساتها الشاذة، بل يتعامل معها بكل ثقة، من دون أن يسجل إساءة إلى المجتمع، أو انتهاكاً لحرمة.

والظاهرة الثانية هي الامتداد بالدولة الاسلامية إلى مناطق متعددة من المجتمعات البشرية؛ لتمد من خلال ذلك العلم، والمعرفة، والعدل، من دون ان تعاني تلك الشرائح الاجتماعية من عنت أو ضيم، بل انها عاشت ربيع عمرها، وذروة ازدهارها على الاطلاق.

والظاهرة الثالثة هي احتضان المجتمعات والدولة الإسلامية لأبناء الديانات

الرقبي المادي الذي حققه، والتقدم الصناعي الذي أحرزه.

وهذا ما يفسر نقشي الشقاء، وانتشار الجرائم، وانعدام العدل في أغلب مجتمعات عالم اليوم.

يبقى أن نقف على أبرز الميزات التي اتصفت بها الثقافة الإسلامية:

١ - المعنوية: تقصد بالمعنوية: أو الفهم المعنوي للحياة، هو أن ينظر الانسان للحياة من خلال ارتباطه بالله (تبارك وتعالى)، وعموم الرابطة الغيبية التي تطلق العنان للروح، كي يدرك الإنسان بواسطتها المعنى الحقيقي للحياة، دون أن يكون حبيس الحواس، وأسير النزعة المادية.

ان الفهم المعنوي للحياة من شأنه أن يمنح المرء رؤية واقعية، يجمع فيها بين معطيات المادة الحسية والحقائق الغيبية، التي يكشف عنها الدليل النقلي المعتمد - بالقرآن الكريم والسنة المطهرة - وما يلقاه من تجاوب فطري ينبع من أعماق النفس الإنسانية.

ان مثل هذا الفهم هو الذي يتولى تحريك الانسان من داخله، ويعمق فيه الشعور بالرقابة الذاتية المرتبطة بالحضرة

الكثير من المسلمين، فضلاً عن غيرهم بسبب ما يعاينه من تضليل من أعدائه من جانب، وبعض الممارسات الشاذة، التي يمارسها باسم الإسلام بعض أبنائه من الجانب الآخر، هذه المهام تتطلب ثقافة عالي ترتقي إلى مستوى الأصالة.

المحور الثاني: ميزات الثقافة الإسلامية المدخل:

تستمد الثقافة الإسلامية ميزتها من ميزات الرسالة الإسلامية، من حيث المنشأ؛ كما أنها تنطبع بطابع الشخصية الإنسانية التي ستعنى ببنائها على مستوى الفرد، والأسرة، والمجتمع، في مجالات الحياة كافة من حيث الهدف، نظراً للترابط العضوي بين الرسالة وبناء الإنسان، وإعمار حياته، وتشديد حضارته.

لقد تجسدت تلك العلاقة في بناء المجتمع الإسلامي الأول، كما تجسدت مع كل بادرة تطبيق إسلامية صحيحة بحسب الدائرة التي مُورست فيها الرسالة، وزخرت الحياة بمفاهيمها وأحكامها، كما أن الوجه الآخر من الحرمان بسبب عدم التطبيق قد ترك بصماته على حياة الناس على الرغم من

الإلهية، التي لا يغيب عنها شيء في النفس الإنسانية:

«يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور».

ان هذا الشعور المعنوي العارم ومن جزاء هذا الفهم يعطي البذل والتضحية وكل معاني الخير مذاقاً خاصاً لا يحسّ بطعمه الإنسان المادي، هذا الشعور هو الذي يحوّل الوجود من حوله إلى ساحة عطاء تتجاوز أسوار المادة وتهذب آليات (الأثنا).

ان هذا ليس مجرد عقيدة، أو احساس، منقطع عن التعامل اليومي الذي يمارسه الانسان مع نفسه وأهله ومجتمعه، فالامانة، وحسن الظن، والتوكل على الله، والدعاء، والصدق في الحديث، وكل ما يمت للخير بصلة يرتكز على قاعدة «الفهم المعنوي»، وبما يستقيم في مسارات التعامل كافة، فانبعائه لاعطاء الحقوق المالية، وبذل الصدقات، وحسن الجوار، وصلة الرحم، وحفظ السر لمن يآتمنه، والتعفف عن كل محرم، وما إلى ذلك من مفاهيم، لا يخرج عن تأثير هذا الفهم، على الرغم من غياب الرقابة القانونية، والاجتماعية، وحتى الأسرية عنه أحياناً، وبدونها يفقد كل ذلك السلوك مبرره، ويكون عاجزاً عن التفسير.

لقد تسنم الاقتصاد الاسلامي رتبة متقدمة في مجال التعاطي مع متعلقه من الملتزمين، حين ينطلقون لدفع ما بذمتهم من حقوق وينأون بأنفسهم عن أي غش أو تدليس بعيداً عن الرقابة الحكومية ليتأكد فيهم الدافع المعنوي.

٢ - **الربانية:** ان الثقافة الإسلامية تؤكد على ان الله (تبارك وتعالى)، هو الخالق، والمشرع، والمربي، وعليه فان الخالق الذي أحاط بمخلوقاته من كل جانب، لا يمكن ان يتصور ان يستغنى عن أحكام شريعته، أو يستعاض عنها كلياً بثقافة البشر وبتجار بهم.

ان ما تكشفه التجارب الثقافية في الحياة من تفاوت بالافكار والقوانين، من بلد إلى آخر، وفي البلد الواحد من زمن إلى آخر، يجعل الظلم طابعاً عاماً على كل بني الانسان عبر التاريخ.

لا نريد بهذا إلغاء التجربة من حياة الانسان، أو حتى التقليل من أهميتها، فقد قال الامام علي عليه السلام:

(العقل عقلان، عقل الطبع وعقل التجربة وكلاهما يؤدي إلى التجربة).

انما الذي نريد تربيته، هو أن العقل التجريبي بمقدار ما يوصل الانسان إلى

ان تغطيه بالأحكام:

«لا تخلو واقعة الا ولله فيها حكم».

وهي انما تناولت حياة الانسان بالشمول ليتحقق فيها الانسجام في السلوك، حين يطبق احكام الشريعة من الناحية العملية، تماماً كما تنسجم مفردات الشريعة داخل إطارها من الناحية النظرية.

ففي كل ميدان يلجئه المرء، وفي كل مرحلة من مراحل حياته، ومع أي مفردة من المفردات التي يتعاطى معها، يجد منظومة من الأحكام الشرعية، تلزمه بالتعامل على ضوء ما يريد الله (سبحانه وتعالى).

ففي مجال بناء الشخصية، صبّت الشريعة اهتمامها على عناصر تكوينها - روحاً، وعقلاً، ونفساً وخلقاً، وبدناً - وواكبته في مجال العلاقة الزوجية والأسرية عموماً، وكذا الحال في المجال الاجتماعي، والسياسي، لتتكفل ببنائه بناءً إسلامياً سليماً، ينعم بالأمن هو، ومن يدخل في حياته، أو يقع تحت تأثيره.

ان ما تعاني منه المجتمعات البشرية من ويلات ومصائب وحروب يرجع في أسبابه إلى غياب شرع الله عن التطبيق، لتسود بدلا عنه شرعة الانظمة الوضعية في الغالب،

الحقيقة في مجالات الحياة المادية، ويمضي به إلى مديات بعيدة في المجالات كافة كما هو اليوم، وقد اقتحم الانسان عالم الفضاء، وتوغل إلى أصغر وأدق المخلوقات المجهرية، لكنه ليس كذلك في فهم العقيدة والحياة المعنوية.

السعادة لا يمكن ان تنال من دون عقيدة بالخالق، ومن دون الاذعان إلى شريعته بصفته رباً، وأنه (سبحانه وتعالى) يبعث الوحي لرسله، حتى يوصلوه لعباده، ولا يمكن أن يتصور ان احكامه (جل شأنه)، عرضة للخطأ، او انها رهينة التجربة. ان الربانية تقتضي الربط بين ما يحتاجه الانسان في كل جوانب شخصيته على صعيدي الدنيا والآخرة، وهو ما تكفل الاسلام به عقيدة وشرعية:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَنْزَلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ﴾

٣ - الشمولية: لم تترك الشريعة الإسلامية مجالاً من مجالات الحياة دون

والتي يتحكم فيها القوي بالضعيف.

ان شريعة الخالق، لم تقتصر على مجالات تعامل الانسان مع الانسان وحسب، بل امتدت لتشمل التعامل مع الحيوان، فتحرم قتله من دون مبرر وتوصي بالرفقة به، كما انها لم تبح - مثلاً - صيد الحيوان لمجرد اللهو.

الاكثر من ذلك، فقد أمرت الشريعة بالتعامل مع الموارد الطبيعية بشكل متوازن ونافع للانسان، من دون ان تظال يد العبثية في الإسراف والإتلاف اليها.

لقد أوصت الشريعة كذلك بالاهتمام بالزرع فقد جاء على لسان الرواية:

(ارحموا عمتمكم النخلة).

ان الشمول في الشريعة لا يدع مجالاً من المجالات الا ويغمره بالسعادة وافشاء العدل، في مناحي الحياة كافة بما فيها الحكم والسياسة، حيث يقول (تبارك وتعالى)، في محكم كتابه العزيز:

«ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... هم الظالمون... هم الفاسقون».

«ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما

أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطَّاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلَّهم ضلالاً بعيداً».

٤ - العالمية: الاسلام خاطب كل بني

الانسان، من دون تمييز في اللون، أو الجنس، أو اللغة، أو القومية والطبقة، فهو لا يقر مزاعم اليهود، الذين يدَّعون انهم شعب الله المختار، أو ادعاءات الماركسية بمشروعية دكتاتوريتها طبقة العمال! أو بأساطير الفرس الذين قالوا بقداسة أرضهم! أو افتراءات الرأسمالية بسيادة الانسان الابيض على غيره! وان تغير بعضها الان.

لقد خاطب الاسلام الناس كافة:

﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً

ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

وقد استجاب لركب الاسلام نماذج مختلفة من بني الانسان، فمنذ الشوط الاول اصطف سلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وبلال الحبشي، الى جانب المسلمين العرب، وها هم ابناء الاسلام في كل مكان من أرجاء المعمورة، لا يحدهم شيء، ولا يحول دون ترديد هتافهم الاسلامي الخالد حائل، عملاً بقول الله (عزَّ وجلَّ):

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

البشرية الموعول في استقبال الجديد. ان الشريعة الإسلامية قد ضمت في ثناياها أحكاماً تخاطب الانسان في كل مجالات حياته من دون استثناء، واذا كانت عناصر التكوين الثابتة في الشخصية تطلبت أحكاماً ثابتة لم تتبدل كتلك التي حددت صلاته، وصومه، وأحكام زواجه، والكثير من عناصره الثابتة، فان العناصر المتغيرة من شخصيته، هي الاخرى تطلبت مراعاة الشريعة لها، من خلال الأحكام المرنة التي تواكب المتغير في حياته وظروفه.

أحسب ان مسألة الثبات في الشخصية أمر واقع حتى على الصعيد التكويني الطبي، الذي يفرض حقيقة الأكل والشرب، ومواجهة الطبيعة، وتقلبات الطقس، وهو ما يتطلب أنظمة طبية تراعي في ثوابتها ثوابت الجسم، وفي متغيراتها متغيراته. ان الحج تكليف ثابت في ذمة المكلف، والاستطاعة شرط في صحة التكليف، بيد أن الظروف الحالية بما زخرت به من امكانات النقل المتطور، والسكن الآمن، والخدمات المتميزة، كلها جعلت من الاستطاعة أمراً أيسر من ذي قبل، وهو ما أتاح الفرصة لأكبر عدد ممكن من الوافدين لبيت الله

وأنتى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله على خير.

ان هذا هو الذي يعطي الاسلام سر النفوذ في عقول الناس وقلوبهم كافة على مدى الدهور وفي كل المجتمعات، ويجعله الوريث الطبيعي والمستجيب الفطري لنداءات النفس البشرية السليمة.

ان الاسلام لا ينفي اليهودية أو النصرانية كتاباً أو شريعة بل ويقر وجودهم التاريخي ويقدس أنبياءهم (عليهم وعلى نبينا محمد وآله أفضل الصلاة وأتم التسليم)، في نفس الوقت الذي يثبت حقيقة كونه خاتم الاديان (الاسلام)، وان محمداً ﷺ خاتم الأنبياء.

٥ - المواكبة: الاسلام يحمل ميزة مواكبة الحياة على الرغم من تقادم الزمن، وتغير الظروف، واختلاف المجتمعات، وهذا قد يبدو للوهلة الأولى أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، إذ كثيراً ما يتردد سؤال في بال الشباب وهو: كيف يتأتى للاسلام عنصر المواكبة؟ على الرغم من اليون الشاسع بين عصر انطلاقتها في القرن السابع الميلادي وعصرنا الحاضر!! وما سيستمر عليه ركب

الحرام لأن يؤدوا الفريضة.

بناءً على ما سبق يمكن قول مثل ذلك في الكثير من المجالات، كوسائل النقل، أجهزة التعليم، الاعلام، الفن، الرياضة والبناء.

بل راح الاسلام إلى أبعد من ذلك، حين سابق الزمن، وناشد أصحاب الاختصاص بفتح طرق مباحة، بعد أن أغلق الكثير من الطرق والمسالك الانسانية في التعامل والتي كادت ان تعم عالم البشرية، كالذي مورس بحق المجانين وكاد أن يقضي عليهم، أو اشاعة (القتل بالوَأد)، بحجة تحديد النسل كما هو الحال في بعض بلدان العالم كالصين والهند، أو (قتل المشوهين)، تحت ذريعة الحيلولة دون تعاستهم والتخفيف من معاناة أهليهم، ويدفع بهم الاستكناه المستقبل، ومعرفة ما يمكن استشراف المستقبل من خلاله، فكانت هندسة الجينات - مثلاً - أو تطور علم الأمراض العقلية والنفسية.

٦ - الواقعية: تعني ان الاحكام الشرعية تقوم على ملاكات من المصالح والمفاسد، الله (تبارك وتعالى)، أعلم بها. ان تسليم العبد المؤمن لحكمة الله

تستدعي بالضرورة أن يسلم بأن الله لا يأمر بشيء إلا وفيه مصلحة، ولا ينهاي عن شيء آخر الا وفيه مفسدة.

ان النظرة الموضوعية للشريعة الاسلامية، تكشف عن آثار الحكمة البالغة في مفرداتها، وان ما وصلت إليه الاحصاءات والتجارب العلمية في الكثير من المجالات يؤكد هذه الحقيقة.

ان تحريم شرب الخمر، وقتل النفس البريئة، والسرقة، والتمييز العنصري، وإرهاب الآمنين، والتحكم بأموال الآخرين، وعقوق الوالدين، والاساءة للجار، وإهمال النفس والإلقاء بها إلى التهلكة من جانب... وعدم المساواة بين المرأة والرجل، في مجال الفوارق الموضوعية، وإلغاء التمييز على أساس العنصر أو اللون، أو الدم من الجانب الآخر يؤكد على واقعية الإسلام.

ان الانطلاقة التجريبية في ميادين الحياة الحسية عززها في أكثر من مجال، بيد أن إخضاع الاحكام الفقهية والامور الغيبية إلى الآليات التجريبية كالمخدرات والخمر كلف البشرية رداً طويلاً من زمن التطبيق الخاطيء، لتعود بعد عناء طويل إلى ما قاله الشرع منذ زمن بعيد، في مجالات

ملتزم بأحكام الشريعة.

ان النظرة المتوازنة هي التي تعطي
الأخرة الحصة الاوفر، والتي تستحق أن
يتخذ منها منطلقاً في العمل، فالشريعة
الاسلامية، ركزت على الحياة الآخرة، معتبرة
اياها انها هي الحياة الحقيقية:

«وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن
الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون».

كما أكدت على أهمية الانطلاق منها
(الحياة الآخرة)، لرسم طريق الحياة:

﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا
تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن
الله إليك..﴾.

﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها
وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾.
ان التركيز على الآخرة لا يعني بأي حال ان
يهمل الانسان حياة الدنيا، فالقرآن الكريم لا
يلغي ذلك: ﴿ومنهم من يقول ربنا آتنا في
الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب
النار﴾.

وقد جاء في الحديث الشريف:

(ليس منا من ترك دنياه لدينه أو ترك
دينه لديناه).

القانون الجنائي، وتنظيم الاسرة، والتعبير
عن الرأي... الخ، كل ذلك يؤكد حقيقة
الواقعية في التشريع الإسلامي.

٧ - الاخروية: من المذاهب

الاجتماعية ما يؤكد على الغاء أو تغييب الآخرة
من حياة الانسان، ويبرز الدنيوية في حياته
على انها هي الاساس أو الوحيدة، مثلما
فعلت (العلمانية) و(الوجودية) والمادية.

ومن المذاهب الاجتماعية، ما قصر
التفكير على الحياة الآخرة وانكفاً عن الحياة
الدنيا، كما فعلت الرهبانية، وبعض الصوفية،
ومنها ما فصل بين الحياة الدنيا والحياة
الآخرة، كما في النصرانية المحرّفة، التي
قالت:

(بأن ما لله لله، وما لقيصر لقيصر).

و (أن الله ملك الارواح، وان قيصر ملك
الابدان).

ومنهم من اتخذ من الدنيا مطلقاً أساساً
مع إيمانه بالآخرة، وحصر كل ما ارتبط
بالآخرة بأضيق دائرة ممكنة، فالصلاة
والصوم، والحجاب، وفريضة الحج، وأداء
الحقوق الشرعية، كلها مما يؤدي في سني
عمره المتأخرة، وقد يتملك صاحب هذه
النظرة العجب، حين يلتقي شاباً أو شابة وهو

٨- الانفتاح: الثقافة الإسلامية تتميز

بانها منفتحة، لا تقر الانغلاق والتأطر بالماضي، لا لشيء إلا لأنه ماضٍ، كما لا تنكفي على مكان ما مهما كان لهذا المكان من قيمة أو خصوصية، الاسلام رفض للانسان ان يكون إفرازاً عصارياً للبيئة، أو امتداداً لا إرادياً للآباء والاجداد:

«بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون».

انه دين (الاسلام)، أراد لمعتقيه ان يأخذوا العقيدة عن دليل، وأن يفتحوا على كل مخالف لهم، وبطالوبه البرهان:

«... قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين».

كما انطلق بالمؤمنين ليتحركوا حيثما تتحرك الحكمة، بغض النظر عن حاملها حتى اذا كان كافراً أو منافقاً، فقد جاء في الحديث الشريف:

(الحكمة ضالة المؤمن فخذ ضالتك حتى من أهل النفاق).

وأراد للمسلم أن يطلب العلم ولو من غير المسلمين فقد جاء في الحديث الشريف عن الرسول ﷺ:

(أطلب العلم ولو كان في الصين).

كل ذلك يشير بكل صراحة الى اهتمام الاسلام بأهمية الوصول إلى الحقيقة وبناء المجتمع على أسس علمية، واققراره على ان العلم ليس حكراً على أحد، فقد تتلجلج الحكمة على لسان المنافق فيقذفها في اذن المؤمن كما ورد في الرواية.

ان هذا الانفتاح لا ينبغي أن يمارس من موقع الغفلة، أو عقدة الشعور بالدونية، أو فقدان الثقة بالنفس، فقد زحرت صفحات التاريخ بانصع صور الانفتاح على الآخر، دون ان تعاني من عقدة الانغلاق على الذات، ما أسهم الى حد كبير باثراء الفكر الاسلامي، وتأهيل المسلمين لأن يمارسوا دورهم في اثراء المسيرة الثقافية، عبر مجالس الاحتجاج.

ان الموضوعات التي كانت تطرح لا تقتصر على باب من ابواب العلم، ولا على شبهة من الشبهات، والانفتاح هذا كان يمارس على صعيد منح المتلقي من ابناء الديانات الاخرى، بينما يمارس المعطي الاسلامي دوره في الاثراء، وأحياناً يستحث المسلم على أن يفتح على غير المسلمين من موقع الاخذ والتعلم.

عليها بناؤه وتتفاعل مع قيمها معتقداته وأحكامه:

«ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمة...».

واستمر معها إلى مرحلة العطاء التكويني في الانجاب، ليصوغ العلاقة مرة أخرى على نفس الاساس، حيث يأمر الولد بالاحسان إلى الوالدين بغض النظر عن دينهم، ومدى التزامهم، بل حتى اذا ما تعرض الولد الى ضغوط عنف من الوالدين، لحمله على الشرك، يأمره الله (تبارك وتعالى) بعدم الطاعة من دون أن يخلّ بقاعدة (المصاحبة بالمعروف):

«وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً...».

كما ثبت (اطار التقوى) للاجتماع الذي تتحرك فيه كل العلاقات من الشعوب أو القبائل المكونة لذلك الاجتماع:

«يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم...».

ان من ظواهر الصحة أن يتردد على لسان المثقف الاسلامي، الاستشهاد بحكمة من أصحاب المذاهب الاجتماعية الاخرى، دينية أم غير دينية، كقول السيد المسيح ﷺ، أو الرسول ذي العزم موسى ﷺ، أو حكيم الصين (كونفوشيوس)، أو (سقراط)، ما يؤشر على وجود المشترك الديني والمشارك الانساني.

٩- الانسانية: لقد أولى الاسلام رعاية خاصة وكرمه بما هو انسان، بغض النظر عن معتقده، وثقافته، ووعيه:

«ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً».

لقد أشاد الاسلام صرح البناء المدني للمجتمع على أسس انسانية، ابتداءً في العلاقة الزوجية، وما أودع الله (تبارك وتعالى)، فيها من مودة ورحمة، لتدخر كل مشاعر الحب، وتوشح بانبل الاحاسيس، وتعيش حالة من الاستقرار والسكينة، ما تصلح معها أن تكون نواة صالحة في المجتمع، تنمو وتتفاعل مع أمثالها، لايجاد المجتمع الانساني الذي يزخر بالمعاني الانسانية، ويعطيها قاعدة عريضة، يقوم

المحور الثالث: دور المثقف في منظومة المرجعية

«إننا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً»^(٢٦).

المدخل:

العلاقة بين المرجعية الدينية والأمة هي علاقة تعاطٍ مستمر في كل ما يتعلّق بحاجاتها، على مستوى المفاهيم الدينية المرتبطة بالحياة؛ أو على مستوى تحديد المواقف العملية في مجالات العبادات، والمعاملات، على الصعيد الاجتماعية المختلفة؛ انطلاقاً من قاعدة (لا تخلقوا واقعة إلا لله فيها حكم)؛ ما يجعل المرجع الديني مسؤولاً عن تحديد الموقف العملي للمكلف إزاء كل قضية يواجهها بينما يجد المكلف في المقابل نفسه مسؤولاً عن تطبيق ذلك الموقف طبقاً لأحكام الشريعة؛ وكلما تعمّق الالتزام لدى المكلفين، وزاد وعيهم تأكد اعتمادهم على المرجعية الدينية.

ربما تقلّصت دائرة التعاطي بين مراجع المسلمين وأبناء الأمة بناء على عزوف الأمة

عن الرجوع لهم تارة، وعدم تصدّي بعض المراجع في تلك المجالات تارة أخرى، لسبب أو لآخر؛ بيد أن ضيق دوائر التعاطي، واتساعها بين المرجعية والأمة لم يُلغ وفي أي مرحلة من مراحل تصدّي المرجعية لحقيقة التعاطي هذه.

سر التعاطي هذا هو الشعور بالمسؤولية الشرعية أمام الله تعالى من قبل كل من الطرفين... المرجع فيما يقع عليه من تكليف في الإفتاء لغرض «تحديد الموقف» من جانب؛ والمسلم المكلف بالاستفتاء من أجل «إخضاع سلوكه وكل ما يرتبط بحياته لأحكام الشريعة» من الجانب الآخر.

وعلاقة الإفتاء والاستفتاء هذه تتطور بناء على تطور آليات التعاطي، مثلما تتطور الآليات هي الأخرى بنائاً على شدة العلاقة وعمقها، وهذه العلاقة الجدلية في التعاطي بين المرجعية والأمة كانت سمة بارزة في تاريخ المرجعية، والرسائل العملية للفقهاء مثلاً لم تكن متعارفة في مرحلة ما ثم أخذ الناس يبعثون بأسئلتهم إلى المجتهدين الذين يقومون بالاجابة عليها.

وصدرت كتب مثل (جواهر الفقه) للقاضي ابن البراج، و(أجوبة المسائل

رسالة صدرت في هذا السياق كتاب (جامع عباسي) وهي الرسالة العملية للشيخ البهائي. وبعدها توالى صدور الرسائل بفوارق طفيفة فيما بينها في الأسلوب غيره^(٢٧).

ومن الواضح أن هناك عوامل أسهمت في تطوير هذه الآلية منها ما يرتبط بظروف المكلف الاجتماعية والشخصية بما هو متلقٍ، ومنها ما يرتبط بالمرجع من ناحية الامكانيات المتوافرة لديه بما هو معطٍ.

ومهما تكن طبيعة الظروف التي تحيط بالامة والمرجعية الدينية فان الدور المنوط بها على مستوى توعية أبناء الامة وترشيد مسيرتهم يبقى سمة متميزة وثابتة، ومسؤولية تتطلب أقصى درجات الوعي في مواكبة التطورات الحاصلة في الحياة على هدي الشريعة الاسلامية المقدسة، سواء على مستوى وعي الموضوعات أو على مستوى وسائل الاتصال أو على مستوى المناهج الدراسية أو على مستوى تحقيق الحضور الميداني لها في حياة المكلفين.

يتناول البحث الاسئلة التالية:

١ - ما هي المرجعية الشيعية؟

٢ - ما هو المثقف الإسلامي وما هي

الثقافة؟

النيسابورية) للشيخ المفيد، و(المسائل التي وجهها الشيخ أبو جعفر الطوسي) للشيخ المفيد، و(أجوبة المسائل الطرابلسية) و(أجوبة المسائل الموصلية) للسيد المرتضى وغيرها. كما ألفت كتب خاصة بالفتوى فقط، مثل (جمل العلم والعمل) و(النهاية) للشيخ الطوسي، و(السرائر الحاوي لتحرير الفتاوى) لابن أدریس، و(تبصرة المتعلمين) للعلامة الحلبي وغيرها...

هذه الأساليب المتنوعة لبيان الأحكام الشرعية ظلت متداولة منذ القرن الرابع الهجري وحتى العقد العاشر. وقد نجت عنها آثار قيمة تعد سراجاً ينير طريق الفقهاء المسلمين.

بعد هذه الحقبة ظهر نمط جديد في ساحة بيان الاحكام الشرعية يتناسب وظروف العصر. فقد بدأ مراجع التقليد بإصدار رسائل عملية (كتب تحوي الفتاوى والأحكام الشرعية)، تضم كل المسائل والاحكام التي تلبى شؤون العصر ومتطلباته... وكانت النتيجة أن شاع اعتماد المكلفين على هذه الرسائل بسبب سلاسة أسلوبها وشمولية أحكامها واحتوائها على المسائل الجديدة المنبثقة من تطورات العصر. وقد كانت أول

٣ - ما هي خصوصيات المثقف ومسؤولياته؟

٤ - ما هي الحقول المعرفية والاختصاصات الاكاديمية ذات العلاقة بالمرجعية؟

٥ - ما هي الاوساط العملية التي تتحرك فيها المرجعية؟

٦ - ماذا عن بعض مواقف المرجعية؟

٧ - ما هي طبيعة العلاقة بين المرجعية والمثقف، وكيف ينبغي أن تكون؟

ما هي المرجعية؟

من المناسب أن نحدد معنى المرجعية من حيث اللغة ومن حيث الاصطلاح.

في اللغة: «رَجَعَ يَرْجِعُ رَجْعاً وَرُجُوعاً وَرُجْعَى وَرُجْعَاناً وَمَرْجِعاً وَمَرْجِعَةً: انصرف. وفي التنزيل: إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى، أي الرُّجُوع والمرجع، مصدر على فُعلَى؛ وفيه: إلى الله مَرَجِعكم جميعاً، أي رُجُوعكم... وقوله عزَّ وجلَّ: قال رب ارجعوني لعليّ أعمل صالحاً؛ يعني العبد إذا بعث يوم القيامة وأبصر وعرف ما كان ينكره في الدنيا يقل لربه: ارجعون أي رُدوني إلى الدنيا»^(٢٨) ما يفيد ان المرجعية باللغة الجهة التي يرجع إليها ورُد لها

في موارد معينة متعلقة باختصاصها.

في الاصطلاح: لم يرد مصطلح المرجعية في آية قرآنية كريمة أو في حديث شريف وعليه فهو ليس مصطلحاً إسلامياً بالقدر المعبر عن مؤسسة تقليد وإنما هو مصطلح تعارف عليه المسلمون؛ فهو إذن مصطلح متشعبة أو مصطلح مسلمين وليس مصطلحاً شرعياً؛ «ويعرف (المصطلح الشرعي) بورود اللفظ في معناه في القرآن الكريم أو الحديث النبوي الشريف، وبدون ذلك لا يوجد المصطلح الشرعي»^(٢٩).

«مصطلح تقليد مصطلح مرجعية. هذان المصطلحان وما يرادفهما يناسبهما غير موجودين في أي نص شرعي، وإنما هما مستحدثان، وليس لهما أساس من حيث كونهما تعبيرين يدلان على مؤسسة مرجعية»^(٣٠).

وقد اختلف العلماء والمراجع في تحديد مفهوم المرجعية الشيعية؛ فمنهم من اعتبرها - من موقع التعامل - مقصورة على الجانب الفقهي بالمعنى الاخص، وابتعد في تصديه عن المجالات السياسية والاجتماعية؛ ومنهم من لم يجد اقامة الحكومة الاسلامية من مسؤوليته؛ ومنهم من قال بولاية الفقيه

المجتمع فتترتب عليه استحقاقات عملية تصل إلى حد التضحية بالنفس؛ هذا هو مبنى الشيخ محمد مهدي شمس الدين (رض): المرجع في الدين أمر أكبر وأجل من أن يكون مرجعاً في الشريعة. المرجع في الشريعة مجتهد جامع للشرائط، وهذا يكفي. أما المرجع في الدين فقد تجاوز الحكم الشرعي إلى المفهوم الشرعي، معرفة المفاهيم. والمرجعية في المفاهيم تحتاج إلى مستوى من الاحاطة والعمق والشمولية، تتجاوز كفاءات الفقيه... نحتاج ان نبث أكثر عن نماذج للمرجعية في الدين، فيما يتعلق ببلورة المفاهيم، وليس الاحكام، وفيما وراء ذلك، وهو ما يسمى قيادة. يعني تجاوز بيان الحكم الشرعي، وتجاوز بيان المفهوم في الدين إلى انتهاج خط السير والسلوك العملي في المجتمع. أبرز الفقهاء القداماء... فيما يمكن أن يطلق عليه أنه مرجع في الدين، أو يشكل مشروع قيادة. هو الفقيه الشهير محمد بن مكي الجزيني المعروف بالشهيد الأول... وضع في ذهنه مشروعاً سياسياً، فلسفه أو شرعته من الناحية المفهومية، وجرى عليه ولعله من أجل ذلك استشهد (رض) (٣٣).

قبال من لم يقل بها؛ ومن قالوا بالولاية للفقيه اختلفوا في دائرة الولاية فمنهم من وسع كالامام الخميني (رض): «للفقيه العادل جميع ما للرسول والأئمة عليهم السلام مما يرجع إلى الحكومة والسياسة» (٣١) ومنهم من ضيق كالسيد الخوئي (رض) «سؤال ٦: هل ترى سماحتكم ولاية الفقيه المطلقة أم لا؟ الخوئي: في ثبوت الولاية المطلقة للفقيه الجامع للشرائط خلاف ومعظم فقهاء الامامية يقولون بعدم ثبوتها وانما ثبتت في الأمور الحسبية فقط والله العالم» (٣٢).

ومنهم من قسّمها على أساس دائرة التصدي فقال بأن المرجعية الشرعية غير المرجعية الدينية وهما غير المرجعية السياسية، فالمرجعية الشرعية عنده تتولى تحديد الحكم الشرعي، أما المرجع الديني فهو من يذهب أبعد من ذلك ليحدد مفاهيم الدين مما يستدعيه معرفة بالدين أشمل وأعمق من المرجع في الشريعة، وأما المرجع السياسي فهو الذي يتولى مشروعاً سياسياً وهذا - من وجهة نظره - هو الذي يتحرك على أساس أنه مشروع قيادة، مرجع القيادة تتجاوز مستوى توضيح الاحكام وتوضيح المفاهيم إلى سلوك السبيل العملي في

ومن حيث الاطروحة للمرجعية الصالحة: إن أهم ما يميز المرجعية الصالحة تبنيتها للاهداف الحقيقية التي يجب أن تسير المرجعية في سبيل تحقيقها لخدمة الاسلام، وإمتلاكها صورة واضحة محددة لهذه الأهداف، فهي:

مرجعية هادفة بوضوح ووعي وتتصرف دائماً على أساس تلك الاهداف بدلا من أن تمارس تصرفات عشوائية وبروح تجزئية وبدافع من ضغط الحاجات الجزئية المتجددة؛ ويمكن تلخيص الأهداف:

- ١ - نشر أحكام الاسلام...
 - ٢ - إيجاد تيار فكري واسع في الامة...
 - ٣ - إشباع الحاجات الفكرية للعمل الاسلامي...
 - ٤ - القيمومة على العمل الاسلامي...
 - ٥ - اعطاء مراكز العالمية من المراجع... (٣٥)
- لم نقصد من السرد المتقدم لامثلة الاختلاف في وجهة نظر المراجع المناقشة فيها؛ ولا الترويج لأي منها على الآخر، ولا تحديد نقاط الخلاف والاتفاق بينها؛ بل تثبيت حقيقة وهي: ان القدر المتيقن من

أما السيد الشهيد محمد باقر الصدر رحمته الله فقد أُرِخ للمرجعية بمراحلها الاربع، وكيف تطورت مع الزمن بناء على تطور الظروف التي أحاطت بها، وكيف بدأت مرجعية فردية لتنتهي إلى مرجعية القيادة؛ كما صبَّ اهتمامه على إطروحة المرجعية الصالحة محدداً أهدافها الخمسة الأساسية وموضحا، هيكلها التنظيمي الذي يسهل مهامها في تحقيق الاهداف. فمن حيث المراحل التاريخية: هذه الحوزة لها تاريخها الطويل الذي مرّ بعدة مراحل:

- ١ - مرحلة الاتصال الفردي...
- ٢ - مرحلة الجهاز المرجعي وأظن - بحسب ما أفهم من سير الأحداث - انه دخلها على يد الشهيد الأول (رض).
- ٣ - مرحلة التمرکز والاستقطاب.. على يد الشيخ كاشف الغطاء.. ومعاصريه من العلماء، مرت على هذه المرجعية فترة طويلة من الزمن في عهد الحكم العثماني قبل عصر الاستعمار....
- ٤ - مرحلة القيادة بدأ - هذا الكيان - يتسلم زمام القيادة.. بدأ يدخل الصراع مع الكافر المستعمر ويتبنى مصالح المسلمين ويدافع عنهم (٣٤).

السابقة؛ بكل ما فيها من تراث فكري، وأعماق استدلالية، في الفقه والكلام والتفسير والاخلاق والحكمة من الناحية المنهجية؛ والتصدي الاجتماعي والسياسي من الناحية الميدانية.

٤ - الانتشار الافقي الذي يتسع إلى حيث تتسع الامة، في كل بلد من بلدان العالم؛ ولا اقصد بذلك ان تكون المبادرة من الامة والاستجابة من المرجعية، وانما المبادرة بالاصل من المرجعية والاستجابة من الامة؛ فتكون المرجعية في موقع المبادر حين تتحسس مشاكل الناس، والمبادر في التعرف على آخر التحديات الفكرية والسلوكية، والمبادر في التعرف على التطورات المعاصرة للتجاوب معها على ضوء ما تستحق؛ والمبادر في تشخيص اولويات كل ساحة بما يناسبها من اهتمام، والمبادر في تحديد حاجات المعوزين، والمبادر في تنمية قابليات أبناء الامة وتوفير مستلزمات التطور والإبداع في الحقول الحياتية المختلفة.

٥ - أن تكون واضحة الاهداف والمنهج لدى الجهاز المرجعي، ولدى حلقات الاتصال بها؛ وهي وان اختلفت في حجم الاهداف

الاهتمام المرجعي هو شؤون الأمة وممارسة دور الرعاية لها من موقع المرجعية بأي دائرة من الدوائر؛ ولأن ذلك يترتب عليه دور مهم وخطير للمثقف في عالم المرجعية الدينية؛ فلا المثقف الإسلامي بمقدوره ان يضطلع به من دون المرجعية؛ ولا المرجعية تستغني عنه في إيصال صوتها للامة.

النظرة إلى منظومة المرجعية

١ - ان المرجعية الدينية هي جهة التصدي في مجال الافناء وتحديد التكاليف الشرعية وترشيد مسيرة الامة بكل مكوناتها لكل ما يقربها من الله (عز وجل) ويسهم في بناء حياتها على أساس الأحكام الشرعية، «... فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»^(٣٦).

٢ - انها الكليّ المرجعي - المرجعية - الذي ينطبق على كل المراجع، على اختلاف وجهات نظرهم، ليتحقق مفهوم التكامل المرجعي وتجنب التنافر المرجعي، الذي يؤدي إلى حالة من الاستهلاك؛ ما ينعكس سلباً على المتعلقين بكل مرجع على حساب المرجعية؛ وهو ما يضعف الامة الاسلامية ويضر بمصلحة الاسلام.

٣ - انها الامتداد الطبيعي للمرجعيات

امتدادا لمهمات المرجعية، ويكون - بذاته - ذراعاً من أذرع الانجاز.

من هو المثقف وما هي الثقافة؟

كثيراً ما يطرح المثقف مقابل طالب الحوزة، والثقافة مقابل دروس الحوزة من جانب! كما يطرح المثقف مقابل الملتزم من الجانب الثاني! وهذا خطأ كبير في الجانبين معاً؛ وهو ما يستدعي أن نعرف من هو المثقف الاسلامي؟ وما هي الثقافة الإسلامية؟ لندرك طبيعة العلاقة بين المرجعية الدينية والمثقف الإسلامي.

تُثَقَّف الرجل ثقافةً: أي صار حاذقاً خفيفاً... ومنه المثاقفة؛ وهو غلام لقون تُثَقَّف أي ذو فطنة وذكاء، والمراد انه ثابت المعرفة بما يحتاج اليه.

والتثاقف: حديدة تكون مع القواس يقوّم بها الشيء المعوج... الثقافة خشبة تسوى بها الرماح^(٣٨).

ثقف: الثقفُ الحذقُ في إدراك وفعله ومنها أستعير المثاقفة، ورمح مثقف أي مقوّم...، ويقال ثقفت كذا اذا أدركته ببصرك بحذق في النظر ثم يتجاوز به فيستعمل في الادراك وإن لم تكن معه ثقافة قال تعالى (واقنلوهم حيث ثقفتموهم)^(٣٩) وأصل مادة

من حيث الاتساع والضييق، أو في المنهجية المتبعة من قبلها، في كل مساحة من مساحات التصدي، أو من حيث أصل التصدي، في بعض الحقول السياسية أو الاجتماعية؛ لكن ذلك لم ولن يحول دون تكامل الاهداف، من خلال تحرك مجموع المراجع، وان ما اشار له السيد الشهيد محمد باقر الصدر في المرجعية الصالحة من أهداف، يمثل محوراً مشتركاً ومهماً في عملها وهي:

١ - نشر أحكام الاسلام.

٢ - إيجاد تيار فكري واسع في الامة.

٣ - إشباع الحاجات الفكرية للعمل الاسلامي.

٤ - القيمومة على العمل الإسلامي.

٥ - اعطاء مراكز العالمية من المراجع^(٣٧).

تقول ذلك لان دور المثقفين سينطلق والى حد كبير من خلال الهدف المشترك الذي تصدى المرجعية لتحقيقه، وهو ما يميّز منظومة المرجعية عن غيرها من المرجعيات، في أخذها بنظر الاعتبار؛ كما ان المثقف الاسلامي بدوره ينطلق من ذات الهدف المشترك، وهو ما يجعل مهماته

للمجتمع. ويتكون الشق المعنوي من حصيلة النتاج الذهني والروحي والفكري والفني والادبي والقيمي، ويتجسد في الرموز والافكار والمفاهيم والنظم وسلّم القيم والحس الجمالي الخ. والشق الثاني يتكون من مجمل النتاج الاقتصادي والتقني...»^(٤٣)

— أما الثقافة الاسلامية: فقد عرّفت: «أنها المفاهيم الصحيحة عن الله والكون والانسان والحياة... عن الله كخالق وشارع للاحكام والحدود والاخلاق، وعن الكون كمسخر للانتفاع الانساني، وعن الانسان كمستخلف في الارض لاستعمار الكون، ومسؤول عن تصرفاته الحسنة والسيئة، وعن الحياة ك مجال للعمل الانساني على أسس اسلامية...»^(٤٤) وأياً يكن تعريف الثقافة الاسلامية فمن غير الممكن التفكيك بين العقيدة كقاعدة فكرية من جانب وأحكام الشريعة، وباقي مفردات الثقافة الاسلامية من الجانب الاخر؛ وإمعان النظر بهذا الترابط العضوي بين أجزاء الثقافة الاسلامية من ناحية وبناء شخصية المثقف الاسلامي من الناحية الاخرى يكشف النقاب عن العلاقة الوطيدة بين علوم الحوزة العلمية والثقافة

(ثقف) تدل على الحدق في إدراك الشيء وفعله، أي سريع التعلم، ثم استعملت في مطلق إدراك الشيء.

وفي حديث الهجرة عن الرسول ﷺ: غلام شاب لقن ثقف أي: ذو فطنة وذكاء، ثابت المعرفة^(٤٥). ويقال ثقف ويثقف وثقفاً ورجل ثقّف لقف: إذا كان مُحكماً لما يتناوله من الأمور^(٤٦).

مما طرح يستفاد من الثقافة والمثقف انها الفهم والحدق والمعرفة والتقويم؛ والمثاقفة تبادل الفهم والتقويم؛ فكأن المثقف الذي يعني فيما يعنيه تقويم السهم لغرض الاصابة، استعير - مجازاً - لا يصل الفكرة مع الاصابة إلى عقل الاخر؛ والمثاقفة هي تبادل الاصابة بالفكر فيما يعطي ويأخذ مع من يحاور؛ ومنه نستوحي العلاقة بين الثقافة والسلوك وانها ليست مجرد علم «فالمفهوم الصحيح لمعنى (الثقافة): انها نظرية سلوك أكثر منها نظرية معرفة. إذ انها تهيب الانسان للحياة الحضارية المتمنة، وتعينه على التطور الاجتماعي المطلوب»^(٤٢).

في احدى تعريفاتها الثقافة «هي الارث الاجتماعي ومحصلة النشاط المعنوي

الإسلامية على مستوى التنظير والتطبيق؛ وهو ما يجعل المثقف الاسلامي وهو من تزود بالفكر الاسلامي الاصيل، والمأخوذ من مصادره الاساسية، والمتوافر في الحوزة العلمية كمنهج عبر الآليات المتعارفة فيها، أو المستجدة والتي وفرت اطلالة واسعة لانتشار الفكر الاسلامي والثقافة الحوزوية، لما يتجاوز جغرافية المقرّات الحوزوية المعروفة ليشمل جغرافية التعاطي العلمي الممتد الى حيث يمتد طلاب العلم؛ وعليه فقد أصبح المثقف الاسلامي والذي يتوافر على المادة العلمية أعم من المرتبطين بحلقات الدرس المباشرة؛ وبذلك أصبح من الضروري التمييز بين من يحضر الدرس في علوم النحو المنطق والاصول والفقه، وبين من يتقن الدرس في الاداء النحوي والتفكير الانساني السليم والتطبيق الفقهي في السلوك؛ وحتى حضور الدرس فهو لم يعد محصوراً في الحيز المكاني، في بلد ما أو حوزة معينة، بل يتعداه إلى فضاء التلقي العلمي.

الخصوصيات والمسؤوليات المرتبطة بالمثقف الاسلامي، لا تخرج عن طبيعة ما تتحلى به المرجعية كجهاز من صفات أو تتحمل من مسؤوليات؛ مستقاة من طبيعة العلوم المعتمدة والاهداف الاسلامية المزمع تحقيقها، والتربية اليمانية المفترض التحلي بها.

المثقف الاسلامي لا بدّ من أن يتوافر على الصفات التالية:

١ - التمتع بثقافة اسلامية (علماً ومعرفة) ترتقي به الى مستوى الاصاله من حيث العمق والشمول بما يتزود به من المفاهيم والأحكام الاسلامية لكل ما يمت إلى المجالات التي يتواجد فيها بصلة على الصعيد الشخصي والاسري والصعد الاجتماعية المختلفة.

٢ - بناء الشخصية بناءً إيمانياً يرقى به الى مستوى التمسك بالاحكام الالزامية على أقل التقديرات، ومراعاة الاحكام الترخيضية جهد الامكان.

٣ - معرفة الموضوعات التي يتلى بالتعامل معها خصوصاً حين يكون في وسط تكثر فيه الشبهات وتشتد التحديات.

٤ - المواصلة في التزود من منابع الثقافة

خصوصيات المثقف الاسلامي ومسؤولياته:

لا بدّ من التأكيد على حقيقة وهي ان

المجالات الحياتية كذلك يتفانون في المجالات الثقافية والمعرفية:

١ - فهناك المثقف المبدع والمؤد للأفكار والذي يمتلك باعاً طويلاً من الاحاطة بالعلوم ذات العلاقة بالفكر الانساني والاسلامي، وله ممارسة كافية لهذه الملكة في مجال التعاطي الثقافي من حيث التنظير، وله ملكة التطبيق فيما يعتقد حتى تخرج ثقافته من الحيز النظري إلى الحيز التطبيقي.

٢ - هناك المثقف المميز الذي يتمتع بسعة استيعابية للثقافة الإسلامية، وفي مختلف الأبواب مع مستوى ممتاز أيضاً من الالتزام، من دون أن تكون له القدرة على التنظير.

٣ - هناك المثقف الجيد الذي له من الاستيعاب الكافي للثقافة الإسلامية والالمام الاجمالي بكل ما يتعلق بمهمته الثقافية، مع الالتزام بالخطوط العامة فيما يدعو إليه.

٤ - هناك المثقف العام الذي يتحلى بدرجة محدودة من استيعاب الثقافة الاسلامية مع درجة محدودة من الالتزام، وهو لا يخرج بها عن الصورة العامة للشخصية الاسلامية.

الاسلامية لكل ما يستجد عنده من حاجة.

٥ - وعي المخاطر التي تحيط به على المستوى الفكري والسلوكي لغرض التمول بالفكر والروحية التي تؤهله الثبات والاستمرار على جادة الاستقامة.

٦ - مواصلة أداء دوره التبليغي والتثقيفي على مستوى النظرية والتطبيق في أي وسط يتواجد فيه.

٧ - وعي المشتركات مع الاخرين (المثقف غير المسلم والمسلم غير المثقف) لغرض التأثير فيهم ما دامت تمثل الكلمة سواء معهم؛ وهي تصلح لأن تكون البداية التي يخاطبهم من خلالها.

٨ - معرفة ما يدور عند الاخر من ثقافة واستفهامات وشبهات واتهامات لتوفير ما تستحق من مادة فكرية؛ تصلح لأن تكون ردّاً كافياً للتأثير بالآخر أو الثبات أمام تحدياته.

٩ - التعاطي مع العصر الذي يعيشه والظرف الذي يحيط به بعقلية المواكبة التي تجمع بين الاصاله المبدئية والانفتاح الملتنزم.

مراتب المثقفين

مثلما يتفاوت المهتمون في أي مجال

السياسة ونظريات السلوك ومسائل الفقه حكراً على الاوساط العلمية المتعارفة، كالحوزات العلمية والمعاهد الاكاديمية والاندية الثقافية، كما لم يعد المنفتح على أيّ منها بمستوى التفريق والوعي الكافيين لم ينتابها من ملابسات، وفض مجال التحديات المستجدة يطرح اليوم مجموعة كبيرة من المسائل والادعاءات والاشكالات في المجال المعرفي والحياتي:

أ - العولمة وما تنطوي عليه من أهداف خفية وما صاحبها من خطوات عملية جعلت العالم على أعتاب مرحلة جديدة جعلت ما يسمى بعالم الشمال والبالغ بنسبته السكانية (٢٠%)، يتنعم بغالبية الخيرات التي تقدّر بنسبة (٨٠%)؛ فيما تترزح الغالبية السكانية (٨٠%) تحت طائلة الفقر والجوع والمرض، والتخلف.

ب - حقوق الانسان وما شكبل من عنوان للافتة عريضة يمارس في ظلها شتى أنواع الممارسات التي تصل إلى حدّ تغيير الانظمة السياسية والتهديد بجّر الكثير إلى سدّة القضاء الدولي تحت عنوان انتهاكات حقوق الانسان.

ج - الارهاب الدولي وما صحبتته من

هـ - هناك المثقف المحترف الذي يجيد فن الفهم ويحسن فن الاداء من دون أن تكون له حصة من الالتزام؛ إذ ان الثقافة بالمعنى النظري منها بما هي شق العلم المجرد لا تعني الالتزام من الناحية السلوكية:

«يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون»^(٤٥).

الحقول المعرفية والاختصاصات الاكاديمية ذات العلاقة بالمرجعية:

١ - حقل الفكر والمعرفة وما يشهد من تطورات تستدعي المواكبة، وما يثار في هذا الحقل من اشكالات وشبهات، تتطلب الرد، خصوصاً أن عالم الإنترنت اختزل المسافات إلى حد كبير بحيث يتسنى للمتابع المهتم بالشأن الثقافي أن يقف على أية فكرة مهما كانت بعيدة عن تراثه أو مجتمعه، وينفتح عليها؛ من هنا بدأت اليوم ظواهر الغزو الفكري من جانب، والتشكيك بالفكر الاسلامي من الجانب الاخر تقتحم كل البيوت النوادي الفكرية مهما كانت بعيدة أو مصانعة، ولم تُعدّ بحوث الكلام ومفاهيم

٣ - حقل الاعلام والاعلام المضاد
لمتابعة ما يطرح من فكر وحقائق تخدم
الاسلام وتثري الثقافة الاسلامية، وما يثار
من شبهات وهجوم ضد الاسلام والمسلمين
لمواكبة ذلك؛ فالكثير من الحقائق العلمية
تعزز من المقولات الاسلامية على قدمها وهو
مرتبط بحياة المجتمعات المتمدنة كنبذ
التمييز العنصري واحترام حقوق الانسان
وتحريم الاجهاض ومفاسد الخمر والزنا الخ؛
وما يثار ظلماً من اتهامات من قبل الاعلام
المضاد من أمثال لصق الارهاب بالاسلام
والمسلمين ومؤسساتهم الدينية؛ وفصل
الدين الاسلامي عن السياسة بل عن الحياة!
وظلم الاسلام للمرأة؛ وقسوة الاسلام في
أحكام الردة؛ الخ كل ذلك يحتاج إلى ردّ
مسؤول وواعٍ وسريع ملموس لدى ابناء
المسلمين؛ ومع دخول الاعلام عالم
الانترنت وما يوفر من فرصة خصبة للتعرف
على أفكار الآخرين وما يحملون من تصورات
عن الاسلام والمسلمين ما يستدعي إعادة
النظر في الفكر المطلوب طرحه للعالم
وترتيب الأولوية للموضوعات ذات الاهتمام
الاكثر؛ واعتماد البرامج المتطورة لبث الفكر
الاسلامي وتعميق العلاقة مع المسلمين

خطوات تنفيذية على مستوى استباحة
البلدان التحكم بحريتها وفرض الحصار
الاقتصادي عليها واستخدام أراضيها
والتهديد بضررها.

د - الديمقراطية وما اكتسحت من
مساحات شاسعة في عالم السياسة ما تركت
من ردود فعل متفاوتة من المطالبة بتطبيقها
نظاماً أو آليات أو اتخاذ غيابها تفسيراً للكثير
من الظلم الذي أصاب بلدان العالم.

٢ - حقل المستجدات في الموضوعات
ما يقتضي المواكبة لتغيير الحكم تبعاً لتغيّر
الموضوع؛ من هنا أصبحت مسائل
التعاملات المصرفية والعقود التجارية
والمكاسب المعاصرة والقتل الرحيم
والاستنساخ وهندسة الجينات والاستحالة
وأطفال الأنابيب وغيرها من المستجدات،
تحتاج إلى مواكبة استدلالية حتى يكون
المكلف في مأمن من الانفصال بين الحكم
والموضوع؛ وهو ما يفتح بالضرورة أبواباً واسعة
من الحقول التخصصية المختلفة التي لا
يمكن النفوذ إليها إلا من خلال المختصين
الموثقين؛ ما يجعل المواكبة الفقهية رهينة
العلاقة الوطيدة والتماس المباشر مع
أصحاب الاختصاص.

والانسانية جمعاء.

٤ - حقل الاسرة والاوساط الاجتماعية التي تفرض مناخات تربوية بناءة تارة، أو تقليدية تارة ثانية، أو مضادة تارة ثالثة؛ ما جعلها تسهم وإلى حد كبير في التأثير سلباً أو إيجاباً على مسار التعامل افردي والاسري والاجتماعي؛ وهو ما انعكس على شكل توتر وانحرافات في المكون الاجتماعي لأبناء المسلمين بحيث أخذ منحى الطلاق وسواء العلاقة بين أبناء الأسرة الواحدة شكلاً حاداً من زاوية، وكذا على مستوى نقشي الكثير من الانحرافات والبدع في الاجتماع الاسلامي؛ فيما تشهد أوساط أخرى تصاعداً ملحوظاً في الالتزام وتعميق الوشائج، أو تعميق الوعي وإحياء الشعائر الاسلامية من الزاوية الاخرى.

٥ - الحقل السياسي وما يفرز من تعاطٍ على مستوى الاداء والتعامل على صعيدي المعارضة والحكم؛ في عصر يشهد فيه العالم تحولات حادة وإرهاصات متسارعة على أكثر من صعيد في الوقت الذي تتنامى فيه الحالة الاسلامية لترتسم على شكل دولة وثورة وصحوة وعودة إلى الإسلام، وهو ما يجعل الاسلامي بأمس الحاجة إلى الفقه السياسي

الذي يمدّه بالقوة، ويجنبه المنزقات، ويجعله يمارس دوره بأداء سليم مهما كانت التحديات المعادية.

٦ - حقل القضاء الدولي والاطلالة على المنظمات الدولية في كل ما يتعلق بحقوق الدول؛ وما في حوزتها من قوانين وتعليمات خصوصاً وأن الكثير من مقرراتها أخذت طريقها إلى التطبيق بشكل قسري من حيث ان الجهة التي تقرر، وتنفذ تمتلك ناصية التحكم في العالم، وتفرض إرادتها كما تشاء؛ ما جعل العالم اليوم يعيش عصر التحولات النوعية والانهيارات الهائلة تحت طائلة حضارة الآلة والجنون الآلي؛ فانتهكت أراضي الدول وسماءها وتهدّت مياها وخيراتها بذرائع مختلفة.

٧ - حقل العلوم الاكاديمية ذات الطابع الانساني مثل علم النفس بمختلف فروعه (علم النفس السياسي / علم النفس الجنائي / علم نفس الطفل الخ)، علم الاجتماع، وعلم التربية، والقانون الخ؛ ان التزود بهذه العلوم أصبح حقيقة، فرضتها موضوعات هذه العلوم المرتبطة مباشرة بحياة الناس من جانب، وتخريج رطل من المختصين فيها لحمل لوائها من زاوية أكاديمية محضة أو

من شأنه الأخذ بيدها إلى ما فيه الصلاح، وإذا كان السلف الصالح من الفقهاء قد بذلوا جهوداً حثيثة من أجل الوصول إلى ما يحفظ لها عزّتها، ويصون كرامتها، ويعيد لها حياة كريمة تتناسب وما حباها الله من نعم معنوية ومادية فإنّ المعوّل على مراجعنا المعاصرين أن يواصلوا ذات الطريق، ويرتقوا بالامة إلى ما يرضي الله (عزّ وجلّ)، ويصلح أمرها.

الاوراساط العملية التي تتحرك فيها المرجعية:

تتحرك المرجعية في المجالات التي تشملها الاحكام الشرعية ما يعني أنها لا تستثني وسطاً من الاوراساط دون أن يدخل في دائرة اهتمامها سواء على مستوى الالتزام أم الترخيص:

١ - المجال الفردي: في كل ما يتعلق في الشؤون الفردية من العبادات كالصوم والصلاة أو المعاملات كالمكاسب... الخ.

٢ - مجال العلاقة الزوجية: في بيان حق النفقة للزوجة على الزوج، أو بيان حق الطاعة للزوج على الزوجة... الخ.

٣ - مجال العلاقة بين الوالدين مع الاولاد في الأسرة: من حق اختيار الاسم الى

موجهة لأسباب سياسية من الجانب الثاني؛ وارتباط موضوعاتها بأحكام الشريعة الاسلامية من الجانب الثالث؛ ما يستدعي النهوض بأسلمة هذه العلوم وتسخيرها لخدمة الانسانية؛ وهو يستلزم لإعتماد بعضها في المنهج المقرر في الحوزة، وبتني المختصّين في هذه الحقول لغرض إثراء المتبنيات الاسلامية على مستوى الفكر الممارسة.

كل هذه الحقول إضافة إلى غيرها مما لا يتسع البحث لشرحها تنتظر التغطية؛ على مستوى الفعل والمبادرة كما في نظرة الاسلام لحقوق الانسان نظرتة للبيئة والحيوان والموارد الطبيعية عموماً الانهار مثلاً من حيث بلد المنبع أو بلد الاجتياز، أو على مستوى رد الفعل والاستجابة، للوقوف أمام الإثارات الفكرية العلمية والسياسية كالعولمة النظام العالمي الجديد وحقوق المرأة في الاسلام والارهاب... الخ.

كما أنّ الامة الاسلامية بسعة وجودها، وتعدّد بلدانها، وتوّع اتجاهاتها الكلامية ومذاهبها الفقهية هي الأخرى بأمر الحاجة إلى جهود علمية مكثفة تقرأ واقعها، وتستشرف مستقبلها، وتنتظر لتحقيق كل ما

مجالات، ومجالات أخرى يتحقق - على غير المجتهد والمحتاط - في غير الضروريات وغير اليقينيّات؛ «يجب على كل من ليس بمجتهد أن يكون في جميع عباداته ومعاملاته وسائر أفعاله تركه مقلداً أو محتاطاً إلا في الضروريات واليقينيّات إن حصل له اليقين»^(٤٦).

مواقف مرجعية:

لا بدّ من أن نتحدث ولو بشكل عابر عن بعض ملامح المرجعية على أكثر من صعيد حتى ترسم أمامنا حقيقة المكانة التي يحضى بها مراجعنا العظام؛ وندرك السر الذي يقف وراء هذه الحقيقة؛ لأنّ المعروف عن الفقهاء في مجال النتاجات الفكرية أكثر بكثير مما عُرف عنهم في مجال السيرة الشخصية وصناعة المواقف على أكثر من صعيد؛ فمن أولى هذه الملامح هو:

السمو الروحي: الذي يتمتعون به والذي يعكس علاقتهم بالله تعالى في كل الظروف: «عندما يقال للشيخ الأنصاري: أحسنت كثيراً بأن تأتي كل هذه الاموال إليك ولا تنفق منها على نفسك. أجابهم أي إحسان هذا؟ إنه واجبي وأنا مؤتمن على هذه الأموال. فهل

حق التربية من حقوق الاولاد على الوالدين؛ ووجوب احسان الولد لوالديه والنفقة عليهما... الخ.

٤ - مجال التعامل الاجتماعي العام: أحكام التعامل مع الارحام والجار... الخ.

٥ - مجال التقاضي وفض النزاع: كالخصومة في العلاقة الزوجية أو في الشركة والمضاربة.. الخ.

٦ - مجال المكاسب: لتحديد المحرم منها والمباح كبيع الاعيان النجسة أو الصيرفة التجارة... الخ.

٧ - مجال الجهاد في سبيل الله: كوجوب الجهاد الدفاعي لحماية ثغور المسلمين، وحرمة الفرار من الزحف... الخ.

٨ - المجال السياسي: كالعمل من أجل إقامة الحكم الإسلامي، وحرمة الاحتكام إلى الكافر، إقامة العدل في شتى مناحي الحياة، والامر بالمعروف والنهي عن المنكر... الخ.

٩ - مجال الهجرة: كوجوب الهجرة، ووجوب الالتزام بشروط الاستئمان، وحرمة التعرّب بعد الهجرة... الخ.

ان وجوب التقليد في كل ما تقدم من

كالنار الملتهبة تستمر في احراق ما يجاورها أو تُخمد يقضى عليها، وكالوباء المكروبي الذي يظل منتشرًا أو يُقتل.

إن قضية فلسطين في الوقت الحاضر بعد ان اعترفت بها دول كثيرة أصبحت معقدة جداً، وحلها يحتاج إلى كثير من الحكمة والحذر والصبر والشجاعة»^(٤٩).

العمق الفكري والاطلاع الثقافي: فان ما تمتع به السيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد محسن الأمين، والشيخ محمد جواد مغنية تجسيد لذلك؛ ومن الصادق الرائعة في العصر الراهن هو / السيد الصدر وما تفتق عن يراعه من نتاج موسوم في أكثر من حقل من حقول المعرفة (فلسفتنا / اقتصادنا / البنك اللاربوي في الاسلام / الأسس المنطقية للاستقراء... الخ).

التصدي الاجتماعي والتضحية: وهذا ما جسده الكثير من الفقهاء كالشهيد الأول والسيد الأمين والشيرازي والامام الخميني والسيد الصدر الأول والصدر الثاني.

طبيعة العلاقة بين المرجعية والمثقف وكيف ينبغي أن تكون؟

لما كان المثقف أعمّ من أن يكون طالباً

أخون الامانة؟»^(٤٧) ونقل عن الامام الخميني (رض) حين كان راقداً في المستشفى وقد تأخر في أداء صلاة الظهر لمدة ساعة بعد زال الشمس قال لمرافقيه ما أخرت صلاتي طيلة ستين سنة من حياتي.

التسامح: نقل السيد الحائري عن السيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) «إنه انفصل أحد طلابه عن درسه وعن خطه الفكري الإسلامي، ثم بدأ يشتمه، وبنال منه في غيابه أمام الناس وكانت الكثير من كلماته تصل إلى مسامع أستاذنا العظيم، وكنت - السيد الحائري - ذات يوم جالساً بحضورته الشريفة فجرى الكلام عن هذا الطالب الذي ذكرناه فقال (ره): انا لا زلت اعتقد بعدالة هذا الشخص وأنّ ما يصدر عنه ناتج عن خطأ في اعتقاده وليس ناتجاً عن عدم مبالاته بالدين»^(٤٨).

الوعي السياسي: في رسالة كتبها الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء لمؤتمر بحمدن: «اختلاف كلمة الدول العربية بعد الحرب العالمية الثانية هو الذي أدى الى فاجعة فلسطين وانشاء دولة اسرائيل.

والعالم العربي الآن يعرف جيداً أن لإسرائيل أهدافاً عدائية، ويعرف أن اسرائيل

المتفقه نقل حيثيات المصالح والمفاسد السياسية للفقهاء وكذا العسكري المتفقه وهلم جزاء لاصبح الفقيه أقدر على تشخيص الموضوع ومن ثم أقدر على إصابة الحكم من موقع الفتوى؛ وبذلك تكون العلاقة ذات طابع تكويني وممتدة بامتداد الموضوعات من هنا يفترض ان تكون العلاقة:

١ - ذات طابع تشاوري على مستوى الاحاطة بالموضوعات المختلفة ليتسنى له الإفتاء من موقع الأقرب إلى إصابة الحقيقة: (من هنا، فانه لا غنى لمرجع التقليد في موضوع الافتاء، عن التشاور مع الصالحين وأهل الخبرة. خصوصاً أولئك الضالعين في الشؤون الاجتماعية والسياسية والثقافية والعلمية، الملمين بأوضاع المحيط خارج اطار الحوزة. وعلى المرجع فتح الابواب أمام هؤلاء، واعطاؤهم دوراً فعالاً للاستفادة من تجاربهم وخبراتهم لاعطاء احكام وفتاوى اقرب إلى واقع الساحة)^(٥٠).

٢ - تزويدهم بما لدى المرجعية من مصادر ثقافية وبحوث فقهية مهمة تسد الحاجة الماسة للمثقفين.

٣ - الاستشارة في بعض ما يناسب من النشاطات ذات الطابع الاجتماعي والتي تدور

في الحوزة، أو منتسباً لها ومتزوداً من علومها فإن هذا يقتضي أن يعاد على ضوءه النظر في تعريف المثقف أو طالب الحوزة ليشمل من يتزود بالعلوم الدينية وليس لمجرد الانتماء؛ وبذلك تمتد الحوزة إلى حيث يمتد حامل الثقافة وفي أي ميدان يتوجه فيه؛ وهذه العلاقة الامتدادية توفر لطالب الحوزة / المثقف التزود من العطاء الفكري للحوزة كما توفر للحوزة إطلالة واسعة على الامة على مستوى الانتماء والتفاعل؛ خصوصاً أن الوسائل الحديثة من الاتصالات المعلوماتية قد وفرت اخصب الفرص لمتابعة التحصيل العلمي وعلى أعلى المستويات. لما كانت العلاقة متلازمة بين الحكم والموضوع فانه من الطبيعي والحالة هذه ان يكون التماس على أشده بين الفقيه باعتباره مختصاً باستنباط الحكم والمثقف المختص بالموضوع؛ وحيث ان المختص بالموضوع حين تكون له خلفية فقهية تؤهله لنقل المسائل المكونة لاي موضوع للفقهاء كما لو نقل الكيماوي المتفقه حيثيات الاستحالة للفقهاء أو نقل الفلكي المتفقه حيثيات حركة القمر والشمس للفقهاء أو نقل الطبيب المتفقه حيثيات موانع الحمل للفقهاء أو السياسي

الزيارات من مرجع ما أو من يمثله للوقوف مباشرة على سير الاعمال.

الخاتمة

إن العطاء المرجعي المبارك بما أحاطه الله تعالى من رعاية وسداد ليبسط ظله الوارف على الامة وهي تمر بأحلك الظروف حريئاً بان ينظر له المثقفون بعين الحب والتقدير والطاعة والتعاون، وأن لا تفوتهم أهمية التزود من عطائهم الغزير والاستفادة من آرائهم النيرة؛ كما لا ينبغي أن يغفلوا عما يكيدهم الاعداء من محاولات لشق صف المرجعية أو دق إسفين الابتعاد عنهم وعدم الالتفاف حولهم.

والحمد رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين.

في أوساط أهل الاختصاص ما يجعل أصل النشاط أو من يناسبه من المنفذين أو أسلوب إنجازه أقرب إلى الصواب.

٤ - استشارة المثقفين في كل منطقة بما يناسب من الوكلاء لاداء الشهادة بحقه أولاً، ولتحقيق التعاون والانسجام ثانياً ولتوطيد العلاقة مع المرجعية ثالثاً.

٥ - محاولة التعرف على طبيعة التحديات التي تحيط بكل وسط من أوساط الامة لغرض معالجته.

٦ - تبني المثقفين وتوظيف إمكاناتهم في مشاريع إسلامية ذات طابع اجتماعي.

٧ - اعتمادهم في حل مشاكل الناس وتقديم المشورة لمن يحتاج ذلك وتعميق العلاقة مع أوسع قطاعات من أبناء الأمة.

٨ - تفقد الكادر الثقف عن طريق

الهوامش:

- (١) سورة البقرة، ١٥١.
- (٢) ابن منظور، لسان العرب، ج ٩، ص ٢٠.
- (٣) د. أمر عبد العزيز، دراسات في الثقافة الإسلامية، ص ١٦.
- (٤) نفس المصدر السابق، ص ١٧.
- (٥) أحمد محمد جمال، محاضرات في الثقافة الإسلامية، ص ١٥.
- (٦) طبيب نسواي درس طرق العلاج النفسي، من أهم مؤلفاته (تفسير الاحلام) و(مدخل إلى التحليل النفسي).
- (٧) عالم حيوان انجليزي اشتهر بنظرية التطور ومبدأ الانتخاب الطبيعي حول نشأة الانسان.
- (٨) مؤرخ وكاتب فرنسي عرف عنه ترتيبه وتصنيفه للاعراق، ووضع العرق الابيض على رأسها، كما عرف كرهه

للاسلام.

- (٩) مالك بن نبي، وجهة العالم الاسلامي عن كتاب د. عبد الكريم عثمان، معالم الثقافة الإسلامية.
- (١٠) سورة البقرة، ١١١، سورة النمل، ٦٤.
- (١١) سورة الزمر، ٩.
- (١٢) مكتشف الدورة الدموية الكبرى ووظيفة القلب.
- (١٣) عالم ايطالي من علماء الفيزياء والفلك المشهورين اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس (المنجد، ط ١٩، ٣٩٣).
- (١٤) بحار رائد، ولد في ايطاليا وتوفي في اسبانيا، مكتشف اميركا عام ١٤٩٢ (المنجد، ط ١٩، ٤٧٧).
- (١٥) محمد محمد صادق الصدر، موسوعة ما وراء الفقه.
- (١٦) الهرطقة عند النصارى البدعة في الدين (نفس المصدر السابق، ص ٨٦٣).
- (١٧) فيزيائي ورياضي وفيلسوف فرنسي، اشتهر بتجاربه على السوائل في الفيزياء.
- (١٨) فيلسوف فرنسي عاش ومات في القرن السادس عشر الميلادي، من أبرز مؤلفاته كتاب (مقالات).
- (١٩) ممثل وكاتب مسرحي فرنسي، اخر اعماله المسرحية (المريض الوهمي).
- (٢٠) دونوروا، اليربايه، من الفكر الحر الى العلمنة، ترجمة: عاطف علي، دلة الطبيعة بيروت، ١٩٨٦، ص ٤٩.
- هامش كتاب د. علي لاغا مدخل الى العلوم السياسية، ص ١٤٠.
- (٢١) نفس المرجع السابق عن نفس المصدر، ص ١٤٠.
- (٢٢) بحار الأنوار، ج ٢٣، ص ٢٣٦.
- (٢٣) مستشرق واستاذ الدراسات الإسلامية في جامعة لندن ألف كتابين عن النبي الاعظم ﷺ هما (محمد في مكة) و(محمد في المدينة).
- (٢٤) أحمد محمد جمال، محاضرات في الثقافة الإسلامية، هامش ص ١٣٠.
- (٢٥) أحمد محمد جمال، محاضرات في الثقافة الإسلامية، ص ١٤٢.
- (٢٦) سورة الأحزاب: ٧٢.
- (٢٧) مجموعة من الباحثين، آراء في المرجعية الشيعية، دار الروضة للطباعة والنشر، الطبعة الاولى، السيد عباس ميرى، المراجع والرسائل العملية، ص ٤٨٢.
- (٢٨) ابن منظور، لسان العرب، ج ٨، ص ١١٤.
- (٢٩) السيد مرتضى العسكري، معالم المدرستين، الطبعة الرابعة، المجلد الاول، ص ١٠٨.
- (٣٠) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، مجموعة من الباحثين، المرجعية والتقليد عند الشيعة، آراء في المرجعية الشيعية، ص ٥٧٤.

د. السيد ابراهيم الجعفري □

- (٣١) الامام الخميني، مبحث ولاية الفقيه، من كتاب البيع، ص ٥٢٠.
- (٣٢) السيد الخوئي، صراط النجاة في اجوبة الاستفتاءات، ج ١، المبحث الأول، الاجتهاد وولاية الفقيه، سؤال رقم ٦.
- (٣٣) الشيخ محمد مهدي شمس الدين، مجموعة من الباحثين، المرجعية والتقليد عند الشيعة، آراء في المرجعية الشيعية، ص ٥٧٧، ص ٥٨٠.
- (٣٤) السيد الشهيد محمد باقر الصدر، هكذا قال الصدر في المحنة وحب الدنيا، ص ٣٦.
- (٣٥) السيد سليم الحسيني، المعالم الجديدة للمرجعية الشيعية، ملحق رقم ١، ص ١٦٦.
- (٣٦) سورة النحل: ٤٣.
- (٣٧) السيد محمد الحسيني، محمد باقر الصدر دراسة في سيرته ومنهجه، ملحق رقم ١٠، ص ٣٨٣.
- (٣٨) العلامة بن منظور، لسان العرب، م ٩، ص ١٩، طبعة ١٤٠٥ قم - ايران.
- (٣٩) مفردات غريب القرآن، الراغب الاصفهاني، دار المعرفة بيروت، ص ٨٥.
- (٤٠) السيد عبد الاعلى السبزواري، مواهب الرحمن، م ٣، ص ١١٧.
- (٤١) القرطبي، الجامع لاحكام القرآن، دار الكتاب العربي، الجزء الثاني، ص ٣٥١.
- (٤٢) أحمد محمد جمال، محاضرات في الثقافة الاسلامية، الطبعة السادسة، دار الكتاب العربي، ص ١٤.
- (٤٣) د. عبد الوهاب الكيالي، موسوعة السياسة، م ١، ٨٤٤.
- (٤٤) أحمد محمد جمال، محاضرات في الثقافة الاسلامية، الطبعة السادسة، دار الكتاب العربي، ص ١٥.
- (٤٥) سورة الصف: ٢، ٣.
- (٤٦) السيد عبد الاعلى السبزواري، منهاج الصالحين، الطبعة الرابعة، الجزء الاول، ص ٣، مسألة ١.
- (٤٧) سيرة نبي، الشهيد مطهري، ص ٧٣ - ٧٤، منشورات صدرا، من كتاب آراء فم المرجعية الشيعية، ص ٤٢٨.
- (٤٨) السيد محمد الحسن، محمد باقر الصدر دراسة في سيرته ومنهجه، ملحق رقم ١٠، ص ٨٣.
- (٤٩) الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، المثل العليا في الاسلام ال في مجملون، الطبعة الاولى، ص ٦٩.
- (٥٠) آراء في المرجعية الشيعية، مجموعة من الباحثين، حسين شرفي، المرجعية والمؤهلات الاخلاقية، ص ٤٢٥.

خصائص الثقافة الإسلامية

أ. أنور محمد صابر الأزهري

باحث من مصر

إن الثقافة الإسلامية بارتكازها على العقيدة ليست من وضع بشر منساق بطبيعته البشرية إلى عوامل الضعف والنقص وضغط المنفعة والعصبيّة والطبقة، بل إن إنبثاقها عن المنهج الإلهي يعطيها مطلق الثقة الكاملة بها، ويجعلها موضع الإيمان والتسليم، ويغنيها - من ناحية أخرى - عن الوسائل التي يُلجأ إليها لتزيين المفاهيم البشرية الناقصة المحدودة.

إن مناط تلك المفاهيم الضالة التمويه على الإنسان، والتدليس عليه، وفي ذلك ما فيه من زرارية بعقله، واستهانة بكرامته. «وقد اتسمت الحضارة المادية في العهد الأخير بالتدجيل في كل شيء، والتلبيس على الناس. وتسمية الأشياء بغير أسمائها، ونموه الحقائق، وإطلاق الأسماء البراقة الخلابة للعقول على غير مسمياتها، وبكثرة الاختلاف بين الظاهر والباطن، والأول والآخر، والنظريات العلمية، والتجارب العملية. وهذا شأن الشعارات والفلسفات، التي حلت محل الأديان، وسخرت النفوس والعقول، والكلمات التي أحاطت بها هالات التقديس والتجيد وحل حبهما واحترامهما في قرارة النفوس، وحبات القلوب، وأصبح الشك في قدسها، أو النقاش في كرامتها ومكانتها علامة للرجعية وإنكاراً للبداهة، والمشهود المحسوس، وقد التبس الأمر بذلك

لمؤثرات البيئات والظروف، والمتأثرة بالأزمات النفسية والهزات الاجتماعية، وما ينجم عنها من ردود الفعل التي يبعدها عن العمق والصدق والاتزان.. إن هذه الثقافات - وهذا حالها - إنما تعيش في الحقيقة خارج دائرة الوجدان الإنساني في أصالته ونقائه، فهي بعيدة كل البعد عن أي نزعة تحفظ للإنسان مكانته الرفيعة التي أكرمها الله بها، ولا تملك إلا أن تسوق الإنسان بنزعة القوة التي تسيطر بها عليه سيطرة تسلبه بها حريته، أو نزعة الخديعة التي تسلبه بها كرامته، أو بهما معاً كما هو حال كثير من الأمم والشعوب في ظل هذه الفلسفات المادية المنحرفة التي استطاعت أن تتخذ من السلطة منطلقاً لممارسة نزعة القوة والخديعة في آن واحد.

ولعل خير ما يجلي الصورة المقابلة لهذا الوضع المنحرف ما يبينه الإسلام من حقيقة (العبودية) في الإنسان، وهي العبودية التي تقوم على الثقة والطمأنينة واليقين الخالص وحب الله عز وجل والخوف منه ورجائه..

وهذه النزعة في الوقت نفسه ليست نزعة خيالية تهمل الواقع ولكن ترتفع به عن طريق (التسامي) أو (الإبدال) مما لمحّه علماء النفس والتربية، وما عرفوا الطريق

على كبار الأذكياء، ونوابغ العلماء، فأصبحوا يتغنون بهذه الشعارات والفلسفات، ويدعون إليها في إيمان وحماسة من غير تمحيص لنية أصحابها وإخلاصهم، أو شجاعة في تحديد نجاحها أو إخفاقها في مجال العمل والتطبيق، والمقارنة الصحيحة المحايدة بين ما كسبته الإنسانية والأمم الضعيفة، وبين ما خسرت من سلطان هذه الشعارات وتحت رايته من السعادة الحقيقية، والحقوق الفطرية، وهذا كله من قوة التدجيل وسحره، الذي تفوق فيه (الدجال الأكبر) على جميع الدجالين والمدلسين والمموهين، الذين عرفهم التاريخ البشري. وقد سرت هذه الروحية (الدجلية المدلسة) في هذه الحضارة لسيرها على خط معارض لخط النبوة، والإيمان بالآخرة، والإيمان بالغيب، والإيمان بفاطر الكون، وقدرته المطلقة، واحترام شريعته وتعاليمه، وللإيمان الزائد على الحواس الظاهرة، والشغف الزائد بما يعود على الإنسان باللذة البدنية، والمنفعة العاجلة والغلبة الظاهرة»^(١).

وإن هذه الثقافات المرتكزة على النظرات البشرية والفلسفات المحدودة والمرتبطة بقيود الزمان والمكان والخاضعة

الحق إليه.

إن الثقة الكاملة بين الإنسان وما يجب عليه من العمل والسلوك. لا بدّ أن تكون منبثقة من يقين الإنسان بصحة ما يجب عليه، وحُبّ صادق له، ورغبة قوية فيه، وحرص تام عليه، وسعادة في أدائه.. ولكن هذه العناصر والبواعث لا يمكن أن تتحقق للإنسان بعامل الدفع الخارجي، بل لا بدّ لها من العقيدة التي تمزجها جميعاً مزجاً رائعاً بكيان الإنسان الداخلي، وشعوره الوجداني.

من أجل هذا حاول بعض الفلاسفة الأخلاقيين المثاليين - في المجتمع الأوروبي في القرن الثاني عشر - أن يضع خلقية ذاتية تقوم على فكرة «أداء الواجب لذات الواجب» وشاعت هذه الخلقية المثالية في الشعب الألماني على الخصوص، وعرفت هذه الفكرة بفكرة (كانت) أو بالواجب الخلقى.

ومع أنها خلقية دافعة نحو العمل من ذات الإنسان، دون رعاية للقانون الوضعي، وما يصحبه من سلطة تنفيذية؛ فإنها تفترق عن الخلقية الدينية التي يريد الإسلام للمجتمع الإسلامي، والتي هي أساس لتماسك المجتمع الإسلامي، وتعاون أفرادها، لأنه مهما كان الأمر، فلا يغيب عن أذهاننا أن أساس القوة الخلقية هو الاعتقاد بالله.

إن هذه الثقافة التي تقوم على الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر.. تنشئ في النفس الإنسانية تلك الثقة المرتكزة على يقظة ذاتية، وحيوية داخلية، تكوّن تلك النزعة الفطرية إلى الاستقامة، وتدفع إلى حسن السلوك، وهي نزعة لا تحتاج إلى محرك خارجي، ولا إلى رقابة خارجية، إذ السلطان على الفرد عندئذ هو الاعتقاد الذي يحمله بين جنبيه.

والفرق بين المؤمن الذي يحمل في نفسه القوة الدافعة إلى العمل المستقيم، والتعاون مع الناس، وبين القانون الذي يضعه المجتمع ويفرضه بقوة الحراسة - وهي القوة التنفيذية - إن الفرق هو أن سلطان القانون وما يصحبه من قوة تنفيذية خارج عن الإنسان. والإنسان في المجتمع الحديث - وهو المجتمع صاحب القانون الوضعي وصاحب السلطة التنفيذية - يعمل بدفع هذه القوة الخارجة عنه، ولو تهاون هذا المجتمع في تطبيق القانون يوماً ما، أو خفت رقابة السلطة التنفيذية، فإن الفرد يتهاون بدوره في أداء ما كان يحتم عليه القانون أداءه، وما كانت السلطة التنفيذية ترقبه منه.

إقامتها التصور الصحيح للإنسان وعلاقته بالحياة بالتوفيق التام بين الوجهتين الروحية والمادية فيه، بحيث ينتفي ذلك التناقض الذي أقامته التصورات المنحرفة بينهما، وهو تناقض زرعت بذوره الأولى في الحياة الإنسانية عقيدة الخطيئة الأولى التي جاءت بها النصرانية والتقت فيها من حيث خطأ التصور والاستنتاج مع عقائد أخرى زائفة، منها ما هو قديم كالبودية والبرهمية، أو حديث كالروحية الحديثة.

«فالإنسان - حسب العقيدة النصرانية - يتعثر في الخطيئة الموروثة التي ارتكبتها آدم وحواء، وعلى هذا تعتبر الحياة كلها - وفي نظر العقيدة على الأقل - وادياً مظلماً للأحزان.. إنها الميدان الذي تعترك فيه قوتان: الشر المتمثل في الشيطان، والخير المتمثل في المسيح، إن الشيطان يحاول بواسطة التجارب الجسدية أن يسد طريق النفس الإنسانية نحو النور الأزلي، إن النفس ملك المسيح، ولكن الجسد ملعب للمؤثرات الشيطانية، وقد يمكن التعبير عن ذلك بوجه آخر: إن عالم المادة شيطاني في أساسه، بينما عالم الروح الإلهي خير.

وإن كل ما في الطبيعة الإنسانية من

وإن أساس الخلقية المثالية هو تصور عمل الواجب من الإنسان للإنسانية. وشتان بين قوة تعتمد على الاعتقاد بالله، وأخرى تقوم على تصور الإنسان للإنسانية. فالاعتقاد بالله من شأنه أن يبقى ويدوم، بينما تطورات الإنسان - مهما كانت - فإنها تخضع للعوامل التي يتأثر بها الإنسان، وبسهل عندئذ أن يتغير تصور الإنسان من لونٍ إلى لونٍ آخر.

وإذا كان أي قانون من القوانين لا يستطيع أن يستقل بذاته في أي وقت من الأوقات، بل لا بد أن يقترن حتى ينفذ وبصان بثقة الإنسان به، فإن مرتكز هذه الثقة هو مرتكز وجداني أخلاقي، لا تنشئه إلا العقيدة الدينية وحدها، وفي هذا ما يؤكد أن الإيمان وحده هو الذي يستوفي كل هذه الأمور، وينشئ ذلك الشعور الذي يظل يعتمل في قرارة ضمير المؤمن، فيحمله على الخير ويردعه عن الشر، ويحدث ذلك التفاعل الإيجابي - الناجم عن الثقة - مع الاستقامة والفضائل، وذلك التفاعل السلبي مع الانحراف والردائل^(٢).

كمال تصورها للإنسان والحياة:

أ - تتسم الثقافة الإسلامية من حيث

الصفات والنظريات لا يعدو أن يكون حيواناً ناطقاً تارة، وحيواناً مدنياً أو سياسياً أخرى، أو حيواناً راقياً حيناً، أو إنساناً مثقلاً بالخطيئة وارثاً للغواية حيناً آخر..

ج - «أما الإسلام فإنه لا يعرف الخطيئة الموروثة، ولا يعرف السقوط من طبيعة إلى ما دونها، فلا يحاسب أحداً بذنب أبيه، ولا تزر وازرة وزر أخرى، وليس مما يدين به المسلم أن يرد النوع الإنساني إلى ما دون طبيعته، ولكنه مما يؤمن به أن ارتفاع الانسان وهبوطه منوطان بالتكليف، وقوامه الحرية والتبعية، فهو بأمانة التكليف قابل للصعود إلى قمة الخليقة، وهو بالتكليف قابل للهبوط إلى أسفل سافلين، وهذه هي الأمانة التي رفعته مقاماً فوق مقام الملائكة، وهبطت به مقاماً إلى زمرة الشياطين»^(٤).

إن الإسلام يبطل كل التصورات المنحرفة والمتطرفة والفاصلة عن الإنسان حين يضع الإنسان أمام حقيقته من حيث أصل الخلقة حيث يقول الله تعالى:

﴿فليُنظِرِ الْإِنسَانَ مِمَّ خَلَقَ؟ خَلَقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٥).

ثم من حيث عناصر التكوين ومراحلها،

المادة - أي الجسد كما يؤثر اللاهوت النصراني أن يدعو - فإنما هو نتيجة مباشرة لزلة آدم، حينما سمع نصيحة الأمير الجهنمي للظلمة والمادة يعني إبليس، من أجل ذلك كان حتماً على الإنسان عندهم إذا شاء النجاة أن يلفت قلبه عن عالم اللحم إلى هذا العالم الروحي المقبل حيث تحل الخطيئة البشرية بتضحية المسيح، أي بفداء المسيح»^(٣).

ب - وليس التصور الفلسفي للإنسان - كما هو الحال في الفلسفات القديمة والحديثة - خيراً من هذا التصور النصراني الذي جاءت به الكنيسة.. إنه لدى كثير من هذه الفلسفات والنظريات تصور ناقص محدود يتناول الإنسان من بعض جوانبه ويهمل جوانبه الأخرى، فهو - مثلاً - يتناول الإنسان من جانب مزاياه العقلية فحسب دون النظر إلى المزايا الأخرى، وقد تعنى بعض التصورات بنواحيه الاجتماعية فقط وتهمل ما عدا ذلك، كما أن بعض هذه التصورات قد جاءت بافتراضات عجيبة حول ترتيب الإنسان بين أنواع الأحياء الأخرى وفق ما يسمى بمذهب النشوء والارتقاء. وبهذا نجد أن الإنسان لدى جل هذه

﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البرّ والبحر، ورزقناهم من الطيّبات، وفضلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً﴾^(٧).

وإذا كان هذا الإنسان من حيث الأصل مخلوقاً حقيراً ذليلاً، فإن ما أُسبغ عليه - بفضل الله - من الكرامة والتشريف، منوط بتلك الروح التي أودعها الله فيه، وبتلك المكانة التي رفعه إليها حين جعله خليفة في الأرض، ومعنى هذا أن كرامته وفضيلته إنما تتوقفان على أن لا يُلَوِّث روحه باتباع الشيطان وسلوك طريقه، وعلى ألا ينحدر من مرتبة الخلافة المتلازمة مع الخضوع والطاعة إلى حضيض البغي والعصيان.

وفي ذلك يقول عزّ وجل:

﴿وإذ قال ربك للملائكة: إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا: أتجعلُ فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إني أعلم ما لا تعلمون﴾^(٨).

ويقول سبحانه:

﴿قلنا اهبطوا منها جميعاً، فإمّا يأتيتكم مني هدىّ فمن تبع هداي فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها

وما ينشأ عليه من الضعف والعجز، ثم ما يوهب من القوة والشباب، وما ينتهي إليه بعد ذلك من انحطاط القوى والعجز والضعف مرة أخرى، وأنه لا بدّ أن يوافيه الأجل ويسلب نعمة الحياة وفق قدرة الله عزّ وجلّ وحكمته، وما اقتضته مشيئته، وفي ذلك يقول عزّ وجلّ:

﴿فإنا خلقناكم من تراب ثمّ من نطفة ثمّ من علقة ثمّ من مضغة مخلّقةً لنبين لكم ونقرّ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمّى، ثمّ نخرجكم طفلاً ثمّ لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفّى ومنكم من يردّ إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علمٍ شيئاً﴾^(٦).

فليس لهذا الإنسان أن يتجاوز حقيقته، وبشمخ بأنفه، ويعتد بقوته، ويتباهى بسطوته، ويمتلئ غطرسة وكبرياء، ويغيّر بما بين يديه من وسائل وأسباب، ومتع وثروات، وطاقات وأدوات، بل عليه أن يعلم أن هذا الكون قد سخره الله له من أجل فائدته ومتاعه، وعمارة هذه الأرض التي يعيش عليها، وفي هذا التسخير تكريم من الله لهذا الإنسان، وتكليف له وتشريف.. وخليق بهذا الإنسان أن يعرف منزلته، ويدرك تبعته، ويؤدي وظيفته. وفي ذلك يقول عزّ وجل:

خالدون ﴿٩﴾ .

كونه عضواً في جماعة. وإن منهج الحياة الوحيد الذي راعى هذه الاعتبارات كلها كان هو المنهج الذي وضعه للإنسان خالقه العليم بتكوينه وفطرته، الخبير بطاقاته ووظائفه، القادر على أن يضع له المنهج الذي يحقق غاية وجوده، ويحقق التوازن في أوجه نشاطه، ويحقق فرديته وجماعيته كذلك.

ولقد جاء منهج الإسلام للحياة الإنسانية بتحديد واضح رائع للعلاقة بين الإنسان والحياة، فإذا كانت هذه الحياة الدنيا قد خلقت لهذا الإنسان لينتفع بها ويستمتع فليس له أن يقف منها موقفاً سلبياً ظناً منه بأنها شيء يجب الاحتراز منه، كما ليس له أن يحرم على نفسه زينتها ونعيمها، بل من واجبه أن ينتفع بها ويستخدمها على قدر استطاعته، مع إدراك كامل منه وتمييز دقيق.. الصحيح والفاقد، والحق والباطل، والطيب والخبيث..

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٠).

وقال:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحَرِّمُوا

إن تفرد الإنسان في هذا الكون بطبيعته وتركيبه، وفي وظيفته وغاية وجوده، وفي مآله ومصيره؛ هو الذي يقرره التصور الإسلامي عن الإنسان في نصوصه الكثيرة، فكلها تقرر أن هذا الإنسان، خلق خلقه فذة خاصة مقصودة، وعينت له وظيفة، وجعلت لوجوده غاية، وأنه كذلك مبتلى بالحياة مختبر فيها، محاسب في النهاية على سلوكه فيها، هذا السلوك الذي يقرر جزاءه ومصيره.

ومن الطبيعي أن تقتضي خصائص الإنسان منهجاً للحياة الإنسانية يرعى كل تلك الخصائص والاعتبارات، يرعى تفرد الإنسان في طبيعته وتركيبه، وتفرده في وظيفته وغاية وجوده، وتفرده في مآله ومصيره، كما يرعى تعدده الشديد، وتنوع أوجه نشاطه، وتعدد الارتباطات بينها، ثم يرعى فرديته هذه مع حياته الاجتماعية.

وبعد هذا كله يضمن له أن يزاول وجوه نشاطه كلها، وفق طاقاته كلها، بحيث لا يسحق ولا يكبت، كما لا يسرف ولا يفرط، وبحيث لا يدع طاقة تطغى على طاقة، ولا وظيفة تعطي على وظيفة، ثم في النهاية يسمح لكل فرد بمزاولة فردية الأصلية مع

طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ، وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ .

وقال:

﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى، ثُمَّ يُحِزُّهُ الْجُزَاءُ الْأَوْفَى، وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ (١٥).

٣- وحدتها المترابطة المتناسقة:

أ- من خصائص الثقافة الإسلامية أنها كُلتٌ متحد مترابط متناسق، يؤخذ جملة وتفصيلاً دون اصطفاء أو استهواء، أو اعتبار لما يوافق الهوى أو يصادمه، فالثقافة الإسلامية بمفاهيمها العامة الشاملة ليست أجزاء متفرقة لا رابطة بينها، تعرض كما تعرض السلع في المتاجر ليختار الإنسان منها ما يلائمه، ويوافق مزاجه، ويدع ما لا يرغب فيه لعدم توافقه مع ذوقه أو لغلاء ثمنه.

«إن الإسلام كُلتٌ لا يتجزأ، فإما أن يؤخذ جملة، وإما أن يترك جملة، أما أن يستفتى الإسلام في صغار الشؤون، وأن يهمل في الأسس العامة التي تقوم عليها الحياة والمجتمع، فهذا هو الصغار الذي لا يجوز لمسلم أن يقبله للإسلام.

إن جواب أي إستفتاء عن مشكلة جزئية

ومع هذه الدعوة إلى الانتفاع بالحياة يضع التصور الإسلامي أمام الإنسان صورة عن عاقبة هذه الحياة ومآلها، حتى لا تلهيه عن وظيفته، أو تشغله بمفاتها ومباهجها عن العناية الحقيقية من وجوده، فالحياة الدنيا ظل زائل وعرض حائل، وهي محدودة بأجل مسمى، ونهايتها هو الموت المحتوم، وإنما الشيء الوحيد الذي له البقاء والخلود في هذا العالم الفاني هو الصلاح. صلاح القلب، وصلاح الروح، وصلاح الأعمال (١٢).

مؤمنون ﴿١١﴾ .

قال تعالى:

﴿إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ (١٣).

وقال عزَّ وجلَّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (١٤).

وقال:

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ

المنافع والمصالح والرغبات، فالمسلم مطالب بأن يقيد حريته الخاصة، ورغبته الذاتية بقيود الشريعة، حتى طصح أن يوصف بأن قد سلك صراط الله المستقيم، وصدق في الانتماء لهذا الدين. ولا بدّ مع الإذعان لحكم الله والتسليم له وصدق الاتباع لأمره، من اليقين الكامل بأحقية هذا النظام الإسلامي، وأنه وحده النظام الذي يحقق السعادة الكاملة للإنسان في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(١٨).

ج - إن وحدة الثقافة الإسلامية المترابطة المتناسقة ترتكز من وجهة نظر الإسلام على أساس منطقي قوي وهو: أن الحقائق لا يمكن أن تكون متناقضة. ولما كان الإسلام قد قدّم للبشرية الحقائق كاملة. وحسم بذلك كل المنازعات والخلافات التي ثارت حول كثير من قضايا الإنسان والكون والحياة، فإنه قد أرسى دعامة الوحدة الفكرية والروحية على قاعدة المنهج الرباني الذي هدم الخرافات والأوهام والتناقضات، برد الأمر في هذه القضايا إلى الله عزّ وجل.

من مشكلات المجتمعات التي لا تدين بالإسلام، ولا تعترف بشريعته أن يقال: حكموا الإسلام أولاً في الحياة كلها، ثم اطلبوا بعد ذلك رأيه في مشكلات الحياة التي ينشئها هو، لا التي أنشأها نظام آخر متناقض للإسلام..

إن الإسلام يربي الناس تربية خاصة، ويحكمهم وفق شريعة خاصة، وينظم شؤونهم على أسس خاصة، ويخلق مقومات اجتماعية واقتصادية وشعورية خاصة، فأولاً طبقوا الإسلام جملة، في نظام الحكم، وفي أسس التشريع، وفي قواعد التربية، ثم انظروا هل تبقى هذه المشكلات التي تسألون عنها، أم تزول من نفسها، أم قبل ذلك فما للإسلام وما لهذه القضايا التي لا يعرفها المجتمع الإسلامي الصحيح؟^(١٧).

ب - إن مناط الأمر في هذه القضية قائم على فهم المعنى الحقيقي الشامل لانتماء الإنسان للإسلام، فالانتماء للإسلام يقتضي من المسلم أن يدعن بأن الحاكمية لله عزّ وجل، وأن حكم الله تبارك وتعالى فوق كل رأي من آراء الأشخاص أو الجماعات، أو الأهواء أو المصالح، ولا يعد هذا الانتماء الإسلامي صحيحاً إذا أصابته التجزئة بسائق

الفاسدة.. يقول عز وجل:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا
لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾^(٢٠).
ويقول سبحانه:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ
فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢١).
ويقول:

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ
يَعْلَمُونَ﴾^(٢٢).
ويقول:

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ
يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِنْ
عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْحَقُّ﴾^(٢٣).

د - وتقوم هذه الوحدة المترابطة
المتناسقة على أساس خاصة الشمول في
العقيدة الإسلامية، وهي خاصة تجعل
العقيدة الإسلامية هي وحدة العقيدة المثلى
للإنسان، منفرداً ومجتمعاً، وعاملاً لروحه أو
عاملاً لجسده، وناظراً إلى دنياه أو ناظراً إلى
آخرته، ومسالماً ومحارباً، ومعطياً حق نفسه
أو معطياً حق محاكمه وحكومته، وليس يقبل

ومن هنا لم يستطع أعداء الإسلام أن
ينفذوا إلى كيانه الاعتقادي والفكري والروحي
والتشريعي، المرتكز على الوحدة الدينية
الأصلية، التي تستجيب لها القلوب، وتشرح
الصدور، وتتفاعل العقول ليهدموه جملة بل
لجؤوا إلى أسلوب التفريق والتمزيق.. تفريق
المسلمين إلى شيع وطوائف وأحزاب،
وتمزيق وحدة عقيدتهم ونظامهم، بإثارة
الشبهات، ونشر الافتراءات، وتشويه حقيقة
الإسلام، بالإلحاح المتواصل على إقصاء
الدين عن الحياة، وحصره في نطاق محدود،
يسلبه عنصر التأثير والتوجيه والتنظيم،
لقضايا الإنسان الفكرية والمادية والسياسية
والاجتماعية..

قال تعالى - في تقرير هذه الوحدة الدينية
الأصلية، وإقامتها والنهي عن تمزيقها :-

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به
إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدِّينَ
ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما
تدعوهم إليه﴾^(١٩).

وفي كשב دعاة هذا التفريق والتمزيق،
وفضح نواياهم الخبيثة الحاقدة، وأساليبهم
التي تحركها مصالحهم الذاتية وأهواؤهم

الفصام، الذي يباعد المسافة بين الروح والجسد، والدنيا والآخرة، والفرد والجماعة.. ولن يجد الإنسان هذا الشفاء إلا في عقيدة الإسلام وحدها التي تعصمه من الحيرة والانقسام، ولا تشطر سريرته وحياته أشرطةً مختلفة، بل تقيم نفسه ووجوده على ركيزة الوحدة الكاملة في أمر وجدانه وعمله ودنياه وآخرته، ووحدة واجتماعه^(٢٤).

قال تعالى:

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ﴾^(٢٥).

٤- بثها روح التميز في الأمة:

أ - ومن خصائص الثقافة الإسلامية بث روح التميز التام لهذه الأمة في القول والعمل والسلوك.. تميزاً ينأى بها نأياً كاملاً عن التشبه بغيرها من الأمم المخالفة لها في العقيدة والخلق والاتجاه، في كل شأن يمس وجودها الفريد، وأوضاعها الاجتماعية وطابع شخصيتها العامة.

إن الشعور بالتميز يصون في الأمة مقومات وجودها، وينشئ لها كياناً راسخاً

- في منطق هذه العقيدة - أن يطلب الإنسان الدنيا ويغفل عن الآخرة، كما لا يقبل منه كذلك أن يكون سلبياً تجاه الحياة، وما تقتضيه من عمل وجد وجهاد، بدعوى السمو بالروح وطلب الآخرة، وليس مقبولاً أصلاً - بمنطق هذه العقيدة - أن يصحب الإنسان إسلامه في حالة، ويدعه في حالة أخرى، فالعقيدة بالنسبة للمسلم روحه الحية الدائمة، المتحركة في وجدانه وسلوكه وعمله، في جميع حالاته وجميع حالاتها، سواء تفرد وحده أو جمعته بالناس أو أواصر الاجتماع.

إن شمول العقيدة في ظواهرها الفردية، وظواهرها الاجتماعية هو المزية الخاصة في العقيدة الإسلامية، وهو المزية التي توحى إلى الإنسان أنه «كلٌّ» شامل، فيستريح من فصام العقائد التي تشطر السريرة شطرين، ثم تعيا بالجمع بين الشطرين على وفاق.

وكما لا يقبل أن ينقسم الإنسان قسمين بين الدنيا والآخرة، أو بين الجسد والروح، أو بين خصائصه الفردية ونزعاته الاجتماعية، لأن في هذا الانقسام فصاماً يشق على النفس احتماله، ويدفع الإنسان إلى الحيرة والقلق والاضطراب.. فكذلك لا بد له إزاء هذا الشقاء من عقيدة تشفيه من آفات هذا

﴿من الذين هادوا يحرّون الكلم عن مواضعه، ويقولون: سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع، وراعنا لئلاً بألسنتهم وطعناً في الدين، ولو أنهم قالوا: سمعنا وأطعنا، واسمع واطنرنا لكان خيراً لهم وأقوم، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلّا قليلاً﴾ (٢٧).

وكذلك جاءت الأحاديث بالاخبار عنهم بأنهم كانوا اذا سلموا إنما يقولون: السام عليكم (والسام هو الموت). كما ورد أن بعض اليهود كان يأتي النبي ﷺ فإذا لقيه فكلمه قال: أرعني سمعك واسمع غير مسمع. وقد حسب المسلمون أن الأنبياء كانت تفخم بمثل هذا الخطاب، فكان ناس منهم يقولون مثل هذا القول.. فجاء النهي للمؤمنين عن التشبه باليهود في أقوالهم وأفعالهم.. وكره الله للمسلمين أن يقولوا لنبيهم ﷺ: (راعنا)، وسقطت هذه الكلمة في ميدان التربية الإلهية، لا باعتبار حروفها وتركيبها، فهي كلمة عربية مثل غيرها من الكلمات، ولكن باعتبار صدورها عن اليهود الأشرار المفسدين. وفي هذا نهى قاطع للمسلمين عن التشبه بالكافرين في كل ما يصدر عنهم من قول أو عمل، لأن من تشبه بقوم فهو منهم، وكيف يتشبه المسلمون بهؤلاء

صلياً، لا يعتريه التصدع، أو ينفذ اليه الخلل، ما دام هذا الشعور مستنداً إلى الحق والخير والفضيلة، منبثقاً من جوهر العقيدة، وأصولها الثابتة، متصلاً بالشريعة وأحكامها بأوثق سبب.. وهو - في آثاره الفكرية والنفسية - يعمق ما ينبغي أن يكون عليه المسلم من كراهية للفكر ونفور منه، وتباعد عن خطه المنحرف، وسيره الشاذ.

قال تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذابٌ أليم. ما يودّ الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ (٢٦).

ففي هاتين الآيتين لفتة تربوية عالية تلح على الفاصل الكبير بين أسلوبيين في الخطاب، بينهما في ظاهر اللفظ تشابه، لكنهما - في ظلالهم النفسية، وما تنم عنه من نوايا - مختلفان.

وقصة ذلك: أن اليهود كانوا يعلنون من الكلام ما فيه تورية، لما يقصدون من التنقيص، فاذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا. يقولوا: راعنا، ويوزون بالرعونة كما قال تعالى:

والضالين أصحاب الجحيم.

٥- إيجابية في روحها:

إن مما تمتاز به الثقافة الإسلامية - وهي مفاهيم دعوة عامة شاملة كاملة - رعايتها الخاصة للروح الإيجابية في الإنسان، فهذه الروح التي تبثها هذه الثقافة في الكيان الفكري والنفسي والاجتماعي للمؤمن، ترتفع به عن حدود الذات في مطالبتها وأشواقها ورغباتها، إلى أرحب مدى إنساني. وبذلك تكون النعمة على المؤمن في الهداية والاستقامة نعمة كبرى، يشع نورها إلى غيره من الباحثين عن الحقيقة، المتطلعين إلى الهداية، المشوقين إلى الاستقامة.

ومن حكمة الله عزَّ وجلَّ ورحمته بعباده أن أنعم عليه بهذا الدين الذي جاء هدى للناس كافة، وسعادة لهم في الدنيا والآخرة، واختار الله لتبليغه ونشره، وبث تعاليمه، وإقامة شرعته: هذا النبي الأمي الكريم الذي كان صفوته من خلقه، وخاتم أنبيائه ورسوله، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح للأمة، وجاهد في الله حق جهاده وزان التاريخ بمآثر مجد خالد، وآيات بطولة رائعة، ورفع في الدنيا راية الحق، وشاد صروح العدل، وبنى حصون

الأعداء؟ من الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وهم يطوون صدورهم على أشد العداوة والبغضاء، ولا يضمرون للمؤمنين إلا الحقد والضعينة، ويكرهون - حسداً واستكباراً وتعصباً - أن يختارهم الله لحمل رسالة الحق والخير والساد، وأن يعدهم لقيادة البشرية، وتحريرها من أغلال الظلم والظغيان..

ب - وإن المسلمين الذين اختصهم الله برحمته، ومنَّ عليهم بفضله العظيم، فكانوا حملة الأمانة الإلهية، والأمة الوسط الشهداء على الناس.. مدعوون - دائماً - إلى أن يلتزموا المنهج الإسلامي الكامل في العقيدة والفكر، والقول والعمل، والاجتماع والأخلاق، وكل شأن من شؤون الحياة.. مدعوون - بحكم هذا المنهج - أن يعتصموا بحبل الله، ويتبعوا هدايته، ويعتزوا بشخصيتهم الإسلامية الفريدة التي بها سادوا، وبها يسودون. وهذا هو ما تؤكد الثقافة الإسلامية على بنائه في فكر المسلم، وغرسه في ضميره، وجعله محور حركته واتجاهه، حتى تكون صياغته، وفق مفاهيم هذه الثقافة، صياغةً فريدة تتسم بالتميز التام الذي لا سبيل إليه إلا بالاعتصام بهدى الله، والسير على صراطه المستقيم، ومجانبة سبل المغضوب عليهم

عليه من رحمة أودعها الله فيه، وزادها الإيمان قوة ونماء أن يحمل إلى القلوب زادها، وإلى النفوس ربّها، وأن يزيح عن الأبصار الغشاوة.. ثم يقود الخطى على درب السلامة في حب وإيثار، وإنسانية عالية، عميقة الإدراك، مرهفة الشعور، تملك من طاقات العطاء الخير، والإحسان الكبير نبعاً ثراً لا ينفد، ولا يزيده الأخذ منه الا مزيد فيض، وقوه تفجّر.. عن ابن عمرو أنّ رسول الله ﷺ قال:

(ما أهدى المرء المسلم لأخيه هديةً أفضل من كلمة يزيدة الله بها هدى، أو يرده عن ردى) (٢٩).

وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً) (٣٠).

ب - إن المؤمن منطلق في دعوته إلى الهدى، ونصحه للناس، وبره بهم، من الروح الإيجابية في الإيمان.. هذه الروح التي تأبى أن تكون الهداية مجرد يقظة في فكر الفرد، أو شعور في وجدانه، لا يتجاوز بها صاحبها

الحرية، واستنقذ الإنسان من وهدة الضلال، وتيه الفراغ والضياع، ولفته إلى حقيقة فطرته، وجوهر أصالته، وأقامه على النهج السوي، والجادة القويمية، وسار به في معالم نيرة، ومسالك واضحة، ووجهه إلى أصح الاهداف وأنبأ المقاصد..

قال سبحانه:

﴿كما أرسلنا فيكم رسولا منكم يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (٢٨).

ولقد وعى الإنسان بهذه الهداية رسالته، وأدرك بهذا المنهج ذاته، فاستمسك بعروته الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وصاغ وفق تعاليمه السمحة حياته، في عبودية خالصة، وامتنال كامل.. يحل ما أحل الله له، ويحرم ما حرم الله عليه، في التزام تام لما رسم من حدود، واتباع كريم لما سنّ من أحكام، وذاق حلاوة الإيمان، واستظل برايته العزيزة وأوى إلى حماه الأمين.. فعز عليه أن يسعد والناس في شقاء، وبطمئن والبشر في قلق، وبروى والخلق في ظمأ قاتل، يجرون وراء السراب، فدفعه ما فطر عليه من حب للخير، وما جبل

للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿٣٣﴾ .
وفي هذا يقول الرسول ﷺ: (لأن
يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر
النعم) ﴿٣٤﴾ .

ج - إذا كانت هذه الإجابة - وهي إحدى
خصائص دعوة الإسلام وثقافته - تتمثل في
دعوة الناس إلى الحق، وحب الخير لهم،
والعمل على ما ينجيهم من شقاء العمر،
وسوء المنقلب والمصير.. فإنها - في مداها
الأرحب - تطبع المؤمن في أسلوب دعوته
بطابع الإحسان والإخلاص، والثبات على
المبدأ، والصبر على الأذى، والدأب الذي لا
تصرمه الخيبة، ولا يخالطه اليأس مهما
بعدت الشقة، وعز المنال، وصعب المسير..
لأن الأساس الذي ترتكز عليه هذه
الإيجابية، هو التحرر من المطامع وإغرائها،
وتقبل المغارم مهما كانت ثقيلة، وقهر أفتي
الطمع والخوف صفة متلازمة مع منطق
الدعوة في التجرد والثبات.. فعل المؤمن أن
يؤدي واجبه في التبليغ والإرشاد، دون أن
ينتظر جزاء أو شكوراً، بل لقد خشى بعض
الصحابة رضي الله عنهم أن يكون في ثناء
الناس على من يعمل الخير ما يحبط الأجر،
أو يخدش قصد العمل.. فطمأن الرسول ﷺ

حدود ذاته، ونطاق نفسه، دون أن يؤدي حق
هذه النعمة بالدعوة والإرشاد، والقيام بما كلفه
الله به من التبليغ والشهادة، إنه يأبى أن
يحتجز الخير لنفسه أو لأسرته أو عشيرته أو
بني جنسه.. ويوقن أن الأثرة تتناقض مع
طابع عقيدته، والسلبية تتنافى مع اتجاه
رسالته، ويدرك أن عليه أن يؤدي واجب
الشهادة التي قررها الله تبارك وتعالى في
كتابه الكريم حيث قال:

﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا
شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم
شهاداً﴾ ﴿٣١﴾ .

وقال:

﴿ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من
الله﴾ ﴿٣٢﴾ .

كما يشعر أن يحمل على عاتقه تبعات
انحراف الناس عن الحق، وسلوكهم درب
الشیطان، وانزلاقهم إلى هاوية الضلال،
وشعوره هذا يبعث في نفسه الرضا، وفي
ضميره الطمأنينة، لأنه يسعد بتحقيق ما
كلف به من النهوض بمسؤولية الخلافة في
الأرض، وصون ميراث النبوة الذي حدده
سبحانه وتعالى بقوله:

﴿رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون

وقال:

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول
واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على
رسولنا البلاغ المبين﴾ (٣٨).

(فإن حاجوك فقل: أسلمت وجهي لله
ومن أتبعن وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين
أسلمتم؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا، وإن تولوا
فإنما عليك البلاغ، والله بصيرٌ بالعباد) (٣٩).

د - إن الارتفاع إلى مستوى الرسالة،
والإخلاص في العمل، ووضوح الغاية،
وسلامة القصد، يُزود المؤمن بطاقة عظيمة
تحركه للقيام بالواجب، وتهوّن عليه ما يلقي
من المتاعب، وقدوة المسلم في ذلك رسول
الله ﷺ فقد قام بأمر الله ببلغ الدعوة،
ويصدع بالحق، ويأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر، وينفذ أحكام الإسلام بصدق وأمانة
وإخلاص على أكمل الطرق وأتمها.. لم
يصرفه عن ذلك ما لقي من التحدي
والمقاومة والإعراض، ولم توهن السيوف
التي سلت في وجهه ووجوه أصحابه من
صدق عزيمته، وقوة إرادته.. وكان ملاذه
الدائم العمل على ما يرضي الله عزّ وجلّ،
وإن سخط عليه الناس أو نالوه بمساءة
وأذى..

سأله عن هذا ليطمئنّ نفساً، وينعم بالآ.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: (قيل
لرسول الله ﷺ: أرايت الرجل الذي يعمل
العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال:
تلك عاجل بشرى المؤمن) (٣٥).

والمؤمن لا يعلق عمله على الاستجابة،
أو يربطه بالنجاح، فهذه أمر لا شأن له بها،
ولا يستطيع أن ينالها بمزيد سعيه، ووافر
عمله، إذا لم تكن مما كتبه الله وقدره،
وقدنبه الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ إلى هذا
في كتابه الكريم ليكون على بصيرة من
الأمر، وفي هذا الإرشاد الإلهي درس عظيم
للدعاة إلى الله حتى يحذروا الضعف والتردد،
ولا يمسه القنوط إذا لم يجدوا ما يؤملون
من نجاح. أو لم يلقوا ممن يريدون الخير لهم
إلا الجحود والإعراض، أو الأذى والنكال..
وفي هذا يقول الله عزّ وجلّ:

﴿ليس عليك هداهم، ولكن الله يهدي
من يشاء﴾ (٣٦).

كما ذكر الله تبارك في آيات كثيرة أن
مهمة الرسول هي الإرشاد والتبليغ والتذكير
فقال سبحانه:

﴿ما على الرسول إلّا البلاغ والله يعلم
ما تبدون وما تكتمون﴾ (٣٧).

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤١).

وفي دعوة الإسلام العامة الشاملة الخالدة روح أخلاقية عالية، تنبثق من جوهر العقيدة، وتشيع في كل عبادة، وترى في كل حكم، وتظهر في كل توجيه، وتلمس في كل تنظيم.. ولهذا كانت الثقافة الإسلامية دستور الأخلاق، ومنهاج التربية النفسية لرفع الإنسان الذي كرمه الله بتكليفه حمل هذه الرسالة، وأداء هذه الأمانة من حضيض الفساد، وبؤر التمزق والانحراف إلى أوج الصلاح والتماسك والاستقامة.

قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٤٢).

وقد حدد رسول الله ﷺ مهمة بعثته وهو خاتم الأنبياء والمرسلين بهذه الكلمة الرائعة الجامعة «إنما بعثت لأتمم مكارم الاخلاق» (٤٣). وفي هذا دلالة كبرى على أن دعوة الإسلام هي وحدها منتهى الخير، وذروة الفضائل، وصفوة الكمال، وخلاصة

لقد توجه إلى الله بدعاء خاشع رائح يوم حصبه المشركون في الطائف بالحجارة، وأوصدوا دون دعوته قلوبهم وأسماعهم، فقال:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين، أنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله» (٤٠).

٦- أخلاقية في دعوتها:

أ - جاء هذا الاسلام منهج هداية ونور، لتصحيح عقيدة البشر، وتهذيب نفوسهم، وتقويم أخلاقهم، وإصلاح مجتمعاتهم، وتنظيم علاقاتهم، وإشاعة الخير فيما بينهم، ومطاردة الشر والفساد في بيئاتهم، وقطع دابر الفرقة والتناحر بين صفوفهم.

قال تعالى:

وسيرة الصفوة الرائدة من صحابته رضوان الله عليهم.. وفي هذا التعاون الوثيق والتساند المحكم بين التوجيه والقدوة، والإرشاد والتطبيق، يُشادُّ البناء الأخلاقي على أمتن الأسس، ويبلغ الذروة في القوة والإحكام..

قال تعالى:

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوةً حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(٤٦).

ونلمس أثر هذا العنصر في الدعوة الدائمة الملحة إلى الأخلاق الكريمة من أمانة ووفاء، وعدل ورحمة، وبر وإحسان، ووفاء بالوعد، وصيانة للعهد.. والتحذير الدائم من الصفات السيئة كالغدر والخداع، والظلم والاعتداء، والغش والالتواء، وغير ذلك مما تأباه الطباع الكريمة، والنفوس الطيبة.. ولا يقف الأمر في هذه الدعوة عند حدود التوجيه والترغيب أو النقد والتحذير، بل يتجاوز ذلك إلى التنفيذ والالتزام، في التشريع والأحكام، لتكون المسؤولية الفردية والجماعية أساس الحماية والتطبيق لهذا الجانب الأخلاقي في حياة الأفراد والجماعات، وليكون الروح الحية الفعالة في أعماق ضمائر المؤمنين،

الأخلاق.. كما أن صاحب هذه الدعوة رسول الله صلى الله عليه وآله كان النموذج الأمثل للخلق الرفيع بما حباه ربه من صفات وفضائل تجل عن الوصف، ويضيق عنها البيان، وحسبنا أن نتلو قول الله عز وجل في الثناء على نبيه محمد ﷺ: (وإنك لعلى خلقٍ عظيم)^(٤٤)، لنذكر هذا المستوى الكبير من سمو نفسه، ورفعة أخلاقه، ونبل صفاته.. وقد وصفت السيدة عائشة عنها خلقه بهذا الوصف الجميل: «كان خلقه القرآن»^(٤٥)، وفي هذا تنبيه عظيم، ولفتة ذات دلالة إلى أن أخلاق الرسول الكريم ﷺ هي التطبيق الحي لما في كتاب الله عز وجل من فضائل الأخلاق ورفيع الصفات مما يبلغ الغاية في صفاء القلب، ونقاء الضمير، وطهارة النفس، وحسن المعاملة، والصدق والإخلاق في القول والعمل والسلوك.

ب - ولما كانت هذه الثقافة تقوم على أصول اعتقادية وتهذيبية وتشريعية تتلاقى جميعاً في منهج تكاملي يصلح من شأن الإنسان، ويعمل على إبعاده في الدنيا والآخرة.. فإننا نرى أن العنصر الأخلاقي أصيل وواضح في أصول دعوة الإسلام، كما أنه السمة البارزة في سيرة رسولها ﷺ..

محمدًا ﷺ داعياً إلى الاستقامة، مبيناً أنها الأمر الإلهي الذي به يصلح كل شأن في الدين والدنيا والآخرة: ﴿فاستقم كما أمرت﴾ (٤٩).

وقد كان ﷺ المثل الأعلى في الاستقامة في قوله وعمله وحياته كلها، وكان يأمر بها ويحث عليها، واعتبرها إذا ارتكزت على الإيمان بالله ملاك دعوة الاسلام:

عن أبي عمرو - وقيل أبي عمرة - سفيان بن عبدالله عنه قال: قلت يا رسول الله:

قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك. قال: «قل أمنت بالله ثم استقم» (٥٠).

ج - ولا شك أن النفس الإنسانية هي مصدر الأخلاق، فعنها تصدر الفضائل، ومنها تقع الرذائل، وبالتزامها نهج العقيدة، واتباعها سبيل التقوى، تتحلى بالخلق الحسن، وتتصف بأبلى الصفات، وبانحرافها عن جادة الاسلام، ونأبها عن سبيله القويم، تتردى في المهالك، وتغرق في المفاسد والآثام.. ولذا فقد عرض القرآن الكريم في آيات كثيرة لنفسية الإنسان عرضاً دقيقاً، وصورها في أحوالها المختلفة، حتى يكون المؤمنون على بصيرة من خبايا نفوسهم، ويدركوا

والمحور الذي ينتظم سلوكهم في حياتهم الخاصة، وواقعهم الاجتماعي..

ولعل الدعوة إلى الاستقامة تحدد معنى هذه الأخلاقية العالية، وترشد إلى الطريق التي تحقق للمؤمنين إنسانيتهم المثلى، وتؤهلهم لحمل هذه الرسالة، وتجعل منهم الأمة الوسط التي اختارها الله لتكون شهيدة على الناس، وهادية إلى سواء السبيل، تثبت بيناتها للمعروف، وهدمها للمنكر، أنها أهل لتكريم الله لها، واستخلافها في الأرض، وجعلها خير أمة اخرجت للناس.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشَرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ نَزَلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ﴾ (٤٧).

وقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٤٨).

وقال تبارك وتعالى مخاطباً نبيه

الذين تمتلئ نفوسهم بالطمأنينة والرضا، فيصبرون على ما يمسهم من ضرر، ويشكرون على ما ينالهم من خير، وحدد ملامح نفوسهم الرضية، وسماتهم الطيبة في العبادة والمعاملة والسلوك فذكر أنهم يؤدون حق ربهم بصلاة دائمة خاشعة، وزكاة معلومة كريمة، وتصديق بيوم الدين، وخوف من عذاب الله.. ثم ذكر سبحانه نماذج من أخلاقهم الفاضلة وختم ذلك ببيان مرتبتهم العالية، وما أعد لهم من نعيم وثواب في دار الكرامة والخلود، فقال في الثناء على ما فيهم من طهارة وعفة، وصيانة للأمانة، ورعاية للعهد، وأداء للشهادة:

﴿والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قائمون والذين هم على صلاتهم يحافظون أولئك في جنات مكرمون﴾ (٥٢).

٧- رعايتها للوحدة الإنسانية والمثل العليا:

أ - إن المعنى الإنساني للثقافة

مسؤولياتهم إزاءها، ويعملوا على تنمية الخير فيها، وتقوية الشر منها، ويتصاعدوا بها إلى أفاق السمو والطهر والنقاء.

قال تعالى:

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلَقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلَّا الْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ (٥١).

ففي هذه الآيات الكريمة تصويرٌ - ينبض بالحياة - للنفس الإنسانية بما تعانیه من جزع إذا أصابتها الضراء، وما تمارسه من بطر إذا مستها النعماء، فإذا هي في إحدى حالتَيْها فريسة القلق الدائم، يمزقها الخوف، ويطبق عليها الهلع.. ثم إذا بها في حالة أخرى مستعلية مستكبرة، ذات أثره وطر، يشد بها الحرص فتجحد النعمة، وتمنع الخير.. وهي في الحالين نفس محجوبة عن الخير، بعيدة عن الاستقامة، منحرفة عن الخلق السوي، ذلك أنها عاشت في خواء من الإيمان ففقدت الطمأنينة وجانبت سبيل الرشاد..

وقد استثنى الله عزَّ وجل المؤمنين

قال في كتاب (أصالة الثقافات) - وهو مجموعة مقالات من مطبوعات اليونسكو - تحت عنوان «موقف الفلسفة تجاه تنوع الثقافات»:

«يمكن تعريف الثقافات - من ناحية - بكونها أنماطاً ناشئة عن تطور تاريخي، - ومن ناحية أخرى - كمجموعة من العادات يعترف بكونها مقبولة في جماعة معينة، كما يمكن متابعة أثارها في كل دوائر النشاط الإنساني كالسياسة والحقوق والفن والدين والمعرفة العقلية بمختلف صورها. إن مثل هذا التعريف لا يتعلق بثقافة وطنية معينة فحسب، بل يمكن أن يصدق على جماعة عالمية. وهذا ما يسمح لنا بأن نؤكد أن تنظيم السلام والأمن لا يقتضي توطيد الوضع الراهن، واتخاذ التدابير المؤدية إلى منع الخصومات المسلحة فحسب. بل يقتضي إنشاء نظام إيجابي عالمي يلبي بصورة دقيقة مطامح الشعوب، ولكن ليس على نظام من هذا النوع - كي يتلاءم مع حاجات وموارد الشعوب المختلفة - أن يعكس طبائع الشعوب، أي أوضاعها وعاداتها فحسب، بل عليه أن يعدلها أيضاً، ولكي ننشئ هذا النظام العالمي لا بدّ لنا أولاً من الاستناد إلى

الإسلامية واضح في كل جانب من جوانبها، لأنها ثقافة منبثقة عن المفاهيم والمثل الإنسانية العليا، في أوسع أفاقها وأسمى أهدافها.

ولقد دَرَجَ الباحثون في ثقافات الأمم على تلمس هذا المعنى الإنساني فيما يسود المجتمع البشري من عادات وتقاليد، وضروب المعارف العقلية، ودوائر النشاط الإنساني في شؤون السياسة والحقوق والفن، وغير ذلك مما يبذله الإنسان لكي يفهم محيطه ونفسه، ولكي يسيطر بالتعاون مع أمثاله على الطاقات المذخورة في الكون.. ولقد حمل فقدان هذا المعنى الإنساني في الثقافات الوطنية عامةً باحثاً أمريكياً (رتشارد ماك كوين) - مستشار وفد الولايات المتحدة في الدورات الأولى والثانية والثالثة للمؤتمر العام لليونسكو - على الدعوة إلى إنشاء نظام إيجابي عالمي يلبي مطامح الشعوب.. مشيراً إلى أن على هذا النظام أن يعدل طبائع الشعوب وأوضاعها وعاداتها، مستنداً في ذلك إلى المكتسبات العقلية والخلقية، ومبتكرات الأفراد - في الاطار العالمي طبعاً - في ميدان الفكر والعمل والتعبير..

سرعة التبدلات التي تهدد التطور وتكييف القيم، فإن التقدم المادي المصالح الخاصة تكون معرضة هي الأخرى للخطر».

ويختتم البيان المشترك بالإلحاح على التعاون - في إطار اليونسكو - لتكوين النزعة الإنسانية فيقول:

«إن مشكلة التفاهم الدولي هي مشكلة علاقات بين الثقافات، فمن هذه العلاقات بين الثقافات يجب أن ينبثق مجتمع عالمي جديد، قوامه التفاهم والاحترام المتبادل، وهذا المجتمع يجب أن يأخذ صورة نزعة إنسانية جديدة، يتحقق فيها الشمول بالاعتراف بقيم مشتركة تحت شعار تنوع الثقافات».

وبعد أن يشير البيان إلى أن مثل هذا المجتمع لا يمكن أن تحققه الأمم بوساطة وزارات للاستعلامات أو إدارات للعلاقات الثقافية يقول:

«أما منظمة دولية مثل منظمة اليونسكو فإنها قادرة على أن تدعو جميع قوى التربية والعلم والثقافة إلى تكوين نزعة إنسانية كهذه، وذلك بالكشف عن قيم ومعان مشتركة، تحت التعبيرات الخاصة، إن قيام تفاهم دولي ونزعة إنسانية جديدة، هو - من جهة -

المكتسبات العقلية والخلقية وتوطيدها، ومن الضروري كذلك أن نغير انتباهنا لكل مبتكرات الأفراد في ميدان الفكر والعمل والتعبير، وأن نقدها ببصيرة صافية، وأن نبحت عن الميول والغايات التي تقابلها. ذلك أن هذه المبتكرات لا تتعلق بشروط اجتماعية وعوامل سياسية (ملائمة أو معادية) فحسب، بل تنشأ آخر الأمر طبقاً لمعاييرها الخاصة، معايير الحكم الخلقى أو الجمالي أو العلمي مثلاً»^(٥٣).

وقد صدر في البيان المشترك^(٥٤) لمجموعة الخبراء المجتمعين بدعوة من اليونسكو لدراسة المشكلات الناشئة عن الاتصالات والعلاقات بين الحضارات في العالم الراهن ما يلي:

«إن جامعة عالمية في المثل العليا تنبجس ببطء، ويمكن أن تكون أساساً للمنظمات السياسية والمبادلات الاقتصادية الدولية، فإذا توصلت الأمم إلى أن تتفاهم، حلت الثقة محل الخوف والتوترات، وأصبح من الممكن - في إطار قيم مفهومة ودوافع معروفة - أن يتوصل التعاون الاقتصادي والاتفاق السياسي إلى نهاية موفقة حقيقية، أما إذا أغفل هذا الإطار الثقافي، أو حطمته

إلا إذا اعتبرت شخصية الإنسان السوية وحدة متماسكة، تبنى على أساس عقيدة واحدة، فلا تصدر إلا عنها، ولا تستلهم في الشعور والسلوك سواها، ولا تستهدي في مواجهة الكون والحياة إلا وحيها، ولا ترجع في كل صغيرة وكبيرة إلا إلى توجيهها.. «والعقيدة الإسلامية هي المثال الواحد الذي عرفته الإنسانية في تاريخها الطويل في هذا المجال، إنها العقيدة التي تنسج فتشمل كل نشاط الإنسان في كل حقول الحياة، فلا تقتصر مهمتها على حقل دون حقل، ولا على اتجاه دون اتجاه، إنها لا تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فما لقيصر؟! وقيصر ذاته في العقيدة الإسلامية كله لله، وما لقيصر حق ليس للفرد من رعاياه، وإنها لا تتولى روح الفرد وتهمل عقله وجسده، أو تتولى شعائره وتهمل شرائعه، أو تتولى ضميره وتهمل سلوكه، وإنها لا تتولاه، فرداً وتهمله جماعة، ولا تتولاه في حياته الشخصية، وتهمل نظام حكمه أو علاقات دولته، إنها الفكرة الكاملة الشاملة التي تمتد خيوطها في الحياة الإنسانية امتداد الشرايين في الكائن الحي وامتداد الأعصاب»^(٥٦).

ج - ثم إن هذه السمة المميزة لثقافتنا

ضروري لنجاح التلاؤمات السياسية، كما أن هذا التفاهم وهذه النزعة الإنسانية الجديدة هما - من جهة أخرى - عنصران هامان في مواصلة السعي إلى المعرفة، وفي إنضاج القيم الثقافية، وفي فن الحياة الطيبة.. هذا الفن الذي تعد المؤسسات الاقتصادية والسياسية تحضيراً له وأساساً»^(٥٥).

ب - إن الدعوة إلى نظام عالمي يعدل طبائع الشعوب بمكتسباتها العقلية والخلقية - كما ينادي بذلك رتشارد ماك كوين - والمناداة بإنشاء جامعة عالمية في المثل العليا لتكوين النزعة الإنسانية على أيدي قادة التربية والعلم والثقافة برعاية منظمة اليونسكو، إن مثل هذه الدعوة العجيبة التي لا يمكن أن تجد سبيلها إلى التطبيق بحال، والتي تعد ضرباً من أحلام الفلاسفة، تؤكد أن هذه النزعة الإنسانية - وهي إحدى سمات ثقافتنا الإسلامية - تشغل أذهان المفكرين ورجال الثقافة لدى الأمم في عصرنا الحاضر، ويحاولون جاهدين أن يعثروا عليها بعد أن فقدت تماماً في هذه الحضارة المادية التي عصفت تيارها المدمر بكل القيم الخيرة والمثل العليا..

إن النزعة الإنسانية لا يمكن أن تتحقق

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾^(٥٨).

القرآن حين أعلن هذه الوحدة الإنسانية العالمية على صعيد الحق والخير لكرامة جعل حضارته عقداً تتنظم فيه جميع العبقريات للشعوب والأمم التي خفقت فوقها راية الفتوحات الإسلامية، ولذلك كانت كل حضارة تستطيع أن تفتخر بالعاقرة من أبناء جنس واحد، وأمة واحدة، إلا الحضارة الإسلامية فإنها تفتخر بالعاقرة الذين أقاموا وحدتها من جميع الأمم والشعوب»^(٥٩).

ثم إننا نلاحظ التركيز على هذا المعنى الإنساني الخير الذي قامت عليه شريعة الله تبارك وتعالى، لتحقيق مثل العدل والرحمة ومصالح البشر جميعاً، وسعادتهم الكاملة، كلما تعمقنا في فهم هذه الشريعة وأحكامها التي تبني الحق وتدور معه، وتقيم الوجود البشري على الحكم والمصالح العامة والعدل والرحمة وكل المثل الإنسانية العليا.

في وحدة العقيدة «تطبع كل الأسس والنظم التي جاءت بها حضارتنا، فهناك الوحدة في الرسالة، والوحدة في التشريع، والوحدة في الأهداف، والوحدة في الكيان الإنساني العام، والوحدة في وسائل المعيشة وطرز التفكير. حتى إن الباحثين في الفنون الإسلامية قد لاحظوا وحدة الأسلوب والذوق في أنواعها المختلفة: فقطعة من العاج الأندلسي، وأخرى من النسيج المصري، وثالثة من الخزف الشامي، ورابعة من المعادن الإيرانية، تبدو رغم تنوعها وزخرفتها ذات أسلوب واحد، وطابع واحد»^(٥٧). فلا غرو بعد ذلك أن تكون ثقافتنا الإسلامية من بين ثقافات الأمم كلها: «إنسانية النزعة والهدف، عالمية الأفق والرسالة، فالقرآن الذي أعلن وحدة النوع الإنساني رغم تنوع أعراقه ومناقبه ومواطنه في قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا،

الهوامش:

(١) أبو الحسن علي الحسيني الندوي: (الصراع بين الإيمان والمادية) ص ١٣.

(٢) انظر (الإسلام في الواقع الإيديولوجي المعاصر): للدكتور محمد البهي، ص ٤٢ - ٤٥. وانظر: (الإسلام

يتحدى) تأليف: وحيد الدين خان، ص ٤٢٣.

(٣) محمد أسد: (الإسلام على مقترق الطرق)، ص ٢٨.

(٤) عباس محمود العقاد: (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه)، ص ٧٧.

- (٥) الطارق: ٥ - ٧.
- (٦) الحج: ٥.
- (٧) الإسراء: ٧٠.
- (٨) البقرة: ٣٠.
- (٩) البقرة: ٣٨ - ٣٩.
- (١٠) البقرة: ١٦٨.
- (١١) المائة: ٨٧ - ٨٨.
- (١٢) انظر: (الإسلام ومشكلات الحضارة)، تأليف: سيد قطب، ص ٤٣ - ٥٠ وانظر (الحضارة الإسلامية) تأليف: أبي الأعلى المودودي، ص ١١ - ٣١.
- (١٣) لقمان: ٣٣.
- (١٤) المنافقون: ٩.
- (١٥) البقرة: ٢٨١.
- (١٦) النجم: ٣٩ - ٤٢.
- (١٧) سيد قطب: (دراسات إسلامية)، ص ٨٨، وانظر فصل «خذوا الإسلام بتمامه»، ص ٨٦.
- (١٨) النساء: ٦٥.
- (١٩) الشورى: ١٣.
- (٢٠) الأنعام: ١٥٩.
- (٢١) البقرة: ٧٥.
- (٢٢) البقرة: ١٤٦.
- (٢٣) البقرة: ١٠٩.
- (٢٤) انظر (الإسلام في القرن العشرين): عباس محمود العقاد، ص ٢٧ / ٣٣.
- (٢٥) القصص: ٧٧.
- (٢٦) البقرة: ١٠٤ - ١٠٥.
- (٢٧) النساء: ٤٦.
- (٢٨) البقرة: ١٥١ - ١٥٢.
- (٢٩) رواه البيهقي.
- (٣٠) رواه مسلم.
- (٣١) البقرة: ١٤٣.
- (٣٢) البقرة: ١٤٠.
- (٣٣) النساء: ١٦٥.

- (٣٤) رواه البخاري ومسلم.
(٣٥) رواه مسلم.
(٣٦) البقرة: ٢٧٢.
(٣٧) المائدة: ٩٩.
(٣٨) المائدة: ٩٢.
(٣٩) آل عمران: ٢٠.
(٤٠) رواه الطبراني.
(٤١) يونس: ٥٧.
(٤٢) النحل: ٩٠.
(٤٣) رواه البخاري في الأدب، والحاكم، ورواه مالك: «بعثت لأتمم حسن الاخلاق».
(٤٤) القلم: ٤.
(٤٥) رواه مسلم.
(٤٦) الأحزاب: ٢١.
(٤٧) فضّلت: ٣٠ - ٣٢.
(٤٨) الأحقاف: ١٣ - ١٤.
(٤٩) هود: ١١٢.
(٥٠) رواه مسلم.
(٥١) المعارج: ١٩ - ٢٨.
(٥٢) المعارج: ٢٩ - ٣٥.
(٥٣) أصالة الثقافات، ص ٧.
(٥٤) أصالة الثقافات، ص ٤٢٣، تحت عنوان (إنسانية الغد وتنوع الثقافات). ولم يذكر في البيان تاريخ صدوره ولم يحدد مكان الاجتماع في الترجمة العربية.
(٥٥) المرجع السابق، ص ٤٢٥ - ٤٢٦.
(٥٦) سيد قطب: (السلام العالمي والاسلام)، ص ٩.
(٥٧) الدكتور مصطفى السباعي: (من روائع حضارتنا) ص ٣١.
(٥٨) الحجرات: ١٣.
(٥٩) الدكتور مصطفى السباعي: (من روائع حضارتنا)، ص ٣١.

مصادر الثقافة الإسلامية في النهضة المعاصرة

الشيخ جواد رياض

أستاذ وباحث من لبنان

مقدمة

تعاني الأمة في عصرنا الحديث من تشويه لمعرفة حقيقة هذا الدين وأصوله، ووسيطته وسماحته، وذلك بسبب استقاء التعرف عليه من خلال مصادر مشوهة، وآراء متشددة، وسلوك فظ غليظ لبعض أتباعه.

فقد اتهم ديننا بالتشدد والغلو، بينما يدعو ديننا إلى التسامح والوسطية واليسير: (وكذلك جعناكم أمة وسطاً) وقال ﷺ: «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه بالرفق»، وقد اتهم ديننا بالقتل وسفك الدماء، بينما ينهى ديننا عن الاعتداء على الغير، وإنما شرعت الحرب فيه دفاعاً: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

وقد اتهم ديننا بأنه انتشر بالسيف، بينما انتشر ديننا بدعوة طيبة حكيمة: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة﴾، ولو انتشر بالسيف لأسلم الناس طوعاً وكرهاً في بداية

الإسلامية التي يستقي منها العلم والمعرفة بهذا الدين لهو أمر شديد الأهمية، وهدف عظيم المنال. إن معرفة هذا الدين أصوله وفروعه، فرائضه ونوافله، واجباته ومندوباته، حلاله وحرامه،... لو كانت من مصادره الحقيقية بفهم صحيح لاستطاع أصحابه أن ينشروه بين الناس بقوة لا مثيل لها.

إن الناس لو عرفوا هذه الثقافة الإسلامية السامية من خلال مصادرها، لاستطاعوا أن يصلوا إلى فهم صحيح ورؤى واضحة عن هذا الدين. من هنا كان هذا البحث عن مصادر الثقافة الإسلامية.

وأول هذه المصادر: القرآن الكريم وقد تحدثت عن التحدي والإعجاز، وتحدثت عن ألفاظه من ناحية الوضوح ومن ناحية الخفاء، وكيف أن البعض تناول القرآن دون دراية علم بألفاظه.

وثاني هذه المصادر السنة النبوية: وأشارت إلى تعريفها وإلى الهجوم عليها.

وثالث هذه المصادر: اللغة العربية فهي أداة تتيح الوصول إلى المراد من النصوص.

ورابع هذه المصادر: التراث الإسلامي، فأشرت إلى التاريخ والسيرة، وإلى التفاسير، وإلى الفقه، وإلى علم الكلام والعقيدة.

الفتوح، وهذا ما أنكره التاريخ، بل ذكر أن الناس أسلموا برضا وتدرج: ﴿لا إكراه في الدين﴾، وقد اتهم ديننا بالاستبداد، بينما يأمر ديننا بالشورى: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾، وقد اتهم ديننا بالتقاطع، بينما يأمر ديننا بالتواصل والبر والعدل: ﴿لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرّوهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾.

وقد اتهم ديننا بعدم ملائمته للعصر، بينما هو صالح لكل زمان ومكان، بعموم أوامره، فقد جاءت نصوصه عامة يستطيع مجتهدوه في كل عصر أن يعملوا جهدهم ويستخرجوا الأحكام المناسبة لعصرهم ولا تعارض مع أصول دينهم.

وعلى الجانب الآخر، فقد ظهر في مجتمعنا من يدعون إلى الانفلات، وترك أوامر هذا الدين ونواهيه في كل حركات المجتمع، فهذا الدين - في رأيهم - هو علاقة بين الإنسان وربّه وعبادة لا تخرج عن المسجد. فأخذ هؤلاء يشوهون الدين بصورة أخرى، ويدعون الناس إلى نقد قدسية نصوصه من قرآن وسنة وأقوال للأئمة.

إن التعرف الجاد على مصادر الثقافة

في عقائده وتشريعه، وهو القرآن الكريم، وكان القرآن عند الله وعند المسلمين المصدر الأول في تعرف التعاليم الأساسية للإسلام، ومن القرآن عرف أن الإسلام له شعبتان أساسيتان، لا توجد حقيقته ولا يتحقق معناه إلا إذا أخذت الشعبتان حفظهما من التحقق والوجود، في عقل الإنسان وقلبه وحياته، وهاتان الشعبتان هما: العقيدة والشريعة.

والعقيدة هي الجانب النظري الذي يطلب الإيمان به أولاً وقبل كل شيء، إيماناً لا يرقى إليه شك ولا تؤثر فيه شبهة، ومن طبيعتها: تضافر النصوص الواضحة على تقريرها، وإجماع المسلمين عليها من يوم أن ابتدأ الدعوة مع ما حدث بينهم من اختلاف بعد ذلك فيما وراءها، وهي أول ما دعا إليه الرسول وطلب من الناس الإيمان به في المرحلة الأولى من مراحل الدعوة، وهي دعوة كل رسول جاء به من قبل الله، كما دل على ذلك القرآن في حديثه عن الأنبياء المرسلين.

والشريعة هي النظم التي شرعها الله أو شرع أصولها ليأخذ الإنسان بها نفسه في علاقته بربه، وعلاقته بأخيه المسلم،

وخامس هذه المصادر: المؤلفات المعاصرة لعلماء الإسلام والمجتهدين.

وسادس هذه المصادر: المؤسسات العلمية والبحثية، كالأزهر، ومجمع البحوث الإسلامية ولجنة الفتوى، ودار الإفتاء، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

المصدر الأول: القرآن الكريم

هو كلام الله تعالى المنزل بلفظه ومعناه بلسان عربي على نبيه الخاتم سيدنا محمد ﷺ، المعجز، الذي تحدى الله به الإنس والجن أن يأتوا بمثله، أو بسورة منه، المنقول إلينا بالتواتر حفظاً وكتابه. نزل في ليلة مباركة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ﴾ هي ليلة القدر: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، ثم نزل إلى الناس منجماً مفزقاً على مدى ثلاث وعشرين سنة.

ففي مكة، نزل من القرآن ما كان في أكثره بياناً لتوحيد الله والإيمان به، وجدال المشركين. وفي المدينة نزل من القرآن ما كان في أكثره بياناً للأحكام الشرعية التي تخص حركة الحياة والعبادات، إذ إن حاجاتهم إلى هذه الأحكام قد اشتدت «فقد تلقى محمد عن ربه الأصل الجامع للإسلام

إن سمعوه، وتؤثر عليهم إن أنصتوا إليه، فهم يتذوقون المعاني. وقد بين بعض العلماء هذا الإعجاز اللغوي والبياني والبلاغي في تفاسيره، وهذا كتاب الكشاف للزمخشري يعرض هذه الوجود بشيء لم يسبق له فيها مثيل.

ففي قوله تعالى: ﴿هو الذي يبدؤا الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾ قال الزمخشري: «فإن قلت: لم ذكر الضمير في قوله وهو أهون والمراد به الإعادة؟ قلت: معناه وأن يعيده أهون عليه. فإن قلت: لم أخرج الصلة في قوله - وهو أهون عليه - وقدمت في قوله - هو علي هين؟ قلت: هناك قصد الاختصاص وهو محزة فليل هو علي هين، وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هم وعافر، وأما ها هنا فلا معنى للاختصاص، كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء، فلو قدمت الصلة لتغير المعنى». كلام نفيس في جزء من آية، فما بالك بدراسة آيات القرآن كلها. وعندما تقرأ قوله تعالى: ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾.

وعلاقته بأخيه الإنسان، وعلاقته بالكون، وعلاقته بالحياة».

ومن هذه المقدمة نستطيع أن نشير إلى أمور:

أ- التحدي والإعجاز

فهذا القرآن هو معجزة نبينا ﷺ الدائمة الحية إلى يوم القيامة، تحدى الله عز وجل به الخلق الذين نزل عليهم - وهم أهل البلاغة والفصاحة - فما بالك بالأزمنة والعصور التي جاءت بعد ذلك - والتي كثر فيها اللحن والغلط - فإن التحدي يكون أصعب وأقوى وأعظم.

تحدى الله به الخلق أن يأتوا بمثله: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس الجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا﴾، ثم تحدى به الخلق أن يأتوا بعشر سور منه: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾، فلم يستطيعوا، ثم تحدى به الخلق أن يأتوا بسورة مثله: ﴿فأتوا بسورة من مثله﴾.

فهو معجز لا محالة، وقد كان هذا الإعجاز في بلاغته وبيانه، فإن العرب علموا أن فيه بلاغة غير معهودة لديهم تهز نفوسهم

يخالط أحداً من أهل الكتاب يتعلم منه:

﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا

تخطّه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾.

وحديث القرآن عن المستقبل قمة

الإعجاز، إذ من الذي يضمن أن يتحقق

شيء من علم الغيب إلا الله.

وقد كان هذا الإعجاز أيضاً في أن القرآن

جاء بحقائق علمية لم يستطع أحد أن يظهرها

على ما هي - ولن يستطيع - بالرغم من

الزمان الذي يتطور إلى الأسرع وإلى ما يظهر

هذه الحقائق، فمن أهم الأدلة على ذلك

حديث القرآن عن أصل خلق الإنسان وتطوره

في سورة المؤمنون، ففي هذه الآيات يحكي

هذا التطور الذي ثبت بالعلم، وفي الوقت

نفسه من أين علم هذا النبي الأمي هذه

الحقائق وهو لم يختلط بثقافات أخرى، بل

من أين علم هذا العلم الذي لم يكتشف في

عصره.

وهنا لا بدّ أن نشير إلى وجه آخر من

الإعجاز في القرآن الكريم لم يذكره العلماء

في كتبهم، وهو الإعجاز التشريعي،

والإعجاز في بناء نظم معاملاتية، كالنظم

الاقتصادية التي تنبع من قواعد مجتمعة

أسسها القرآن الكريم.

فقد اجتمع في هذه الآية أمران،
ونهيان، وبشارتان.

أما الأمران فهما «أرضعيه» و«ألقيه»

وأما النهيان فهما «ولا تخافي» و«ولا

تحزني» وأما البشارتان فهما «إنا رادوه إليك»

و«وجاعلوه من المرسلين» وهذا قمة البلاغة

والبيان أن يجتمع كل هذا في آية واحدة

قصيرة.

وقد كان هذا الإعجاز أيضاً في حديث

القرآن عن أخبار أمم ماضية، وعن أخبار في

المستقبل، فتحدث القرآن عن نوح وإبراهيم

وموسى وعيسى ومريم عليهن السلام، وتحدث القرآن

عن عاد وثمود... إلى آخر ذلك. ثم تحدث

القرآن عما يكون في المستقبل، ومن أجمل

ما تحدث عنه القرآن في ذلك انتصار الروم

في خلال سنين مستقبلة - من ثلاث إلى

عشر - عندما قال سبحانه: ﴿غلبت الروم *

في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم

سيغلبون * في بضع سنين﴾، وتيقن رسول

الله صلى الله عليه وسلم من تحقيق النصر لهم. ووقع بالفعل

هذا النصر عند رأس سبع سنين.

وهذا كله إعجاز للقرآن، لأن حديث

القرآن عن الأمم السابقة نزل على

محمد صلى الله عليه وسلم الأمي الذي لم يعرف الكتابة، ولم

الأحكام.

ولا بدّ أن نشير هنا - ونحن نتكلم عن القرآن - إلى أن القرآن الكريم كمصدر من مصادر الثقافة الإسلامية فإن الأخذ منه واستخراج المعاني والأحكام يحتاج إلى الدارس الباحث أن يتعرف على ألفاظه، فقد اتخذ العلماء قواعد لفهم نصوص القرآن الكريم واستنباط الأحكام أو استخراج المعاني منه، وذلك من خلال الدلالات اللغوية، أو من خلال ما يبينه النبي ﷺ.

ولذلك، قسم العلماء الألفاظ من ناحية الوضوح إلى أربعة أقسام:

أولاً: الظاهر

وهو الكلام الذي يدل على معنى بين واضح ولكن لم يسق الكلام لأجل هذا المعنى، ففي قوله تعالى: ﴿وإن خفتن أأنّ تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتن أأنّ تعدلوا فواحدة﴾، فاللفظ قد سبق لإثبات الاحتياط في طلب القسم في معاملة اليتامى من النساء، ولكنه يدل بظاهره على إباحة التعدد، مثنى وثلاث ورباع، ويدل أيضاً على أن العدد لا يصح أن يزيد على أربع، ويدل

وخير مثال أضربه على ذلك هو هذا الإعجاز في تشريع الميراث وقواعده، التي لم يسبق لها مثيل، ولم يأت على مر العصور قانون يعالج العلاقة بين المورث والورثة مثل هذا التشريع الذي نظم العلاقة بين الوارث والمورث، وبين الورثة وبعضهم بطريقة في غاية الإبداع والكمال...

ب- القرآن هو المصدر الأول للتشريع والثقافة أيضاً

فكما أن المصدر الأول للتشريع الإسلامي اشتمل على أحكام الشريعة في كل مجالاتها بصورة كلية إجمالية؛ من عبادات كفرائض الصلاة والزكاة والصدقة والحج، ومن معاملات كالمعاملات المالية التي تنسم بالعدل وتبتعد عن الظلم والربا والرشوة، ومن أحكام أسرية تتعلق بالعلاقة بين الزوج وزوجته وأبنائه وعياله وكذلك علاقة الوارث بالمورث، ومن أحكام اجتماعية وسياسية تتعلق بالعلاقة بين الحاكم والمحكوم وإقامة العدل والشورى والتعاون على المصلحة وحماية المجتمعات من الضرر، ومن أحكام إنسانية تتعلق بالعلاقة بين المسلم وغيره وحقوق الإنسان ومعاملة غير المسلم بالعدل والوفاء، إلى آخر هذه

ولذلك لما سيق شارب خمر إلى عُمر وسأله لماذا شربتها؟ واستدل بهذه الآية، أقام عليه عمر بن الخطاب الحد، وزاده بضعة أسواط، وقال: إنها لسوء التأويل.

ثالثاً: المفسر

وهو اللفظ الدال على معناه المقصود من السياق، وقد تبين معناه من دليل آخر قد يكون مجملاً فيفسره نص آخر، كالأمر بالدية في القتل الخطأ: ﴿فدية مسلمة إلى أهله﴾، جاء الحديث النبوي لبيان مقدارها. وكذلك الأمر بالزكاة: ﴿وآتوا الزكاة﴾، فسرته السنة النبوية المشرفة. والأمثلة كثيرة. واللفظ (المفسر) أقوى في الدلالة من اللفظ (الظاهر) و(النص).

كما أن اللفظ (المفسر) لا يحتمل التأويل ولا التخصيص.

رابعاً: المحكم

وهو اللفظ الدال على المقصود الذي سيق له، وهو واضح في معناه لا يقبل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً، مثل قوله تعالى: ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾، فإن اقتران هذا النهي بكلمة «أبداً» دل على أنه نص

أيضاً على أن العدالة شرط في الإباحة من الناحية الدينية لا القضائية، إذ العدالة أمر لا يمكن إثباته قبل الزواج، وهي من الأمور النفسية للمتزوج حتى يقوم دليل يمكن معه إثبات الظلم بوقائع قد وقعت.

ثانياً: النص

وهو دلالة اللفظ على ما سيق له، مثل قوله تعالى: ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحدٍ منهما مائة جلدة﴾، ودلالة النص أقوى من دلالة الظاهر: فإذا تعارض (الظاهر) مع (النص) فإن التقديم يكون للنص.

مثلاً: يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إتما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾، فهذا النص في تحريم الخمر، لكن هناك آية أخرى معارضة لهذا النص، وهي قوله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصلحت جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات﴾، فإنها ما سيق لتحليل كل طعام وشراب وإنما سيق لبيان منزلة التقوى.

إذا حدث مثل هذا التعارض في الدلالة والفهم فإننا نقدم النص وهو تحريم الخمر،

الذين يأخذون المال من جيوب الناس في خفة وعلى غفلة منهم، فهو لا يستعمل الظلام أو البعد عن الأنظار، ولكن يستغل الغفلة ويستغل مهارته. والنباش هو الذي ينبش القبور ليأخذ أكفان الموتى، وقد اختلف الفقهاء في اعتبار هذين من السارق، لأن لهما اسما غير اسم السارق.

المشكل

وهو الذي خفي معناه بسبب في ذات اللفظ، ولا يفهم المراد إلا بدليل من الخارج، ومثال المشكل اللفظ المشترك، فهو يدل على معنيين أو معان على سبيل التبادل، وتعيين واحد من المعاني في اللفظ المشترك لا يكون إلا بدليل من قرينة السياق، أو دليل من الخارج، ومثال الدليل من السياق قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ فإن السياق يدل على أن المراد الباصرة.

وقد تكون معرفة المراد من اللفظ المشترك من دليل خارجي، لأصل السياق، وإذا كان الدليل نصاً، فإن مجال الاختلاف في فهمه ليس كبيراً، وإن كان غير نص كان مجال الخلاف في فهمه واسعاً.

من الألفاظ المشتركة في القرآن التي

محكم، بل قال الحنفية: إن النص الأخير لا يقبل الاستثناء، فكل محدود في القذف لا تقبل شهادته ولو تاب، لأن عدم قبول الشهادة عقوبة دنيوية.

وخالف الشافعي في ذلك وقال: إن تاب تقبل شهادته لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ تَابُوا﴾

فقال: إن الاستثناء من الكلام كله فتقبل شهادته. وأما الحنفية فقالوا: إن الاستثناء من الجزء الأخير فقط وهو الفسق. وقسم العلماء أيضاً الألفاظ من ناحية عدم وضوحها إلى أربعة أقسام:

الخفي

وهو ما خفي معناه في بعض مدلولاته لعارض غير الصيغة، بل من تطبيقه على مدلولاته.

فمن الأمثلة على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾، هل يدخل في مدلول اللفظ الطرار والنباش، فإن السارق هو الذي يأخذ مالاً مملوكاً في خلسة على أن يكون ذلك المال في حرز مثله، ولا يكون معرضاً للضياع، والطارار هو الذي يأخذ مال غيره في خفة، وهم أيقاظ كأولئك النشالين

المتشابه

وهو اللفظ الذي يخفي معناه، ولا سبيل إلى أن تدركه عقول العلماء، كما أنه لم يوجد ما يفسره تفسيراً قاطعاً أو ظنياً من الكتاب أو السنة، وفي هذه الحال لا يسع العقل البشري إلا التسليم والتفويض لله رب العالمين والإقرار بالعجز.

والمتشابه موجود في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب﴾. وقد اختلف العلماء في مواضعه، ومن العلماء من حاول الوصول إلى المعنى.

والآيات التي اشتملت على التكييف وبيان الأحكام ليس فيها التشابه، بل كلها بينة واضحة إما في نفسها، وإما ببيان النبي ﷺ لها.

التأويل

التأويل يختلف عن تعليل الأحكام،

اختلف الفقهاء في تفسيرها قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾، فقد فسره الحنفية بأنه الحيض، وفسره الشافعية بأنه الطهر، وكان ترجيح كل واحد من التفسيرين على الآخر بدليل خارجي، واللفظ في ذاته صالح للمعنيين.

المجمل

هو الذي ينطوي في معناه على عدة أحوال وأحكام قد جمعت فيه، ولا يمكن معرفتها إلا بمبين، فالمجمل لا يمكن معرفة تفصيله من ذات اللفظ، لا بمجرد الاجتهاد الفقهي في التفسير، بل لا بد في فهم المجمل وإدراك صورة المختلفة وجزئياته المتشعبة من مبين يوضح المعنى، ويفصله، ويبقى بعد هذا البيان التفصيلي موضع لتأمل المتأملين.

وإن كثيراً من العبارات القرآنية الخاصة بالأحكام التكليفية جاءت مجملة، وفصلت أحكامها وبينتها السنة، كالصلاة كان الأمر فيها مجملاً، وبينته السنة قولاً عملاً، فقال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي» وكذلك الحج وقوله ﷺ: «خذوا عني مناسككم»، وكذلك الزكاة والبيوع... إلخ.

التي تتيح له الأخذ والاستنباط واستخراج ما فيه من كنوز معرفية.

وقد ضربت في المقدمة السابقة أمثلة لبعض ما ينبغي معرفته - وليس لكل - لأن المجال لا يتسع لذكر كل تفاصيل ذلك لكن من باب الإشارة فقط.

فما أجدرنا أن نؤسس لهذا، فإنه قد خرج علينا في هذا العصر صنفان من الناس يتعاملون ويستقون من القرآن دون أن تكون لهم دراية بما قلنا من هذه المقدمة المختصرة.

الصنف الأول

صنف من هؤلاء المتشددين - من الوهابية والسلفيين والتكفيريين - الذين قرأوا في التراث الإسلامي وفي القرآن والسنة دون أن تكون لهم أدوات يستعينون بها على الوصول إلى المراد من قول الله تعالى - كما كان يفعل أئمتنا من العلماء ومن آل البيت ومن الصحابة المجتهدين - وهم يظنون أنهم يعلمون.

فقد رأيت أكثرهم ينكرون المجاز في اللغة، وفي القرآن، هذه كبوة كبيرة جعلتهم يفسرون الآيات المتشابهة على حقيقتها،

فالتأويل هو إخراج اللفظ عن ظاهر معناه إلى معنى آخر يحتمله وليس هو الظاهر فيه. ولا بد في التأويل أن يكون اللفظ محتملاً للمعنى الذي يؤول إليه، أن يكون هناك موجب للتأويل، بأن يكون ظاهر النص مخالفاً لقاعدة مقررة معلومة من الدين بالضرورة أو مخالفاً لنص أقوى منه سنداً، أو يكون النص مخالفاً لما هو أقوى من دلالة... إلى آخره، كما لا بد ألا يكون التأويل من غير سند.

والتأويل قد يكون في الآيات الموهمة للتشبيه مثل قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾، فتأويل بمعنى السلطان أو بمعنى الجود في قوله تعالى: ﴿يَسْلُ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ...﴾.

والتأويل قد يكون أيضاً خاصاً بالأحكام التكليفية إذا كان الباعث هو التوفيق بين أحكام الآيات والأحاديث التي يكون في ظاهرها اختلاف، فيكون التأويل لإعمال النصين، فإعمال اللفظ أولى من إهماله.

من هذه الكلمات السابقة أردت أن أقول: إن القرآن الكريم كمصدر من مصادر الثقافة الإسلامية ينبغي لمن كان مريداً الاستقاء من هذا المصدر أن يلم بالمفاتيح

لم يصفوا الشيعة فقط بأنهم من هذه الفرق، بل وصفوا الأشاعرة - أهل السنة الحقيقيين الذين يمثلهم الأزهر وكثير من العلماء في كافة البلاد الإسلامية - بأنهم من الفرق الضالة التي ذكرها رسول الله ﷺ في حديث «تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة والنصارى مثل ذلك وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة».

وهكذا، تجد هؤلاء قد نجحوا في هذا الصدد نجاحاً كبيراً بسبب إمكاناتهم المادية الكبيرة التي استطاعوا من خلالها أن يصلوا إلى الناس وإلى البسطاء.

لكن ما زال الأمل موجوداً لدى الوسطيين من العلماء الذين هم أكثر أهل العلم، بل هم معظم أهل العلم، بالرغم من إمكاناتهم المحدودة، لكن الأمل أن يصلوا بإخلاصهم إلى الناس لينهوهم عن الانحراف في فهم الثقافة الإسلامية وفهم مصادرها، ووجوب طلب العلم في مؤسساته الرسمية حتى يفهم العلم على حقيقته ومن مصادره.

أما النصف الثاني

فمجموعة ممن ينتمون إلى تيارات

وجعلت كثيراً منهم يقتربون من تشبيه الله عز وجل - وهو المنزه سبحانه - بخلقه فوصفوا الله بالجوارح، كاليد والعين والجسم وغيرها، وقالوا بالمكان، ولم يتخرجوا من ذلك.

وكنا نناقش بعض هؤلاء عندما يستدلون أمام العامة بأدلة من القرآن السنة - فيقتنع بها عامة الناس البسطاء - فأقول لهم: هل ستقولون بأن الله له يد؟ كما في قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾؟ أم يدان؟ كما في قوله تعالى: ﴿بِلَْيَدِهِ مَبْسُوطَتَانِ﴾؟ أم أيدي؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾؟ هل ستثبتون لله - تعالى الله عما يقولون - عين؟ كما في قوله تعالى: ﴿وَلتَصْنَعِ عَلٰى عَيْنِي﴾؟ أم أعين؟ كما في قوله تعالى: (تجري بأعيننا)؟

وماذا تقولون في قوله ﷺ: «القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن»، وماذا تقولون في قوله ﷺ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض»، فهل ستأخذون هذه الألفاظ على ظاهرها أيضاً!!!

وقد نجح هؤلاء السلفيون والوهابية - للأسف - بإقناع الناس أنهم أهل السنة، وأن غيرهم ومن خالفهم من الفرق الضالة، فهم

مبادئ القراءة الفصحى الصحيحة.
هذا كان نتيجة لوجود التشدد أن
يكون التسبب، واللعب بهذه الثقافة
الرفيعة.
وقد أنكر بعضهم أن يكون الدين
علماً له قواعد، وإنما الدين - بالنسبة لهم -
خبرة حياتية.

المصدر الثاني: السنة النبوية

هي ما أضيف إلى النبي ﷺ من أقوال
أو أفعال أو تقريرات.

فتنقسم السنة إلى سنة قولية، وهي ما
ورد عن الرسول من أقوال، وسنة فعلية، وهي
ما ورد عن النبي من أفعال، كمناسك الحج
والصلاة، وسنة تقريرية، وهي ما ورد عن
النبي من شيء رآه من الصحابة فأقره،
كإقراره لعلي - سلام عليه ورضوان - في
أفضيته.

وبعض السنة النبوية بوحي، وبعضها
بإلهام في القلب، وبعضها بالاجتهاد والذي
معه إقرار من الوحي.

والسنة النبوية قد نهى الرسول ﷺ عن
كتابتها في بداية الأمر ليكون الاهتمام
الأكبر بالقرآن الكريم، ثم رخص لبعض

مختلفة، وقرأوا قراءة سطحية في مصادر
ثقافة هذا الدين، ثم خرجوا يهاجمون كل
العلماء والثقات، قديماً وحديثاً، وكل الدعاة
المتخصصين، وذلك من أجل أن يصلوا إلى
فرع آخر من التسليخ والخروج عن أطر هذا
الدين وقواعده ومسلماته، فهؤلاء جاؤوا
نتيجة لظهور المتشددين الذين ذكرتهم من
الصنف الأول، جاء هؤلاء ليخرجوا الناس
عن أي التزام ديني، فبعد أن شككوا في
كتب التراث الصحيحة وفي علم الحديث
وقواعده، وفي أئمتنا العظماء، شككوا بعد
ذلك في مسلمات وقواعد وأصول ومعلوم من
الدين بالضرورة في القرآن الكريم نفسه، وبعد
أن بدأوا بنقد الأحاديث الموثوق بها
والصحيحة انتقلوا لنقد القرآن الكريم ونقد ما
فيه من معلوم من الدين بالضرورة، لدرجة
أنهم أنكروا فريضة الحجاب، وأقنعوا الناس
بأن المشرك أو من يلتزم ديناً غير دين
الإسلام سيكون ماله الجنة أيضاً، ما دام قد
عمل خيراً وكان على خلق قويم.

خرج علينا هؤلاء - بعضهم من الكتاب
وبعضهم من الصحفيين - ليستقوا من القرآن
الكريم دون أن تكون لهم دراية حتى بمبادئ
أصول الفقه، أو مبادئ علوم القرآن، أو حتى

أفعال النبي ﷺ منها ما يتصل ببيان مجمل القرآن، كبيان كيفية الصلاة، والزكاة ومقاديرها والصوم والحج ومناسكه، وكذلك المعاملات من يبيع وربا وقرض؛ فهذه الأفعال تدخل في نطاق التزام المسلمين بالشرعية والدين.

ومن أفعال النبي ﷺ ما هو خاص به ثبتت هذه الخصوصية من خلال الأدلة، مثل زواجه بأكثر من أربع، ومواصلة الصيام لأكثر من يوم ليلة... إلى آخر ذلك، فإن هذا لا شك أنه يختص بالنبي الكريم فعله.

ومن الأفعال النبوية ما فعله النبي ﷺ بمقتضى الجبلة والطبيعة البشرية، وبمقتضى العادات التي كانت عند الناس جميعاً وقتها، مثل طريقة لبسه وطريقة أكله مما تقتضيه الطبيعة والعادة البشرية.

فهذه الأفعال لا عقاب على من لم يلتزم بها لأنها ليست من الوحي.

وأحياناً يختلف العلماء في الحكم على الفعل: هل يكون هذا الفعل من قبيل الطبيعة البشرية والجبلة والعادة؟ أم إنه وحي؟ وذلك مثل اختلافهم في ترك اللحية، فقد ذهب البعض - وهم الأكثر - على أنها سنة شرعية ينبغي اتباعها لقوله ﷺ: «قصوا

الصحابة كعبد الله بن عمرو، وقد ورد عنه قوله: «اكتبوا لأبي شاة».

والسنة المصدر الثاني من مصادر الثقافة الإسلامية والتشريع أيضاً.

وقد أمرنا الله تعالى باتباع سنة نبيه ﷺ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﷻ، فالنبي لا ينطق عن الهوى ﷻ وما ينطق عن الهوى ﷻ.

والسنة النبوية مبيّنة لمبهم الكتاب، ومفصلة لمجمله، ومخصّصة لعمومه، وموضّحة لمشكله، ومقيّدة لمطلقه، إلى غير ذلك.

فقد بينت السنة تفاصيل الصلاة وكيفيةها وأوقاتها وغيرها من الأحكام، وبيّنت الزكاة ومقدارها ونصابها وأحكامها، وبيّنت مناسك الحج بتفاصيلها، بل وبيّنت أحكاماً أخرى، ومعاني لألفاظ القرآن الكريم. فثبت - مثلاً - أن المقصود بالظلم في قوله تعالى: ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ أنه الشرك.

ولكن إذا كانت السنة القولية وحيّاً، فما هو مدى الالتزام بما ورد عن رسول الله ﷺ من أفعال؟ هل كل هذه الأفعال وحي من الشرع يجب الالتزام به؟

هنا لا بدّ أن نعرف أن علماءنا قالوا: إن

يكون لها أكثر من معنى ووجه) وذلك كثير في السنّة، والأمور العملية.

وقد أوجبت الشريعة العمل بخبر الواحد، لكن في أمور الاعتقاد لا بدّ من قطعية الدليل من ناحية الثبوت وكذلك من ناحية الدلالة.

ومن هنا نقول: إن في الأحكام الفرعية - التي نتجت عن قوة الأدلة من ناحية الثبوت والدلالة يعطي لهذه الشريعة مرونة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان ليست هذه المرونة في أي شريعة أخرى، لأن الله تعالى كتب لهذا الدين أن تستمر أحكامه إلى يوم القيامة مهما اختلف الزمان، فإن الشريعة قادرة باجتهادات علمائها أن تستنبط الأحكام الصالحة لكل عصر ومكان.

الهجوم على السنّة

وقد حصل هجوم على السنّة في عصرنا الحديث في بلادنا الإسلامية ولم يسبق له مثيل، فقد تعرضت السنّة من قبل للنقد ولكن لم يكن بهذه الطريقة.

القدماء كانوا يتميزون بالعلم والإطلاع والتخصص، فكان النقد علمياً ونافعاً.

أما الآن فقد أصبح الهجوم والنقد من

الشارب واعفوا للحى» وذهب فريق آخر - منهم الإمام شلتوت شيخ الأزهر الأسبق والإمام أبو زهرة - إلى أن ترك اللحية من قبيل الجبلّة والطبيعة البشرية، لأن النهي عن حلقها والأمر بإعفائها معلل بمنع التشبه باليهود.

ومن المهم هنا أن نشير إلى أمر هام، وهو أن السنّة منها ما هو قطعي الثبوت ثبت بطريق التواتر - وهو قليل - ومنها ما هو ظني الثبوت ثبت بطريق صحيح ولكنه ليس متواتراً - وهو ما يسمى بخبر الأحاد - ومنه السنّة المشهورة التي تتوسط هذين الطريقتين - وهو تقسيم أبي حنيفة.

فأدلة الأحكام من السنّة ليست في درجة واحدة من ناحية الثبوت، فهناك أدلة قطعية الثبوت (أي أنها ثبتت بطريق القطع واليقين) كالأحاديث المتواترة، وهناك أدلة ظنية الثبوت (أي أنها ثبتت بطريق ظني) كأحاديث الأحاد.

كما أن أدلة الأحكام ليست في درجة واحدة من ناحية الدلالة، فهناك أدلة قطعية الدلالة من السنّة (أي ليس لها سوى معنى واحد)، وهناك أدلة ظنية الدلالة من السنّة (أي ليس لها معنى واحد متفق عليه وإنما

حديثنا عن القرآن الكريم كيف تختلف الكلمة ومعناها.

هي لغة غنية بمرادفاتها، وغنية ببيانها وبلاغتها.

قد يكون للكلمة عدة معان يتناسب معنى منها مع سياق الجملة، فكلمة «القرء» قد تطلق على الحيض وقد تطلق على الطهر، وكلمة «العين» قد تطلق على العين الباصرة، وقد تطلق على الجاسوس... والأمثلة كثيرة.

فلا شك أن من يريد الاطلاع على ثقافتنا الإسلامية عليه أن يلم باللغة وأدائها، وعلم البيان، والنحو والصرف وغيرها.

فقواعد اللغة العربية (النحو) لها أهمية كبرى في فهم الثقافة الإسلامية، فقد يتغير المعنى تماماً بسبب تغير موقعه أو تغير نطقه، فينقلب المعنى رأساً على عقب.

لدرجة أن فقهاءنا أبطلوا صلاة من قرأ بتغيير إعراب آيات القرآن الكريم، وهو ما تعارف عليه العلماء في كتبهم بزلة القارئ، فمثلاً: «إذا قرأ ولحن في الإعراب لحناً يغير المعنى تغييراً فاحشاً بأن قرأ: ﴿وعصى آدم ربه﴾ بنصب الميم ورفع لفظ «رب»، وما أشبه ذلك مما لو تعمد به يكفر، إذا قرأ خطأ

أناس سطحيين في معارفهم لا يملكون حتى أبسط قواعد اللغة فضلاً عن أبسط قواعد مصطلح الحديث.

هجومهم في الحقيقة ليس إلا هجوماً على الدين نفسه، وقيمه، ومبادئه، وقواعده من خلال نقد أحاديث النبي ﷺ ونقد المفاهيم التي جاءت بها.

فقد انتقلوا - بعد تقدمهم - لأحاديث النبي ﷺ إلى نقد مفاهيم وقيم دعا إليها القرآن الكريم، ثم بدأ هذا النقد يتسرب إلى القرآن وآياته بدعوى فهم القرآن فهماً تاريخياً يخص المرحلة التي نزل فيها، وبالتالي فهم لا يرون القرآن صالحاً لكل زمان ومكان، وخرجوا بذلك عن أركان هذا الإيمان وعن كماله.

المصدر الثالث: اللغة العربية

اللغة العربية هي اللغة التي نزل بها القرآن الكريم، وهي اللغة التي تحدث بها خاتم النبيين، في تبليغه لهذا الدين، وبالتالي فهي مصدر أساسي من مصادر الثقافة الإسلامية، والتعمق في اللغة العربية يتيح للمسلم الوصول إلى المراد من كلام الله وكلام رسول الله ﷺ، وقد وضعنا في

فسدت صلاته».

وأيضاً لو قرأ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ برفع لفظ الجلالة، فإنه يبطل الصلاة، لأن المعنى قد تغير تغييراً كبيراً وفسد المعنى بهذا التغيير.

وهناك شيء آخر يتعلق بالنحو واللغة، وهو أن للنحو واللغة أثراً كبيراً في فهم الأحكام الفقهية أو بعضها، فمثلاً - عند أهل السنّة - إذا قال الرجل لزوجته: أنت مطلقة بإسكان الطاء وتخفيف اللام لا يكون طلاقاً إلا بالنية، لأن هذا اللفظ غير مختص بالنساء.

وبذلك، فإن هذا اللفظ يندرج تحت كنايات الطلاق، وذلك بسبب نطقه بالسكون وليس بالفتح وتشديد اللام.

«ولو قال الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق... كان يميناً لوجود الشرط والجزاء، ولو قال: أنت طالق غداً أو شهر كذا لا يكون يميناً لانعدام حروف الشرط، بل هو إضافة الطلاق إلى الغد والشهر، لأنه جعل الغد والشهر ظرفاً لوقوع الطلاق، لأن معناه في غد وفي شهر، ولا يكون ذلك ظرفاً لوقوع الطلاق إلا بوقوع الطلاق».

ومن هذه الأمثلة، ترى كيف أثرت قواعد

اللغة والنحو في الأحكام الفقهية التي استنبطها الفقهاء وبنوا عليها المسائل.

فالعلم باللغة العربية، ونحوها وصرفها ضروري للاستقاء من ثقافة الإسلام، فكيف بهؤلاء المتجربين على الدين، وليس لديهم أدنى علم بلغتهم العربية، بل إن أكثرهم يلحن في كلامه، وفي قراءته للقرآن الكريم.

بأي حجة يتجراً على هذه الثقافة وعلى مصادرها دون أن يعرف الأداة التي بها يفهم ويفقه هذا الدين وتعاليمه وقيمه وأحكامه.

المصدر الرابع: التراث الإسلامي

التراث الإسلامي كبير جداً، وهو مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية، والتراث يشمل أنواعاً كثيرة من المعرفة كالتاريخ والسيره وتفسير القرآن الكريم، والفقه الإسلامي وشرح أحاديث النبوة، كما يشمل أيضاً على كتب علم الكلام والعقيدة وغيرها من العلوم.

وقبل أن نتكلم عن فروع هذا التراث الإسلامي لا بدّ أن نشير إلى أن التراث الإسلامي كله ملك للمسلمين جميعاً، فما تركه المسلمون السنّة ينبغي أن يستفيد منه السنّة والشيعة، وما تركه المسلمون الشيعة ينبغي أن يستفيد منه الشيعة والسنّة، ومن

من أجلها الكثير، وكيف كانت شخصيته ونفسيته ورقته عندما يحاول أن يزحزح الناس عن النار، ويدخلهم في رحمة الله تعالى ورضوانه وهم يتعدون أو يتعد أكثرهم عن النصح، كيف أذخر دعوته المستجابة إلى يوم القيامة لأتمه شفاعته لهم، فقد قال ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وإنني اختبأت دعوتي شفاعته لأمتي في الآخرة»، كيف تحمل أذى المشركين من أجل دعوته؟ كيف علم أصحابه مناسك هذا الدين؟ وكيف علم بعضهم استنباط الأحكام ليرشدوا من بعدهم؟ كيف أسس قيماً تتمم مكارم الأخلاق؟ كيف سعى للدفاع عن دعوته وكيد الكائدين الذين كانوا يريدون أن يحطموا رسول الله ودعوته؟ كيف كانت سيرته في خلال سنوات معدودة أقام فيها ما لا يستطيع أن يفعلها فلاسفة وحكماء في قرون؟

هذه السيرة العطرة بهذه المواقف قد سجلت في تراثنا وفي كتب بعض علمائنا، ولكن قد اعترأها بعض التشويهات - أو قل كثير من التشويهات - بسبب ضعف بعض الروايات أو وضعها، وبسبب تسرب الإسرائيليات والنصرانيات إلى كتبنا في السيرة، ولذلك كان من الضروري على قارئ

اقتصر في دراسة التراث الإسلامي على مذهبه فإنه سيخسر كثيراً من جوانب العلم والمعرفة، لأن في كل مذهب رؤى فكرية وتاريخية وفقهية استنباطية ليست موجودة في المذهب الآخر، ولذلك اشتهر أبو حنيفة - عندما أمره الخليفة المنصور أن يعد أربعين سؤالاً تعجيزياً للإمام جعفر الصادق حتى لا يفتن الناس بعلمه، فأجابته الإمام جعفر عن كل الأسئلة، وفي كل سؤال يقول في إجابته: الرأي عندنا كذا وعندكم كذا وعند أهل المدينة كذا، حتى أجب عن الأسئلة كلها - قال أبو حنيفة ساعتئذ: أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس.

وسوف نتعرف في هذه السطور القادمة على فروع هذا التراث:

أولاً: التاريخ الإسلامي والسيرة

لا شك أن السيرة النبوية مصدر هام من مصادر ثقافة المسلم، خاصة في هذا العصر، لأن سيرة هذا النبي ﷺ وأصحابه وآل بيته ينبغي أن تكون لنا قدوة عملية نستطيع من خلالها أن نتفهم حياتنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض، وعلاقاتنا مع غيرنا، كيف تعامل الرسول ﷺ في دعوته وكيف نشرها وتحمل

والالتزام الدقيق لما جاء به.
إلا ما أرخص الحب إذا كان كلاماً،
وأغلاه عندما يكون قدوة وذماماً».

ولذلك، فإن أهم ما ينبغي أن يفعله
العلماء في هذا الصدد هو تنقية السيرة من
الشوائب التي علقت بها - خاصة في المفاهيم
- لنصل من خلالها إلى رؤيا عملية لقيم هذا
الدين وأصوله وجوهره، فنرى سيدنا محمد
نموذجاً عملياً، في حربه سلمه، في تسامحه
وحزمه، في علاقاته وعباداته، في شرفته
لأصحابه وأل بيته في سياسته وغيرها.

وأما التاريخ الإسلامي فهو تاريخ مملوء
بتصدعات تسيء إلى الإسلام وإلى معتقيه،
خاصة بعد عصر الخلفاء الراشدين الذي
انتهى بسنة أربعين من هجرة سيدنا
محمد ﷺ، وكم أخذ علينا المستشرقون من
عيوب بسبب ما قرأوه في تاريخنا الإسلامي.

وقد يقول البعض ينبغي أن يعرف الناقد
أن هناك فرقاً بين المنهج والتطبيق،
فالمنهج صحيح ولكن أصحابه فرطوا فيه.

أقول إن هذا كلام منطقي لكن لا
يعترف به النقاد خاصة من الغرب، لأنهم
ينظرون إلى التيارات وإلى النظم من خلال
أصحابها، فإذا رأوا خلاف ذلك عابوا على

سيرة النبي ﷺ أصحابه وأل بيته أن يبذل
كل وسعه في معرفة روح هذه السيرة، فقد
تكون هناك روايات صحيحة ولكنها لم
تدخل في سياق ترابط معين مما يؤدي إلى
فهم مغلوط عن النبي ﷺ، فالمسألة لا
تتعلق بصحة الروايات فحسب، ولكن بفهم
وقائع هذا التاريخ وفهم الأسباب في المواقف
المختلفة، فليست المسألة حشداً من
الروايات والآثار، ولكن فهماً متعمقاً لما كتب.

إن سيرة النبي ﷺ هو جمعت من خلال
هذه الكتب، وشوه نبينا من خلال مراجعنا
وتراثنا، ولذلك فإن على العلماء المتخصصين
والربانين في كل عصر أن يقدموا صورة
مبسطة ومفهومة تغطي كل مواقف السيرة
وحواراتها.

«إن أعداء الإسلام تمكنوا - في غفلة
من أهله - أن يصدعوا بناءه ويجعلوه أنقاضاً.
فكيف يترك تراث محمد ﷺ نهياً للعوادي؟
وكيف يمهد للجاهلية الأولى أن تعود؟ وكيف
يقع هذا التبدل الخطير في سكون؟ بل فط
مظهر من الحب لرسول الله؟! فليفقه
المسلمون سيرة رسولهم.

وهيهات أن يتم ذلك إلا بالفقه في
الرسالة نفسها والإدراك حق لحياة صاحبها،

عائق في سبيل الدعوة، والتشويه بالأقوال والأفعال والسلوك يصد الناس عن هذا الهدى.

الدعاة يصعدون السلالم في الدعوة إلى الله، والمشوهون والمتشددون يجرون الناس مرة أخرى لا إلى السلم الأول الذي بدأوا منه، ولكن إلى ما تحت الأرض من دركات.

ثانياً: التفاسير

التفسير هو علم يهتم بإيضاح وبيان كتاب الله عزَّ وجلَّ، دلالاته، وأحكامه، معانيه، فيعرض لبحث أسباب نزول الآيات، وتاريخها، والخاص والعام، والمطلق والمقيّد، والمجمل والمفسّر، والأمر والنهي.

ولا شك أن تفاسير القرآن الكريم مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية، إذ إن هذه التفاسير تبين ما أغلق فهمه على الناس وعلى الباحثين والدارسين وطلاب العلم، ويبين ما توصل إليه العلماء من فهوم لآيات القرآن العظيم، ومعاني جليّة، وبلاغة سامية ليس لها مثيل ولا تضاهي، واستنباط لأحكام في بعض آيات القرآن، واتعاظ من زواجر ونواهي، واستبشار لمبشرات... إلى آخر هذه المعاني التي لا تحصى.

التيار أو الفكر نفسه، لأنهم لا يضعون الحواجز بين المنهج والتطبيق.

وقد يقول قائل آخر إننا نحتاج إلى إعادة كتابة التاريخ.

وأقول إن التاريخ واقع حصل بالفعل، وأكدت الروايات التاريخية على ذلك، فلم يسلم واقعنا من الحروف والفتن والقتل والهرج.

وقد يقول قائل: ما من أمة من الأمم إلا وحرابت وسفكت الدماء ظلمت.

أقول: لكننا خير أمة أخرجت للناس، وخير منهج بين الحق، وخير نبي، وهو الخاتم، فكان ينبغي أن يكون سلوكنا موافقاً لمنهجنا إذ كيف سندعو الناس إلى خير لم نفعله.

إنه ينبغي علينا - في هذه المشكلة العويصة - أن ننقد تاريخنا نقداً يشعر منه الآخرون أننا ندافع عن الحق، وأن هؤلاء الذين مثلونا في بعض الفترات أو قل في معظم الفترات التاريخية لم يكونوا ملتزمين بهذا المنهج، وقد اشتركوا في تشويه ديننا العظيم، وهذا في حد ذاته إثم - بالإضافة إلى إثم الفتن - إذ قد صرفوا أناساً عن الدخول في هذا الدين ودراسته والتفكير فيه فالتشويه

من حدوث هذه القصة لرسول الله ﷺ. وأنا أتعجب عندما أجد بعض العلماء القدامى يجرد نفسه مما قيل في القصة، ثم يبحث عن الرواية هل لها طريق من السند صحيح، وينسى أنها قصة تخالف أصول الإسلام والدين، وتشكك الناس في نقل الوحي، والحمد لله أنهم لم يصلوا إلى طريق صحيح لسند هذه القصة، ولكن لنفرض أن هذه القصة لها طريق صحيح في السند، ألا يكفي في رفضها وإنكارها أنها تخالف القواعد والأصول التي أسسها القرآن الكريم؟

إننا نحتاج إلى رؤى اجتهادية لتقدم للناس تفاسير خالية من هذه الأوهام، فنحن بهذه الروايات والآراء الضعيفة والموضوعة يصل الحال ببعض المسلمين إلى الشكوك وإثارة الشبهات، ولا شك أنه مع وجود السماوات المفتوحة، ووجود بعض المتربصين لهذا الدين الذين يقرأون قراءة سطحية ثم يثيروا الناس، ويشككونهم في دينهم، لا شك أننا نحتاج إلى أناس مجتهدين أقوياء مخلصين لتنقية تفاسير القرآن الكريم من مثل هذه الإسرائيليات والتفاسير المغلوطة، لتقدم للناس تفسيراً عصرياً بعيداً عن هذه الشبهات.

وكتب التفسير متنوعة وكثيرة، ومنها ما يهتم في تفسيره بالنواحي اللغوية، ومنها ما يهتم بإظهار الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، ك تفسير الكشاف للزمخشري، ومنها ما يهتم بالنواحي والمسائل الفقهية، ك تفسير القرطبي، ومنها ما يهتم بالنواحي والحوادث التاريخية، ك تفسير الطبري، ومنها التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي «الاجتهاد» ومنها التفسير الصوفي، والتفسير الفلسفي، منها التفسير العلمي، والتفسير الأدبي، إلى آخر ذلك من أنواع التفاسير.

ولكن للأسف فإن هذه التفاسير قد اعترى بعضها كثير من الإسرائيليات والنصرانيات، التي لا يستطيع أن يميزها برواياتها ومعانيها التي تخالف أصول الدين والإسلام إلا العلماء الثقات.

ولذلك، فإن هذه التفاسير قد يكون ضررها على عوام الناس أكثر من نفعها، وذلك لأنهم يقرأون دون تفحص للأقوال وحقيقتها وللروايات ومدى وقتها وضعفها.

فإنك لو تأملت ما قيل حول قصة الغرائق لوجدت المفسرين مولعين بذكرها، وما قيل حولها مما يظل عوام الناس، وقد يستخلص من قراءة التفاسير حولها شبهة

مفصلة، وقد ثبت بالعلم أنها لا تخالف الحقيقة أبداً، وفي غير ذلك من الصور، فالقرآن الكريم يدعو إلى التأمل وإلى النظر.

فكيف يأتي البعض من المتشددین في صرنا ليقدموا صورة أخرى مشوهة عن الإسلام بتصرفاتهم، فيأتي أحدهم بعشرات الأدلة على أن الأرض ثابتة لا تتحرك، والذي ثبت بالعلم والمشاهدة عكس ذلك، وهو يريد أن يأخذ القرآن على فهمه هو فهماً ظاهرياً، ولا يكتفي بذلك بل إنه يطعن في إيمان من قال بدوران الأرض، لأنه يريد - ثانياً - أن يرغم الناس على اعتقاد ما وصل إليه هو. فهذه نماذج مشوهة لفهم هذا الدين القويم.

ثالثاً: الفقه

الفقه هو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية.

والفقه الإسلامي مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية.

ومدلول الفقه محصور على الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، فتخرج من مفهومه الأحكام الاعتقادية والأخلاقية، وأن هذه الأحكام مأخوذة عن طريق النظر والاجتهاد في الأدلة الشرعية.

ومن ناحية أخرى، فإن هذا القرآن الكريم لا تنتهي إرشاداته ولا قوة بيانه ولا إشارات إلى العلم وإلى البحث فيه إلى يوم القيامة.

فمن المهم أن نستخرج من القرآن درره التفسيرية التي تناسب العصر الذي نعيش فيه فالعصر هو عصر العلم، وقد حث القرآن الإنسان - خاصة المسلم - على العلم وعلى كشفه وعلى التعمق فيه وعلى البحث في كتاب الله المقروء بين أيدينا، وعلى البحث في الكون، ولن يكون هناك تعارض أبداً بين العلم والقرآن، وبين العلم والدين، ولكن التعارض يكون سببه الفهم.

فالقرآن الكريم لم يتعرض بصورة قاطعة إلى الحقائق العلمية في الكون إلا من حيث طلب البحث والدراسة والوصول إلى الحقائق.

فمنهج القرآن الكريم هو عدم طرح تفاصيل الحقائق العلمية والاكتفاء بتحديد خطوطها العريضة، وبكل أمر التوصل للتفاصيل إلى سعى الإنسان وجهده في البحث والاستكشاف.

نعم، في صورة خلق الإنسان في بطن أمه التي ذكرت في سورة المؤمنون فإنها تعرض بالتفصيل لشرح هذا الخلق بصورة

فالمزبة التي تركها أئمتنا بالإضافة إلى الثروة الفقهية، تركوا أيضاً المنهج الاستنباطي الذي يستطيع به الفقيه المجتهد أن يستنبط الحكم فيما جدد من مشكلات عصرية.

هذا، ولا بد للدارس والباحث في الفقه الإسلامي أن يقتصر أولاً على دراسة المذهب الواحد، حتى يستطيع أن يستوعب المنهج والأدلة، وإن يلم بأكثر المسائل في هذا المذهب، ثم يطلع بعد ذلك - في الفقه المقارن - على الآراء الأخرى ليتسع اطلاعه وبحثه.

ودراسة المقارنة تعطي أيضاً نوعاً من ترك التعصب والانفتاح على فروع العلم.

وفي دراسة المذهب الواحد أيضاً معرفة دقيقة بخفايا هذا العلم، وطرق بحثه، ومنهج اجتهاد الفقيه، والتعرف على الوصول إلى الرأي الراجح في المذهب، سواء من ناحية الرواية أو من ناحية الاستنباط، فكل مذهب له مفاتيح تعرف به الروايات عن أصحاب المذهب، ويعرف به الراجح من المرجوح، والأصح من الصحيح، وما جرى عليه الفتوى، وما ترك... إلى غير ذلك من مستلزمات العلم.

وقد ترك الفقهاء ثروة من الاجتهادات والمسائل الفقهية تعدت الآلاف، بل وصلت في هذا العصر إلى ملايين المسائل.

ويتميز الفقه الإسلامي بتنوع الاجتهادات والآراء، ونشأت مدارس ومذاهب فقهية تميزة بالإثراء في آرائها وأيضاً تميزت في بحث الأدلة والاستنباط منها.

وقد كتب لبعض هذه المدارس أو المذاهب أن تبقى حية كاملة بآرائها ومناهجها، كالمذاهب الأربعة السنية: الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنبلية، والمذاهب الأربعة غير السنية، كالجعفرية، والزيدية، والأباضية، والظاهرية.

هذا، بالإضافة إلى الآراء في بعض المسائل التي وصلت إلينا من مجتهدين آخرين، كالليث بن سعد والأوزاعي... وغيرهم.

إن الفقه الإسلامي فقه حي، لأن فيه تنوعاً كبيراً وآراء متعددة للمسألة الواحدة، وهذا بالنسبة للمكتوب في المراجع الفقهية المتفق على صحتها، وفيه أيضاً اجتهاد يناسب العصر، ويقوم به علماء مجتهدون - في المذاهب - في كل عصر ليستنبطوا الرأي الشرعي لما جدد من مشكلات.

النبوة من ظروف قد يتغير معها الحكم الفقهي.

ولذلك خرج هؤلاء الفقهاء البدويون بأراء شاذة تخالف ما عليه جمهور علماء الأمة.

بالإضافة إلى ذلك، فإنهم قد جعلوا المندوب فرضاً وواجباً، وفي أحيان يجعلون الواجب مندوباً ومستحباً، فلم لا يستطيعون أن يضعوا المسائل في حيزها...

وقد توسعوا بوصف كل ما هو جديد بأنه بدعة محرمة، ولذلك فإنهم ظلوا بهيئاتهم على الشكل القديم، اللهم إلا فيما أرادوا أن يستمتعوا به من زينة الدنيا، مع أن مفهوم البدعة هو ما يصادم السنة ويقضي عليها تماماً، فهم يصفون كل ما لم يحدث في عهد النبي ﷺ أنه بدعة، والمعروف أن جواز الأشياء لا يتوقف على الأمر بها ولكن على النهي عنها، فإن الأحداث كثيرة والنصوص قليلة، وقد أنزل الله القرآن الكريم وبين الرسول سنته العظيمة ليكون صالحاً لكل زمان ومكان.

فنصوص القرآن والسنة نصوص عامة يندرج تحتها مسائل لا تحصى تناسب كل عصر يستخرج الفقهاء المجتهدون في كل عصر من هذه النصوص الأحكام التي

ولكن للأسف فقد خرج علينا في السنوات الأخيرة من فقهاء الصحراء والبدو من ابتعدوا عن هذه المناهج الفقهية الأولى للمذاهب الثمانية، وأنشأوا آراء فقهية تتميز بالجمود والتشدد نتيجة للبعد عن دراسة المناهج الفقهية التي تتيح للفقيه أن يفهم، فالفقه هو الفهم. هذه المناهج التي ساعدت الفقهاء على معرفة كلام الله وكلام رسوله ﷺ وأفعاله، إذ إن هناك من هذه الأفعال ما هو خاص به، ومنها ما فعله على جبلته وطبيعته، ومنها ما فعله سياسة باعتباره حاكماً قد يتغير بتغير الوقت والأحوال، ومنها الوحي، الذي يجب اتباعه.

كما أن أقواله ﷺ وأوامره قد تكون - أحياناً - على سبيل الوجوب، وقد تكون على سبيل الاستحباب والندب، وقد يكون النهي على سبيل التحريم، وقد يكون على سبيل الكراهة والأدب... إلى غير ذلك من المفاهيم الفقهية التي لا يتسع المقام لذكرها.

ولكن هؤلاء ظلوا يناقشون السنة دون الرجوع إلى الأئمة، فبدأوا يتناولونها مباشرة، وهذا لا يجوز في العصور الأخيرة، لأنه لا دراية لهؤلاء المتأخرين بما حدث في عصر

متميزاً، فصاغوها صياغات تعليمية متفاوتة المستوى، تتناسب مع المستوى العقلي والثقافي للمتلقين.

ولا شك في ضرورة هذا العلم وضرورة علم الكلام في توضيح وبيان العقيدة الإسلامية بياناً شافياً، ولا شك أيضاً في ضرورة هذا العلم للرد على الملحدين والمشككين بالأدلة المنطقية والعقلية.

وقد كان للمعتزلة في بداية عصر الإسلام دور كبير في هذا الصدد، إذ تفوقوا في الرد على المنكرين لوجود الله عزّ وجل. يقول الإمام محمد عبده:

«وإنني لأتعجب من هؤلاء الإخوان في الوطن، وأرباب البصائر والفظن، كيف مالت بهم الحرارة إلى الهبوط، حتى آل أمرهم إلى السقوط، ويا عجباً إذا لم نصرف الفكر في تقويم البراهين وتسيدها، وكيفية الوقوف على الحقائق وتحديدها، ففي أي شيء نصدقه؟ فإنه إن ضل عنا رشادنا وغاب عنا سدادنا، فهل بشيء سوى الدليل نعرفه؟!... ثم قال: وقد قال الأكابر من المحققين كالإمام الغزالي وفخر الدين الرازي وغيرهم: إن تعلم هذه العلوم (يقصد علم الكلام والمنطق) من فروض الأعيان، وأطبق جميع

تناسب الزمان والمكان.

وفي هذا المعنى يقول السنهوري - رحمه الله - «لقد أعطى الإسلام للعالم شريعة هي أرسخ الشرائع ثباتاً، وهي تفوق الشرائع الأوروبية، وإن استقاء تشريعنا المعاصر من الشريعة الإسلامية هو المتسقى مع تقاليدنا القانونية. إنها تراثنا التشريعي العظيم، وبها يتحقق استقلالنا في الفقه والقضاء والتشريع. إنها النور الذي تستطيع أن تضيء به جوانب الثقافة العالمية في القانون. لقد اعترف الغريب بفضلها، فلماذا نكره نحن؟! وما بالناس نترك كنوز هذه الشريعة مغمورة وتنتفل على موائد الغير، تنسقط فضلات الطعام؟!».

رابعاً: العقيدة

مراجع العقيدة ومراجع علم الكلام من المصادر الثقافية الإسلامية الهامة، فهي تتناول دراسات عن عقيدة المسلم من خلال كلام علمائنا عن الإلهيات والنبوات والغيب وغيرها.

وإن علماء العقيدة الإسلامية المتأخرين أضافوا إلى دراسات من سبقهم إضافات علمية ومنهجية قيمة، إذ اتجهوا بها اتجاهات

ولذلك فمن الضروري أن يتسلح طلاب العلم وعلماء العقيدة بهذه العلوم، ليكون أثرهم قوياً في نفوس الناس.

ومن وجهة أخرى، فإن هناك نفرًا من المسلمين أصابتهم الشكوك والريب بإثارة أعداء الإسلام لقضايا عقدية، وهو ما يسمى بالشبهات، والردُّ أيضاً على هذه الشبهات أصبح صعباً في ظل منهج قديم وبعد عن دراسة العلم الحديث.

وقد أثار بعض المتشددین والسلفيين والوهابية أيضاً مسائل في العقيدة وقضايا لم تستقر في كتب العقيدة على مدى سنوات طويلة، بل تأثر الكثير منهم بالتشبيه والتجسيم وتناول الصفات بشيء من الغلط، وهم للأسف ينشرون هذا الكلام على أنه رأي أهل السنّة، وهيهات أن يكون ذلك رأيهم، فأهل السنّة متفقون على التنزيه، وقد كان الصحابة وآل البيت - رضوان الله عليهم وسلامه - يلجأون في أحيان كثيرة إلى التأويل خوفاً من الالتباس الذي قد يقع فيه عوام الناس.

المصدر الخامس: المؤلفات المعاصرة

من أهم مصادر الثقافة الإسلامية -

العلماء على أنها من فروض الكفاية خصوصاً في مثل هذه الأزمان، التي قد وقع فيها اختلاط الناس من سائر الأديان فإنه من البين أن ما أخذ عن الآباء وبلغناه الأقرباء، إن لم يؤيد بالبراهين، نالته أقوال الملحدين، وأدحضته شبه الجاحدين، فيصبح وقد وهي بنيانه وانحط شأنه».

ولكن لا بدّ أن نعلم أن الأمر قد اختلف في مناقشة قضايا التوحيد وإثبات الألوهية لله خاصة مع الملحدين في هذا العصر، فلم يعد الإقناع بطريقة «البعرة» تدل على البعير، والأثر يدل على المسير» كافية، ولم يعد علم الكلام بمصطلحاته القوية كافياً وحده، وإنما أصبح علماء العقيدة الآن يناقشون أناساً قرأوا الفيزيكا والميتافيزيكا، وأصبح يجادلون بروى مختلفة عن الزمان السابق، أصبحت نظرية دارون والنظريات العلمية والحقائق هي طريق دأبهم في المناقشة والاستدلال.

فلا بدّ لعلماء العقيدة والتوحيد أن يغيروا منهجهم وأن يحسنوا صورة مصادرهم العقدية، إذ أصبح الإمام بعلم العصر ونظريات التطور وكيفية الرد عليها وكيفية بيان عدم تعارض القرآن مع العلم أصبح تناول هذه القضايا ضرورياً وهاماً.

زمناً تجرّاً فيه على كتاب الله وعلى سنة رسوله ﷺ وعلى آل البيت وصحابته الكرام، مما يشكل عند الناس نوعاً من الشكوك والتذبذب.

إننا نحتاج إلى تنظيم هذه المؤلفات - وليس ذلك بمنع الغث منها - لأن هذا يقيد حركة الفكر والثقافة - ولكن بالتعرف إلى المجتهدين في كل عصر، وإلى الباحثين في مجالات الثقافة والدراسات الإسلامية الحقيقيين، الذين يقدمون للناس خلاصة معرفتهم في شتى مجالات المعرفة الإسلامية.

وهذا هو ما يوافق العقل والحكمة، فإن الإنسان عادة ما يلجأ إلى أهل التخصص والعلم في كل فرع: (فسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)، ففي مجال الطب نبحت عن الأطباء الثقات المتخصصين لنصل إلى المعرفة والشفاء، وفي مجال الهندسة كذلك، وفي كل مجالات الحياة التي نعيشها.

قد يقول بعضهم: ليس في الدين كهنوت، وهذا حق، ونحن معه، ولكن يوجد تخصص، وتجزؤ غير العلماء والمتخصصين على هذا المجال هو ضرب من القول بغير علم الذي جعله الله من كبائر الذنوب

خاصة في عصرنا الحديث - مؤلفات العلماء والمجتهدين الثقات المعاصرة، وذلك لأن عوام الناس يصعب عليهم تتبع وبحث ما يكتب في الكتب التراثية من آراء - فضلاً عن الروايات - فهذه الكتب القديمة تحتاج - في الغالب إلى متخصصين قد تعلموا التوغل والتعمق فيها.

أما الكتب المعاصرة لكبار المجتهدين العلماء فإنها تمثل تناول القضايا الإسلامية بصورة مبسطة يفهمها الناس، ليس فيها تعقيد الروايات وتشابك الإسرائيليات، ومكتوبة بلغة ميسرة بعيدة عن الحشو والتكلف.

ولكن ينبغي أن تكون هذه المؤلفات لكبار علماء الإسلام المجتهدين، لأنه قد انتشر في أيامنا هذه من يتصدر للكلام في دين الله عزّ وجلّ عقيدة وشريعة ممن ليس له أهلية العلم والبحث والدراسة - فضلاً عن أهلية الاجتهاد - فأصبح الناس يتخبطون تخبطاً عشوائياً في هذا المجال، وأصبحت المؤلفات منتشرة في كل مكان، ولا يعرف الشخص العادي ما هو صالح للقراءة، ومن هو العالم أو الباحث الذي يستطيع أن يطمأن لما يكتب، وأصبح كثير من الناس يعيشون

للثقافة الإسلامية، وقد ظلت هذه المؤسسات تعمل على مدى زمن طويل من الدهر لتحقيق وتبحث وتستنبط وترد على الشبهات، وتجتهد فيها جد من المشكلات لتصل إلى الحقائق آراء علماء الأمة وفلاسفتها، وتقدم ذلك إلى الناس وإلى طلاب العلم وإلى الباحثين.

خاتمة

وهكذا، قد تعرفنا على مصادر الثقافة الإسلامية المعاصر، التي تخرجنا من فهم سقيم للدين إلى فهم صحيح، ومن تشدد إلى تسامح وتيسير، ومن ظلمات الجهل إلى نور المعرفة.

وأعظمها... وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون»، والذي جعله رسول الله تجزؤاً على النار عندما قال: «أجرؤكم على الفتيا أجرؤكم على النار».

إن المؤلفات والمصادر الموثوق بها من قبل علمائنا المجتهدين - خاصة فيما يتعلق بالأحكام والشريعة - تعطي اطمئناناً للناس على دينهم وعلى دنياهم.

المصدر السادس: المؤسسات العلمية والبحثية

المؤسسات العلمية والبحثية الدينية مصدر هام من مصادر الثقافة الإسلامية، فهذه المؤسسات هي التي تعنى بهذه النوعيات من المعرفة، هي المرجع الحقيقي

المراجع

القرآن الكريم

- (١) أبو زهرة، محمد، أصول الفقه (القاهرة: دار الفكر العربي).
- (٢) إسلاميات السنهوري [تحقيق محمد عمارة] (القاهرة: دار السلام، ٢٠١٠).
- (٣) محمد عبده، الأعمال الكامل [تحقيق محمد عمارة] (القاهرة: دار الشروق).
- (٤) حله، محمد علي، جهود الأزهر في دعم قضية فلسطين والقدس الشريف (القاهرة: مطابع الأهرام).
- (٥) الدردير، شرح الخريدة البهية [تحقيق فتحي أحمد عبد الرزاق] (القاهرة: الشركة العربية للتوزيع).
- (٦) الذهبي، محمد حسين، التفسير والمفسرون (القاهرة: مكتب وهبة، ١٩٨٥م).
- (٧) رياض، جواد، الأزهر ودوره الثقافي والعقدي والجهادي (المغرب: مركز حجازنا للنشر).
- (٨) الزمخشري، الكشاف، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- (٩) السرخسي، المبسوط (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٣).

- (١٠) شريف عمرو، كيف بدأ الخلق (القاهرة: مكتبة الشرق الدولية، ٢٠١١).
- (١١) شلتوت محمود، الإسلام عقيدة وشريعة (القاهرة: مطابع الأهرام).
- (١٢) الشيخ نظام وجماعة من علماء الهند الأعلام، الفتاوى الهندية (بيروت: دار الكتب العلمية).
- (١٣) عزام، عبد العزيز، القواعد الفقهية (القاهرة: دار الحديث).
- (١٤) الغزالي، محمد، فقه السيرة (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٧).
- (١٥) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (القاهرة: المكتب التوفيقية).
- (١٦) الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٦).
- (١٧) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الفتاوى الإسلامية من دار الإفتاء المصرية (القاهرة: وزارة الأوقاف، ١٩٨٠ م).
- (١٨) مجمع البحوث الإسلامية، مجلة الأزهر، إبريل ٢٠١٥.
- (١٩) موقع المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية [www. awkaf. org](http://www.awkaf.org).
- (٢٠) نجار، عبدالله مبروك، الأساس الشرعي والقانوني للجنة الفتوى بالأزهر ولجان الفتوى بالمحافظات، مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، السنة السادسة والعشرون، الكتاب الرابع (القاهرة: مطابع الأزهر الشريف، ١٩٩٥ م).

الثقافة والتقدم

قراءة في المشتركات والمعطيات

الشيخ محمد فاطمي

محقق في جامعة باقر العلوم عليه السلام قم - إيران

رضا خاك رنگين

عضو منتدى المحققين الشباب والنخب في إيران

المقدمة

إن الثقافة والتنمية من المفاهيم المهمة جداً في العلوم الجديدة، وكذا الثقافة والتقدم فإنهما يُعدان من القضايا الأساسية. سوف نسعى في هذه الدراسة للوصول إلى نقاط تماس والتقاء مفهومي الثقافة والتقدم، بالاستعانة بفكر الإمام الخامنئي في هذا الصدد، لقد ذُكر الكثير بشأن أهمية الثقافة وثمارها، وقد ذكر أصحاب الرأي ثماراً عديدة للثقافة، مثل دورها في كيفية تحديد نمط الحياة، واستمرار الحياة الاجتماعية والوطنية للشعوب، وتأمين الاحتياجات الداخلية والخارجية للإنسان، وإيجاد الروابط وحفظ الانسجام بين أفراد المجتمع، وصناعة الهوية وغيرها من الموارد المشابهة التي تدل بصورة واضحة على تأييد أهمية الثقافة. لكن أهم ثمار الثقافة هو

صناعة المفردات والتأسيس بناءً على الأفكار والمباني الأساسية لهذه النهضة وهذا التيار. فالجهد الثقافي والمقر والجهة الثقافية، والغزو الثقافي، والدفاع الثقافي، والغارات الثقافية، والناثو الثقافي، والافتدار الثقافي، وغيرها هي قسم ضئيل من المفردات والأدبيات الثقافة لمقام القيادة المعظم والتي يحتوي كل مصطلح منها على مجموعة من النقاط الدقيقة والحساسة.

الثقافة

تنقسم مفردة الثقافة في الأدبيات الفارسية إلى قسمين: «فر» لتي تأتي بمعنى «بادئة»، وهي بالفارسية الهخامنشية والأوستائية بهيئة «far» (بمعنى بادئة)، والـ «هنگ» مشتقة من الدوستائية «تينگ» (thing) بمعنى الجر، وبهذه البائدة (أ) تأتي بمعنى مقيد ومتداول وكانت في اللغات البهلوية (فرهنگ).

وفي اللغة العربية المعاصرة استعملت كلمة الثقافة. وفي اللغة اللاتينية اشتقت من مفردة «culture» وهي بمعنى تربية النبات وتنميتها. والثقافة في فكر آية الله الخامنئي هي الأخلاق والذاتيات الموجودة

تأثيرها على التنمية لأنها تشكل أسلوب تفكر الشعوب ونظرتها للتقدم.

كما أن للقيم الثقافية أهمية خاصة لأنها تمثل أركان التقدم الأساسية؛ وتشكل الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على أساسها ووفق مبادئها؛ وبتعبير أبلغ، فإن كل أمر ضروري ومطلوب لحياة أي مجتمع، سواء من جهة المفهوم أو من جهة المصداق، سيكون تابعاً لثقافة ذلك المجتمع. يكتب هاورد غاردنر مؤكداً على أهمية الثقافة: إن العقائد والأنشطة الثقافية تؤثر على الطفل منذ لحظة الولادة ولعله قبل الولادة. حتى إن توقعات الوالدين من طفلها الذي لم يخرج إلى الدنيا بعد، وتصرفاتهما وردود أفعالهما تجاه تشخيص جنس الطفل ستكون مؤثرة. فالأسرة ومعلمي المدرسة وغيرهم من المصادر المؤثرة في الثقافة تدل على ماهية العوامل المؤثرة في نمو الطفل وتكامله وكيف ستكون الآثار البعيدة والقصيرة المدى عليه.

تعريف المفهوم

إن من جملة الأمور التي تُعد أمراً ضرورياً ومطلوباً في أي حركة عامة أو نهضة، هي

العالمية الثانية. كان طلاب العلوم الاجتماعية، في البداية، يستعملون لفظة «الرشد» وكانوا يقصدون بذلك الرشد الاقتصادي للمجتمعات الغربية المتقدمة أو «العالم الأول» ويقيسون ذلك على أساس معايير محددة مثل الناتج القومي الإجمالي، والمداخل العامة، و.. وفيما بعد رأوا أن التقدم الاقتصادي ليس معياراً مناسباً ولا يمكن أن يدل على ميزان رفاهية مواطني أي بلد. فمن الممكن أن يكون الناتج الإجمالي العام مرتفعاً ولكن إذا لم يكن التوزيع عادلاً فإن عدداً قليلاً من أبناء ذلك المجتمع سيتمتعون بمعظم تلك الثروات، فلهذا استعملوا مفهوم «التنمية» الذي يشمل بالإضافة إلى الرشد الاقتصادي، الرشد الاجتماعي. بالطبع، إن للتنمية أبعاداً وجوانب مختلفة، فهناك التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية، ولكل واحد منه أبعاد أو جوانب متميزة أكثر. ووفق رؤية آية الله الخامنئي، فإن الحركة في إطار نماذج التنمية لا يمكن أن تؤمن الطريق والمسير للتنمية وفق مفهومها الإسلامي، الذي ينطلق من مباني الثقافة الإسلامية؛ لهذا، فقد تناول عليه السلام قضية التنمية وفق أدبيات

في أي مجتمع أو جماعة وهي الأفكار والإيمان والتطلعات الموجودة في هذا المجتمع، فهي التي تشكل مباني ثقافة أي بلد، «والعلم أيضاً من الثقافة».

«انظروا، عندما نقول الثقافة فإن مقصودنا هو ذلك المعنى العام للثقافة... فليس المراد من الثقافة، الثقافة المدروسة والمكتوبة المدرسية... بالطبع، تشمل الثقافة بمعنى من المعاني العلم والتحصيل والجامعة والمدرسة وأمثالها، لكن بقية الفنون والشعب والتشعبات الناشئة من الثقافة مشمولة أيضاً، ونحن ناظرون لجميع هذه الأمور. فالثقافة تشمل الأدبيات والفن والعلوم والعادات والأخلاق الموجودة في المجتمع والسنن والخصال الوطنية، مثل المخاطرة... وقضية الانضباط الاجتماعي والوجدان المهني... فهاتان خاصيتان اجتماعيتان وأخلاقيتان وهما جزء من ثقافة البلد. (وعندما نذكر الثقافة العامة نقصد الأخلاقيات العامة).

التنمية

إن من المفاهيم المهمة التي تُستعمل اليوم في أدبيات العلوم الاجتماعية هو مفهوم «التنمية» والذي راج كثيراً بعد الحرب

عنه بالدول المتطورة (developed countries)، في حين أن التنمية يُقصد بها الدولة التي تسعى لتكون غربية (developing) وأن الدولة غير النامية (developed under) هي الدولة التي لم تصبح غربية ولا تسعى لأن تكون كذلك؛ أرادوا بذلك أن يرسخوا مثل هذه المعاني. وفي الواقع، فإن حث الدول على التنمية، وفق الثقافة الغربية السائدة، يعني حثها على أن تكون غربيةً.

التقدم

لعل مفهوم «التقدم» كبديل عن المفهوم الغربي لـ «التنمية»، أهم المصطلحات المفتاحية التي يؤكد عليها قائد الثورة في الأدبيات الاستراتيجية، ولو دققنا النظر لوجدنا أن التقدم هو طريق ومسير وهدف أيضاً؛ فلو أردنا أن نختصر أهداف شعب إيران في مفهوم واحد، يستطيع إلى حد كبير أن يبين المطالب العامة للبلد والشعب، لوجدنا أن ذلك المفهوم هو التقدم؛ غاية الأمر أنه موافق للتعريف الذي يطرحه الإسلام للتقدم.

«لقد اخترنا كلمة التقدم بدقة، ولم نرد

أخرى تشتمل على معايير الثقافة الإسلامية ولا تتلائم مع مستلزمات التنمية الغربية؛ لأن ما نسعى إليه، ليس بالضرورة تلك التنمية الغربية بخصائصها ومعاييرها. لقد قام الغربيون باستعمال تكتيكات دعائية محنكة على مر السنوات المتمادية، وذلك لأنهم قسموا بلدان العالم إلى بلاد غير نامية (under developed)، وبلدان في حالة تطور ونمو (developing). حسن، يتصور الإنسان للوهلة الأولى أن البلدان التي نمت «المتطورة» (developed countries) هي تلك البلدان التي تتمتع بالتكنولوجيا والعلوم المتطورة؛ وتكون الدول نامية أو غير نامية بمقدار ما تتمتع به من تكنولوجيا وعلوم، في حين أن القضية ليست كذلك؛ فإن عنوان التطور «حصول النمو، وكذلك العنوانان الآخران اللذان يأتيان تبعاً وهما «النامية» و«غير النامية»، يحمل بعداً قيمياً وبالتالي يسعى لتثبيت بعد قيمي يتبعه، ففي الحقيقة عندما يُقال دولة متطورة (أي نمت: developed) يقصدون بذلك دولة غربية؛ بكل خصائصها الثقافية والآداب والسلوكيات التوجهات السياسية (وأدائها وسلوكياتها وتوجهاتها السياسية)، هذا ما يُعبر

زوايا وجوانب في معنى الامبريالية نحن لا نوافق عليها. فنحن لسنا متحسين تجاه تلك الزوايا، بل إن حساسيتنا وحرصنا هو على ذلك المعنى الذي يتحصل من كلمة استكبار، لهذا طرحنا هذا اللفظ وقد استقر في الثورة والعالم اليوم ويُفهم مقصودنا منه، وهكذا هو الأمر بالنسبة لمفاهيم أخرى»^(١).

عملية تحقق الأهداف الإسلامية

بدراسة الإجراءات والتدابير والأفكار العامة لسماحته، منذ ما قبل قيادته وإلى يومنا هذا، يمكن التوصل إلى أن الخطوط العامة لما اتخذه وأظهره يقع في إطار كلي نظري وعملي، بينه تحت عنوان «عملية تحقق الأهداف الإسلامية». ولعله يمكن عد هذه العملية الأطروحة أو المقولة والخطاب الأساسي لفكر القيادة.

«يوجد سلسلة منطقية، قلنا هذا سابقاً وجرى البحث فيه. الحلقة الأولى (في السلسلة) هي الثورة الإسلامية، وبعدها تشكيل النظام الإسلامي، ثم تشكيل الدولة الإسلامية، ليأتي بعدها تشكيل المجتمع الإسلامي، ثم تشكيل الأمة الإسلامية، هذه سلسلة مستمرة ذات حلقات متصلة ببعضها البعض»^(٢).

استعمال كلمة «التنمية» عن عمد، وذلك لأن لكلمة «التنمية» بعد قيمي ويحمل معانٍ ضمنية وله لوازم تصاحبه، لا ننسجم معها ولا نوافق أحياناً. نحن لا نريد أن نأتي باصطلاح وضعي ومتعارف عليه عالمياً ويُفهم منه معنى خاص ونجعله ضمن مجموع شؤوننا وأعمالنا، بل إننا نطرح مفهوماً نوافق عليه وينسجم معنا ونعرضه وهذا المفهوم هو عبارة عن التقدم. نحن نعرف المرادف الفارسي لمعنى التقدم، ونفهم جيداً ما هو المرادف من التقدم، وسوف نعرف التقدم ليتضح مقصودنا من هذه الكلمة في الفارسية بصره جلية والساحات التي يشملها التقدم وباتجاه أي هدف. نحن لم نفترض هذه المفاهيم المرتبطة بالثورة في موارد أخرى أيضاً».

وإن لإصرار القائد المعظم على الاستفادة من المفاهيم الذاتية وجه آخر وهو أنه يريد أن يقدم الإسلام وإيران للعالم، وهذه هي أركان صادرات «المرجعية العلمية» ضمن عملية مديدة على مستوى العلم والثقافة الإسلامية - الإيرانية. إننا لم نستعمل كلمة «الإمبريالية» بل جئنا بكلمة «الاستكبار». «ومن الممكن أن يكون هناك

الإنسانية وإيجاد القيم الخاصة واستقرار الفضائل البارزة، بضبط البشر وتوجيههم من الخارج بواسطة الشرع ومن الداخل بواسطة الفطرة؛ ومثل هذا الأمر يفوق في تأثيره العمل الثقافي الأحادي الجانب بدرجات.

ارتباط الثقافة بالمجتمع

إن الثقافة تكون مشكلةً للذهنية والسلوكيات العامة للمجتمع، «إن ثقافة أي شعب وأي بلد هي في الحقيقة الهيئة والشاكلة المعنوية لهذا الشعب، فلو اعتبرنا أن الأوضاع الاقتصادية والنظام السياسي والأوضاع الاقتصادية والنظام السياسي في أي بلد الشاكلة الجسمية لهذا الشعب، فإن روح هذه المجموعة البشرية ستكون عبرة عن الثقافة. وفي الحقيقة، الثقافة هي التي تحدد الهوية والشاكلة المعنوية لأي شعب. ويجب أن تقبل هذا الأمر كأصل موضوعي حيث أن ثقافة أي مجتمع هي أساس هوية ذلك المجتمع»^(٣).

ارتباط الثقافة والحضارة

للحضارة قسمان: القسم الأول يكون على نحو الأداة ويُعبر عنه بالقسم الصلب

ارتباط الثقافة والمفاهيم المفتاحية الأخرى

إن تعرضنا في هذه المقالة لموضوع الماهية المرتبط بالثقافة والدين والمجتمع والحضارة واللغة، هو لأجل أن المسائل المنبثقة منها ستكون حاكمةً منذ البداية وحتى النهاية؛ ولهذا من الضروري أن تُشخص هذه النسبة المذكورة منذ البداية حتى يتضح المنطق المستعمل في هذا القسم الأساسي من مطالب المقالة والنصوص المرتبطة بآراء سماحته وأفكاره.

ارتباط الثقافة والدين

دين الإسلام عبارة عن وصفة تامة وكاملة تصلح لجميع ساحات المجتمع، وقد ظهرت آراء قائد الثورة في إطار الرؤية الكونية الإسلامية انطلاقاً من موقعيته كقائد ديني. فلو كان الدين عنصراً معيارياً للمجتمع والسياسة والاقتصاد، فإن أحكامه الثابتة وواضع قوانينه سيشكلان الأصول والحدود والحدود للمقولات الثقافية. للدين امتياز خاص على الثقافة، لأن الثقافة تتضمن السلوكيات والقيم الاجتماعية لأبناء مجتمع ما؛ بينما يقوم الدين، بالاستناد إلى الفطرة

تشكل الحضارة الإسلامية الجديدة. فما هو ذلك القسم المتعلق بالأداة والوسيلة؟ إنه عبارة عن تلك القيم التي نطرحها اليوم تحت عنوان تطور البلد: العلم، والاختراع، والصناعة، والسياسة، والاقتصاد، والافتقار السياسي والعسكري، والشأنية الدولية، والإعلام وأدواته؛ فكل هذه القيم هي من قسم أداة الحضارة ووسيلتها. وبالطبع لقد تطورنا جيداً في هذا القسم على صعيد البلد»^(٥).

ارتباط الثقافة واللغة

إن اللغة هي ناقل الثقافة وحامل الثقافة في أي بلد أو حضارة. «إن اللغة هي أهم ذخائر أي شعب وهي القناة الأساسية لانتقال الثقافة، فهي تنقل اللباس والآداب والدين والعقائد والأفكار الإجتماعية. إن الأدبيات في حقيقة الأمر هي الوصل للتراث الثقافي في أي بلد من جيل إلى جيل»^(٦).

مباني وأصول تقدم الثقافة

في أي مجتمع، يوجد ثلاثة مستويات للثقافة: الثقافة البنيوية والتأسيسية، والثقافة التخصصية، والثقافة العامة. يتم تعيين

(hardware)، والقسم الثاني وهو الأصلي ويُعبر عنه بالـ «ناعم» (software)، وهو في الحقيقة تلك الثقافة التي طرحها في قسم الثقافة العامة ضمن بحث نمط العيش أو ثقافة الحياة: إن هذا القسم هو القسم الحقيقي والأصلي للحضارة^(٤).

«فهذا هو القسم الحقيقي والأساسي للحضارة، كقضية الأسرة، ونمط الزواج، ونوع المسكن واللباس والانفاق، ونوعية الغذاء والطبخ والترفيه، وقضية الخط، ومسألة اللغة، وقضية التكسب والعمل، وسلوكنا في محل العمل والجامعة وفي المدرسة وفي النشاط السياسي وفي الرياضة، وفي الإعلام الخاضع لإرادتنا، وفي سلوكنا مع الأب والأم، ومع الزوج والأبناء ومع الرئيس والمرؤوس والشرطة والعامل الحكومي، وفي أسفارنا ونظافتنا وطهارتنا وسلوكنا مع الصديق والعدو والأجنبي، فكل هذه ترتبط بالقسم الأساسي للحضارة الذي يمثل صلب حياة الإنسان... وهذه الأسس والجذور هي عبارة عن العقل والأخلاق والحقوق، فهذه الأمور قد جعلها الإسلام في أيدينا. ولو لم تتناول هذه المقولات بصورة جادة فإن التطور الإسلامي لن يتحقق، ولن

الغرب. فلو سادت عقيدة الريح في مجتمع ما، فإن جميع ظواهر العالم ستُفاس على أساس الماديات والأموال وتُعطى القيمة والأهمية تبعاً لذلك؛ أما في المجتمع الذي لا يكون المال والريح ملاك القضاء الحكم على الأشياء يمكن أن يُعد ذلك الأمر من القيم السلبية. أو إذا سيطرت أصالة اللذة على مجتمع ما فسوف تكون اللذة أساس الكثير من التحركات والأعمال مثل إباحة الشذوذ الجنسي. أما في البلد الذي يعتبر الاستغلال محرماً ومعصيةً ويمنع الإغارة ويحرم الغصب ويمنع الاعتداء على حقوق الآخرين وسلبهم أموالهم، فسوف يكون للتقدم معنىً آخر تماماً. لهذا، تُعتبر المباني المعرفية والمباني الأخلاقية والأفكار الأصولية والفلسفية أمراً محورياً ومصيرياً في تعريف التقدم في أي بلد. وبناءً على ما ذكر، فإن كل ثقافة ستتشكل وفق مباني رؤية كونية خاصة.

التوحيد: إن الأصل البناء الأول والأهم والذي يمنح التكامل هو التوحيد. فإن ثقافة ثورتنا هي ثقافة التوحيد والعبودية. فالتوحيد هو الركن الأصلي والأساس للرؤية الإسلامي التي نريد أن نقيم هذه الحكومة وهذا النظام

الخطوط الكلية والبني التحتية والأهداف العليا الثقافية في أي مجتمع وتبيانها ضمن الثقافة النبوية والتأسيسية. يتم تعريف العقائد الأساسية وأصول الرؤية الكونية الإسلامية للاعتقادات، والمعتقدات المرتبطة بعلم المعرفة والأنطولوجيا وعلم معرفة الإنسان في هذا القسم تحت عنوان المسلمات الأساسية التي تكون منبعاً ومصدراً أساسياً للقيم، ومصاديق للمعايير العملية وهي مؤثرة على مستوى المظاهر الثقافية.

في قسم الثقافة التخصصية، تُنفذ وتُطبق الخطوط الكلية للثقافة، التي تم إنتاجها في القسم التأسيسي والنبوي، بواسطة مناهج خاصة مرتبطة بموضوعات مختلفة؛ وفي هذه المرتبة بالذات تتشكل العلوم المختلفة سواء الإنسانية أو الطبيعية وفق توجهات متنوعة، وتؤثر المفاهيم والنتائج الحاصلة من الثقافة التخصصية على نطاق الميول والأفكار والسلوكيات الإنسانية، ويتم وضع الثقافة العامة عن طريق التكامل.

فقد كان للمباني المعرفية والمباني الفلسفية والمباني الأخلاقية التأثير الهائل على مستوى التقدم المادي الذي حصل في

الزمانى يحتاج إلى أن يتطابق بنفسه مع قوانين الخلق والسنن الإلهية التي لا تغيير فيها ولا تبدل، ومعنى ذلك هو أنه عندما تتحرك جماعة أو شعب على هذا الطريق فإن رياح التوفيق الإلهي، وهي سنن الخلق تلك، ستكون بعونهم وتحملهم على أكفها نحو الأمام.

نشيرها هنا إلى عدة سنن أساسية:

سنة العدالة.

سنة وجود الموانع مقابل مساعي جميع

الأنبياء.

سنة الغلبة القطعية لحركة الأنبياء.

سنة الإمداد الإلهي.

سنة الهزيمة نتيجة الغرور والتكبر على

التقدم والانتصار.

التحول والتقدم الثقافي أساس

التحولات الأخرى

كنا قد ذكرنا، أن الثقافة تتأثر بالدين تأثراً

شديداً، لهذا تكون حائزَةً على جانب أصيل ما

وراء إنساني، إلى جانب البعد الإنساني؛ حيث

إن ذلك القسم ما وراء الإنساني والديني، لأنه

يملك الأصالة، يجعل سائر البنى والنظم

الاقتصادية والسياسية والاجتماعية تحت

وهذه الحركة على أساسها.

انحصار الألوهية.

انحصار الربوبية.

العبودية وانحصار الطاعة بالله.

إطاعة الخطة الإلهية في الحياة الاجتماعية. (الطاعة الخطية)

روح التوحيد؛ دفع العبودية لغير الله.

التوحيد ينفي الطبقية الاجتماعية.

الإنسان المحوري الإسلامي، التكريم

التكويني التشريعي للإنسان.

للإنسان ساحتان؛ سعادة الدنيا والآخرة.

الاستعداد المطلق للإنسان في البحث

عن الكمال.

التكامل والتفاعل بين الإنسان

والطبيعة.

مسير العالم وحركته نحو حاكمية الحق.

الحركة على أساس قواعد الخلق

والسنن والوعود الإلهية.

المسألة الأخرى التي تحوز على اهتمام

خاص في فكر مقام القيادة المعظم هي

بحث قواعد الخلق والسنن والوعود الإلهية

التي تبين مسار الحركة نحو الأهداف

السامية انطلاقاً من معرفتها بعمق. فالإنسان

الثقافة الموجودة؛ وهناك قسم «ما وراء إنساني» أو حقيقي ينبغي لذلك القسم الواقعي أو يتحرك نحوه بواسطة مجموعة من العوامل، فيتحرك نحو تلك الثقافة السامية والحقيقية وما وراء إنسانية التي يتكفل الدين بتحديدتها وتعريفها. وقد كانت أصول الرؤية الكونية والنظام الاعتقادي هما اللذان يتكفلان بتبيان قسم «ما وراء الإنساني» للثقافة. وبنحو منطقي. يجب أولاً وضع القيم والأهداف المرتبطة بالثقافة التأسيسية البنوية والحقيقية ضمن لائحة منظومة، كي يتحدد على أساسها تلك العملية المنطقية، إلا أن هذه الفهرسة وطرح هذه المنظومة على نحو تحقيقي وبحث يفوق قدرة هذه الدراسة، لكننا نشير إليها على نحو إجمالي.

المرحلة الأولى: إيجاد تحول بنيوي

لأجل التقدم بالثقافة والفكر الإسلامي والوصول إلى الأهداف الثقافية العليا، هاجر النبي وكانت بداية هجرته الهجرة من النفس، ومن ثم الهجرة من سيرة البنية الطاغوتية الحاكمة لأشرف مكة. وفي منطق القرآن، فإن كل نظام غير نظام الولاية هو نظام الطاغوت، كما أن أكثر الناس الذين يعيشون في ظل المجتمع الطاغوتي هم مستضعفون

تأثيره الشديد، لهذا، تصبح الثقافة بأبعادها المختلفة، أكثر حيويةً وتجزراً. إن التحول الثقافي مقدم على التحول في سائر الدوائر والمجالات. ويمكن تعريف وإعادة تعريف تلك المجالات وعناصرها الفرعية وفق معيار وملاك الثقافة، وفي فكر سماحته فإن القطاعات السياسية والاقتصادية تكون بمنزلة الجسم أو البناء، بحيث لو أصابها العيب أو زال بالكامل، فمع وجود الكنز الذي لا ينفد للثقافة الغنية، يمكن إعادة بناء هذا المبنى أو إصلاحه.

خارطة طريق التقدم الثقافة على أساس أنموذج حركة الأنبياء

إن منطق ومنهج التكامل الثقافي للمجتمع وعجلة تقدم الثقافة وبناء الحضارة، تتبع من أنموذج حركة النبوة للرسول وأهل بيته عليهم السلام. لقد تنزل القرآن آيةً، آيةً وكان يضع بكل آية مدماك بناء الثقافة والحضارة والحياة الإسلامية الطيبة؛ وكان المسلم بتدبره وتفكره فيما جرى ومعايشته له في كل لحظات حياته يرتبط بالمستقبل ارتباطاً بناءً.

نظام الأهداف الثقافية

إن للثقافة قسم إنساني أو واقعي وهو

الهندسة العامة للمسؤولين حول محور الإمام، ومجموع القوانين التي وضعها الشارع المقدس أو في كلام المعصومين بشأن الحكم المسؤولين وشروطهم. النظام هو ذلك الميزان الذي يوجد التوازن الاجتماعي. وهذا الأمر في ثورتنا هو ذلك التثبيت للنظام الديني التقوائي الشعبي الاختياري بواسطة الشعب الذي صوت تأييداً للجمهورية الإسلامية والدستور من أجل إقامة أركان الحكومة، والسلطة الإجرائية، والسلطة التشريعية والقيادة، والسلطة القضائية وغيرها من الأركان، وتلك الهوية العامة بتعريف محدد اختاره الناس وهي الجمهورية الإسلامية. نظام تم اقتباس سيادته الشعبية من الإسلام وهذه المرحلة من الثورة قد تحققت بنجاح.

المرحلة الثالثة: تشكيل الدولة الإسلامية

المرحلة الثالثة هي الحلقة والخطوة الثالثة في العملية عبارة عن تشكيل الدولة الإسلامية عندما اجتمع أهل الحكم والولاء حول محور النبي أو الولي الفقيه الذي هو مسلط على نفسه ومطيع لأمر مولاه، ومخالف لهواه، وعملوا على أساس المنهج

وليس لهم أي دور على صعيد حركة المجتمع وتوجهه، وعلى عكس الحكام الطواغيت، فإنهم يجرون أنفسهم والناس في ركب هذه السيرة إلى الهلاك والفناء إلا إذا هاجر المستضعفون وأطاعوا ذاك الخط الذي يوجب سعادتهم الأخروية. بناءً عليه، يجب القيام بحركة ثورية ونهضة انقلابية تسقط النظام الرجعي والقديم والفاقد والعميل، ويجب إزالة البنيان الفاسد والمنحرف للأنظمة الاستبدادية وتأمين الأرضية المناسبة لإيجاد نظام جديد. ومثل هذه الثورة ستكون تحولاً بنوياً قائماً على سلسلة من القيم وتُحسب كحركة تقدمية. ما جرى في بلدنا هو الثورة الإسلامية التي شكلت تحولاً عظيماً في الأركان السياسية والاقتصادية والثقافية للمجتمع، واعتُبرت حركةً تقدمية وتحرراً نحو التقدم في هذا البلد ولهذا الشعب. لم تكن الثورة لأجل أن يذهب قوم ويأتي آخرون، بل كانت الثورة من أجل تغيير القيم في المجتمع ولأجل تحقق قيمة الإنساني في ظل العبودية لله.

المرحلة الثانية: تشكيل النظام الإسلامي

إن النظام الإسلامي هو لأجل ماهية

والتوجيهية لثقافة التنمية من قبل مقام القيادة المعظم لا تكون محدودةً بقسم الثقافة العامة، ووفق وجهة نظره فإنه يتم التوجه إلى تبيين المباني الثقافية والطبقات البنيوية للثقافة، ومن جانب آخر يتم التوجه والاعتناء بالثقافة التخصصية ولكن بلحاظ الواقع العيني العملائي ومن أجل تنفيذ عملية التنمية يتم التوجه إلى ثلاث ساحات ثقافية عامة.

إنني أشاهد ثقافة البلاد في ثلاث ساحات بصورة مهمة وعامة:

الثقافة كموجه لجميع القرارات العامة في البلاد، حتى القرارات السياسية والاقتصادية والإدارية، وحتى في الإنتاج والخدمات وال عمران والزراعة والصناعة والسياسة الخارجية والتدابير الأمنية.

الثقافة كمشكل للذهنية والسلوك العام في المجتمع.

الساحة الثالثة هي الثقافة كعنوان للسياسات العامة العلمية والتعليمية للأجهزة الحكومية المكلفة مثل التربية والتعليم العالي والصحة والدواء.

لقد قمنا لحد الآن ببيان الطبقة البنيوية التأسيسية للثقافة من وجهة نظر سماحته

الإسلامي (سوفتوير) تشكلت الدولة الإسلامية، وبعد الدولة يأتي المجتمع الإسلامي والشعب الإسلامي. حققت الهجرة إلى مدينة الرسول ﷺ بركات كثيرة وتشكلت الدولة الإسلامية. هنا بالذات، حدثت معركة بدر المظفرة وهزيمة أحد ومحنة الخندق وامتحان الحديبية.

الأقطاب المؤثرة في ثقافة المجتمع

دور الدولة الإسلامية (الحكومة) في الثقافة وتقدمها

١ - أهمية دور الدولة.

٢ - دور الدولة في الإشراف والدعم وتأمين الأرضية والإدارة والتخطيط الثقافي

دراسة دور قيادة النهضة في تقدم الثقافة

يقوم القائد بتعيين مسؤوليات المؤسسات الحكومية على مستويين هما: الحاكمة وإمامة الأمة الإسلامية ويحدد التطلعات والأهداف وفق مستوى الثقافة العامة. فعلى مستوى الحاكمة يتم التوجه إلى مستويين في وضع السياسات العامة للبلاد واتخاذ القرارات المرتبطة بالأمور العلمية والتربوية فيها. بناءً عليه، فإن الساحات الإشرافية

الأساتذة والمسؤولين المعنيين.
إن دراسة كل واحدة من هذه الموارد السابقة يحتاج إلى دراسة خاصة، ونحن في هذه الدراسة نقوم بتبيين بعض هذه المصطلحات المفتاحية.

٢- خطاب العدالة والتقدم:

إن معيار العدالة يُعتبر أحد أهم القيم الثقافية في المجتمع الإسلامي، نحن نريد أن نبذل قضية التقدم والعدالة في العقد الرابع للثورة إلى خطاب وطني عام والمقولة المقابلة لهذا الخطاب هي التنمية والاعتدال والعمران الغربي.

يمكن إدراج بعض المفاهيم المطروحة بشأن هذا الخطاب: تقدم العدالة على العمران والبناء والتنمية، سد الفجوة الطبقية، التوزيع العادل للثروة، المناشدة بالعدالة من قبل الجامعيين، مواجهة الفقر والفساد والتمييز، التأكيد على العيش البسيط ومواجهة الارستقراطية عند المسؤولين...

ب- تسمية العقود والسنوات والمطالب الاستراتيجية

من جملة الإجراءات الثقافية البناءة التي

وتعرضنا لقسم من نظام الأهداف الثقافية، وفي هذه الأثناء نقوم بالبحث حول تشكيل الدولة الإسلامية ضمن إجراءاته الأخرى في مجال هداية الثقافة التخصصية والعمومية:

أ - صناعة الخطاب «إن الخطاب هو

ذاك المفهوم أو المعرفة التي تعم الجميع في فترة زمنية محددة داخل المجتمع وعندها يصبح هذا خطاب المجتمع». إن الخطاب في أي مجتمع مثل الهواء، فالجميع يتنفسونه سواء أدركوا ذلك أم لا، شأؤوا أم أبوا، فيجب القيام بصناعة الخطاب هذا.

١- مقولة (الخطاب، إنتاج العلم، واختراق حدود المعرفة):

كنموذج، نقوم بدراسة أهم الخطابات والثقافات التي أوجدها سماحته في البلد وهو ما يتعلق بمقولة إنتاج العلم، ومن الضروري أن نذكر أنه قد ثبت كل واحد من هذه المقولات والخطابات باستعمال أسلوب خاص؛ فخطاب التقدم والعدالة بدأ مع مجموعة من النخب ثم تبعه إلى مستوى المسؤولين وعموم أفراد المجتمع. وخطاب إنتاج العلم والتحول في العلوم الإنسانية بدأه في محضر الجامعيين ومن بعدها في جمع

والثاني الاقتدار الناشئ من الموقعية الحكومية. وفي الفكر السياسي للإسلام يوجد عامل ثالث أيضاً لعله يتفوق على العاملين السابقين وهو ذلك الاتصال والارتباط المعنوي للقائد مع الله تعالى وعالم الغيب. لهذا، فإنه، وبالإضافة إلى العاملين المذكورين، يوجد عامل يتفوق عليهما وهو أن يكون قائد النظام الإسلامي متمتعاً بالاقتدار المعنوي الذي يحدد الأهداف ويبعث على التحرك. الأهداف المطروحة في الساحة الثقافية للمجتمع تبين التوجهات وتبعث على الحماس والشوق والأمل. وإن الدولة الإسلامية تحتاج إلى عملية خلق الأهداف من أجل إيجاد المجتمع الإسلامي النموذجي والحضارة الإسلامية.

ومن الاختلافات الأساسية بين المدير والقائد الثقافي ما يرتبط بهذه الخاصية والخصلة. إن المدراء وفي العادة، بسبب الخاصية العمالية يصابون بعد مدة بأفة الاستغراق في العمل والاستسلام للوقائع الموجودة، أما القادة الثقافيون فهم في حالة دفاع دائم عن الآمال والأهداف وبصدد تغيير الظروف لمصلحة تلك الأهداف. وفي الوقت نفسه تراهم يقبلون أن الوصول إلى الأهداف يتطلب سلوك طريق صعب وشاق ولكن لا

اتخذها سماحته هي تسمية السنوات والعقود: إننا عندما نطلق اسماً على سنة ما أو شعاراً ونسميه به ونبدأ هذا العام بهذا الاسم وذلك الشعار، فليس لأجل بعض الأمور الهامشية، بالطبع القضية ليست في الأسماء بل المهم هو المسمى، لكن هذه التسميات تدلنا والمسؤولين على ما نريد وما ينبغي أن نسعى إليه^(٧). وقد اعتمد هذا الإجراء منذ بداية قيادته، وقد أطلق على العقد الرابع عنوان «التقدم والعدالة». وقد أشار في جميع نداءات رأس السنة الهجرية الشمسية إلى اسم «عقد العدالة والتقدم»، وأطلق التسميات على السنوات والمطالب التي أدرجها على أساس موضوعي التقدم والعدالة. وبالطبع، بالتوجه إلى الأهداف والبرامج الاستراتيجية الاقتصادية المطروحة، من وجهة نظره، فإنه في الوقت الحالي، وفي السنوات المقبلة، وإن كانت الثقافة ظاهرة مظلومة لكن الأولوية الآن للأهداف الاقتصادية.

خلق الأهداف الثقافية

ذكر أن من جملة العوامل الأساسية لاقتدار القادة هناك عاملان يساهمان في إعانة القادة على إنجاز رسالتهم: الأول الاقتدار الناشئ من القدرات الشخصية؛

النظام، والدولة والحكومة وإقامة الحضارة الإسلامية في صدر الإسلام، وكان هذا المنطق القيادي يمكن استنباطه من خلال الآيات والأحاديث، خصوصاً بالاستناد إلى الأحاديث التي تعد إسلامية الحكومة مؤثرة في أسلوب العيش وفي ثقافة المجتمع. وبعد هذه المرحلة من تشكيل الدولة الإسلامية تأتي مرحلة تالألؤ وتشعشع النظام الإسلامي أي هي مرحلة إيجاد الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي. الهدف عبارة عن بناء دولة يمكنها أن تكون قدوة للعالم: ﴿لتكونوا شهداء على الناس﴾. عليكم أن ترتقوا حتى تكونوا مشرفين على العالم كله. وعلى جميع المناهج وعلى كل الحضارات والمدنيات، لو تحققت هذه المرحلة بإيجاد المجتمع الإسلامي فسوف نكون لجميع مسلمي العالم أسوةً وقدوة، فههدف الإسلام عبارة عن الوصول إلى الحياة البشرية الطيبة، والآية القرآنية تقول: ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنثى وهو مؤمنٌ فلنحيينه حياةً طيبةً﴾^(٨). لقد جئنا لأجل إيجاد مجتمع إسلامي.

إن المجتمع المثالي والمجتمع الإسلامي المتقدم هو المجتمع المهدي، ويجب علينا أن تقترب من حيث الخصائص

ينبغي الاستسلام للموانع أبداً؛ وتعبير إمامنا الراحل، رحمة الله عليه، فإن التأخر عن الوصول إلى الأهداف لا يعني العدول عنها.

ج- التخطيط الاستراتيجي للقيادة

يعتبر البعض الثقافة والمقولات الثقافية أموراً لا تقبل الإدارة، وبنظر هؤلاء لأن التدخل في دائرة الثقافة ونطاقها يؤدي إلى التجمد أو الفوضى، فينبغي ترك الأمور الثقافية على حالها لكي تنمو بذاتها وتتكامل. ويمكن أن تكون إدارة الثقافة وتوجيهها أمراً ممكناً وواقعاً وضرورياً. يجب على الحكومة الإسلامية أن تتوجه إلى هذه القضية والعمل على وضع البرامج والخطط المناسبة لها.

المرحلة الرابعة: تأسيس المجتمع الإسلامي ونتاج الحياة الطيبة

الدولة الإسلامية هي التي توجد المجتمع الإسلامي، وإلى الآن لم يتم إيجاد المجتمع الإسلامي، لأننا ما زلنا في مرحلة الدولة الإسلامية؛ ويمكن بالإجمال إثبات إمكانية اتخاذ قدوة هذه العملية من عملية قيادة النبي ﷺ، والإمام علي عليه السلام والسيرة التاريخية لحكومتهم في الثورة وتشكيل

يؤمن الأرضية المناسبة لإيجاد الأمة الإسلامية وهي عبارة عن توسعة هذا المجتمع. فمن الدولة الإسلامية يمكن صناعة العالم الإسلامي، وأينما تحقق النموذج فإن نظائره سوف تتحقق في العالم. ليست الحكومة الإسلامية مجرد إيجاد نظام جديد في دولة ما بل هو عبارة عن إيجاد نموذج. لقد قدمت الثورة الإسلامية أنموذجاً جديداً لحياة المجتمعات البشرية والدول وما زالت لحد الآن، فلو عملنا بشكل جيد فسوف يبقى هذا الأنموذج أنموذجاً وحيداً للمجتمعات البشرية على مر القرون. ففي الحضارة الإسلامية، ظهر الإسلام في أفقر مناطق العالم وأكثرها تخلفاً، ولكن لم يمض عليه أكثر من خمسين سنة حتى جعل أكثر من خمسين بالمئة من سكان العالم المتمدن في ذلك الوقت تحت رايته الإسلامية. ولم يمر أكثر من قرنين من عمر هذه الحضارة حتى أصبح العالم الإسلامي الكبير في ذلك الوقت قمة الحضارة البشرية بلحاظ العلم وأنواع المعارف وكل أشكال التقدم المدني والاقتصادي ولم يكن هذا ليتحقق إلا ببركة التعاليم. ولو نظرتم إلى جغرافية العالم فسوف ترون أن جهاد النبي الذي دام لعشر سنوات هو الذي أوصل حكومة النبي أن تهيمن على

الإجتماعية إلى خصائص وخصال ومميزات ذلك المجتمع، وأن نضع المشاريع على أساس ذلك المجتمع، وأن نحرك كل الأنشطة والسبل الموجودة اليوم في ثورتنا بذلك الاتجاه وتلك الغاية والتي هي المجتمع المهدوي النموذجي. ويجب أن تكون جميع القوانين والمقررات الحكومية والنماذج والمناهج التنفيذية قائمة على أساس تلك الغاية.

المرحلة الخامسة: إيجاد الحضارة الإسلامية الجديدة

المرحلة الخامسة هي تشكيل الحضارة الإسلامية والتي يمكن أن نبينها بعبارات مختلفة. فلو استعنا أن نقطع مرحلة تشكيل المجتمع الإسلامي بسلامة، وهذا الأمر ليس بعيداً عن همم الرجال والنساء المؤمنين، عندها تأتي المرحلة اللاحقة وهي إيجاد عالم الإسلام، وتشكيل الأمة الإسلامية (والحضارة الإسلامية الدولية). فعندما تتحقق الدولة الإسلامية ستتحقق بتبعها الحضارة الإسلامية، وعندها ستمتع الثقافة الإسلامية الأجواء العامة للبشرية.

انظروا، إن مسار تحقيق النظام الإسلامي يتم خطوةً خطوةً حتى يصل إلى نتائجه النهائية، وعندما يوجد المجتمع الإسلامي فإنه

أكثر من نصف العالم المسكون. إن تشكيل الحكومة في «المدينة» وتشكيل الجامعة المدنية النبوية... هو مشروع وأطروحة بقيا عبر التاريخ ولا ينبغي أن نتصور أن أطروحة النبي قد هُزمت، كلا، لم تُهزم، لكنها لم تتحقق في تلك البرهة. لكن هذا الخط الشاخص في المجتمع الإسلامي والتاريخ الإسلامي قد بقي.

المصادر

القرآن المجيد

- ١ - أرشيف مكتب حفظ ونشر آثار حضرة آية الله العظمى السيد علي الخامني، Khamenei, ir .
- ٢ - حديث الولاية: البرمجيات، المجموعة التوجيهية لمقام القيادة المعظم، إنتاج مركز الأبحاث الكمبيوترية للعلوم الإسلامية، النسخة الأولى.
- ٣- بهبودي، هداية الله، شرح اسم، سيرة آية الله السيد علي الحسيني الخامني (١٣١٨ - ١٣٥٧) (مؤسسة الدراسات والأبحاث السياسية، صيف ٩١).
- ٤ - الحكومة والولاية، مقتطفات من خطابات مقام القيادة المعظم حول الولاية والحكومة (طهران: مؤسسة الإيمان الجهادي، مركز صها، الطبعة ٢، آذر، ١٣٩١).
- ٥ - إنسان بعمر ٢٥٠ سنة، خطابات مقام القيادة المعظم حول الحياة السياسية والجهادية للأئمة المعصومين عليهم السلام، النسخة الثانية، الطبعة الرابعة، (طهران: مؤسسة الإيمان الجهادي، مركز صها، آذر، ١٣٩٠).
- ٦ - الهواجس الثقافية، مزيج شرح من الخطابات المحوري لمقام القيادة المعظم في العالم ١٣٧٣ بالاستفادة من خطابات أخرى له (طهران: مؤسسة الإيمان الجهادي، مركز صها، ١٣٩٠).
- ٧- السيد علي الخامني، أصول الفكر الإسلامي (طهران: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، طبعة سعيد نو، ١٣٥٤).
- ٨ - شعاع من النور الأعظم، نهج المنظومة الفكرية لقائد الثورة الإسلامية المعظم، آية الله الخامني، حول حضرة الرسول محمد المصطفى صلى الله عليه وآله (دار نشر سروش الإذاعة والتلفزيون ومؤسسة الأبحاث الثقافية للثورة الإسلامية، الطبعة ٥، ١٣٨٥).
- ٩ - مجموعة مقالات حول التنمية الثقافية الدينية (كلية باقر العلوم، المؤلف مؤسس عرش يزوه).
- ١٠ - دائرة المعارف البحثية، ويكيبيديا.
- ١١ - الغزو الثقافي (طهران: مركز الأبحاث الإسلامية العسكرية، دار نشر مركز الثقافة العسكرية، ١٣٧٨).
- ١٢ - تشنكين بهلوان، معرفة الثقافة (طهران: دار نشر بيام امروز، ١٣٧٨).
- ١٣ - جلال رفيع، الغزو الثقافي ومنتج الثقافة (طهران: اطلاعات، الطبعة ٢، ١٣٧٤).

- ١٤ - ساويل هانتغتون، ولارنس هريسون، أهمية الثقافة، مديرية اتحاد التنمية الإيرانية (طهران: أمير كبير، ١٣٨١).
- ١٥ - علي أكبر نيك خلق منصور وثوقي، أسس معرفة المجتمع.
- ١٦ - علي رضا بيروزمند، بحث ماهية الثقافة وكيفية تحولها.
- ١٧ - محمد رضا زاتري، بحث «الثقافة المتقدرة، الثقافة المهيمنة، الاختلافات المبنائية الصلبة والناعمة في عصر الإيمان».
- ١٨ - كريم خان محمدي، شواخص التنمية في المجتمع المثالي لعصر الظهور (عج). مسعود موحيدي، الثقافة الإيرانية والتنمية.
- ١٩ - لويس بيك، «التحولات في مفاهيم وأهداف التنمية»، ترجمة: ح قاضيهان، رسالة الثقافة، خريف وشتاء، ١٣٧٠، العدد ٥ و٦.
- ٢٠ - علي رضا بيروزمند، «دور الدين في هندسة ثقافة البلد» مجموعة مقالات اجتماع مهندسي الثقافة، المجلد ١ (مكتب تحرير شوري المجلس الأعلى للثورة الثقافية، ١٣٨٦).
- ٢١ - سيد محمد مهدي حسيني، «دور الدين في الثقافة والتنمية الثقافية»، في مجموعة ٢٦ - مقالة ثقافية، السياسة والتنمية في إيران اليوم (طهران: دال، ١٣٧٩).
- ٢٢ - روزاموند بيلينغتون وآخرون، الثقافة والمجتمع، ترجمة فريبا عزبدفري (قهره).
- ٢٣ - محمد روح الأميني، أرضية معرفة الثقافة.
- ٢٤ - أحمد رجب زاده، «انگهاره نظري فرهنگ والزمات برنامہ شأی آن»، مجموعه فرهنگ، سياست وتوسعه در ايران امروز (طهران: دال، ١٣٧٩).
- ٢٥ - سند چشم انداز بيست ساله ايران در افق ١٤٠٤.

الهوامش:

- (١) الإمام الخامني.
- (٢) الإمام الخامني، كلمته في لقاء الجامعيين كرمانشاه، ١٨ / ١٠ / ٢٠١١.
- (٣) الإمام الخامني.
- (٤) الإمام الخامني، في لقاءه مع الشباب، ١٤ / ١٠ / ٢٠١٢.
- (٥) الإمام الخامني، كلمته في لقاء الشباب، ١٤ / ١٠ / ٢٠١٢.
- (٦) الإمام الخامني، ٠٣ / ٠٨ / ١٩٩٣.
- (٧) الإمام الخامني.
- (٨) سورة التحل، الآية: ٩٧.

الثقافة الإسلامية والثقافات الأخرى

د. محمد صالح

باحث وأكاديمي / البحريين

تتقاسم العالم ثقافات مختلفة، تمتد كل منها في مناطق كبيرة من العالم، وقد سيطرت الثقافة الغربية في هذا العصر على بقية الثقافات، نظرًا لأنها مدعومة عسكريًا وإعلاميًا واقتصاديًا وسياسيًا، لذا سيكون التركيز في بيان الموقف منها بسبب ذلك، وهناك عدة اتجاهات في الموقف منها، وهي:

١- **الاتجاه السلبي:** يرى أتباعه عدم الأخذ أو الاتصال بأي من الثقافة والحضارة الغربية، وعدم الاستفادة من كل ما انبثق عنها من منافع في مختلف المجالات، يرفضون الثقافة الغربية، لأنهم ينظرون لسلبياتها وما تحمله من أمراض لذا جاء الرفض لها ككل، وهذا الموقف لا يتناسب مع الأصول الإسلامية الصحيحة التي تدعو إلى الاستفادة من كل شيء لا يصادم أصول الإسلام؛ لأنَّ الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحقُّ بها.

٢- **الاتجاه التغريبي:** يدعو أصحابه إلى الأخذ بكل أسباب الثقافة والحضارة الغربية، مقبلاً على كل معطياتها خيرها، وشرها، من علم، وصناعة، وثقافة، وحتى أسلوب الحياة؛

يحتفظ المسلمون بإسلامهم وثقافتهم المتمثلة في الكتاب والسنة، مع الوقوف عند حدود الفكر الإسلامي الأصيل، مع الإفادة من خير ما أفادت منه المدينة الغربية في شتى المجالات من العلوم التجريبية، فيرون أخذ المناسب من الحضارة الغربية، وترك ما لا يناسب منها؛ لأنّ الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من كل أحد ما لم تعارض ثقافته^(١).

وهذا الاتجاه الأخير هو الاتجاه الصحيح الذي يحاول الوقوف في وجه تحديات الثقافة الغربية مع الاستفادة من المفيد فيها.

هذه المواقف الأربعة بتوجهاتها المختلفة، أثرت في المجتمع الإسلامي بصورة لا يمكن تجاهلها؛ لأنها أدت إلى اضطرابات سياسية، وتصدّعات اجتماعية، وصراعات داخلية، أنهكت الأمة، ومزقت شملها، وأحدثت الفرقة بين صفوفها، مما ساعد كثيرًا على تغلغل الفكر والثقافة الغربية بطريقة قوّت حدة التناقض في الحياة العملية والمعنوية، نتيجة للتناقض الحاد بين المواقف والأفكار المحيطة بالفرد المسلم، الذي وقع أسيرًا لها، والوهن العقدي، والفوضى الفكرية، والتخبط السلوكي.

لأنهم يرون أنّ الثقافة كلّ لا يتجزأ، إما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها. ويكثر هذا الاتجاه لدى العلمانيين أمثال طه حسين وغيره والحدائين.

٣ - **الاتجاه التوفيقى**: يرى أتباعه التوفيق بين الثقافتين الإسلامية والغربية، وفي حال حدوث تعارض، يرون أنه لا بد من تقريب بعض مبادئ الإسلام التي تتعارض مع حضارة الغرب وثقافته، وتطوير تلك المبادئ حتى تواكب حضارة الغرب.

انطلق هذا الاتجاه من الحاجة الماسة لمواجهة كثير من القضايا المستجدة، لكنه انتهى إلى المطالبة بالنظر في التشريع الإسلامي كله، والقيام بمحاولة التوفيق بين الثقافة الإسلامية والغربية من خلال الدعوة إلى تقريب المبادئ بينهما، وتطوير الإسلام ليتناسب مع معطيات الثقافة الغربية، مع الميل إلى تبني الثقافة الغربية، والبحث عن الأدلة المؤيدة لذلك من أقوال العلماء والمفكرين المسلمين بحجة أنّ مصالح المسلمين تتطلب هذا التطوير، وفي هذا مسخ للإسلام وتشريعاته، وتشويش على المسلمين مع تعريق وحدتهم.

٤ - **الاتجاه المعتدل**: يرى أتباعه أن

الحوار بين الحضارات

وقبل الدخول في حوار الحضارات نمهد بتعريف الحوار والحضارات.

أما الحوار في اللغة من الحور وهو الرجوع، ويتحاورون أي يتراجعون الكلام^(٢).

وقد ورد في ثلاثة مواضع في القرآن الكريم كلها تظهر الاختلاف بين المتحاورين ومحاولة إقناع بعضهم بعضاً، الأول ورد في قصة أصحاب الجنة ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤]. والثاني فيها أيضاً ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف: ٣٧]. والثالث في أول سورة المجادلة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١].

ونفهم من هذه المواضع الثلاثة أن الحوار مراجعة الكلام وتداوله بين طرفين مختلفين.

ويتفق الحوار مع الجدل والمناظرة والمحاجة في كونه مراجعة الكلام وتداوله بين عدة أطراف، إلا أن الجدل يأخذ طابع

القوة والغلبة والخصومة وهو مأخوذ من معناه اللغوي حيث يسمى شدة الفتل جدل، والجدال من الإبل الذي قوي ومشى مع أمه^(٣).

ولفظة الجدل مذمومة في غالب آيات القرآن الكريم، حيث وردت في تسعة وعشرين موضعاً^(٤)، مثل قوله سبحانه: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ [الزخرف: ٥٨] ولم يمدح الجدل إلا إذا قيد بالحسن وجاء ذلك في موضعين، في قوله سبحانه: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وأما الحضارة فهي في اللغة من الحضر وهي الإقامة في المدن والقرى وهي ضد البداوة، قال القطامي:

فمن تكن الحضارة أعجبه

فأي رجال بادية ترانا^(٥)
وفي العصر الحديث أطلق البعض هذا المصطلح على كل نتاج مادي لأمة من الأمم من عمران ومخترعات وابتكارات وتنظيمات. وتوسع النطاق ليشمل بالإضافة على النتائج المادية القيم الدينية والثقافية^(٦).

وحتى مع إبليس ﴿قَالَ مَا مَنَّكَ اللَّهُ
تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي
مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

والقرآن مليء بمحاورات الرسل مع
أقوامهم ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

وتأمل حوار إبراهيم عليه السلام مع مدعي
الربوبية ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي
رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ
الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ
قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ
المَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ المَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي
كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾
[البقرة: ٢٥٨]

وحوار موسى مع فرعون مدعي الألوهية
والربوبية في سور عديدة في القرآن، وكذلك
بقية الرسل عليهم صلوات الله وسلامه حيث
يحاورون أقوامهم بالحكمة لدعوتهم إلى الله
وبيان الحق لهم والرد على شبهاتهم.

وهذا القرآن يحكي حوار النبي ﷺ مع
امرأة ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي
زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ
تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾
[المجادلة: ١].

وعليه فكل أمة تشترك في هذه المعاني
لها حضارة تخصصها، فهناك الحضارة
الإسلامية، والحضارة الأوروبية الغربية
المسيحية، والحضارة الأوروبية الشرقية
المسيحية، والحضارة الهندية، وحضارة
الشرق الأقصى^(٧) وغير ذلك.

أولاً: الإسلام دين الحوار:

الحوار منهج قرآني، فقد كلم الله
ملائكته واستمع منهم ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ
وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي
أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وكذلك رسله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى
ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ
إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ
لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا
فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ﴾
[المائدة: ١١٦]، وحتى مع الكافرين ﴿قَالَ
رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ
بَصِيرًا﴾ * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا
وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [طه: ١٢٥، ١٢٦]

فالحوار مطلب إسلامي لكي نقوم بواجبنا تجاه الأمم الأخرى ليس لإفادة أنفسنا فحسب بل لفائدة الأمم الأخرى أيضاً لنوصل إليها الخير الذي أمرنا به.

فالأمة الإسلامية هي صاحبة الرسالة الأخيرة، وعليها واجب البلاغ، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

٢ - تحقيق وظيفة الإنسان في الأرض: وهي الخلافة وعمارة الأرض ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]^(٩).

٣ - تبادل العلوم النافعة: وحل الإشكالات القائمة والتعاون على الخير ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَكَانَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢]

وليس من أهداف الحوار مولاة الكفار ومودتهم من دون المؤمنين، فقد جاءت النصوص القطعية في النهي عن ذلك، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ

وحضارتنا الإسلامية على مدى التاريخ هي حضارة الحوار فقد حاور علماء المسلمين كافة أهل الملل والنحل بالمنهج القرآني والدعوة إلى الخير^(٨).

ثانياً: أهم أهداف الحوار في الإسلام:

١ - الدعوة إلى الإسلام، وعبادة الله وحده لا شريك له: وهذا أسمى هدف ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣]، ومعرفة الله هي أعظم حقيقة، وعبادته هي الحكمة من خلق البشر ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ويترتب عليها سعادة البشرية في الدنيا والآخرة ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٣، ١٢٤].

ويدخل في ذلك إبراز محاسن الإسلام والرد على شبهات أعدائه وإيضاح الحقيقة العظيمة في الحكمة من خلق البشر وما يُراد منهم وما يراد بهم وما مصيرهم.

يَفْعَلُ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ ﴿٢٨﴾ [آل عمران: ٢٨].

كما أن الحوار لا يهدف إلى التنازل عن شيء من ثوابتنا العقديّة أو الشرعيّة، أو المشاركة في الدعوات المغرضة لوحدة الأديان التي تساوي الإسلام بغيره وخلط الحق بالباطل، أو مشاركة الكفار في باطلهم، وقد نهى الله نبيه عن ذلك فقال سبحانه:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَأَعْبُدَ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدُ مَا عَابَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦]، وقال أيضاً: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩] وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كُنَّا أَنْ تَبْتَئْنَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَرَكْنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤]، كما يجب

التفريق بين الكفار المحاربيين الذين يجب معهم الجهاد في سبيل الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ حَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسْرِوْنَ إِلَيْهِمْ بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ

وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ [المتحنة: ١]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، والمسالمين الذين قال الله فيهم: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المتحنة: ٨].

ثالثاً: آداب الحوار:

من أهم آداب الحوار:

١ - حسن القصد من الحوار: وذلك

بالإخلاص لله والرغبة في طلب الحق، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

٢ - العلم: فلا حوار بلا علم، والمُحَاوِرُ

الجاهل يفسد أكثر مما يصلح، وقد ذم الله سبحانه وتعالى المجادل بغير علم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ يَغْيِرَ عِلْمَ وَكَأ هُدًى وَكَأ كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، وذم أهل الكتاب لمحاجتهم بغير علم كما في قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ

عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ [آل عمران: ٦٦].

العلم عام في كافة مواضع الحوار، فيشمل العلم بالإسلام وعقيدته وحضارته والعلم بالمحاورين وخلفياتهم وكافة ما يحتاج إليه في الحوار.

فالمُحَاوِرُ المسلم داعٍ إلى الله يجب أن تكون دعوته بعلم وبصيرة كما قال سبحانه: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

فالعلم بالإسلام وحضارته وشبهات المخالفين في غاية الأهمية في حوار غير المسلمين لإقناعهم ورد شبهاتهم، فضلاً عن عدم الانخداع والتأثر بها.

٣ - التزام القول بالحسن، وتجنب منهج التحدي والإفحام: حيث أن أهم ما يتوجه إليه المُحَاوِرُ التزام الحسنى في القول والمجادلة، ففي محكم التنزيل: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسراء: ٥٣]، ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥] (١٠).

وعلينا أن ننأى بأنفسنا عن أسلوب الطعن والتجريح والهزاء والسخرية، وألوان الاحتقار والإثارة والاستفزاز.

٤ - التواضع واللين والرفق من المُحَاوِرِ وحسن الاستماع وعدم المقاطعة والعناية بما يقوله المُحَاوِرُ: فهو أدعى للوصول إلى الحقيقة واستمرار الحوار، وهذا ما علمناه القرآن، فقد أمر الله بنبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام عند مخاطبة فرعون الذي طغى وتجبر وادعى الألوهية والربوبية، فقال سبحانه: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤].

٥ - الحلم والصبر: فالمُحَاوِرُ يجب أن يكون حليماً صبوراً، فلا يغضب لأنفه سبب، فإن ذلك يؤدي إلى النفرة منه والابتعاد عنه، والغضب لا يوصل إلى إقناع الخصم وهدايته، وإنما يكون ذلك بالحلم والصبر، والحلم من صفات المؤمنين قال تعالى: ﴿وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وعندما قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم أوصني، قال: «لا تغضب» (١١) وكررها مراراً.

ومن أعلى مراتب الصبر والحلم مقابلة الإساءة بالإحسان، فإن ذلك له أثره العظيم على المُحَاوِرِ، وكثير من الذين اهتمدوا لم يهتدوا لعلم المُحَاوِرِ واستخدامه أساليب الجدل، وإنما لأدبه وحسن خلقه واحتماله

الكتاب وصفاتهم الذميمة يجد أن المولى عز وجل لم يبخسهم حقهم، بل أنصفهم غاية الإنصاف، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ يُقِنُّكَ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ يَدِينَارَ لَأ يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥]، وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣].

يقول ابن القيم:

وتعرَّ من ثوبين من يلبسُهُما
يَلْقَى الرَّدَى بِذَمَّةٍ وَهَوَانٍ
ثوب من الجهل المركب فوقه
ثوبُ التعصُّبِ بئست الثوبان
وتحلَّ بالإنصاف أفرح حلة
زينت بها الأعطافُ والكتفان^(١٢)
ويأمر الله بمحاورة أهل الكتاب بلغة
الإنصاف والعدل: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ
تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَكَأ نَشْرَكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل
عمران: ٦٤].

والإسلام ينطلق في الحوار من التكافؤ
بين البشر لا تفاضل لعرق كما حكى الله عن
اليهود قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾

للأذى ومقابلته بالإحسان، وقد نبه الله عز وجل الداعين إليه إلى ذلك الخلق الرفيع وأثره وفضل أصحابه، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ * وكأ تستوي الحسنة وكأ السيئة أذفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ [فصلت: ٣٣ - ٣٥].

٦ - العدل والإنصاف؛ يجب على

المحاور أن يكون منصفاً فلا يرد حقاً، بل عليه أن يبدي إعجابه بالأفكار الصحيحة والأدلة الجيدة والمعلومات الجديدة التي يوردها محاوره وهذا الإنصاف له أثره العظيم لقبول الحق، كما تضي على المحاور روح الموضوعية.

والتعصب وعدم قبول الحق من الصفات الذميمة في كتاب الله فإن الله أمرنا بالإنصاف حتى مع الأعداء فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، ومن تدبر القرآن الكريم وذكره لأهل

الصادرة من الغرب لنا أن نتساءل: كيف يؤتي الحوار ثماره في العالم اليوم بين الشرق والغرب أو بين الشمال والجنوب وهو يصاحب الهيمنة والاستعلاء، والظلم والجور، والاحتلال ولغة السلاح^(١٤).

أي حوار ينادي به الغرب مع هذا العدوان والظلم ولغة الاستعلاء، وفرض المصطلحات واستغلال التفوق الإعلامي لتشويه الآخرين.

كيف نثق بهذا الحوار الذي يهدف إلى نمط جديد من الدبلوماسية لتكريس الظلم ومصالح تتعلق بالاقتصاد والسياسة ومواصلة الحرب والصراع والاحتلال.

إن الغرب مطلوب منه قبل أن يتحدث عن الحوار ونشر الديمقراطية (والشرق الأوسط الكبير) إن كان يريد خيراً بالآخرين يجب تخفيف رهوة السحيفة بين البلدان الغنية والفقيرة، وعليه مساعدة البلدان على التنمية لا توريطها في الديون والفقر، وفرض الإملاءات عليها، ومساعدة البلدان التي خربتها الحروب كالصومال وأفغانستان وغيرها على إنهاء ذلك الوضع، بل أن تكف يدها عن إشعال الفتن في تلك البلدان.

بعد ذلك يُقال أننا نرفض الحوار والتسامح؛ ومن يتهمنا بذلك؟ إنه المستعلي

[المائدة: ١٨]، أو لون كما يدعي العنصريون البيض في أوروبا، أو طبقية كما هي عند الهندوس، وإنما بصلاحيهم، ولنتأمل آية قرآنية مفتوحة بالمبدأ ومقررة وجود الاختلاف ومبينة أهمية التعارف وخاتمة بميزان التفضيل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وهذا الاختلاف من آياته سبحانه ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

فالإسلام يقرر أن الاختلاف حقيقة إنسانية طبيعية ويتعامل معها على هذا الأساس ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَكَوْشَاءَ اللَّهُ لِيَجْعَلَ لَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [المائدة: ٤٨].

فوجود الاختلاف أمر واقع وله حكم إلهية ويجب التعايش وفق ما أمر الله من الدعوة والنصيحة^(١٣).

وأخيراً هذه نظرتنا للحوار والاختلاف، ولكن عندما ننظر إلى الواقع ودعوات الحوار

السنن في بناء المجتمع الفاضل الذي يعيد هذه الأمة إلى موقع الشهادة على العالمين، كلما أراد لها ربُّ العزة سبحانه حيث قال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

ومن هذا المنطلق فقد بينت آيات عديدة من القرآن الكريم سنن المعادلة الحضارية التي لا تتخلف، والتي تحكم مصائر البشر على اختلافهم وتنوعهم، ومن هذه السنن:

١ - سنة التدافع الحضاري: وهي التي بينها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنَّا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١]، فقد اقتضت حكمة الخالق عزَّ وجلَّ أن يكون بين البشر نوع من التدافع يمنع استئثار طائفة من البشر بمصير البشرية كلها إلى نهاية التاريخ، وسنة التدافع هذه ماضية إلى يوم القيامة باعتبارها سنة مطردة، وليس كما زعم المفكر الأمريكي (هنتنغتون) وأضرابه من أن الصراع على وشك التوقف، وأن السلام العالمي لن يلبث أن ينشر جناحيه على العالم! نعم قد تهدأ حدة الصراع حيناً من الزمان حتى ليخيل إليك أن البشرية قد بلغت أحياناً سن الرشد وأمنت بأن (الصلح خيراً) إلا أن النظرة المدققة في

الظالم المحتل لأرضنا والساعي لتشويه ديننا وثقافتنا، ومع ذلك فلا نزال نقول إننا مع دفاعنا عن ديننا وثقافتنا وأرضنا وأنفسنا فإننا نرى أن الحوار هو خيار مهم لتحقيق أهدافنا العليا القائمة لمصلحة البشرية.

رابعاً: السنن الإلهية المتعلقة بالحضارات^(١٥):

يبين الله تعالى في آيات كثيرات من القرآن الكريم أنه سبحانه قد خلق هذا الكون وفق منهج سنني مطرد، وأنه قد أخضع كل أمر فيه لسنة (= قانون) لا تتبدل ولا تتحول وأن هذه السنن لا تسري فحسب على المخلوقات المادية، بل تسري كذلك على حياة الأمم والأفراد، ولهذا نجد القرآن الكريم يوجهنا مراراً وتكراراً للنظر في قصص الأمم الغابرة لاستنباط تلك السنن التي على أساسها تنهض الأمم أو تنحط أو تبيد! ومن ذلك قول الحق تبارك وتعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الروم: ٤٢] وذلك لأن التاريخ - بمنظور القرآن الكريم - هو المختبر الحقيقي لصواب الفعل البشري، ومن ثم فإن العودة إلى صفحات التاريخ وفهم سنن الوجود الاجتماعي يكسبنا القدرة على تسخير هذه

في الكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿ [الإسراء: ٥٨] فليس لأمة مهما أوتيت من جبروت سياسي أو تقدم تقني أو إنجاز علمي أن تبقى في القمة حتى آخر الزمان، بل الكل إلى انحدار أو هلاك أو عذاب مدمر قبل يوم القيامة! ومن أبلغ دروس التاريخ أن الانهيار غالبًا ما يجيء وأهل الحضارة في قمة النشوة، كما بين الله عزَّ وجلَّ في كتابه العزيز حيث يقول: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَّ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّم تَعْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَقْضُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُتَّفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤]، فإذا ظنت الأمة أنها قد بلغت أوج مجدها، وأنها قد ملكت زمام الأمور جاءها أمر الله لينحيها عن دفة القيادة، وحلَّ في ديارها الخراب والدمار، وهذه أيضًا سنة جارية مطردة من سنن الله في الخلق نجد شواهدا في صفحات التاريخ، وفي أطلال الحضارات البائدة التي تملأ الأرض!

٥ - سنة أن التطور الحضاري متاح للجميع: فليس التقدم الحضاري حكراً على أمة من أمم الأرض دون غيرها كما زعمت بعض النظريات العنصرية (النازية مثلاً) وكما

صفحات التاريخ تنيك أن مرحلة السلام ما هي إلا وقفة عابرة كاستراحة المحارب بين جولتين.

٢ - سنة التداول الحضاري: وقد بينها قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فليس لأمة من أمم الأرض أن تستأثر بمشعل الحضارة حتى آخر الزمان، وقد تناوبت على حمل هذا المشعل حتى الآن أمم كثيرة جداً، ذكر منها المؤرخ البريطاني الشهير (أرنولد تونبي) في موسوعته القيمة (دراسة في التاريخ) أكثر من (٦٥٠) أمة) ثم تخلت عنها لتسلمها إلى غيرها، وهكذا هي سنة الله في خلقه، ومن ثم فإن الزعم بنهاية التاريخ عند نموذج حضاري بعينه كما فعل (فوكوياما) وقرينه (هنتنغتون) ما هو إلا من قبيل (التسويق) الفاشل لبضاعة لن تجد لها بعد حين قصير من الزمان من يشتريها! وليس انهيار حلم الحضارة (الاشتراكية) عنا بعيداً!

٣ - سنة الهلاك أو التدهور: وهي سنة جارية لن ينجو من قبضتها أي من أمم الأرض حتى المؤمنة منها، لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ

مدعيًا أنها النموذج الجدير بالاعتداء، وأن التطور البشري قد وقف عندها باعتبارها قد بلغت القمة، لا تخرج عن سنن الله في خلقه، وأنها تندرج في إطار تلك السنن، وأنها ليست سوى مرحلة من مراحل التاريخ، وسوف يجيء يوم قريب أو بعيد فيطويها التاريخ في قبضته التي لا ترحم ويحولها إلى مجرد ذكرى في سجلاته التي علاها الغبار! ومن يدري.. فقد تغيب حتى عن ذاكرة التاريخ نفسه فلا يعود يذكر من أطلالها شيئًا كما فعل مع كثير من الحضارات التي بادت واندرست ولم تحفظ لنا سجلات التاريخ عنها شيئًا! فهل من مدكر؟!

يزعم اليوم دعاة الغرب الذين يعتقدون أن التاريخ قد انتهى عند نموذجهم الليبرالي، والحضارة أيضًا حكرًا على المؤمنين دون الكافرين كما يخيل لبعضهم فيظنون أنهم (شعب الله المختار!) أو أنهم (أولياء الله وأحبّاءه!) وفي هذا يقول تعالى: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هُوَاءَهُمْ وَهَوَاهُ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]، ومن ثم فإن الحالة الحضارية قد تقوم على قيم إيمانية وأسس أخلاقية، وقد تقوم على قيم وأسس غير هذه كما هي حال الحضارة الغربية اليوم!

وهكذا نجد أن الحضارة الغربية السائدة اليوم، والتي يروج (بعضهم!!؟) لنموذجها

الهوامش:

- (١) انظر الثقافة الإسلامية ومدى تأثيرها في الفكر المعاصر (ص: ٣٨)، ومدخل إلى الثقافة الإسلامية (ص: ٣٨).
- (٢) لسان العرب، ابن منظور (٢١٧/٤ - ٢١٨) -
- (٣) لسان العرب، ابن منظور (١٠٣/١١).
- (٤) انظر: أصول الحوار، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، (ص: ٩). وانظر: الحوار مع أهل الكتاب، (ص: ١٠٤).
- (٥) لسان العرب، (١٩٦/٤).
- (٦) انظر: الحضارة والعالم الآخر، (ص: ١٦ - ١٧).
- (٧) انظر: الحضارة، حسين موسى، (ص: ٢٢٠).
- (٨) انظر: موقف الإسلام من الحضارات الأخرى، د. محمد نور شنان، بحث مقدم إلى ندوة الإسلام وحوار الحضارات، غير منشور، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض - السعودية، محرم ١٤٢٣هـ (ص: ٦).
- (٩) انظر: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، ص (١١ - ١٢).
- (١٠) أصول الحوار وآدابه في الإسلام، (ص: ١٣).

- (١١) أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (٥٧٦٥).
- (١٢) الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، (ص: ١٩).
- (١٣) انظر: مجلة المعرفة، العدد ١٠١ شعبان ١٤٢٤هـ، موضوع قيم الإسلام، الحوار الانفتاح على العالم، ص: ١٨ - ٢٦.
- (١٤) انظر: من أجل حوار بين الحضارات، (ص: ٩).
- (١٥) <http://www.drkanaan.com/forums/archive/index.php?t511.html>

الدراسات الفكرية

- ❖ النهضة الحسينية وطبيعة التحرك
- ❖ زيارة الأربعين المشروعية والأبعاد الرسالية
- ❖ دور المرأة في الثورة الحسينية

النهضة الحسينية وطبيعة التحرك^(*)

الشيخ الدكتور آية الله عبد الهادي الفضلي رحمته الله

مجتهد ومفكر إسلامي

ما تشير إليه تصريحات الإمام الحسين عليه السلام - وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تتحدث عن واقعة كربلاء - أنها امتداد لحركة الدعوة المحمدية في الحفاظ على الدين نقياً من شوائب الأهواء الشيطانية التي قد يرتكبها بعض حكام الجور ممن يتسلطون على رقاب المسلمين. والأمر - حينها - لم يكن لمجرد تولي شخص يزيد للسلطة، وإنما لتراكمات أخرى قام بها من سبقه، ويزيد يمثل حلقة ضمن تلكم التراكمات.

ما يحدث غالباً في المجتمعات الإنسانية - ضمن الرؤية الدينية - أن تحدث فيها تجاوزات مخالفة للفطرة الإنسانية السليمة من قبل طبقة من المتنفذين في المجتمع، وهناك من يكون ضحيةً لمثل هذه التجاوزات. وهذه التجاوزات غالباً ما تبدأ بصورة فردية ومحدودة، وسرعان ما تتسع رقعتها أفقياً، بحيث تشمل شريحة أوسع مع امتداد الفترة الزمنية، وعمودياً من حيث تجذر وتعمق تلكم التجاوزات بين أبناء المجتمع.

(*) جمعت هذه المحاضرات عقيب وفاته، وقد ارتأت المجلة إعادة نشرها، وفاءً لفكر العلامة الفضلي وفضله الكبير.

لدعوته الجديدة. وفي كلتا الحالتين كانت المعالجة والثورة على الواقع القائم ضمن خطّ الرسائل الإلهية.

وما نؤمن به - نحن الإمامية - أن ما قام به الإمام الحسين منسجم مع هذا الخطّ الرسالي الإلهي، حيث كانت نهضته موجّهة نحو تصحيح مسار المجتمع الإسلامي الذي كاد أن يبلغ حافة الانهيار بتسلّط أناس من قبيل يزيد بن معاوية، الذي كان وصله إلى السلطة دون وجود أي نوع من المعارضة يشكل حالاً من الانقلاب على قيم ومبادئ الدين الذي بشرّ ودعا وضخّى من أجله النبي محمد ﷺ، إن ما نفهمه من تصريحات الإمام الحسين عليه السلام وكذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام التي تتحدّث عن واقعة كربلاء أنها امتداد لحركة الدعوة المحمدية في الحفاظ على الدين نقياً من شوائب الأهواء الشيطانية التي قد يرتكبها بعض حكام الجور ممن يتسلطون على رقاب المسلمين. والأمر لم يكن لمجرّد تولّي شخص يزيد للسلطة، وإنما لتراكمات أخرى قام بها من سبقه، ويزيد يمثّل حلقة ضمن تلكم التراكمات، وهو ما سنأتي على ذكره لاحقاً.

وهذه التجاوزات تُحدث شروخاً اجتماعية طبقية وعنصرية ومناطقية من نواحٍ متعدّدة، وهو الأمر الذي قد يستدعي لاحقاً انفجار الوضع الاجتماعي من قبل الشريحة الواسعة المتأثّرة بتلكم التجاوزات.

كما أنه في أحيان أخرى، ينبعث من أبناء المجتمع من ينادي بالحقوق ويطالب بتصحيح الوضع نحو الأفضل. وفي حال كانت تلكم الدعوة مؤيّدة من الله تعالى - عن طريق أحد الأنبياء - كانت تلكم الثورة على الوضع الفاسد هي الدعوة الدينية الجديدة التي بعث الله أنبياءه بها تخليصاً لعباده مما يعانونه من ظلمٍ وجورٍ وفسادٍ لم تعد معه الترفيعات والترميمات لبعض الجوانب أن تعالج أساسات البنية الاجتماعية المتصدّعة.

وهذه الحال كما تحصل لمجتمعات غير متديّنة، كما هي مع المجتمع الجاهلي الذي كان يعيش حالاً من الفساد الاجتماعي التي كان يعيش ضحيتها الغالبية العامّة من الناس، فكانت الثورة التي أحدثها رسول الله ﷺ، يمكن أن تحصل أيضاً للمجتمعات المتديّنة، وذلك من قبيل بعث نبي الله عيسى عليه السلام إلى أتباع نبي الله موسى عليه السلام، إذ بعث عليه السلام إلى اليهود ناصحاً وداعياً لهم

مسؤولية تجاه أفراد مجتمعه المسلم، إذ نراه عليه السلام يقول في خطبته بمنطقة البيضة: «إن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالفيء، وأحلوا حرام الله، وحرّموا حلاله، وأنا أحقّ من غيري». فنراه في نهاية هذا المقطع يشير إلى أنه يرى في نفسه أنه الأولى بتحمّل مسؤولية تغيير الواقع، ذلك أن التغيير الاجتماعي مرهون بالتخف الواعية المدركة لطبيعة مجريات الأمور العامّة، حيث تتحمّل هذه النخب نسبة أكبر من المسؤولية، وهي النقطة التي يشير إليها عليه السلام.

الدعوة الإسلامية وضرورة تغيير الواقع

كما يمثّل الدين رسالةً إلهية يُلزم فيها المؤمن بمجموعة من التشريعات والأحكام، يمثّل تغييراً اجتماعياً وخالصاً منشودين، وكذلك تحقيقاً لعدالة اجتماعية كانت مفقودة في ظلّ أنظمة ظالمة وطاغية.

بعثُ الأنبياء برسالة إلهية جديدة إلى أقوامهم إنما يكن بعد واقع اجتماعي فاسد، تعيش فيه شريحة واسعة من الناس حالاً من الظلم والاستبداد الجهل، وهو أمر تبيّنه

الإنسان وتحمل المسؤولية الفردية والجماعية

وانطلاقاً من الرؤية الإسلامية، يتحمّل الإنسان مسؤولية أدائه للأحكام الشرعية وأنه محاسب على جميع أعماله، ف ﴿الإنسان على نفسه بصيرة * ولو ألقى معاذيره﴾^(١). وكما تحمّل الآيات القرآنية الإنسان مسؤولية قيامه بالتكاليف الشرعية، تحمّله - أيضاً - مسؤولية من يحيط به في الأسرة، يقول تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة﴾^(٢). وفي دائرة أوسع، يتحمّل الإنسان مسؤولية الحفاظ على مجتمعه ومصالحه العامّة، وهو مضمون فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ذلك أن المؤمنين بعضهم أولياء بعض. يقول تعالى: ﴿إنّ الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين ءاؤو وّتصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾^(٣).

ولهذا عندما ندرس حركة النهضة الحسينية، نقرأ بعض خطابات الإمام الحسين عليه السلام التي يشير فيها إلى هذه الناحية التي ينطلق فيها من حسّه العالي بما يمليه عليه ضميره وتكليفه الشرعي من

حينها - كانت مبنية على هذا النوع من العصبية المقيتة. وهو ما تغير مع ظهور الدين الإسلامي، وذلك بما أنزله الله على قلب النبي ﷺ ومن أتبعه من المؤمنين من سكينه النفس التي ألزمهم فيها أن يكون المعيار في الولاء والعداء هو القيمة والمبدأ والتقوى من الله تعالى. فالمؤمن الحق هو الأولي وذو الأهلية المتوافقة وهذا المعيار.

﴿هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين﴾^(٦). لقد بعث الله نبيه محمداً إلى أهل مكة (الأميين) ومن حولها؛ ليغير واقعهم بما كان ﷺ يؤديه من وظائف ومهام غيرت من واقع مظلم يرفل في ضلال مبين واضح إلى مجتمع متحضر.

وهو معنى نتبينه من خطبة جعفر بن أبي طالب أمام النجاشي حاكم الحبشة، وذلك حطنا طلب إليه النجاشي أن يشرح حقيقة دعوة النبي محمد صلى الله عليه وآلي، فكان مما أجابه بقره قوله رضي الله عنه: «أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الرحم، ونسيء الجوار، وبأكل القوي منا الضعيف،

الآيات القرآنية التي تعدّ من الوثائق التاريخية في تصوير الواقع الاجتماعي العربي ما قبل ظهور الإسلام، وفي تصوير تداعيات الدعوة الإسلامية على واقع هذه المجتمع. ومن تلكم الصور ما تعرضه الآيات الكريمة:

﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظلّ وجهه مسوداً وهو كظيم * يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾^(٤)، حيث تصوّر الآيتان تلكم الحال التي وصل إليها المجتمع المكي في احتقاره للمرأة، يبحث يتوارى الفرد منهم إذا أخبر بمولوده الأنثى، إذ يتمنى أن يدسّ في التراب فيختفي عن الأنظار حياءً مما بُشّر به. ولذلك تؤسس الآية الثانية لمفهوم إنساني جديد حينما تستنكر عليهم هذه العادة السيئة، فيقول تعالى: ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾.

﴿إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها﴾^(٥). تشير الآية إلى أن ميزان الولاء والعداء في المجتمع العربي ما قبل الإسلام كان مقياساً قبلياً عشائرياً، وأن قلوب وعقول العرب -

يقول متحدثاً عن رسول الله ﷺ: «بَعَثَهُ وَالنَّاسَ ضَالِّينَ، فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ، قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ، وَاسْتَزَلَّتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ، وَاسْتَحَفَّتْهُمْ الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ، حَيَارَى فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَبِلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ، فَبَالَغَ ﷺ فِي النَّصِيحَةِ، وَمَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ، وَدَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ»^(١٠).

ولذلك فإن الدين كما يمثل رسالة إلهية يلزم فيها المؤمن بمجموعة من التشريعات والأحكام، يمثل تغييراً اجتماعياً وخالصاً منشودين، وكذلك تحقيقاً لعدالة اجتماعية كانت مفقودة في ظل أنظمة ظالمة وطاغية.

الثورة الحسينية والقراءة الصحيحة

تصوير الصراع في حادثة كربلاء تصويراً قبيحاً نابع من روح الفهم العربي الذي بعد إلى حدٍّ ما عن الفهم الإسلامي. ذلك أن قضية الإمام الحسين عليه السلام وبزید بن معاوية لم تكن صراعاً بين أمية وهاشم، وليست صراعاً بين كتلتين سياسيتين تتصارعان حول الخلافة والحكم، وإنما كانت صراعاً بين الانحرافية المتمثلة في الحكم الأموي، وبين امتدادية الدعوة الإسلامية المتمثلة في انتفاضات العلويين وشيعتهم.

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفته، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآبائنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام...»^(٧).

وتشير إليه أيضاً السيدة الزهراء عليها السلام في احتجاجها على أبي بكر، إذ تقول: «... وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطرق، وتقتالون القُدَّ، أدلة خاسئين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم. فأنتذكم الله تبارك وتعالى بمحمد صلى الله عليه وآله بعد اللتيا والتي وبعد أن مني بيهم الرجال وذوبان العرب ومردة أهل الكتاب، ﴿كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾^(٨)، أو نجّم قرن الشيطان أو فغرت فاعرة من المشركين قذف أخاه في لهواتها...»^(٩).

كما أن خطب أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة مليئة بهذه المعاني، فيها هو عليه السلام

التصوير القبلي للنهضة الحسينية

سبقت الإشارة إلى أن تحرك الإمام الحسين عليه السلام في الثورة على يزيد بن معاوية لم يكن خلافاً بين فصيلين من المسلمين، وإنما كانت انتفاضةً على واقع اجتماعي فاسد، كان وصل إلى الذروة بتولي يزيد بن معاوية للخلافة. وكانت التضحية - كما سنشير لاحقاً - الحلّ الناجع في مثل تلكم الظروف الموضوعية التي عاشها عليه السلام ^(١١). ولكن هذه النظرة لم تكن واضحة لكثير من جمهور المسلمين، وذلك فيما تصوّره بعض المصادر على أن ما حدث كان معركة بين قبيلين، هما: بنو هاشم وبنو أمية.

وقد صدرت كتب بهذا المعنى تحلّل واقعة كربلاء بناءً على هذا الأساس القبلي دو الفتوي. وهو ما نلمسه في كتاب تقي الدين المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ): النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، حيث تصوّر الخلافات التي حدثت بين الامام علي عليه السلام ومعاوية، وبعدهما بين بني أمية وأهل البيت على أنها عداء تاريخي مستفحل، وأن معركة كربلاء تأتي في ذلكم السياق التاريخي المتجدّر بين الفريقين. فالمقرئزي يرى - في كتابه - أن الصراع في الأصل كان بين

«هاشم وعبد شمس. إذ يقال بأنهما ولدا توأمين. خرج عبد شمس في الولادة قبل هاشم، وقد لصقت إصبع أحدهما بجبهة الآخر، فلما نزع دُمَي المكان. فقيل: سيكون بينهما دم. فكان كذلك» ^(١٢). ويضع من أمثلة ذلكم الصراع ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وآله وبين الحكم بن العاص ^(١٣)، وفي سياقه أيضاً تصوّر حادثة كربلاء.

ومما يؤسف عليه أن يصل هذا التصوير الفتوي إلى مجتمع الموالين لأهل البيت عليهم السلام، فتصوّر الحادثة وكأنها انتقام من قبل بني أمية لأهل البيت، بحيث يكون على الأجيال اللاحقة من بني هاشم ومن والاهم أن يثاروا للإمام الحسين عليه السلام من بني أمية. وهذا التصوير لا يتماشى والرؤية الإسلامية التي لا تؤمن بمسألة الثأر الفتوي، كما أن هوية الصراع يجب ألا يكون كذلك. وقد كان هذا اللون من تصوير الصراع من المعاني البارزة التي طرقتها شعراء الشيعة في العصر العثماني، حيث كانوا يستنهضون في شعرهم الهاشميين لأخذ الثأر. وممن أكد هذا المعنى - وبشكل بارز - السيد حيدر الحلبي (ت ١٣٠٤ هـ)، فقد كان من الظواهر البينة في شعره.

حرام على عينيك مضمضة الكرى
 فإن ليالي الهم طال حسابها
 فلا نوم حتى توقد الحرب منكم
 بملومة شهباء يُذكي شهابها
 تساقى بأفواه الضُّبَا من أُمِيَّةٍ
 مُدام نجيع والرؤوس حُبابها
 فراخ المنايا في الوكور لرقِّها
 قد التقطت حبَّ القلوبِ عقابها
 عجبتُ لكم أَلَّا تحيِّش نفوسكم
 وأَلَّا يقيءَ المرهفاتِ قِرابها
 وهذي بنو عصارة الخمر أصبحت
 على منبر الهادي يطنّ ذبابها
 رَقَدَتْ وَهَبَتْ منك تطلب وترها
 إلى أن شفى الحقدَ القديمَ طلابها^(١٥)
 ويقول في موضع آخر:
 أهاشمُ لا يومٌ لك ابيضُّ أو تُرى
 جبادك تزجي عارض النقع أغبرا
 طوالعُ في ليل القَتامِ تخالها
 وقد سدَّت الأفقَ السحابَ المسخرا
 بني الغالبيين الألى لستُ عالماً
 أأسمح في طعن أكفك أم قرى
 إلى الآن لم تجمع بك الخيل وثبةً
 كأنك ما تدرين بالطف ما جرى

ويبدو أن التأكيد على المسألة نابع من روح الفهم العربي الذي بَعَدَ إلى حدِّ ما عن الفهم الإسلامي، ذلك أن قضية الإمام الحسين عليه السلام ويزيد بن معاوية لم تكن صراعاً قبلياً بين أمية وهاشم، وليست صراعاً بين كتلتين سياسيتين تتصارعان حول الخلافة والحكم، كما يحلو لبعض مؤرخي الأدب العربي أن يعدّوها، وإنما كانت صراعاً بين الانحرافية المتمثلة في الحكم الأموي، وبين امتدادية الدعوة الإسلامية المتمثلة في انتفاضات العلويين وشيعتهم.

إن التأكيد على هذه المسألة - ولو جاء عن حسن نية - يفقد قضية الإمام الحصطن أهدافها ومغزاها، وما هو إلا رواسب لا شعورية خلقتها وعمقتها الدعاية الأموية، ودعاية الضالعين في ركابها من مناوئي أهل البيت عليهم السلام. فالقبيلة والخلافة لا صراع بينهما أو حولهما في حساب قضية الإمام الحسين عليه السلام^(١٤).

يقول السيد حيدر الحلبي:

فقل لزار سومي الخيل إتها
 تحنّ إلى كرى الطراد عرابها
 لها إن وهبت الأرض يوماً أرتكها
 قد انحطَّ خلف الحاققين ترابها

أهل البيت عليهم السلام، لا يعني الصورة الواضحة لحقيقة هذه النهضة. فالخلافة هي من حق الإمام الحسين عليه السلام - كما نؤمن نحن الشيعة بذلك، ويؤمن بذلك الإمام الحسين عليه السلام أيضاً، ولكن التحرك لم يكن من أجل نيل هذا الحق، أو من أجل نيل المكاسب السياسية، فذلك ليس من منهجية أهل البيت عليهم السلام في التعاطي مع مثل هذه الأمور. ذلك أن السلطة في المفهوم العلوي هي من أجل أن يدفع الحاكم باطلاً واقعاً أو أن يقيم حقاً مضيقاً، كما يبين ذلك أمير المؤمنين علي عليه السلام (١٨). هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى، يجب أن يكون فهم طبيعة التحرك معتمداً على تصريحات قائد هذه النهضة ورائد مسيرتها، ذلك أنه في إعلانه الأول في مكة يشير إلى أن تحركه هذا لن يكون إلا تضحية بالنفس من أجل قضية مبدئية، يقول: «وخير لي مصرعٌ أنا لاقيه، كأنَّ بأوصلاي تقطعها عسلان الفلاة بين النولويس وكربلاد... ألا من كان باذلاً فينا مهجته موطناً على لقاء الله نفسه فليرحل معنا». ومن كان يعلم - من البدء - أنه سيقتل، لن يتحرك من أجل نيل السلطة المغصوبة منه، فذلك تصوير ناقص للقضية، بل قد يكون تشويهاً لمبادئها التي قامت من أجلها.

هلمَّ بها شعث النواصي كأثها
ذيابُ غضاً يمرحن بالقاع ضمراً
وإن سألتك الخيل أين معارها
فقولي ارفعي كل البسيطة عثرا
فإن دماكم طحن في كل معشر
ولا تارَ حتى ليس تيقين معشرا (١٦)
يصوّر السيد الحلبي المسألة على أنها تار
بين بني حرب وبني هاشم، فيقول:

إن ضاع وترك يا ابن حامي الدين
لا قال سيفك للمنايا كوني
أو لم تناهض آل حرب هاشم
لا بشّرت علويةً مجنين (١٧)

التصوير السياسي البحت للنهضة الحسينية

ولم يقتصر تشويه النهضة الحسينية في تصويرها صراعاً فتوياً فحسب، بل إنها تلبس لباساً سياسياً محضاً، فتصوّر على أنها صراع من أجل المنصب السياسي الذي لم يكن يزيد بن معاوية ليستحقّ تبوأه، فيما يرى الإمام الحسين نفسه صاحب الأهلية لذلك المنصب.

وعندما يعرض الأمر بهذه الصورة فقط، دون بيان موقعية السلطة كما يتصوّرنا أئمة

النهضة الحسينية رجوع إلى القيم الإسلامية:

ما نؤمن به - نحن الإمامية - أن ما قام من أجله الإمام الحسين عليه السلام لم يكن تحركاً فئوياً أو شخصياً بقدر ما كان تحركاً من أجل الأمة. ذلك أن المجتمع الإسلامي كان لا يزال مجتمعاً وليدناً بنى أسسه رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد أراد أهل البيت عليهم السلام - ابتداءً من الإمام علي عليه السلام وليس انتهاءً بالإمام الحسين عليه السلام - أن يستمرّ بناء هذا المجتمع وفقاً للأسس التي وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله. ولما وقع ذلكم الانحراف الواسع عن تلكم القيم والأسس بها ظهر من فساد وشيوع لظواهر اجتماعية أخذت في الانتشار على حساب القيم الإسلامية، وجد الإمام الحسين عليه السلام نفسه ملزماً بالقيام بواجبه، وذلك من خلال إحداث تلكم الهزة النفسية في مجموع الأمة للرجوع عن غيها وإحياء ضمائر هؤلاء القوم الذين غفلوا عن حقيقة واقعهم. وبعبارة موجزة: إن المجتمع - بما فيه من واقع فاسد - هو من دفع الإمام لخيار الثورة، وهو الخيار الذي لم يكن منه بدّ في منهج الإمام الحسين عليه السلام.

المجتمع الإسلامي وبوادر التغيير بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله

المجتمع الإسلامي في ظل النظام الطبقي مع تمكن معاوية بن أبي سفيان عادت الروح الجاهلية إلى المجتمع العربي بعدما أذاب الدين الإسلامي جميع تلكم العصبية^(١٩)، وهو الواقع الذي خرج الإمام الحسين للثورة عليه والمطالبة بعودة الروح الإسلامية الأخوية من جديد كما رسّخها النبي محمد صلى الله عليه وآله. وما تنبغي الإشارة إليه هنا أن المسلمين لم يصلوا إلى هذه الحال دفعة واحدة ومع بدء الدولة الأموية، وإنما كان ذلك وليد تراكمات اجتماعية توالى على المجتمع الإسلامي بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أن وصلت الحال إلى ما كانت عليه أيام الإمام الحسين عليه السلام.

بوادر التغيير بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله

السياسة المالية الجديدة بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله فرضت واقعاً اجتماعياً إسلامياً جديداً، تتمثل في تضخم الثروة لدى طبقة معينة على حساب بقية الطبقات. ما أقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقة (ارستقراطية وشعباً وعمامة)، بعد أن كانوا سواءً في نظر القانون. وقد استقرّ في النفوس -

الصدّيق قد سوّى بين الناس في القسّم، فقيل لعمر في ذلك، فقال: لا أجعل من قاتل رسول الله ﷺ، كمن قاتل معه.

فبدأ بمن شهد بدرًا من المهاجرين والأنصار، ففرض لكل رجل منهم خمسة آلاف درهم في كل سنة، حليفهم ومولاهم معهم بالسواء، وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر من مهاجرة الحبشة ومن شهداء أحدًا أربعة آلاف درهم لكل رجل منهم. وفرض لأبناء البدريين ألفين ألفين، إلا حسناً وحسيناً، فإنه ألحقهما بفريضة أبيهما لقربابتهما برسول الله ﷺ، ففرض لكل واحد منهما خمسة آلاف درهم، وفرض للعباس بن عبد المطلب خمسة آلاف درهم لقربابته برسول الله ﷺ...

وفرض لمن هاجر قبل الفتح لكل رجل منهم ثلاثة آلاف درهم. وفرض لمسلمة الفتح لكل رجل منهم ألفين. وفرض لغلمان أحداث من أبناء المهاجرين والأنصار كفرائض مسلمة الفتح...»^(٢١). ويكمل ابن سعد تفاصيل كثيرة في طريقة تقسيم عمر بن الخطاب لمجتمع المسلمين وما يستتبع ذلك من تفاوت في العطاء المالي.

وهذه السياسة المالية الجديدة فرضت

حينها - أن قريشاً استأثرت بالمال، وكان ذلك مقدّمةً للفتنة، فالثورة لاحقاً.

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، وجاء من بعده عمر بن الخطّاب وقد كانت سياستهما الحفاظ على المظهر الإسلامي العام وعدم الإخلال بطبيعة النظام الإسلامي العام. ولكن هذه السياسة شابها نوعٌ من التغيير، وذلك بما أحدثه عمر بن الخطّاب من تغييرات في أخريات خلافته، حيث قام - حينها - بتقسيم الناس إلى طبقات، بحيث تكون الطبقة الأولى هي الأوفر عطاءً فيما الأخيرة هي الأقل من حيث العطاء المادي.

وهي حادثة يروي تفاصيلها ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ) في طبقاته، فيقول: «لَمَّا أَجْمَعَ عمر بن الخطّاب على تدوين الديوان»، وذلك في المحرم سنة ٢٠ هـ^(٢٠)، بدأ بيني هاشم في الدعوة، ثمّ الأقرب فالأقرب برسول الله ﷺ، فكان القوم إذا استووا في القرابة برسول الله ﷺ، قدّم أهل السابقة، حتى انتهى إلى الأنصار. فقالوا: بمن نبدأ [من الأنصار]؟ فقال عمر [بن الخطّاب]: ابدؤوا برهط سعد بن معاذ الأشهلي، ثمّ الأقرب فالأقرب من سهل بن معاذ.. وكان أبو بكر

منازلهم وقرابتهم من النبي، وكان عمر يرى أن فيما فرض لهم من العطاء ما يغنيهم ويكفيهم السعي والاكتساب، ولكنهم - مع ذلك - اكتسبوا واتَّجروا، وكان منهم من ضارب، فعطَّم ثراؤهم وكثرت أموالهم، فتوسَّعوا في الغنى وتوسَّعوا في العطاء أيضاً، ولم يستطع عمر أن يمنعهم من ذلك أو يردهم عنه... فلم يرضَ عن ذلك ولم تُطبَّ به نفسه، حتَّى كان يقول: لو استقبلتُ من أمري ما استدبرت، لأخذتُ من الأغنياء فضول أموالهم فرددتها على الفقراء»^(٢٥).

المجتمع الإسلامي في ظلّ النظام الطبقي

يعد الخليفة عثمان أول من قام - من خلفاء وحكام المسلمين - باقتطاع الأراضي لمقرَّبيه، مع أن بعض ما اقتطعه من أراضي هي أراضي فتحت عسكرياً، وهذه الأراضي - فقهياً - هي مالٌ عامٌّ لجميع المسلمين، ولا يصحّ إقطاعه لفرْدٍ خاصٍّ منهم.

هيأت سياسة الطبقيّة الاجتماعيّة التي ظهرت أواخر عهد عمر إلى ترسُّخها في عهد الخليفة عثمان الذي استمرَّ حكمه ١٢ سنة، كانت الست الأولى منها مشابهة من حيث المجمل لما كانت عليه الخلافة أيام عمر بن

واقعاً اجتماعياً جديداً، تمثّل في تضخُّم الثروة لدى طبقة معينة من المسلمين على حساب بقية الطبقات. فما «أحدته عمر بن الخطّاب من تنظيم مالي أوجد تمايزاً كبيراً، وأقام المجتمع العربي على قاعدة الطبقات، بعد أن كانوا سواءً في نظر القانون (الشريعة)، فقد أوجد ارسنقراطية وشعباً وعمامة، وقد استقرّ في نفوس المسلمين أن قريشاً استأثرت بالمال، وكان مهيباً للثورة ومقدمَةً للفتنة. فالثورة التي دارت على عثمان لم تكن نتيجة سياسته الخاصّة وحدها، بل ونتيجة تجاوزات سياسية سابقة، ظهر أثرها الكامل حين استعدَّ الظرف وحن حينه»^(٢٢).

وهي الحال التي أظهر معها عمر - لاحقاً - نوعاً من الندم والأسف، فقد أورد عنه ابن سعد قوله: «والله لئن بقيت إلى هذا العام المقبل، لألحقنّ آخر الناس بأولهم ولأجعلنهم رجلاً واحداً»^(٢٣). وكذلك أورد عنه قوله: «لئن بقيت إلى الحول، لألحقنّ أسفل الناس بأعلاهم»^(٢٤). وهي نقطة يذكرها الدكتور طه حسين في كتابه الفتنة الكبرى: عثمان، إذ يقول هناك: «كان عمر قد فرض لكل واحد من أصحاب النبي عطاءه على مكاناتهم وسابقاتهم في الإسلام، وعلى

عليه إن تصرّف فيها»^(٢٧).

وما حدث في عهد عثمان كان له مدخلية واضحة في تهيئة المجتمع الإسلامي لنظام في الحكم بدأ يتعد شيئاً فشيئاً عما كان عليه أيام الرسول ﷺ، ويمكن ملاحظة ذلك من الأمثلة التالية:

تقريب المبعدين وترسيخ الطبقية الاجتماعية

أحاط عثمان بن عفّان نفسه أيام خلافته بقرابته من بني أمية، وكان على رأس هؤلاء الحكم بن العاص بن أمية وابنيه مروان والحارث، وهم ممّن أبدهم رسول الله ﷺ عن المدينة ومنعهما من دخولها. وقد خالف عثمان بذلك سيرة النبي ﷺ، وكذلك سيرة من سبقه، إذ لم يسمح لهما كلٌّ من أبي بكر وعمر بدخول المدينة امتثالاً لسيرة النبي ﷺ - يقول ابن أبي الحديد في شرحه على النهج: «أما أبوه [أبو مروان] الحكم بن العاص، فهو طريد رسول الله ﷺ ولعينه،... ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر، امتنعا عن إعادته إلى المدينة، ولم يقبلا شفاعة عثمان، فلما وُلِّيَ أخله، فكان أعظم الناس شؤماً عليه، ومن أكبر الحجج في قتله وخلعه من الخلافة»^(٢٨).

الخطاب. وما ظهر من تعيّر واسع في سياسة عثمان إنما كان في السنوات الست الأخيرة، كما يعرض لهذا ابن سعد في طبقاته، إذ يقول: «لَمَّا وُلِّيَ عثمان، عاش اثنتي عشرة سنة أميراً يعمل ستّ سنين لم ينقم الناس عليه شيئاً، وإنّه لأحَبُّ إلى قريش من عمر بن الخطاب؛ لأنّ عمرَ كان شديداً عليهم، فلَمَّا وليهم عثمان لَانَ لَهُمْ وَوَصَلَهُمْ. ثُمَّ تَوَانَى فِي أَمْرِهِمْ وَاسْتَعْمَلَ أَقْرَبَاءَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ فِي السَّتِّ الْأَوَاخِرِ»^(٢٦).

ولم يكن عثمان قد أحدث تغييرات تذكر في سنواته الأولى سوى ما قام به من بعض التعديلات على نظام الطبقات الذي كان قد بدأه عمر، حيث قام بتقديم قرابته، فجعلهم من الطبقة الأولى، وقد «كَلَّمَ فيما أعطى لذوي قرابته من بيت المال، فقال: (إن عمر كان يحرم قرابته احتساباً لله، وأنا أعطي قرابتي احتساباً لله). وما أشار إليه عثمان قد يستقيم عند الذين يحاولون أن يتأولوا في الفقه، فأما المصالح العامة فلا تحتمل هذا النوع من التأويل، فهذه المصالح إما أن تكون للشعب، فلا يحلّ للإمام أن يتصرّف فيها إلا بإذنه [أي بإذن الشعب]، وإما أن تكون للإمام، فلا يحلّ للشعب أن يعترض

لحكم ووقية قام بها رسول الله لعموم المسلمين^(٣٣).

توزيع الثروة العامة على الحاشية

يقرّ عثمان على نفسه - فيما يرويه عنه البلاذري في أنسابه - بتقريبه وتوزيعه الثروة على أقاربه، إذ يقول: «حدّثني محمد بن سعد عن الواقدي عن عبدالله بن جعفر عن أم بكر بنت المسور بن مخزومة عن أبيها قال: سمعتُ عثمان يقول: أيها الناس، إن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في هذا المال ظلّف^(٣٤) أنفسهما وذوي أرحمهما، وإني تأولتُ فيه صلة رحمي». ثم يضيف البلاذري بأن عثمان «لما وليّ عاش اثنتا عشرة سنة أميراً، فمكث ستّ سنين لا ينقم الناس عليه شيئاً... ثم توائى في أمرهم [أمر الناس]، واستعمل أقاربه وأهل بيته في الستّ الأواخر وأهملهم»^(٣٥). وجزء سياسته هذه في الإغداق على قرابته، تولدت مجموعة من طبقة الأغنياء التي أثرت على حساب بقية طبقات المجتمع، وإليك بعضاً من هذه النماذج:

١ - لما أرسل أخاه في الرضاة عبدالله بن أبي السرح إلى إفريقية، أعطاه جميع ما

ولم يكتفِ عثمان بتقريبه لهم، بل يحكي عنه ابن سعد في طبقاته أنه كتب لمروان بن الحكم خمس خراج مصر^(٢٩)، وهو ما يعني خمس ميزانية دولة بأكملها، وهي ثروة ضخمة لا يستهان بها. كما أنه أعطاه في أول وروده المدينة مئة ألف درهم^(٣٠). وبذل المال لمروان وأمثاله لا يجب أن يُنظر إليه على أنه إعطاء لرجل مغضوب عليه من قبل النبي ﷺ فحسب، وإن كانت تلك مخالفة كبيرة لا يستهان بها، ولكنّها - انطلاقاً مما نوّد الإشارة إليه - تصرّف في أموال المسلمين العامة، وإعطاء مال المسلمين العامّ لفرد واحد دون أي استحقاق أو مبرر قانوني أو شرعي، وإثراء لطبقة على حساب بقية الطبقات الاجتماعية الأخرى.

ولم يكتفِ عثمان بالعطايا لمروان، فقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه على نهج البلاغة أن عثمان أنكح الحارث بن الحكم [أخا مروان] ابنته عائشة، فأعطاه مئة ألف من بيت المال^(٣١). ولما وردته صدقات من الإبل وهبها جميعاً للحارث أيضاً^(٣٢). كما أن عثمان أقطع سوقاً أوقفها رسول الله ﷺ بمهروز - موضع بالمدينة - على المسلمين للحارث، وذلك لقرابته منه، دون أي اعتبار

بعشرة آلاف، وكان قضى [دينياً] لصيحة التيمي ثلاثين ألف درهم. وقد ترك ألفي ألف درهم ومئتي ألف درهم ومئتي ألف دينار. وكان يدخل قوت أهله بالمدينة سنتهم من مزرعة بـ [منطقة] قناة كان يزرعها على عشرين ناضحاً^(٤٠)، وكان أول من زرع القمح بقناة^(٤١)، وفي موضع آخر يذكر بأن تركته من الأموال والعقار قدرت بثلاثين مليون درهم ومئتي ألف دينار^(٤٢).

٦ - وبمئات طلحة في الثراء الزبير بن العوام الذي اشترك معه في الحرب ضد أمير المؤمنين عليه السلام، حيث اختلف المؤرخون فيما ترك من ثروة، فهناك من قدرها - حسب ابن سعد في الطبقات - بـ ٣٥ مليوناً ومئتي ألف، وفي مورد ثانٍ قدرت بـ ٤٠ مليوناً، فيما قدرها بعض بـ ٥٢ مليوناً^(٤٣).

٧ - ومن الذين أثروا بسبب السياسة الطباقية في توزيع الأموال في عهدي عمر وعثمان: عبد الرحمن بن عوف، الذي كان يعمل في صناعة الحبال التي كان تُعقل بها البعير (العقال)، وهي المهنة التي لا يتصور أن يُثري منها عبد الرحمن كل هذا الثراء، فقد: «ترك عبد الرحمن بن عوف ألف بعير وثلاثة آلاف شاة بالنقيع، ومئة فرس ترعى

أفاء الله عليه من طرابلس إلى طنجة، ولنا أن نتصور مقدار هذه الثروة الضخمة التي لم يشرك معه فيها أحداً من جيشه ولا من بقية المسلمين^(٣٦).

٢ - أعطى أبا سفيان في يومٍ واحد مئتي ألف، وفي اليوم نفسه أعطى مروان مئة ألف من بين مال المسلمين^(٣٧).

٣ - لما أتى أبو موسى الأشعري من العراق بأموال كثيرة، وزّعها جميعاً على أقربائه من بني أمية^(٣٨).

٤ - عندما طلب منه عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي صلةً، أعطاه أربعمئة ألف درهم^(٣٩).

٥ - استفاد طلحة بن عبيد الله الذي دخل الإسلام فقيراً من قرابةٍ تجمعته مع عثمان، حيث أعطاه مئتي ألف درهم في يومٍ واحد، كما أعقد عليه معاوية إلى أن أصبح من أثرياء المسلمين. وفي ذلك يفصل ابن سعد في طبقاته ما كان يملكه طلحة من ثروة هائلة، فيشير إلى أن «طلحة كان يُغُلُّ بالعراق ما بين أربعمئة ألف إلى خمسمئة ألف، ويغل بالسراة عشرة آلاف دينار أو أقل أو أكثر، وبـ [منطقة] الأعراس له غلات. وكان يرسل إلى عائشة إذا جاءت غلته كل سنة

المدينة المنورة فصلاً فيما أقطعه عثمان من أراضٍ على الصحابة، فيقول: «أول من أقطع بالعراق عثمان بن عفان رضي الله عنه قطائع مما كان من صوافي آل كسرى، ومما جلا عنه أهله، فقطع لطلحة بن عبيد الله: النَّسَاسِيجَ^(٤٨)، وقطع لخباب بن الأرت: صَعْنَبِي، وأقطع سعد بن أبي وقاص أرضاً، والزبير إلى ناحية قنطرة الكوفة، وعدي بن حاتم: الروحاء، وسعيد بن زيد، وخالد بن عُرْفُطَةَ، والأشعري في موضع واحد نحو حَمَام ابن عمر^(٤٩). وهي حقٌّ عامٌّ للمسلمين، وإذا بها تتحوَّل إلى ملكيات عامَّة، يثري بها جماعة على حساب مجموع المسلمين.

ولعلنا نقف هنا مع كلمة بليغة لابن سيرين الذي يعدُّ من علماء التابعين، إذ يروى عنه قوله: «لم تكن الدراهم في زمان أَرخص منها في زمان عثمان رضي الله عنه، أن كانت الجارية لتباع بوزنها، وإن الفرس ليبليغ خمسين ألفاً مما يعطيهم»^(٥٠). وهي إشارة واضحة إلى مقدار البذخ الذي وصلت إليه الطبقة المترفة في ذلكم الوقت.

اعتراض الصحابة على السياسات المالية

وقد لاقى عثمان اعتراضات على سياسته هذه من قبل صحابة النبي ﷺ.

بالنقيع، وكان يزرع بالجُرْف على عشرين ناضحاً... وكان فيما ترك ذهبٌ قُطِعَ بالفؤوس حتَّى مَجِلَتْ^(٤٤) أيدي الرجال منه. وترك أربع نسوة، فأخرجت امرأة من ثمنها بثمانين ألفاً^(٤٥).

٨ - كما أن ثروة عثمان وتركته لم تكن بالقليلة، إذ يصفها ابن سعد في طبقاته فيما يرويه في أحداث مقتله أن «عثمان بن عفان كان له عند خازنه يوم قُتِل ثلاثون ألف ألف درهم، وخمسمئة ألف درهم، وخمسون ومئة ألف دينار، فانتَهَبَتْ وذهبت. وترك ألف بغير بالربذة، وترك صدقاتٍ كان يتصدَّق بها في بئر أريس^(٤٦) وخيبر ووادي القري قيمةً مئتي ألف دينار»^(٤٧).

ظاهرة اقتطاع الأراضي العامة

يعد الخليفة عثمان أول من قام - من خلفاء وحكام المسلمين - باقتطاع الأراضي لمقرَّيه، مع أن بعض ما اقتطعه من أراضٍ هي أراضٍ فتحت عنوةً، أي فُتِحَتْ عسكرياً، وهذه الأراضي - فقهيّاً - هي مالٌ عامٌّ لجميع المسلمين، ولا يصحُّ إقطاعه لفردٍ خاصٍّ منهم.

يعقد ابن شبّه النميري في كتابه تاريخ

الخليفة عثمان طالباً منه أن يخلصه من فتنة أبي ذر وتأليف الناس عليه في الشام. فنصحه «حبيب بن مسلمة الفهري: إن أبا ذر لمفسد عليكم الشام، فتدارك أهله، إن كان لك فيه حاجة، فكتب معاوية إلى عثمان فيه، فكتب عثمان إلى معاوية: «أما بعد، فاحمل جنبدًا [اسم أبي ذر] إليّ على أغلظ مركب وأوعره»، فوجهه مع من سار به ليلاً ونهاراً، وحمله على بعير ليس عليه إلا قُتب، حتى قدم المدينة، وقد سقط لحم فخذه من الجهد، فبعث إليه عثمان، وقال له: إحق بأبي أرض شئت، فقال أبو ذر: بمكة؟ قال: لا، قال: بيت المقدس؟ قال: لا، قال: بأحد المصريين؟ قال: لا. ولكن سر إلى ربذة، فلم يزل بها حتى مات»^(٥٥).

ولادة الأقاليم

كان من أسباب ثورة المسلمين على الخليفة عثمان توليته لأقاربه من بني أمية، وقد بالغ هؤلاء في الجهر بمخالفتهم للشريعة وإبراز مظاهر الترف وبذل الأموال في غير وجهتها الشرعية، ومن أمثلة ذلك ما يذكره أبو الفرج الأصفهاني في ترجمته لـ «الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وهو أخو

وكان أبرزهم الصحابي الجليل أبا ذر الغفاري، وكان من اعتراضاته ما يذكره المسعودي في مروج الذهب من حضوره لمجلس عثمان الذي كان يتحدث فيه مع كعب، إذ سأله عثمان - حينها: «أترون [يا كعب] بأساً أن نأخذ مالاً من بيت مال المسلمين فننقله فيما يُؤبنا»^(٥١) من أمورنا ونعطيكموه؟ فقال كعب: لا بأس بذلك. فقال أبو ذر: يا ابن اليهودي، ما أجراك على القول في ديننا. فقال له عثمان: ما أكثر أذاك لي [متوجهها بحديثه إلى أبي ذر]، غيَّب وجهك عني، فقد أدبته»^(٥٢).

وقد نفاه عثمان بعدها إلى الشام، ولم يكن نفيه إليها أفضل حالاً من بقاءه في المدينة، إذ رأى ما كان يتمتع به معاوية بن أبي سفيان من قصر فاخر يضاهاى قصور الأكاصرة والقياصرة^(٥٣)، حيث أنكر أبو ذر على معاوية مظاهر البذخ هذه وأنه يتصرف في أموال المسلمين العامة على غير وجه حق، وفيما هو مخالف لتعاليم وأحكام الشريعة الإسلامية^(٥٤).

وقد كان أبو ذر يتحدث بذلك بين جمهور المسلمين في الشام ويؤلب عليه الشاميين، وهو ما دفع بمعاوية أن يكتب

الولادة كان له دور في الثورة على الخليفة ومقتله فيما بعد.

الحكم الشرعي لولاية الطلقاء على المسلمين

بعد أن دانت كثير من القبائل العربية في شبه الجزيرة العربية بالإسلام وتعاظمت قوة المسلمين، توجه رسول الله ﷺ إلى مكة المكرمة فاتحاً ومخضعاً إياها للحكم الإسلامي. وقد استسلم القرشيون، ودخل كثير منهم في الإسلام. إما خوفاً على النفس، أو طمعاً في الأمن، ومعهما الرغبة في الانسجام مع سيطرة الدين الجديد على الجزيرة العربية.

بعد كل تلك الحروب والمعارف التي دارت بين رسول الله ﷺ وبين قبيلته قريش، ومعها كل تلك المرارات التي ذاقها المسلمون الأوائل في مكة على أيديهم، صفح عنهم ﷺ، وأبلغهم بأنهم الطلقاء من أي عقاب أو محاكمة أو انتقام ولكن ذلك لم يعن أن يبقى هؤلاء على السواء مع بقية المسلمين الذين أثبتوا إخلاصهم للإسلام وجهادهم بالغالي والنفيس حمايةً لهذا الدين، الذي لم يبلغ هذه المكانة ولم ينتشر ويصل

عثمان بن عفان لأمه، وكان من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم، وكان فاسقاً. وليّ لعثمان رضي الله بالكوفة بعد سعد بن أبي وقاص، فشرّب الخمر، فشهد عليه بشرّب الخمر عند عثمان، فحدّه وعزله»^(٥٦).

وكان سبب عزله كما يرويها الأصمعي نصّاً: «كان الوليد بن عقبة زانياً شريب خمر، فشرّب الخمر بالكوفة، وقام ليصلي بهم الصبح، فصلّى بهم أربع ركعات، ثمّ التفت إليهم وقال لهم: أزيدكم؟ وتقياً في المحراب، وقرأ بهم في الصلاة وهو رافع صوته:

علق القلب الربابا بعدما شابت وشابا
فشخص أهل الكوفة إلى عثمان
وأخبروه خبره، وشهدوا عليه بشرّبه الخمر،
فأنيّ به، وأمر رجلاً بضربه وحده»^(٥٧).

وما يذكره أبو الفرج في أغانيه حول الوليد بن عقبة إنما هو نموذج لولاية آخرين أظهرّوا من الفساد ما أغضب جمهور المسلمين ونزع عنهم صفة العدالة الاجتماعية المطلوبة في أي حاكم مسلم. وهذا النوع من المجاهرة بالفسق من قبل

إلى فتح مكة لولا تضحيات المهاجرين والأنصار.

ولا يبعد أن النبي ﷺ كان يعلم أن كثيراً من الطلقاء لم يكن ليدخلوا في الإسلام لولا الخوف من العقاب أو الرجاء والطمع في المغنم أو الأمان الذي يرجونه ويطلبونه.

وقد ورد عنه ﷺ في حقهم قوله: «المهاجرون والأنصار أولياء بعضهم لبعض، والطلقاء من قريش والعتقاء من تقيف بعضهم أولياء بعض إلى يوم القيامة»^(٥٨). وهو ما يعني جواز أن يتولى أي فرد من المهاجرين والأنصار السلطة على المسلمين، ولكن ذلك غير جائز لأي من أفراد الطلقاء أو العتقاء من تقيف. وهو معنى وحكم كان معروفاً ومتداولاً لدى عامة وجمهور المسلمين، بأن النبي ﷺ منع من تولي الطلقاء للسلطة على رقاب المسلمين.

وهو ما نراه في أحد كتب الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يردّ فيه على معاوية، أورده الشريف الرضي في نهج البلاغة، إذ يقول عليه السلام فيه: «أمّا بعد، فقد أتاني كتابك تذكر فيه اصطفاء الله محمداً ﷺ لدينه، وتأيينه إياه لمن أيده من أصحابه. فلقد خبأ لنا الدهر منك عجباً، إذ طفقت تخبرنا ببلاء

الله تعالى عندنا، ونعمته علينا في نبينا. فكنت في ذلك كناقل التمر إلى هجر، أو داعي مسدده إلى النضال.

وزعمت أن أفضل الناس في الإسلام فلان وفلان. فذكرت أمراً إن تمّ اعتزلك كلّه، وإن نقص لم يلحقك ثلمه. وما أنت والفاضل والمفضول والسائس والمسوس. وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتميز بين المهاجرين الأولين وترتيب درجاتهم وتعريف طبقاتهم. هيهات لقد حنّ قدح ليس منها، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها. ألا ترعب أيها الإنسان على ظلعك، وترعب قصور ذرعك، وتتأخر حيث أحرّك القدر. فما عليك غلبة المغلوب، ولا ظفر الظافر. وإنيك لذهاب في التّطه رؤغ عن القصد»^(٥٩).

إذ يتضح من الرسالة أنها جواب على خطاب بعث به معاوية إلى الإمام علي عليه السلام يذكر فيه فضل أبي بكر وعمر في الحكم والخلافة - كما يشير إلى ذلك ابن أبي الحديد في الشرح. والإمام - هنا - يردّ عليه بأن الدهر أظهر له عجباً من أمر معاوية الذي يخبر الإمام علي عليه السلام بمناقب رسول الله ﷺ. وبعد ذلك يبيّن له مناقب ودرجات الصحابة وأفضلية بعضهم في السلطة، إذ هو - بهذا -

كناقل التمر إلى هجر، وحامل العلم إلى من هو أعلم به منه. وبعد ذلك يشير ﷺ إلى أنه يحشر نفسه في أمور ليس له فيها ناقة ولا

جمل، فهو من الطلقاء، وليس لهذه الطبقة علاقة بمثل الأمور، إذ منعت من ممارستها بحكم شرعي من رسول الله ﷺ.

الهوامش:

- (١) سورة القيامة، الآيتان: ١٤ - ١٥.
- (٢) سورة التحريم، الآية: ٦.
- (٣) سورة الأنفال، الآية: ٧٢.
- (٤) سورة النحل، الآيتان: ٥٨ - ٥٩.
- (٥) سورة الفتح، الآية: ٢٦.
- (٦) سورة الجمعة، الآية: ٢.
- (٧) السيرة النبوية، ابن هشام (ت ٢١٨ هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، بدون تاريخ نشر، ج ١ / ٣٣٦.
- (٨) سورة المائدة، الآية: ٦٤.
- (٩) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل - بيروت، ط ٢، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، ج ١٦ / ٢٥٠.
- (١٠) نهج البلاغة، جمع: الشريف الرضي (ت ٤٠٦ هـ)، شرح: الشيخ محمد عبده (ت ١٣٢٣ هـ)، دار البلاغة - بيروت، ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م، ج ١ / ١٨٦.
- (١١) لم يكن يزيد من الدهاء بمثل ما كان أبوه معاوية. ولذلك فإن توقيت الثورة بأن تكون في عهد يزيد له مدخلية في تحقيق الأهداف بصورة أفضل، وربما لم تكن لتتحقق ذلكم النجاح لو كانت في عهد أبيه الذي عُرف عنه دهاؤه ومكره السياسيين.
- (١٢) النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم، تقي الدين المقرئ (ت ٨٤٥ هـ)، تحقيق: الدكتور حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، ط ١٩٨٨ م، ص ٣٧ - ٣٨.
- (١٣) انظر: المصدر السابق، ص ٤٤ - ٤٦.
- (١٤) لمزيد من الاطلاع، راجع: معجم شعراء الحسين ﷺ، الشيخ جعفر الهلالي، تقديم: الدكتور عبد الهادي الفضلي، مؤسسة أم القرى - بيروت، ط ١، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، ج ١ / ٣١ - ٣٢.
- (١٥) ديوان السيد حيدر الحلبي (ت ١٣٠٤ هـ)، تحقيق: علي الخاقاني، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط ٤، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م، ص ٦٠.

- (١٦) المصدر السابق، ص ٧٨.
- (١٧) المصدر السابق، ص ١١١.
- (١٨) انظر: نهج البلاغة، مصدر سابق، ج ١ / ٨٠.
- (١٩) يقول عمرو فروخ حول هذه الفكرة: «كانت حياة العرب في الجاهلية قائمة على العصبية القبلية، وكانت هذه العصبية سبباً من أسباب منازعاتهم الكثيرة التي قادتهم في معظم الأحيان إلى القتال... فلما جاء الاسلام أغرق العصبية وجمع العرب أمة واحدة وبدلاً واحدة. ثم خطّ الأمويون سياستهم القومية، فعدت تلك العصبية إلى الاستيقاظ من جديد». انظر: تاريخ الأدب العربي، عمر فروخ، دار العلم للملايين - بيروت، ط ٤، ١٩٨١ م، ج ١ / ٣٥٣.
- (٢٠) تولى عمر بن الخطاب الخلافة سنة ١٣ هـ، وكانت وفاته سنة ٢٣ هـ.
- (٢١) الطبقات الكبير، محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠ هـ)، تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م، ج ٣ / ٢٧٦ - ٢٧٧.
- (٢٢) سموّ المعنى في سموّ الذات أو أشعة من حياة الحسين عليه السلام، الشيخ عبدالله العلايلي، دار مكتبة التريسة - بيروت، ط ٢، ١٣٥٩ هـ، ص ٢٣٢ - ٢٣٣.
- (٢٣) المصدر السابق، ج ٣ / ٢٨١.
- (٢٤) م. ن.
- (٢٥) الفتنة الكبرى: عثمان، ضمن كتاب (إسلاميات)، الدكتور طه حسين، منشورات دار الآداب - بيروت، ط ١، ١٩٦٧ م، ص ٦٧١ - ٦٧٢.
- (٢٦) الطبقات الكبير، ابن سعد الزهري، مصدر سابق، ج ٣ / ٦٠.
- (٢٧) الفتنة الكبرى: عثمان، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٦٩١.
- (٢٨) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٥ / ٢٣٩.
- (٢٩) انظر: طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣ / ٦٠.
- (٣٠) انظر: جُمَل من أنساب الأشراف، أحمد بن يحيى البلاذري (ت ٢٧٩ هـ)، تحقيق: الدكتور سهيل زكار والدكتور رياض زركلي، دار الفكر - بيروت، ط ١، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، ج ٦ / ١٣٣ و ١٣٦. والغدير في الكتاب والسنة والأدب، الشيخ عبد الحسين الأميني النجفي (ت ١٣٩٢ هـ)، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ط ٣، ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م، ج ٨ / ٢٥٧.
- (٣١) انظر: شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١ / ١٩٩.
- (٣٢) انظر: جمل من أنساب الأشراف، البلاذري، مصدر سابق، ج ٦ / ١٣٧.
- (٣٣) انظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١ / ٦٧، وقد ورد اسم السوق في النهج خطأً

(بهروز).

(٣٤) الظَّلْفُ: الأَنعام: وجاءت الإبل على ظِلْفٍ واحد، أي متتابعة. ووجدت الدابَّة ظِلْفَهَا، أي: مرعىً يناسبها لا تبرحه. ووجد فلان ظِلْفَه، أي مراده. والمعنى هنا: أن أبا بكر وعمر كانا يتأولان في أخذ المال مرادها ومراد ذويهم وأرحامهم. وأنا سأفعل كما فعلا، وسأراعي صلةً رحي. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مطبعة الشروق الدولية - القاهرة، ط ٤، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، ص ٥٧٦، مادة: (ظلف).

(٣٥) مجل من أنساب الأشراف، البلاذري، مصدر سابق، ج ٦ / ١٣٣.

(٣٦) انظر: الشيعة في الميزان، الشيخ محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠ هـ)، دار الجواد ودار التيار الجديد - بيروت، ط ١١، ١٩٨٦ م، ص ٧١.

(٣٧) انظر: المصدر السابق، ص ٧١ - ٧٢.

(٣٨) انظر: المصدر نفسه.

(٣٩) انظر: المصدر نفسه.

(٤٠) الناضح: الدابَّة يُستقى عليها، وكذلك تأتي بمعنى الحوض. فرمما كان بمعنى: أن عشرين دابة تعمل في سقي هذه الأراضي، مما يدل على سعته، أو أنها أرض تحتوي على عشرين حوضاً. انظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٩٢٨، مادة (نضح).

(٤١) طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٣ / ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٤٢) المصدر السابق، ج ٣ / ٢٠٣.

(٤٣) المصدر السابق، ج ٣ / ١٠٢. وانظر: سموّ المعنى في سموّ الذات، الشيخ عبد العلابي، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٤٤) مجلت يده: تفرّحت من العمل، وتكوّن بين الجلد واللحم فيها ماء بإصابة النار أو بسبب مشقّة أو معالجة الشيء الخشن. انظر: المعجم الوسيط، مصدر سابق، ص ٨٥٥، مادة (مجل).

(٤٥) المصدر السابق، ج ٣ / ١٢٧.

(٤٦) بئر أريس: بئر على مقربة من مسجد قباء على غربيه.

(٤٧) طبقات ابن سعد، مصدر سابق، ج ٢ / ٧٢.

(٤٨) النشاستيج: ضيعة أو نهر بالكوفة.

(٤٩) تاريخ المدينة المنورة، ابن شبّه النميري البصري (ت ٢٦٢ هـ)، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، بدون ناشر وتاريخ نشر، ج ٤ / ١٠٢٠ - ١٠٢١.

(٥٠) المصدر السابق، ج ٤ / ١٠٢٣.

(٥١) أي: يظهر لنا من الرأي والأمر.

(٥٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت ٣٤٦ هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين

- عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، ط ٥، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، ج ٢ / ٣٤٩.
- (٥٣) بدأ معاوية والياً على دمشق منذ أيام الخليفة عمر. وعندما توفي أخوه يزيد الذي كان والياً على الأردن، ضمَّ عمر بن الخطاب ولاية الأردن لمعاوية. وفي عهد عثمان، توفي والي فلسطين عبد الرحمن بن علقمة الكناني، فتولى معاوية ولاية فلسطين أيضاً، وبعد فلسطين تولى معاوية ولاية حمص لمرض واليها عمير بن سعد الأنصاري، لتُخلَصَ أرض الشام كاملةً تحت ولاية معاوية ابن أبي سفيان، ليكون بعد ذلك «أعظم العمال خطراً وأعلامهم قدراً أيام عثمان. ولم يعرف تاريخ الخلافة الإسلامية والياً أتيح له من طول الولاية واتصالها واستقرارها وتدرجها في الاتساع كما أتيح لمعاوية». انظر: الفتنة الكبرى: عثمان، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٧٥٠ - ٧٥١.
- (٥٤) انظر حول هذه القصة: الفتنة الكبرى، الدكتور طه حسين، مصدر سابق، ص ٧٥٩ - ٧٦٠.
- (٥٥) تاريخ أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٨٤ هـ) (تاريخ يعقوبي)، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ نشر، ج ٢ / ١٦٣ - ١٦٨.
- (٥٦) الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني (ت ٣٥٦ هـ)، تصحيح: أحمد الشنقيطي، مطبعة التقدم - القاهرة، بدون تاريخ نشر، ج ٤ / ١٧٥.
- (٥٧) المصدر السابق، ج ٤ / ١٧٦ - ١٧٧.
- (٥٨) مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ١، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، ج ٧ / ٧٢٤، الحديثان: ١٩٧٣٤ و ١٩٧٣٥.
- (٥٩) شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، مصدر سابق، ج ١٥ / ١٨١.

زيارة الأربعين

المشروعية والأبعاد الرسالية(*)

سماحة السيد صدر الدين القبانجي

مفكر إسلامي / إمام جمعة النجف الأشرف

فضل زيارة الأربعين

روى المحدثون عن الإمام العسكري عليه السلام قوله: «علامات المؤمن خمس: صلاة إحدى وخمسين، وزيارة الأربعين، والتختم باليمين، وتعفير الجبين، والجهر بسم الله الرحمن الرحيم»^(١)، هذه الروايات معروفة، وعليها عمل علمائنا وشيعة أهل البيت.

لماذا المشي لزيارة الحسين؟

وهنا تساؤل: لماذا اختصَّ الحسين عليه السلام بهذه الزيارة؟ ولماذا يزحف ملايين الشيعة لزيارة الحسين عليه السلام؟

ربّما يكون الجواب هو أنّ أئمتنا كلهم قتلوا إمّا بالسيف أو بالسّم، لكن لم يُقتل أحدهم كما قُتل الإمام الحسين عليه السلام، ومشى في كربلاء كما مشى الحسين عليه السلام، فكلّما سقط أحد من

(*) من كتاب لسماحته (بعنوان أضواء على سيرة النبي صلى الله عليه وآله وآله) مركز الهدى للدراسات الحوزوية.

فهبط إليّ جبرئيل فأخبرني أنّكم قتلتم وأنّ مصارعكم شتّى، فحمدت الله على ذلك وسألت لكم الخيرة».

فقال له: «يا أبه، فمن يزور قبورنا ويتعاهدها على تشبّتها؟».

قال: «طوائف من أمّتي يريدون بذلك برّي وصلّتي، أتعاهدهم في الموقف وأخذ بأعضادهم فأنّجهم من أهواله وشدائده»^(٣).

تصوّراً لو أنّ شيخ عشيرة قُتِلَ أحد ولده، فإنّ هذا الشيخ يقف في الباب ليستقبل المعزّين له بمقتل ولده، فالحسين عليه السلام هو الولد المقتول للرسول ﷺ، والمعزّون أنتم أيّها الزائرون للحسين عليه السلام يوم الأربعين مشياً على الأقدام، فالرسول ﷺ والإمام عليّ عليه السلام والزهراء عليها السلام يستقبلون الزوّار على أبواب كربلاء، ويقولون: نحن شفعاؤكم يوم القيامة.

مقارنة بين مسيرة الأربعين وحجّ بيت الله الحرام

وأقف في مقارنة بسيطة وأنا في الطريق لزيارة الإمام الحسين عليه السلام ماشياً مع الزائرين خلال الأيام الأربعة الماضية، وتأملت في مقارنة ومقاربة بين هذه الزيارة على الأقدام لهؤلاء الذين زادوا على عشرة ملايين^(٤)

الأنصار أو أهل بيت الحسين مشى إليه الحسين عليه السلام من الخيام إلى مصرعه ثم يرجع.

كان هناك سبعون ونيف شهيداً مع الحسين عليه السلام، يعني أنّه مشى ذهاباً وإياباً أكثر من سبعين مرّة، ولعلّ منطلق مشينا للحسين عليه السلام هو ذلك الذي حصل يوم عاشوراء، ولعلّه أحد الأسرار بين الشيعة والحسين عليه السلام.

هناك سرٌّ آخر فكلُّ من يمشي إلى كربلاء يضع يده على ظهره من التعب والنصب، وهذا نوع من المواساة للحسين عليه السلام، عندما ذهب إلى أخيه العباس عليه السلام ووجده ملقى على التراب قال: «الآن انكسر ظهري، الآن قلّت حيلتي، الآن شمت بي عدوي»^(٢)، فالشيعة يمشون هكذا مواساةً للحسين عليه السلام، والرسول ﷺ حينما أخبر بمقتل الحسين عليه السلام قام الحسين عليه السلام يدرج حتّى صعد على فخذي رسول الله ﷺ، فأخذ برأسه إلى صدره ووضع ذقنه على رأس رسول الله ﷺ، ثمّ قال: «يا أبه، ما يُبكيك؟».

فقال له: «يا بني، إنّي نظرت إليكم اليوم فسررت بكم سروراً لم أسر بكم مثله قطّ،

المقارنة الثانية: التخيير في الصلاة:

الحاجُّ يُخَيَّرُ في الصلاة في مكَّة المكرمة بين القصر والتمام، وفي المدينة المنورة كذلك، ومسجد الكوفة، ويُخَيَّرُ في الحائر الحسيني أيضاً بين القصر والتمام.

المقارنة الثالثة: الوضوء بماء زمزم:

فِيَسْتَحِبُّ للحاجُّ أن يتطهَّرَ ويتوضَّأً ويغتسل ويشرَب من ماء زمزم، ويقول: «اللَّهُمَّ اجعله علماً نافعاً»^(٧)، وكلُّ الحجيج يقومون بهذه المهمَّة، وفي زيارة الحسين عليه السلام يُسْتَحِبُّ العُسل بماء الفرات، وكنت أستذكر أن الله تبارك وتعالى أعطى بئراً إلى إسماعيل، ولكنَّه تعالى أعطى للحسين عليه السلام الفرات بأكمله يُغْتَسَلُ ويتوضَّأُ ويُشْرَبُ منه.

المقارنة الرابعة: عدم وجود الفنادق:

وهي من المشاهدي التي نراها على طول الطريق البالغ (٥٠٠ كم) بأقلِّ تقدير، وبتعداد زوَّار يتعدَّى العشرة ملايين زائر، وإنما يبيتون على الرُحْب والسعة في بيوت الناس، وفي الخيام المنصوبة لاستقبالهم، والمحافظة، والأفضية، والنواحي، التي في الطريق كلها قد فتحت بيوتها للزوار، فلا تسمع أن أحدهم

بتقدير دقيق وبدون مبالغة، بل يزيدون على ذلك، هذه الزيارة التي خلت منها محافظات بأكملها، وخرجوا رجالاً، ونساءً، وأطفالاً، وحتَّى الطفل الرضيع لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وأنتم ونحن شاهدنا ذلك.

أردت أن أعقد مقارنة بين هذه الزيارة وبين حجِّ بيت الله الحرام، وإنَّ الروايات الثابتة لدينا تقول: «من زار الحسين عليه السلام له ثواب حجة وعمرة، بل ثواب سبع حجج، بل ثواب سبعين حجة، بل ثواب ألف حجة متقبَّلة»^(٥)، وهذا ليس مبالغة، وأذكر لكم هذه التأمُّلات، وهذه المقارنة:

المقارنة الأولى: المغفرة:

فالحاجُّ على ثلاثة أقسام كما جاء في الروايات، قسم يُحفظ في أهله وماله، وقسم يُعْفَرُ له ما تقدَّم من ذنبه، وقسم ثالث يُعْفَرُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، ولكن ثواب زائر الحسين عليه السلام يُعْفَرُ له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر، وأربعة آلاف ملك يُشيعونه إذا عاد، ويعودونه إذا مرض، ويجلسون عند قبره يستغفرون له إلى يوم القيامة، حتَّى ورد في الروايات الصحيحة عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من زار قبر الحسين عليه السلام وهو يريد الله شيَّعه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل إلى منزله»^(٦).

يقول: لا أستطيع العودة ولا أرغب بها، وهذا خلاف الاستحباب الشرعي طبعاً، من جراء التعب، أو الظروف أو غيرها، وهؤلاء العشرة ملايين سيصبحون في السنة القادمة خمسة عشر مليوناً ولا أحد منهم إلا ويتمنى العودة للزيارة.

المقارنة السابعة: وسائط النقل:

فالزوّار هنا يقطعون الطريق مشياً على الأقدام بمئات الكيلومترات، لا طائرات، ولا سيارات، وهذه ظاهرة منفردة في العالم، وفي حجّ بيت الله الحرام وسائط النقل مرفّهة وبأفضل الترفيه، وأحدث الموديلات.

المقارنة الثامنة: الخدمات:

وأنت تمشي في الطريق تجد الخدمات مبذولة بما لا يمكن وصفه، حتّى يصل الأمر إلى التنافس من أجل غسل ملابس الزائر، في حجّ بيت الله الحرام ممكن أن تُعطي ملابسك إلى مكوى بأجور، لكن هنا العوائل، والنساء، والشباب، والرجال يتفنون في كيفية خدمة هذا الزائر، من غسل ملابسه، إلى غسل أرجله وتدليكها، وهذا غير موجود في الحجّ.

منهم بات في فندق أبداً، وفي حجّ بيت الله الحرام تكون الفنادق عامرة والحمد لله بملايين ومليارات الدنانير والريالات.

المقارنة الخامسة: عدم وجود الأمراض:

ففي الحجّ هناك طبخ مركزي، ولجنة فحص طبيّ، ومع ذلك نسمع آلاف حوادث التسمّم بالطعام، وهكذا التلقيح قبل الحدود وبعدها باستمرار، خشية الأوبئة والأمراض، أمّا في هذه الزيارة المليونية لا نسمع بوجود الأمراض، ولا يوجد تعقيم ولا طبخ مركزي، ولا فحص طبيّ، ومع كلّ هذا لا يوجد أيّ انتشار أو خطر مرضي، فألف هنيئاً ومريئاً لهؤلاء الزوّار، وهم يعانون أنواع الظروف الطقسية المختلفة، وانتهت الزيارة ورجع هؤلاء العشرة ملايين ولا توجد مشكلة، وهذا الأمر علمياً وصحياً غير قابل للتصديق، إلا أن يكون هذا الحدث إعجازاً.

المقارنة السادسة: الرغبة في العودة للزيارة:

مع هذا الطريق الطويل وهذا التعب والعناء، ولكن لا يوجد شخص إلا ويرغب بالعودة للزيارة في السنة القادمة، ولكن في حجّ بيت الله الحرام كثيراً ما نسمع ونرى من

المقارنة التاسعة: الأمان:

الإسكندرية تفجير ذهب ضحيته أربعون شهيداً، وأكثر من مائة وعشرين جريحاً، والناس مستعدون لبذل مليون شهيد فداءً لزيارة الحسين عليه السلام.

وهي ظاهرة فريدة أيضاً، فإن عشرة ملايين زائر ولمدة (٥ يوماً) من البصرة كأقل تقدير، لا تسمعوا أن فلاناً سُرقت أمواله، ولكن في الحج وفي بيت الله الحرام وعند الحجر الأسود سجّل ما شئت من حالات السرقة، وهي ظاهرة سيئة وتحمّلها الأجهزة المسؤولة هناك، لكن بصدد التقييم العام تستغرب حينما ترى عشرة ملايين زائر لا تسمع من يقول: سُرقت أموالي، بل لو ترك أمواله في مكان لوجدها على حالها، لأن قلوبهم يفدي بعضهم البعض الآخر، وهو لم يأت لكي يأخذ أموالاً، بل كي يُعطي أموالاً، وهذه ظاهرة عجيبة، وهؤلاء بشر على كل حال وليسوا ملائكة، لكن انظروا كيف يتحوّل البشر إلى ملائكة في زيارة الحسين عليه السلام ولا يُفكّرون في سرقة، أو كذب، أو غيبة، أو أنانية وما شاكل ذلك.

المقارنة الحادية عشرة: الأطفال الرضع:

فلا تجدون أطفالاً يحجّون بيت الله الحرام، لكن تجد الأطفال الرضع وعوائلهم يأتون بهم من البصرة لزيارة الحسين عليه السلام، رغم الظروف الطقسية المختلفة الصعبة، وهذه ظاهرة عجيبة.

المقارنة العاشرة: التهديد الإرهابي:

المقارنة الثانية عشرة: البذل والعطاء:

والعالم لا يدري بالذي يحدث هنا وقد ضيّعوا حظّهم، ونحن رزقنا الله تعالى هذا الحظ العظيم، فدعوا هذا العالم وشأنهم، ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ﴾ (الإسراء: ٧١).

هناك في الحج لا يوجد تهديد إرهابي، وفي زيارة الحسين عليه السلام يوجد تهديد إرهابي، والناس يزحفون إلى الموت وهم فرحون بذلك، في هذه السنة حدث عندنا في

أيها العالم الإسلامي نحن اخترنا الحسين عليه السلام وليس مجرد محبّة الحسين عليه السلام، ممكن يقول العالم: كلنا نجب الحسين عليه السلام، وحتى أولئك الذين في قصر الشام كانوا يبيكون الحسين عليه السلام، وحتى ابن سعد، وهذا لا قيمة له، والإمام لدينا هو

المقارنة الثالثة عشرة: رعاية الدولة:

هنا لا تجد رعاية دولة بالمعنى المصطلح، نعم تُوجد خدمات بسيطة تُقدّمها الدولة وأجهزة الدولة مشكورة، ولكن لا تُوجد لدينا وزارة تُسمّى وزارة الزيارة، وهناك في الحجّ وزارة تُسمّى وزارة الحجّ.

المقارنة الرابعة عشرة: أخذ التراب:

في حجّ بيت الله الحرام لا يجوز أن يُؤخذ من تراب الحرم شيء، وإذا أُخذ يجب إرجاعه، ولا من نبتها، ولا من أحجارها، لكن في كربلاء يُستحبُّ أن تأخذ من تراب الحسين عليه السلام، وتربة الحسين عليه السلام يجب أن تكون لكلّ العالم، أينما تكون في شرق الأرض وغربها، أنت تعيش مع الحسين وتربة الحسين عليه السلام.

وأف هـا للتأكيد على أنّ أفكارنا هي كالشمس الواضحة، إلّا لذلك الأعمى، هؤلاء عمي لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة، ونحن نقول: إنّ الشفاء في تربة الحسين عليه السلام، ورسول الله صلى الله عليه وآله قال: «بورك لولدي الحسين في تربته، وفي ولده، وفي ذرّيته»، والحديث في ذلك واسع، وبعض الناس يتهموه بأنّه شرك وبدعة. وأذكر أنّها

المطاع وليس المحبوب فقط، أي إنّ الفقه فقه الحسين عليه السلام، والموقف السياسي موقفه، وبحساب أولي بسيط فإنّ عشرة ملايين زائر خلال أسبوع يصبح تعدادهم (٧٠) مليوناً، وفي كلّ يوم ثلاث وجبات يصبح لدينا (٢١٠) مليون وجبة طعام تُقدّم مجاناً، أقلّ سعر للوجبة ألف دينار أصبح لدينا (٢١٠) مليار دينار يُقدّم خلال أسبوع فقط للطعام، وإذا أضفنا مثلها للخدمات صار المجموع (٤٢٠) مليار دينار يُقدّم خلال أسبوع تبرّعاً، وقياساً بميزانية محافظة النجف الأشرف كواحدة من المحافظ البالغة (١٧٢) مليار دينار خلال سنة كاملة، أي بذل الأهالي الفقراء خلال أسبوع ما يعادل ميزانية محافظة لمدة سنة مرّتين ونصف، وهذا بأقلّ الحسابات، ولا يمكن وصفه ولا تستطيع دولة أن تُقدّمه، ولكن هذا الشعب العظيم والسخي المتنافس لخدمة أهل البيت عليهم السلام، وأذكر شخصاً منهم يبذل سنوياً (٥٠٠) مليون دينار في موكب واحد، وعندما سألتنا عنه قالوا: لا يريد أن يعرفه أحد، فإذا أردتموه تجدونه يُنظّف المغاسل والحمامات كي لا يُعرّف، وأين هذا البذل والعطاء في بيت الله الحرام؟

والشمس تصهره، كما قال الشاعر:

تريب المحيا تظنُّ السما
بأنَّ على الأرض كيوانها
غريباً أرى يا غريب الطفوف
توسَّد خدكُ كتبانها^(٨)

دلالات في مشهد الزائرين

هناك دلالات في مشهد الزائرين ومعاني لهذه الحركة العظيمة، فقد أحصيْتُ وبشكل سريع أربع عشرة دلالة وصورة في التأسي بالحسين عليه السلام في مشهد الزائرين:

الأولى: العطش:

فالزائر يواسي الإمام الحسين عليه السلام بالعطش، وهي الصورة الأولى من صور التأسي بالحسين عليه السلام.

الثانية: الغبار:

فالإمام الحسين عليه السلام علاه الغبار، والزائر أيضاً لا يذهب بإنافته الكاملة، بل يذهب بالغبار، وهذه من خصائص زيارة الحسين عليه السلام أن الزائر يزوره بالغبار، وهذا غير مذكور في زيارة الأئمة الباقين.

الثالثة: المشي:

الحسين عليه السلام مشى في كربلاء بين كلِّ

السادة الكرام برؤيتنا القرآنية الواضحة، وكنت أتأمل في قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ (البقرة: ٧٣)، هؤلاء بني إسرائيل قتلوا واحداً، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ٧٢﴾ (البقرة: ٧٢)، والله تعالى أوحى إلى موسى أن انحروا بقرة، وبعد قصة طويلة يستعرضها القرآن الكريم ذبحوا هذه البقرة، فقال موسى: خذوا بذيل البقرة واضربوا الميت، فلما ضربه عاد حيًّا، يقول القرآن الكريم: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٧٣﴾ (البقرة: ٧٣)، أي يحيي الميت بذيل البقرة، فهل هذا شرك بالله تعالى أم هو بإذن الله تعالى؟ ونحن نزور الحسين عليه السلام ونتبرك بتربته، وهم يقولون: بدعة وشرك.

والقرآن الكريم أيضاً في قصة يوسف يقول: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ (يوسف: ٩٣)، فلماذا حينما تبرك بزيارة الحسين عليه السلام ونقبل ضريحه لا يقبلون هذا منا ويعتبروه شركاً؟

تذكرت أن الحسين عليه السلام على هذه التربة يوم عاشوراء، لمَّا وقع عن جواده عمل له وسادة من التراب، ووضع خده عليها،

كربلاء تُذَكِّرنا بخيم الحسين عليه السلام، ونحن بعد
(١٤٠٠) سنة مرَّةً أُخرى نعيش مع
الحسين عليه السلام في الخيام.

الثامنة: الأطفال:

الحسين عليه السلام كان معه الأطفال في يوم
عاشوراء شاركوا في المعركة، اليوم الأطفال
أيضاً يشاركون في مشهد المشي لزيارة
الحسين عليه السلام.

التاسعة: النساء:

النساء شاركن مع الحسين عليه السلام في
كربلاء، والنساء تشارك الآن في زيارة
الحسين عليه السلام.

العاشرة: الصلاة:

الحسين عليه السلام أقام الصلاة يوم عاشوراء،
والآن تجدون مشهداً واضحاً وهو مشهد
الأذان والصلاة، وهذا تأسي بالحسين عليه السلام.

الحادية عشرة: السرور العظيم:

فلا يوجد سرور أعظم من السرور
الموجود في يوم عاشوراء، فقد كان بربر
وزهير يتبادلان السرور والفرح أن بعد ساعة
يعانقون الحور العين، وهذه أحلى ساعات
كانت عندهم، والزائرون والحمد لله يقضون
أحلى ساعات العمر في زيارة الإمام

مصرع، وبين الخيام، وبين النهر العلقمي،
والزائر بهذا المشي يتأسي بالحسين عليه السلام.

الرابعة: حرارة الشمس:

فالإمام الحسين عليه السلام بقى على رمضاء
كربلاء ثلاث ساعات من النهار تلفحه
الشمس قبل أن يُقتل ويذبح، والزائر يتعرَّض
لحرارة الشمس تأسيّاً بالحسين عليه السلام، وهذا
من أبسط التأسي.

الخامسة: الدماء:

فالحسين عليه السلام أعياه نرف الدماء يوم
عاشوراء، والزائر أيضاً لا بدُّ أن تصيبه شوكة،
ونتيجة التعب تكون هناك دماء في قدميه،
لكن شتان بين تلك الدماء وهذه.

السادسة: الرايات:

فالحسين عليه السلام كان عنده راية والعباس
حاملها، وكانت هناك أيضاً مجموعة رايات
وأحصى المؤرِّخون منها (١٢) راية، والآن
من يذهب إلى الحسين عليه السلام يلاحظ مشهد
الرايات، وهو مشهد كربلائي وتأسي
بالحسين عليه السلام، مشهد عشرات آلاف من
الرايات، وكأنَّ الحسين مرَّةً أُخرى عاد حيًّا،
وكربلاء عادت حيَّة.

السابعة: خيم عاشوراء:

الآن الخيام المنصوبة في الطريق إلى

الخيالة العصاة المردة، فيا لها من جرأة على
الله، ركبوا خيولهم وداسوا على صدر
الحسين عليه السلام وظهره.

معجزة الدهر في العشرين من صفر

الحديث عن ذكرى أربعينية الإمام
الحسين عليه السلام، هذا الأمر الذي حضرني أن
أسميه وأنا أسير مع المشاة إلى الإمام
الحسين عليه السلام بـ (معجزة الدهر في العشرين
من صفر)، نتحدث عن معجز الأنبياء وها
نحن نرى المعجزة بأمر أعيننا في ذكرى
العشرين من صفر، وهناك بركات وهبات
إلهية في هذا المسير العظيم المقدس
الشريف، منها:

أولاً: كفارة الذنوب:

ننظر لهؤلاء المشاة وتنقلات أقدامهم
ملايين البشر تسير والأقدام ترحف إلى قبر أبي
عبد الله الحسين عليه السلام، في العام الماضي^(٩)
قُدِّرَ بخمسة عشر مليون زائر، أما هذه السنة
فالمشهد فوق أن يُوصَف، وذكرت الحديث
الشريف الذي يقول: «من ذهب ماشياً لزيارة
الحسين عليه السلام كتب الله له بكل خطوة حسنة،
وغفر الله له سيئة، ورفعته درجة»^(١٠)، بدأت
أحسب حساباً أن كل واحدٍ من هؤلاء الشباب أو

الحسين عليه السلام، بما لا يقاس بأجمل مشهد
من مشاهد الكون كله.

الثانية عشرة: تبادل المحبة:

فالزائر يُفدي أخيه الزائر ولا توجد أنانية،
بل يتسابق لخدمة الزائر ويُقدِّم له الماء
والطعام وغيره بما لا يصنعه أيُّ درس من
الدروس، ولا أيُّ موعظة من المواعظ، ولا
أيُّ تجربة من التجارب، إن هؤلاء الملايين
بينهم من المحبة ما صنعه الله تعالى وحده،
وهو لا يعرف الآخر ولكن لا يبخل عليه
بشيء، بل يتوسَّل إليك أن يخدمك.

الثالثة عشرة: الصحراء:

هناك صحراء كربلاء التي جعلنا مرَّةً
أخرى نُجسِّد قضية الحسين عليه السلام.

الرابعة عشرة: لطم الصدور:

والزائر يمشي، وتُقرأ الأشعار، وتُلمَّم
الصدور، والحسين عليه السلام وأصحابه لم يلمموا
الصدور في عاشوراء، ولكن هذا شيء من
المواساة للحسين عليه السلام، يوم عاشوراء داست
الخيال صدر الحسين عليه السلام، ونحن نريد أن
نقول: يا أبا عبد الله الحسين، إذا الخيل لم
تدس على صدورنا، نحن نلطم عليها تأسيماً
بصدرك الكبير يوم قال قائلهم: (يا خيل الله
اركبي ودوسي صدر الحسين)، وعشر من

به عَمَلٌ صَالِحٌ ﴿١﴾ ولا شكَّ أنَّ هذه الأقدام التي تسعى لذكر سيّد شباب أهل الجنّة تُمثّل ناحية من أنحاء الارتباط بالله ورسول الله ﷺ فهو لا لم يذهبوا إلى لهو ولعب، ولا شكَّ أنَّ ذلك يغيض الكفّار الذين لا يريدون اسم رسول الله ﷺ ولا الحسين عليهما السلام ولا الآخرة ولا هذا النمط من مبادئنا، الكافر لا يفرح عندما يرى الأُمَّة الإسلاميّة محتشدة بهذا الشكل، إذن فإنَّ الله تعالى في كلِّ موطنٍ قدم يكتب لنا في هذه الزيارة عملاً صالحاً، فهنيئاً لهم، ولا أستطيع الآن أن أصف أو أن أعرب عمّا يجيش في داخلي من الانبهار بهذه الأقدام والشعب العراقي وغير الشعب العراقي، وعلى طول الطريق أدعو لهؤلاء الناس، (اللهمّ لا تدع لهم ذنباً إلا غفرته، ولا همماً إلا فرّجته، ولا سقماً إلا شفيتها، ولا حاجةً إلا قضيتها)، هؤلاء الناس يريدون إحياء ذكرى سيّد الشهداء.

كنت أقول لأحدهم: هذا المشهد لا يوجد مثله في الأرض ولا في السماء، فأين مشهد الملائكة وهؤلاء الناس الحفاة، ولا أستطيع عقد مقارنة، فالملائكة لا يصيبهم نصب، ولا ظمأ، ولا مخمصة، ولا تحدّي، ولا مواجهة إرهاب ولا عطش، فهذا مشهد لا مثل له في الأرض ولا في السماء.

الشيوخ أو النساء كم خطوة وكم قدم سعت حتّى وصلت إلى الإمام الحسين عليهما السلام، وأنَّ أقلَّ معدّل للمشي هو (١٠٠) كيلو متر من مختلف محافظات العراق فضلاً عمّن هم في خارج العراق، فسيكون المجموع (١٠٠/٠٠٠ متر)، وكلُّ متر (٣ أقدام)، أي إنَّ كلَّ واحد أصبح لديه (٣٠٠/٠٠٠) خطوة قطعها في هذا الطريق، أي (٣٠٠/٠٠٠) ذنب غفره الله، و(٣٠٠/٠٠٠) حسنة كُتبت له، و(٣٠٠/٠٠٠) درجة في الجنّة زُفّت له، ولا أريد التحدّث عن روايات أهل البيت عليهم السلام التي تقول: إنَّ زيارة الحسين ثوابها يعدل سبعين حجّة وعمرة، الذي ذكرناه في العام الماضي وثار الوهايون والمتطرّفون علينا وقالوا: إنَّ الشيعة يبالبغون ويريدون أن لا يذهب الناس لحجّ بيت الله الحرام، لندعه الآن جانباً، ولكن أليس القرآن الكريم يقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾ (التوبة: ١٢٠)، أي إنَّ كلَّ عطش وتعب وجوع يُسجّل لهم به عمل صالح، ثمَّ يُطوّر القرآن الموقف فيقول: ﴿وَلَا يَطْؤُنَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ

ثانياً: التراحم والمحبة:

وروح العطاء والبذل تنمو عند هؤلاء الناس، فأى تربية عظيمة هذه؟ وجيل كامل يتربى على العطاء والإيثار وصدقة السر. مرّت بنا مجموعة من الجنوب يشدون:

موسى عابس جتيته
كل الشيعة انجست
ودخلت عند حسينية من الحسينيات
ذات بناء حديث لمجموعة أهالي الشوافع من
ضواحي النجف الأشرف، وهم طبقة فقيرة،
وبعضهم بيوتهم من الطين، ولكن
حسينيتهم من السيراميك والبناء الحديث،
وناشدت كبيرهم أنه كم تُعطي من الطعام؟
فقال: اشتريت ثلاث جمال وأذبح واحداً كل
وجبة! وهؤلاء أناس فقراء.

القرآن يقول عن إبراهيم عندما ترك أهله
في البلد الحرام: ﴿فَجَعَلَ أَفْتِدَةً مِنَ النَّاسِ
تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، ورسول
الله ﷺ أعظم من إبراهيم عليه السلام،
والحسين عليه السلام أعظم من إسماعيل عليه السلام، فلم
يصب إسماعيل عليه السلام ما أصاب الحسين عليه السلام.
إذن القضية الهيئية، وهذه الملايين تهوي
أفئدتها إلى الحسين عليه السلام عشاقاً، ويتركون
عملهم ومحلّاتهم، والمُدُن في العراق أغلقت
أيام زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الأربعين.

فأى مشهد في العالم مثل مشهد خمسة
عشر مليون إنسان ليس بينهم إلا التراحم
 والمحبة؟ وكنت أتساءل أن هؤلاء وهم أتون
من مختلف أنحاء العالم الإسلامي مع
الصعاب المختلفة إلى جانب الخدمات
الكبيرة المطلوبة لهذا السفر الطويل، لكن
ليت أحد يُخبرني هل شهد مرّة واحدة مشادة
كلامية بين اثنين؟

كلّاً لم نشهد إلا المحبة والتراحم، وكلُّ
واحد مستعدّ لفداء الآخر بنفسه، وهذه رحمة
الله تعالى نزلت على هذا الشعب،
والحسين عليه السلام رحمة، وهذه نماذجها قلوب
عامرة بالمحبة.

ثالثاً: البذل والعطاء:

الذي هو فوق الوصف، من يُصدّق
ويستطيع أن يحسب الأرقام؟ وأقل ما نقول:
هناك عشرون مليون وجبة طعام تُقدّم
مجّاناً، فإذا افترضت أن معدّل أيام الزيارة
عشرة أيام، وفي كلّ يوم (٢٠ مليون) وجبة
طعام كلّها تبرّعات من الناس، فسيكون لدينا
(٢٠٠ مليون) وجبة طعام تُقدّم مجّاناً،
وأمثلتها الماء والفاكهة وما شاكل ذلك!

رابعاً: الوحدة والتواضع:

في هذا المسير ترى العالم الديني المقدس وترى الطبيب ورئيس الجامعة والمهندس والطفل الصغير والفقير والكاسب كلهم في نسق واحد ومواكب واحدة وموائد واحدة، هذه خدمة الحسين عليه السلام.

خامساً: تزكية القلب:

بالولاء لأهل البيت والمبادئ الأخلاقية، وتجد هؤلاء الناس ليست لديهم غيبة ولا كذب ولا سب ولا فحش ولا أنانية، وعلى طول الطريق إما تسيح أو استغفار إما الشكر لله إما الترحيب، والكلمة الطيبة صدقة، وهؤلاء (٢٠ مليون) دخلوا حَمَاماً للتزكية والتطهير وخرجوا أُنْقِيَاءً أطهاراً أولياء بحب الحسين عليه السلام.

سادساً: الصلاة:

وعلى طول الطريق هناك صلاة، والحسينيات المتصلة بعضها ببعض، والناس تتزاحم على (٥٠ متراً) لكي يبني له حسينية، عشق الحسين عليه السلام للصلاة انظروا ماذا فعل بالناس.

سابعاً: الإخلاص لله وصدقة السر:

أحدهم يُقَدِّم لك خدمة ولا يريد أن يعرفه أحد اقتداءً بالإمام زين العابدين عليه السلام الذي

كان يواظب على صدقة السر.

ثامناً: العلاقة بالآخرة:

ونحن مشينا في هذا الطريق فلا تسمع الأذن غير ذكر الله تعالى، ولا يسمع القلب غير ذكر الله وحب الله، لا وجود للشيطان، وهذا الطريق محفوف بالملائكة والانتقطاع إلى الله، هنيئاً للشباب، فلا يوجد في العالم مثل هذا المشهد، والله تعالى محيط بكل هذا الوضع، ما أن يضع قدمه بباب الدار إلى أن يعود الملائكة تحفُّ به وتستغفر له، الحديث يقول: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُبْعَثُ مَلَكًا يُسْتَغْفِرُ لَهُ عِنْدَ قَبْرِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»^(١١).

تاسعاً: التحدي والجهاد:

هناك معنويات عالية ورائعة جداً لا يوجد مثلها في العالم، وليس لدينا قتال، ولكن هناك تحدي، لأن أعداءنا تحدونا، ثلاث تفجيرات ذهب فيها أكثر من (١٢٠ قتيل) في كربلاء وباب الشام وديالى في هذا العام، إذن هذا تحدي، والعالم يظلل صاغراً أمام هؤلاء الناس وهم يودون أن يأتيهم الموت، بل يقولون للموت: أيها الموت أين تكون نأتيك، هذا الشعب وهذا الحسين عليه السلام، وهكذا يصنع حُب الحسين عليه السلام، وهذا

هذا الطريق، هذا بناء للأسرة وللمجتمع كله ببركة الحسين عليه السلام.

نعتبر هذا إعجازاً إلهياً ومعجزة الدهر في ذكرى العشرين من صفر، فكيف تتسع لهم الأرض في كربلاء؟ وأيُّ قلوب تلك التي تُحيط بنجوم السماء بسعة محبتها؟ تمشي على الأرض وقلوب الملائكة تسجد لها وتُقبلها، وأنواع الخدمات كل واحد منهم يتفتن في التقرب إلى الله تعالى، هنيئاً لهم وبارك فيهم، ولقد كان لدى الحسين عليه السلام (١٢ راية)، والآن الشعب العراقي رفع (١٢ مليون) راية في هذا الطريق، وهذه معجزة الدهر.

مواساة الحسين عليه السلام:

هؤلاء الزوار في كل هذا الطريق بينهم وبين الحسين عليه السلام لون من ألوان المواساة، البكاء على طول الطريق، وهذه دموع الحسين عليه السلام، ولهذا هذه الدمعة تُطفئ غضب الرب، والعطش وحراً الشمس والجهد وانحناء الظهر من التعب، وهذه مواساة مع الحسين عليه السلام يوم كان محنّي الظهر، «الآن انكسر ظهري».

لكن هذه السنة مواساة أخرى، والزوار

التحدي تربية لجيلنا والجيل الآتي، ويا لعظمة الحسين عليه السلام، روح التحدي مستمرة بهذه الأمة (١٤٠٠ عاماً)، كم جرى عليكم من قهر وذبح وقتل، لكن لم تتعبوا.

عاشراً: التوحيد:

فلا توجد قبليات ولا عنصريات ولا قوميات، فلا تقول له: أنت أعجمي، تركي، كردي، لا توجد قوميات، ممكن القبائل بينها تتقاتل، لكن بخدمة الحسين عليه السلام لو أن قاتلاً وأنت تطلبه وجاء في خيمة الحسين عليه السلام فعليك بخدمته بلا أنانيات.

الحادي عشر: التواضع الكبير بين الصغير والكبير:

الزائر لا يفترض نفسه أستاذاً ودكتوراً، بل هو كسائر الزائرين، وما شاكل، وهذه تربية عظيمة، وهذه السنة كان هناك قفزة في حضور النساء، ربّما كان حضور النساء أكثر من الرجال، ورأيت امرأة محدودة الظهر لا تستطيع أن ترفع رأسها للأعلى وتتوكأ على عصاها وتذهب لزيارة الحسين عليه السلام، فكم ستكون هناك محبة في داخل الأسرة الواحدة؟ وعندما يلتقون يتكلمون بجمال الحسين عليه السلام، والمعاني التي استلهموها في

الظاهرة المليونية طبعاً محصورة في العراق فعلاً وهي ظاهرة المشي، وإذا أذن الله أن يأتي ذلك اليوم وتحوّل إلى ظاهرة عالمية فسوف يأتي مشاة من باكستان وأفغانستان وكشمير والهند وحتّى من بلدان عربية وأوربية، وذلك ما سيكون بإذن الله تعالى.

هذه الظاهرة المليونية الكبرى التي مسرحها العراق لها أبطال:

البطل الأوّل: هو الحسين عليه السلام، وهو إنسان عاش قبل ألف وأربعمائة عام، وكان عصارة حركة الأنبياء عليهم السلام، الحسين عليه السلام سيّد شباب أهل الجنة، ومصباح الهدى، وسفينة النجاة، كما هو مكتوب على ساق العرش حسب رواية (فرائد السمطين) ^(١٢)، بطل هذه الظاهرة هو صانع ملحمة كربلاء، وهو عصارة حركة الأديان، فما من نبيّ من الأنبياء عليهم السلام إلا شاهد مسرح كربلاء، ووقع في سجّل المشاهدين، ومعترفاً للحسين عليه السلام بأنّه صانع الملحمة الإنسانية الكبرى من آدم إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبينا صلى الله عليه وآله وسلم الحسين عليه السلام الذي بكته الأنبياء وملائكة السماء، أي إنّ هذا الإنسان والبطل الأوّل في هذه الظاهرة يرسم ملحمة يشترك فيها أهل الأرض وأهل السماء، ولذلك بكته ملائكة السماء وملائكة الأرض، حيث تقول

في الطريق قبل أن يصلوا إلى كربلاء وإذا بعاصفة شديدة وغبار شديد ما أبقى أحداً من هؤلاء الزوّار إلا أغبر وجهه، وملاً التراب رأسه وحاجبه ولحيته، وتذكّرت شيئاً وقلت: هذا ليس طقساً طبيعياً، بل إرادة إلهية أنّ هؤلاء يدخلون كربلاء بهذا الغبار مثلما دخلت عائلة الحسين عليه السلام سبايا يوم الأربعين، ولا شكّ كان الغبار قد علا وجوههم وأبدانهم، الآن الشيعة يقولون للحسين عليه السلام: نحن أيضاً نأتيك ووجوهنا مغبرة، هنيئاً لنا ولهذا الشعب، وبارك الله بكم.

أبطال ملحمة الزيارة

اليوم يعيش العراق ظاهرة مليونية كبرى هي المشي لزيارة الحسين عليه السلام، وهذه الظاهرة لا مثيل لها في كلّ العالم، قلب طرفك يميناً وشمالاً فلن تجد مثل هذه الظاهرة في كلّ العالم، المسرح ليس هو دائرة كربلاء وحدها وإنما هو كلّ العراق، يلتحم من جنوبه إلى شماله، وتمتلئ روافده بمحبّة الحسين مشياً لزيارة الحسين عليه السلام.

طبعاً المسرح هو أكبر من العراق أيضاً، لكن حديثنا الآن عن العراق، قلوب الشيعة في كلّ العالم تتدفّق نحو الحسين عليه السلام، لكن حديثنا عن العراق بأنّه المسرح، وهذه

يتنافسون في العطاء والنفقة دون أن يأخذوا شيئاً، وكلٌ يريد أن يُعطي شيئاً كالماء والطعام وغيرها، وإذا لم يستطع أن يُعطي شيئاً يُعطي ماءً على الأقل.

٣ - التحدي، فلا يوجد في العالم ظاهرة تتكرر سنوياً منذ ألف وأربعمائة عام وبهذا الشكل، وليس فيها أرض مفروشة بالورود، وإنما فيها تحدٍّ ومواجهة موت وقتل وإرهاب وإعدام وسجون، أيُّ ظاهرة عجيبة هذه؟!

٤ - ظاهرة يشترك فيها الصغار والكبار، الرجال والنساء، ويشترك فيها حتّى العجزة غير القادرين على المشي. إنّ حجّ بيت الله الحرام يكون قدر المستطاع، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧)، لكن هذه الظاهرة المليونية العالمية يشترك فيها الصغار والكبار، حتّى غير المكلفين.

٥ - ما هي النفقة التي يتقدّم بها أبطال هذه المسيرة؟ مسيرة مئات الكيلو مترات، عادةً الإنسان في مسيرة من هذا القبيل يكون لديه نفقة وأمّوال وطعام وملابس يأخذها معه في مثل هذه السفرّة، لكن هذه السفرّة العظيمة الكبرى الإلهية البشرية ما هي نفقتها؟

الزيارة: «يا أبا عبد الله، لقد اقشعرتّ لدمائكم أظلمة العرش مع أظلمة الخلائق، وبكتكم السماء والأرض...»^(١٣)، أي بكت لبطل هذه الملحمة، أي ملحمة عظمى؟ إنّ صانع التاريخ والإنسانية هو الإمام الحسين عليه السلام، رسول الله ﷺ يقول: «حسين منّي وأنا من حسين، أحبّ الله من أحبّ حسيناً»^(١٤).

البطل الثاني: في هذه الظاهرة المليونية الكبرى هم شيعة الحسين عليه السلام، وهم بالخصوص شيعة العراق، على طول التاريخ منذ يوم ثار الحسين عليه السلام وسقط صريعاً شهيداً وإلى اليوم، إنّ أرض العراق وهي أرض السواد تشهد لشيعة العراق ما يصنعون في هذه الظاهرة المليونية الكبرى.

البطل الثاني له أدوات ووسائل عجيبة، وهي:

١ - المشي ولمسافات طويلة وبعضهم يمشي حافياً، هذه واحدة من الأدوات العجيبة التي لا يوجد في العالم مثلها ولا حتّى حجّ بيت الله الحرام، وهنا لا تجد طائرات ولا سيارات ولا مراكب، فالناس يقولون: تأتي إلى الحسين عليه السلام مشياً على الأقدام.

٢ - العطاء، هل رأيت في ظاهرة مليونية الناس يُعطون بدلاً من أن يأخذوا، بل

هذا المكياج، وهو غبار الزائرين.
وهناك تجميل ثانٍ أوجع للقلب، أنتم لا
تشاهدون واحداً من هؤلاء المشاة أبطال هذه
الظاهرة المليونية إلا وظهره منحني، ولمّا
يصل إلى كربلاء يوضع يده على ظهره من
التعب، هذه الظهر المنحنية هي تجميل
هؤلاء الأبطال، وهو مواساة للحسين عليه السلام
حينما قال يوم عاشوراء: «الآن انكسر
ظهري، وقلّت حيلتي»^(١٥)، يقولون: يا
حسين، إذا كان يوم عاشوراء قد انكسر
ظهرك، فما هي ظهورنا فداء لك.

وهناك تجميل ثالث في هذه الظاهرة
المليونية، هو أنكم لا تجدون زائراً من زوّار
الحسين عليه السلام إلا وهو يشكو العطش في
الطريق، وهو مواساة للحسين عليه السلام حينما خرّ
صريعاً وهو يقول: «يا قوم وحقّ جدّي أنا
عطشان»، المشاة يقولون للحسين عليه السلام: يا
أبا عبد الله، إذا كنت عطشاناً يوم عاشوراء،
فنحن مثلك اليوم عطاشي ونواسيك بجفاف
ألسنتنا وشفاهنا.

المشهد الإعجازي لزيارة الإمام الحسين عليه السلام

يعيش العراق اليوم قطعة واحدة وميداناً

أبها العالم والمشاهدون والإعلام، ما هي
نفقة هؤلاء المشاة؟ هل يحملون مالا؟ هل
يحملون متاعاً؟ هؤلاء نفقتهم شيء واحد،
يقولون للحسين عليه السلام: يا أبا عبد الله، أنت يوم
عاشوراء أعطيت روحك للدين وأعطيت أهلك
وأولادك ومهجتك، نحن نفقتنا في هذه
المسيرة الكبرى هي أرواحنا نُعطئها
لحسين عليه السلام، «يا أبا عبد الله، لئن لم يجيبك
لساني عند استغاثتك فقد أجابك سمعي
وبصري ولحمي ودمي وعروقي»، الأرواح هي
نفقة هؤلاء الأبطال من شيعة العراق.

وهناك شيء آخر يستخدمه الفنانون في
المسرح يُسمّى المكياج، أي التجميل،
هؤلاء الأبطال شيعة العراق المشاة
لحسين عليه السلام ما هو تجميلهم؟ نعم لهم
تجميل عظيم، وهو الغبار الذي يعلو وجوههم
وأبدانهم وملابسهم، يقولون: يا حسين، يا أبا
عبد الله، يوم عاشوراء غطّاك التراب، نحن
أيضاً يُعطئنا الغبار في طريقنا إليك.

عُربانُ يكسوه الصعيْدُ ملابساً
أفديه مسلوبَ اللباسِ مُسربلاً
متوسّداً حرّ الصُّخورِ معفراً
بدمائه تَرَبَ الجبينِ مُرملاً
كُلُّ واحدٍ من زوّارِ الحسينِ عليه السلام عليه

أهل البيت، بينما غيرنا يتختم باليد اليسرى. وزيارة الأربعين.

واليوم تقف أمام مشهد إعجازي، والمعجزة تعني ذلك الحدث الذي لا يمكن تفسيره وفق العوامل الطبيعية كتكلم طفل في مهده، وهذا لا يمكن تفسيره بالذكاء والنبوغ، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ * قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً * وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً * وبراً بالديني وكم يجعلني جباراً شقيماً ﴿ (مريم: ٢٩ - ٣٢)، إنسان قد عرف الدنيا والآخرة وهو طفل في المهدي عمره يومان أو ثلاثة لا يمكن تفسيرها بعوامل وقوانين طبيعية.

والآن إذا جئنا إلى مشهد زيارة الإمام الحسين عليه السلام في الأربعين، وهنا حالة شبه إعجازية، بل مشهداً لا يمكن تفسيره بالعوامل الطبيعية، فنشهد أكثر من عشرة ملايين إنسان من مجموع ثلاثين مليوناً من أبناء العراق اندفعوا مشياً على الأقدام، ولو أعطيت لهؤلاء الناس ملايين الدنانير وقلت: اذهبوا وحدكم من البصرة إلى كربلاء في سائر الأيام لا أحد يفعل هذا الفعل، ولا يمكن

واحداً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام، ونحن نؤكد أن ما نشهده هنا هو مشهد إعجازي وليس مشهداً طبيعياً ولا بالقدرات الطبيعية، ففي الرواية التي يرويهما الشيخ الطوسي رحمه الله في كتاب التهذيب عن الإمام العسكري عليه السلام يقول:

«علامات المؤمن خمس: الجهر بيسم الله الرحمن الرحيم، وصلاة الواحد والخمسين، وتعفير الجبين، وزيارة الأربعين»^(١٦)، بمعنى أننا في الصلاة حينما نقرأ سورة الحمد فإننا نجهر بقراءة البسملة بينما المذاهب الأخرى لا يجهرون بـ (بسم الله الرحمن الرحيم). وتعفير الجبين بالتراب عند الشيعة ربّما لأننا نسجد على التراب وغيرنا لا يسجد على التراب بل على الفرش والسجاد، وربّما هو إشارة إلى كثرة السجود عند شيعة أهل البيت وهو من المستحبات الأكدية والمهمّة. وصلاة الواحد والخمسين أي صلاة النافلة إضافة إلى صلاة الفريضة، وهذا مستحب أكيد، وأقل ما يصلي الإنسان نافلة الصبح ركعتان ويصلي صلاة الليل ولو ركعة واحدة وهي ركعة الوتر، أي نتعوذ على شيء من النافلة وليس فقط الفريضة. وهكذا التختّم باليمين، وهو المستحب عند شيعة

المحافظة وهذا من تلك كلِّها ساروا في طريق الحسين عليه السلام.

ولا توجد هنا دولة تحمي وتتكفل بمؤن هذه الزيارة، في الحجّ توجد دول في ماليزيا وغيرها عندما يُولد الطفل يستقطع من نفقته الحكومية توضع له بالبنك يجدها عندما يكون جاهزاً للحجّ، في هذه السنة رأينا في أندونيسيا أضخم مسجد في جاكرتا اسمه مسجد الاستقلال، وفيه زاوية مخصّصة بمئات الأمتار مهياً لمراسيم تدريبية للحجّ وعلى طول السنة، بينما في هذه الزيارة المليونية للحسين عليه السلام لا توجد دولة أو جهة تُخطّط ومسؤولة عن هذا الأمر. وهنا أيضاً لا توجد تجارة في زيارة الحسين عليه السلام، وهناك في الحجّ توجد زيارة ومنافع ومكاسب مادية، وبعض الحجاج ممّن يذهب لمكاسب ومنافع وغيرها. وهنا أيضاً إرهاب وتضحية في مواجهته والناس يتقدّمون لزيارة الحسين عليه السلام سواء كان الوضع آمناً أو كان مضطرباً، وهذه من عجائب الدهر ولم تنقطع زيارة الحسين عليه السلام، وهذا غير موجود في مسيرة الحجّ. وهذه القضايا تجعلنا لا نستطيع أن نفسّر هذا المشهد تفسيراً طبيعياً، وهذه السنة استقبلنا زوّاراً ليسوا من

أن يغامر به أحد، ولكن هنا مع قضية الحسين عليه السلام تجد اندفاع الملايين مشياً على الأقدام، ولا يوجد هناك سياحة ومصايف وغيرها وإنما الغبار وحرّ الشمس اللاهب أو البرد القارس في العراق، وهذا هو الواقع ولا توجد مشوّقات مادية، مع ما نشهده من البذل والعطاء العجيب، ففي الحجّ نشهد مليوني زائر من كلِّ العالم، وهنا في العراق من دولة واحدة نشهد عشرة ملايين زائر، وبالمجمل تستغرق الزيارة عشرة أيام بعضهم خمسة عشر يوماً في ثلاث وجبات في اليوم الواحد على الأقلّ تكون لدينا ثلاثمائة مليون وجبة طعام بالمجان والناس يتسارعون لبذلها. وعشرة ملايين إنسان يجب أن يُهيأ لهم خدمات ومبيت فضلاً عن عشرات آلاف من الكوادر البشرية الذين يخدمون هذا الجمع الغفير. كما لا توجد حوادث في مثل هذه الزيارة العجيبة من حرائق وسرقات ومعارك واقتتال بين هؤلاء وهؤلاء، في هذا الحشد العجيب والمسيرة التي تكون بطبيعتها مليئة بالاحتكاكات لكن هؤلاء كأنّ يداً من فوق السماء مسحت على قلوبهم فجعلتهم أخوة أحبّة يتبارون في خدمة الواحد للآخر، وتزول كلُّ العناوين الأسود والأبيض، وهذا من هذه

عبد الله بن حمّاد، عن إسحاق بن عمّار، يقول: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام: جعلت فداك يا ابن رسول الله، كنت في الحائر الحسيني ليلة عرفة، فرأيت نحواً من ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف رجل جميلة وجوههم طيبة ريحهم شديد بياض ثيابهم يصلّون الليل أجمع، ولقد كنت أريد أن أتّي القبر وأقبّله وأدعو بدعوات، فما كنت أصل إليه من كثرة الخلق، فلما طلع الفجر سجدت، فلما رفعت رأسي لم أر منهم أحداً؟

فقال لي أبو عبد الله عليه السلام: «أتدري من هؤلاء؟».

فقلت: لا.

فقال عليه السلام: «أخبرني أبي، عن أبيه، قال: مرّ بالحسين عليه السلام أربعة آلاف ملك، فخرجوا إلى السماء، فأوحى الله تعالى إليهم: يا معشر الملائكة مررتم ببن حبيبي وصفيي محمّد، وهو يقتل ويضطهد مظلوماً، فلم تنصروه، فانزلوا إلى الأرض إلى قبره، فابكوه شعثاً غبراً إلى يوم القيامة». قال إمامنا الصادق عليه السلام: «فهم عنده إلى أن تقوم الساعة»^(١٧).

والنساء والرجال والأطفال نراهم اليوم يتدفّقون كالسيل، والتعداد السكاني للعراق

العراق من الهند والباكستان وغيرهم ولا ندري كيف تتّسع الأرض بعد فترة لملايين الزوّار من دول أخرى.

وفي كلام لنا في العام الماضي كتبت علينا مواقع وهابية أنّ كربلاء مدينة قديمة وصغيرة لا تتّسع لنصف مليون، فكيف تقولون: إنّها اتّسعت لعشرة ملايين إنسان؟ ونقول: نعم، إنّ هذا الأمر ليس طبيعياً، وندعوهم أن يأتوا إلى العراق ليروا صحّة كلامنا.

هذا على مستوى التحليل، أمّا إذا جئنا على مستوى الروايات ماذا تقول روايات أهل البيت عليهم السلام التي تؤكّد أيضاً أنّ هاهنا مشهد غير طبيعي وما وراء الأرض، إرادة الله تعالى، وفي الحجّ حيث نشهد مؤتمراً إسلامياً مباركاً، نعم هو دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿فاجعل أُمَّةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ (إبراهيم: ٣٧)، لكن دعاء رسول الله ﷺ لولده الحسين عليه السلام يصنع مثل هذا الأمر، ونعتقد أيضاً في ثقافة أهل البيت أنّ المسألة إعجازية.

أحببت أن أقرأ لكم رواية يرويها صاحب كامل الزيارات، وهي رواية معتبرة من حيث السند يرويها القاسم بن محمّد بن عليّ بن إبراهيم، عن أبيه، عن جدّه، وكلّهم ثقة، عن

قضية تلهم الأجيال ومعاني الإياء والبطولة والمواساة والدين والصلاة والعطف والحنان، تلك إرادة الله تبارك وتعالى، والحمد لله الذي وفقنا لرؤية هذه الأيام، والحمد لله الذي جعل العراق مباركاً بالحسين عليه السلام، والحمد لله الذي جعل عيوننا تقرأ برؤية هؤلاء الزوّار من كل العالم وهم يأتون للحسين عليه السلام.

ولكن هناك مشاهد تشابه بين هؤلاء الزوّار وبين مشاهد كربلاء، منها: مشهد انحناء الظهر، وكل من يصل إلى كربلاء يصل منحنى الظهر، وهذا جانب مواساة من حيث لا ندري، وهذه إرادة الله تعالى كي نُقلد الحسين عليه السلام في يوم عاشوراء الذي كان منحنى الظهر، وكل الزوّار من حيث أرادوا أو لا يريدون أقواهم وأكثرهم فتوة لا يدخل كربلاء إلا وهو منحنى الظهر.

كذلك لا يوجد زائر عربي أو أعجمي لا تذرف عينه الدمع للحسين عليه السلام، والحسين عليه السلام بكى في كربلاء، وفي يوم عاشوراء كان وجهه عليه السلام مغبراً، والناس يذهبون للحجّ بأفضل الملابس وأجمل الأحوال معطّرين، لكن زوّار الحسين عليه السلام شعثٌ غبرٌ، ذلك الوجه الذي جعل له وسادة من التراب وهو سيّد شباب أهل الجنة وعلاه

لا يسمح بهذا العدد، والإمام الصادق عليه السلام يقول: «والله كأني بالملائكة قد زاحموا المؤمنين على قبر الحسين عليه السلام»^(١٨).

وهذا التزاحم طول السنة على قبر الحسين عليه السلام، وهذا التزاحم لا نستطيع أن نُفسّره تفسيراً طبيعياً، بل نُفسّره كما نُفسّره الروايات تفسيراً غيبياً بإرادة الله تبارك وتعالى.

وفي الرواية عن العقيلة زينب عليها السلام أنّها قالت للإمام السجّاد عليه السلام حينما انتقلوا من كربلاء باتجاه الكوفة وهم أسارى:

(ما لي أراك تجود بنفسك يا ابن أخي، إنّه لعهد معهود من جدك إلى أبيك، وإنّه سيأتي أقوام لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض ينصبون لأبيك الحسين علماً لا يمحى أثره على مرّ الدهور وكرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة على محو أثره فلا يزداد إلا علواً)^(١٩).

إذن نحن أمام عهد إلهي كما أنّ البيت الحرام هو عهد إلهي، إنّ الله تعالى عهد أن يُبنى له في هذه الأرض بيتاً هو الكعبة، وهذه إرادة إلهية وعمل الغيب وليس عمل الإنسان، ومع الحسين عليه السلام أيضاً تدخلت يد الغيب لتصنع من الحسين عليه السلام رمزاً أبدي الدهر، ولتصنع من قضية الحسين عليه السلام

وكنت أتأمل هؤلاء الزائرين وهم يمشون من أين لهم هذا الاندفاع الهائل الذي لا يعيقه ألم، ولا تعب، ولا حرارة شمس، بل يتقدمون بسرور وبهجة كأنهم ماضون إلى الجنة؟ ذلك أن هناك نظرة من العرش شملتهم جميعاً، وهي التي أعطتهم هذه الطاقة الهائلة من الحياة والاندفاع والمشى والسرور والبهجة والعبادة والإيمان، وعرفتهم هذه النظرة بأسمائهم وأسماء آبائهم وأمهاتهم أكثر ممّا يعرف المرء نفسه، تقول الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ الحسين عليه السلام عند ربّه ينظر إلى زوّاره، وهو أعرف بهم بأسمائهم وأسماء آبائهم ودرجاتهم ومنزلتهم عند الله من أحدكم بولده، وإنّه ليرى من يبكيه فيستغفر له ويسأل أبائه عليه السلام أن يستغفروا له» (٢٠).

ويقول عليه السلام: «لو يعلم زائري ما أعدّ الله له لكان فرحه أكثر من جزعه، وإن زائره لينقلب وما عليه من ذنب» (٢١).

الشمس حينما تطلع على الإنسان والحيوان والنبات والطبيعة تُعطي الحياة، وهذا البدن يجب أن يتعرّض إلى أشعة الشمس ليكتسب العافية والطاقة والحياة، والشمس وهي كتلة نارية عمياء لا أكثر من

غبار ورمل كربلاء، والآن الملايين يواسون الحسين عليه السلام أنّ مثلما وجهك متربّ يا أبا عبد الله كذلك ندخل عليك ووجوهنا متربة. لكن هناك شيء آخر لا أحد يستطيع أن يواسي به الحسين عليه السلام، وهو العطش، فالحسين يوم عاشوراء كان عطشاناً، وعندما نذهب إلى الزيارة كلّ الماء باسم الحسين عليه السلام وهو عطشان وعريان يكسوه الصعيد ملابساً.

مصدر الطاقة:

السؤال يقول: من أين هذه الطاقات الهائلة للناس والرهمة العالية جداً لزيارة الإمام الحسين عليه السلام؟

وهذا الأمر لا يمكن أن تصنعه عوامل مادية، وهي ليست حالة واحدة ولا مائة ولا ألف ولا مليون، الإحصائيات الصحيحة هذه السنة قدرت الزائرين بخمسة عشر مليون زائر وفدوا على مرقد الإمام الحسين عليه السلام، وهذا الرقم يبدو غريباً وخيالاً، لكن (وما راء كمن سمعا)، وصحيح أننا استقبلنا في هذا العام أكثر من (٢٠٠ ألف) زائر أجنبي، ولكن البقية الباقية كلهم من العراق وهم مشاة على الأقدام.

والشرطة والجيش والدفاع المدني والنقل والصحة، أمر مذهل أن تجد الصحة والشرطة حاضرة وتقفوا أن نقل الناس إلى محافظاتهم لا يكتمل بشهر، لكن خلال (٢٤ ساعة) خلت كربلاء من هؤلاء الزائرين، والعالم غير قادر على تصوّر ذلك، وكلمة شكر لكل الأجهزة، ونحن فخورون بهم، ومضت المسيرة الكبرى بسلام وبركات وبأرزاق، وهنيئاً لمن شارك، وكثيراً رأيت من يقول: أنا في بيتي غير مستعدّ لتنظيف أرضيته، ولكن في هذه المسيرة نغسل أرجل الزوّار والمرافق الصحية، فمبارك هذه الروحية الأخلاقية العظيمة والتفاني الهائل دون أن يعرف من هو الزائر ولا محافظته، والحمد لله هذا أمان لنا، والحسين عليه السلام هو الذي خلّصنا من الأزمات، وبركة الحسين عليه السلام تخلّصنا وعبرنا مرحلة الشدائد.

والبحث له صلة واتّساع في بركات هذه الزيارة اقتصادياً ومعنوياً وسياسياً وتربوياً وأخلاقياً ودينيّاً، ونحن الآن نعيش في بحبوحة البركات، ولا كما يقول البعض: إنّ هذا تعطيل للعمل وتأخّر اقتصادي وما شاكل ذلك! بل البركات الهائلة في العراق هي من الحسين عليه السلام، واقتصادنا بالحسين عليه السلام أفضل.

ذلك، واليوم العالم يُطبّب الناس بالأشعة السينية، فكيف إذا تصوّرنا أنّ هناك نظرة إشعاعية من عند العرش، وهذه النظرة الممتدّة التي لا يمكن أن تقاس مسافتها ولا نعرف معنى أشعتها وأماجها حينما تشملك أنت أيّها الزائر ستُعطيك زخماً تتقدّم به مئات الكيلومترات لزيارة الإمام الحسين عليه السلام.

كنت أقول وأنا أشهد هؤلاء الناس الكرام عند الله تعالى وهم يفدون لزيارة الحسين عليه السلام، كنت أخطبهم وأقول: (السلام عليكم يا أشرف الشعوب، السلام عليكم يا أفضل الشعوب، السلام عليكم يا فخر الشعوب، رسول الله ﷺ يفخر بكم، والحسين عليه السلام يفخر بكم، السلام عليكم يا من اختاركم الله فجعل الحسين عليه السلام عندكم وفي جواركم)، ولا فخر حينما نقول: (يا أفضل الشعوب)، ولا نريد أن نتفاخر، لكنّه فضل من الله تعالى نريد أن نشكره، أيّ شعب عظيم صنع هذه المعجزة وهم يتحدّون كلّ العالم وكلّ الصمت العالمي وكلّ الإرهاب والأزمات والمشاكل؟ ليقولوا: نحن مع الحسين عليه السلام، ولا ننساه، وهيئات منّا الذلّة.

ولا بدّ من شكر الدولة وأجهزتها

زيارة الأربعين وشبهات الوهابية

ونحن نقف في هذه الأيام في مرحلة الإعداد لزيارة الأربعين للإمام الحسين عليه السلام حيث يتهيأ شيعه أهل البيت عليهم السلام في العراق لإنجاز ملحمة بطولية أخرى بعد الملحمة الجماهيرية الملائكية التي حققوها في محرم الحرام، الآن يستعدون لإنجاز ملحمة أخرى في هذه الذكرى وفاءً لرسول الله صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام وسيُنجز ذلك بأحسن حال، وستشترك معهم ملائكة السماء، كما تقول الروايات، ومما هو ثابت أن الملائكة يزاحمون الناس في الطريق، ورواية أخرى تقول: «إنهم يمسخون وجوه الزوّار».

وليعرف الملاً والعالم أننا نتعامل مع سيّد شباب أهل الجنّة، وليس مع إنسان عادي، مع من بكنه السماوات والأرض، ومن بكاه رسول الله صلى الله عليه وآله والأنبياء.

إذن من الطبيعي أن تبيكه السماوات والأرض، ويشترك الملايين في زيارته، ونشهد تحوُّلاً عالمياً نحو الحسين عليه السلام، والحسين عليه السلام يتحرّك في العالم.

ولكن أريد أن أقف عند مناقشة فكرية، فهناك فكر يُكفر مراسيم هذه الزيارة بشكل علني، ويُقدّم طرحاً - لنقل - علمياً، وأذكر هنا

استدلالات الشيخ عبد العزيز بن باز المفتي الأسبق للمملكة العربية السعودية بزعمه استدلالاً على أن هذه الزيارات كلّها حرام وبدعة وفي النار، وكلّها شرك، ويبدأ أولاً بزيارة رسول الله صلى الله عليه وآله.

أدلة ابن باز على حرمة الزيارة للعتبات المقدّسة:

سأله شخص سؤالاً: هل يجوز زيارة النبي صلى الله عليه وآله؟
يقول: لا يجوز ذلك.

فتصوّرُوا لولا أهل البيت وشيعه أهل البيت إلى أين هؤلاء كانوا يوصلون الإسلام. فلنتأمّل في كتابه (حراسة التوحيد) الذي يقول فيه: لا يجوز السفر لزيارة النبي صلى الله عليه وآله ناهيك عن زيارة الحسن والحسين عليهما السلام.

أمّا الأدلة التي يتعامل معها هؤلاء وينصبون منبراً للوعظ والإرشاد في مسجد صلى الله عليه وآله والمسجد الحرام، ويحدّثون الناس ويتهمون المسلمين بالكفر والشرك وما شاكل ذلك.

وبجراً على الله تعالى يقول: لا يجوز السفر لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وآله مستدلاً على ذلك

بثلاثة أدلة:

الدليل الأول:

ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاث: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى».

مدعيًا أن كل سفر عدا ذلك هو بدعة وشرك وفي النار، لأنَّها من محدثات الأمور. إذن يجوز السفر لمسجد النبي ﷺ، لكن لا يجوز السفر إلى قبر النبي ﷺ.

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ﴾ (الأحقاف: ١١)، يقول: هذه الزيارات لم نألفها نحن في زمن النبي ﷺ ولا في زمن الخلفاء ولا الصحابة، لم يكونوا يسافرون ويشدُّوا الرحال لزيارة قبر النبي ﷺ ولا أيِّ قبر آخر، وبما أنَّهم أفضل الناس، فلو كان هذا العمل صحيحاً لقاموا به بدليل قوله: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ﴾.

إذن هذا ليس خير فهو شرٌّ، وإذا كان شرٌّ فهو بدعة وفي النار.

الدليل الثالث:

إنَّ هذا السفر وهذه الزيارات تُحاط بكثير من المحرّمات مثل: الغلو، واختلاط

الرجال بالنساء، واستماع الأغاني، وبما أنَّها تختلط بكثير من المحرّمات فإنَّها تكون سبباً في الحرام، وبالتالي فهي في النار.

هذه هي أدلتهم، وإلى الآن في كتبهم، ليس لديهم غير هذه القضية، فلا نرى لديهم حرباً ضدَّ الفساد الإداري، أو الانحراف الفكري، أو الغزو الثقافي، أو الاستهتار، أو التبرُّج، أو الشذوذ الجنسي، وما غزا العالم الإسلامي من أفكار منحرفة، فلو كان كذلك لقلنا: إنَّ هؤلاء يريدون الدفاع عن الإسلام، ولكن كتبهم ليس فيها غير قضية الزيارة والدعاء عند القبور.

جواب أدلّته وشبهاته:

جواب الدليل الأول:

هذه الأدلة التي أوردها هي أدلة سقيمة علمياً، فقول النبي ﷺ - بعد القبول بثبوته -: إِنَّهُ لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثِ مَسَاجِدَ، فهل أنَّ مقصوده ﷺ حرمة أيِّ سفر آخر؟ وإذا كان كذلك إذن لا يجوز السفر للسياحة، ومعلوم أنَّ المملكة العربية السعودية تُعطل العطلة الصيفية ومئات الآلاف منهم ينزحون للسياحة في أوروبا والعالم الإسلامي، يسافرون للتجارة وإلى غيرها، فيجب أن نقول على

للمؤمنين، لأن الكفرة والمشركين كانوا يقولون: إن التوحيد لو كان خيراً ما سبقونا إليه الطبقة السفلى من الناس، وعبد العزيز بن باز كان يستشهد بكلام أولئك الكافرين، فهل صحيح أن كل ما لا نشهده في سيرة الصحابة هو بدعة؟!

مرة نقولون: غير مستحب، ليست هناك مشكلة، أما أن يتطور الموقف وتقول: بدعة وكل بدعة في النار، نحن الآن نؤسس جامعات دينية، وكذلك المملكة العربية السعودية تؤسس جامعات دينية لتخريج الفقهاء والدعاة والمرشدين.

فهل هي موجودة في زمن النبي ﷺ والخلفاء؟ أنتم الآن تؤسسون هيئة علمية للإرشاد والإفتاء، وهي لم يكن لها وجود في زمن النبي ﷺ، فقد كان يجلس في المسجد ويُعطي الفتوى.

وهكذا بالتطور الإداري والسياسي والمدني قُدمت آلاف المشاريع التي لم تكن يومئذٍ - فضلاً عن القضايا التجارية والسياسية والاقتصادية - على المستوى الديني، فلو كان هكذا يجب أن نعتبر أن معظم حركات علماء الإسلام والأمة الإسلامية هي كلها بدعة وفي النار، من الدراسة الابتدائية إلى

هذا السفر: إنه حرام!

ولكنهم يسكتون عن هذا، بل غرضهم واضح وهو المنع عن زيارة النبي ﷺ وأولاده، ولا يتحدثون عن ملايين المسلمين الذين يسافرون لأغراض تجارية وسياحية وعلمية وما شاكل، حتى لصلة الرحم.

والحقيقة أن هذا تحجر في فهم النصوص، ورسول الله ﷺ - على تقدير أن هذه الرواية صحيحة - يريد أن يقول: إن أعظم المساجد الثلاثة: مسجد النبي، والمسجد الأقصى، والمسجد الحرام، أما الباقي فدونها في الفضل، ولا تستحق أن يُشد الرحال إليها.

لنفترض أن هذا أقصى ما يُستفاد من الحديث، لكن هذا التطور من التحريم إلى الاتهام بالبدعة ثم الشرك، ولنفترض أن هناك ذنوب، فهل كل من يذنب يُتهم بالشرك؟

هذا هو العقل المتحجر، وتهزيم الناس من الإسلام بهذه الطريقة.

جواب الدليل الثاني:

﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقْنَا إِلَيْهِ﴾، من الغريب أن هذا النص هو للكافرين وليس

حركة بشكل يقيني أو احتمالي تكون مخلوطة بحرام؟

مثلاً القرآن يقول: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة: ١٠٢)، ولكن هذا لا يحرّم العمل الصالح، فيبقى العمل الصالح صالحاً.

أمّا قطع الناس عن الأعمال الصالحة بهذه الحجّة، ويكون كلُّ عمل تجاري أو دراسي - أيضاً - مخلوطاً بالحرام، فهل يقول الإسلام: إنّ العمل والتجارة - أيضاً - حرام؟

فإذا كان البيع قليل من الحرام، فلا يحرم جميع التجارة والأموال والعمل والكسب، وقس على هذا!

معلوم أنّ لدينا ثقافتين: ثقافة قطع الصلة بالتاريخ، وثقافة تأكيد الصلة بالتاريخ، وثقافتنا وثقافة كلّ المسلمين باستثناء الوهابية، هي التواصل مع التاريخ.

أمّا ثقافة الوهابية فهي قطع الصلة بالتاريخ، فلا زيارات ولا ذكريات، ولا ذكرى ميلاد رسول الله ﷺ ولا مبعث النبي ﷺ، وهذا كلّه شرك وفي النار، هذا منهجهم، وهذا مقصودهم.

ونحن نعتقد أنّ الأمة التي لا تاريخ لها، لا حاضر ولا مستقبل لها، ومنهج القرآن

الجامعات إلى الوزارات إلى البعثات والإدارات والمديريات وصولاً إلى التقدّم التقني والراديو والتلفزيون، فالتقدّم والتكامل البيئي ليس له علاقة، فهل يجب أن نلبس ونأكل مثلهم بلا تغيير؟

إنّ هذا تحجّر في الفهم الديني للنصوص، والشيخ ابن باز لا ندري كيف كان يتعامل؟ فهل كان يكتب على جلد الغزال؟ أو يكتب بالقصب؟ أو يستخدم هذه الأدوات الحديثة في الكتابة والاتّصالات؟ أم باقون على الطريقة السابقة؟

وأقول: لولا ضغط السلطة لبقوا على الطريقة القديمة ويحرّمون كلّ شيء حتّى الكهرباء!

جواب الدليل الثالث:

الذي يدّعي بأنّ هذا السفر وهذه الزيارات تُحاط بكثير من المحرّمات، مثل: الغلو، واختلاط الرجال بالنساء، واستماع الأغاني، وبما أنّها تُخلط بالمحرّمات تكون سبباً في ارتكاب الحرام، إذن هي في النار.

ونحن نقول: على هذا الأساس يجب أن يكون الحجّ - أيضاً - حراماً، وكذلك زيارة مسجد النبي ﷺ، فهي مختلطة، فهل كلّ

□ سماحة السيد صدر الدين القبانجي

يعني ارتباطنا بالحسين عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله. من هنا يأتي التأكيد مرّة بعد أخرى على أهميّة هذه الزيارات، وتشاهدون أنّ لدينا ثقافة خاصّة لهذه الزيارات، والإسلام هو الذي رسّخها بنا وعند الشيعة هي الأقوى، وعند الإخوة السنّة موجودة - أيضاً - ثقافة التواصل مع الأئمّة وأولاد الأئمّة، ومع الصالحين، وأئمّة الهدى، فهي ثقافة موجودة، وليست بدعة وشرك، بل ارتباط بالتاريخ، ولهذا من أراد أن يصفحه مائة وأربع وعشرون ألف نبيّ فليزر الحسين عليه السلام.

الكريم والإسلام وأهل البيت عليهم السلام منهجه لنا أن نبقي على ارتباط بالتاريخ، فنحن أمة ليست مقطوعة من التاريخ، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ هَذَا يَعْنِي أَنَّ لَدَيْكُمْ تَارِيخٌ فارتبطوا به، وأنّ أمة بدون تاريخ تُسْتَرَقُّ وتُصَادَر، وهؤلاء يريدون أمة قابلة للرقّ والمصادرة، وأهل البيت عليهم السلام يريدون ممّا أن ترتبط بالتاريخ، وارتباطنا بالإمام الحسين عليه السلام ليس ارتباطاً بتاريخ مضى، بل هو ارتباط بقيم مستمّرة على طول تاريخ البشرية، وهذا

الهوامش:

- (١) روضة الواعظين: ١٩٥.
- (٢) كامل الزيارات: ١٢٧/ ح ١٤١.
- (٣) كامل الزيارات: ١٢٧/ ح (١٠/١٤١).
- (٤) كان ذلك عام (١٤٣٢) للهجرة.
- (٥) كامل الزيارات: ١١٣؛ وسائل الشيعة ١٤: ٤٧٠؛ إقبال الأعمال ٣: ٣٣٩؛ البحار ١١: ٥٨.
- (٦) المنتخب للطريحي: ١٤٦؛ مدينة المعاجز ٢: ٨٦.
- (٧) حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله أخرجه ابن ماجه/ رقم الحديث ٩٢٥؛ وأحمد في مسنده ٦: ٢٤٩ و ٣٠٥ و ٣١٨ و ٣٢٢.
- (٨) للشاعر حيدر الحلبي.
- (٩) عام (١٤٣٣) للهجرة.
- (١٠) بحار الأنوار للمجلسي ٩٨: ١٤٣؛ كامل الزيارات: ١٣٣.
- (١١) بحار الأنوار للمجلسي/ كتاب الزيارة؛ مدينة المعاجز للسيد هاشم البحراني/ ح ٣.
- (١٢) فرائد السمطين ٢: ١٥٢/ باب ٣٤/ ح ٤٤٥.
- (١٣) إقبال الأعمال: ٣: ٣٤٢.

□ زيارة الأربعين المشروعية والأبعاد الرسالية

- (١٤) الإرشاد ٢: ١٢٧؛ مستدرك الحاكم ٣: ١٧٧.
- (١٥) وذلك لَمَّا قُتِلَ أخوه أبو الفضل العباس عليه السلام، انظر: بحار الأنوار ٤٥: ٤٢.
- (١٦) جاء في مستدرك الوسائل للنوري: ٢١٥/ باب ٩٤.
- (١٧) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٩٨.
- (١٨) كامل الزيارات لابن قولويه: ٢٥٩.
- (١٩) مقتل الإمام الحسين عليه السلام للمقرّم.
- (٢٠) كامل الزيارات: ١١٨؛ أمالي الشيخ الطوسي: ٣٤.
- (٢١) بحار الأنوار للمجلسي / ج ٤٤.

دور المرأة في الثورة الحسينية (زينب عليها السلام أنموذجاً)

د. أمل سهيل عبد الحسيني

جامعة كربلاء / كلية العلوم الإسلامية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على اشرف الانبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعن الدائم على اعدائهم الى قيام يوم الدين، وبعد:
فان مقاطع كثيرة من تاريخ الإسلام تشهد للدور المؤثر والمصيري للمرأة في مختلف المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية، بل وحتى العسكرية منها. وقلما نجد برهة من التاريخ لم تشهد نساء يعتلين قمم العظمة والعفاف والعرفان والايثار والدفاع عن القيم وتثبيت الاديان الالهية ومواجهة الظلم.

نعم... شهد التاريخ حضوراً نسائياً فعالاً لبعض النساء الى جانب الأنبياء والأوصياء كالزهراء عليها السلام، وقبلها كانت أمها خديجة الكبرى أم المؤمنين عليها السلام، بعدما تربعت على عرش

الجملة، إذ قال: (صدق علي في قوله؛ نحن أهل البيت لا يقاس بنا احد، وكيف يقاس بقوم منهم رسول الله، والاطيبان علي وفاطمة، والسبطان الحسن والحسين، والشهيدان حمزة وذو الجناحين جعفر، وسيد الوادي عبد المطلب، وساقى الحجيج العباس، وحليم البطحاء والنجدة، والخيرة فيهم الأنصار من نصرهم، والمهاجرون من هاجر إليهم، ومعهم، والصديق من صدقهم، والفاروق من فرق بين الحق والباطل فيهم، والحواري حواريتهم، وذو الشهادتين، لأنه شهد لهم^(٢) ولا خير إلا فيهم ولهم ومنهم، وابن رسول الله ﷺ أهل بيته بقوله: (إني تارك فيكم الخليفين: كتاب الله حبل ممدود من السماء الى الأرض، وعترتي أهل بيتي، نبأني اللطيف الخير إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض) ولو كانوا غيرهم لما قال عمر لما طلب مصاهرة علي: إني سمعت رسول الله يقول: كل سب ونسب منقطع يوم القيامة الا سببي ونسبي، أما علي فلو أردنا ان ندون لأيامه الشريفة، ومقاماته الكريمة، ومناقبه السنينة، لانينا في ذلك الطوامير، العرق صحيح، والمنشأ كريم، والشأن عظيم، والعمل جسيم، والعلم كثير، والبيان عجيب،

العظمة قبلهما آسيا بنت مزاحم زوجة فرعون التي سبقت السيدة مريم العذراء في وقفها المشهودة في الدفاع عن ولدها النبي عيسى عليه السلام.

وشهدت المجتمعات في مقاطع تاريخية مختلفة حضوراً فعالاً لنساء أخريات كالسيدة سمية أول شهيدة في الإسلام، والخنساء وأم حكيم اللتين كانتا نموذجاً للمرأة الأدبية والشاعرة والمربية للشهداء، وسودة وأم الخير اللتين كانتا مثلاً للمرأة الحاضرة في الساحة السياسية وساحة التضحية والإيثار، ورابعة الشامية ورابعة البصرية ورابعة العدوية اللاتي كن من النساء العارفات بالله، وغيرهن الكثير الكثير.

ولكن للأسف، فالتاريخ لم يهتم كثيراً بتلك النسوة، فبقين مجهولات لكثير من المسلمين ولسنين متمادية. وبين هذه النساء الخالدات شع نور عقيلة الهاشميين زينب عليها السلام المرأة العظيمة التي ارتقت سنام العظمة. ونحن عندما نريد ان نكتب عنها نقول على لسان أبيها أمير المؤمنين علي عليه السلام: (نحن أهل البيت لا يقاس بنا احد)^(١).

وقد صدق الجاحظ الذي علق على هذه

الموقف الحسيني العظيم، وفيها شرعت للأمة مقاومة الظلم والطغيان، وشقت طريق الثورة والنضال أمام الطامحين للعدالة والحرية.

وقد كان لها سلام الله عليها دوراً أساسياً رئيسياً في هذه الثورة العظيمة، فكانت الشخصية الثانية على مسرح الثورة بعد شخصية أخيها الإمام الحسين، فكانت معه في اغلب الفصول والمواقف، بل أنها قادت الثورة بعد استشهاد الإمام الحسين وأكملت حلقاتها.

فلولا كربلاء لما بلغت شخصيتها هذه القمة والتألق والخلود... ولولا السيدة زينب لما حققت كربلاء أهدافها ومعطياتها وأثارها في واقع الأمة والتاريخ.

واللسان خطيب، والصدر رحب، أخلاقه وفق أعرافه، وحديثه يشهد لقديمه^(٣).

كذلك الحال بالنسبة لعقيلة الطالبين الحديث عنها حديث عن من قال فيهم تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (الأحزاب: ٣٣)

حديث عن ذلك البيت الذي قال فيه أمير المؤمنين: (نحن أهل البيت لا يقاس بنا احد) لأنها من ذلك البيت، أما عن دورها في أهم حدث عصف بالأمة الإسلامية بعد رحيل رسول الله ﷺ، إلا وهو واقعة كربلاء، التي فيها تجلى تيار الردة الى الجاهلية، والانتقال على الأعقاب، ووصل الى قمته وذورته، من خلال المعسكر الأموي... كما تجسد وتبلور خط الرسالة والقيم الإلهية في

المبحث الأول

أدوار النساء في الثورة الحسينية

لقد كرم الإسلام هذه المخلوقة التي قال عنها رسول الله ﷺ: (رفقاً بالقوارير)^(٤)، ورفع شأنها؛ وذلك بان وضع القوانين والأنس التي ترعاها وتكفل لها الحقوق الكاملة، سواء أكانت زوجة أم أم، إنه أم كأخت، وصانها من الهوان والابتذال. ولو نقبت في كتب الفقه لو جدت مصداق ذلك.

كما ان القرآن الكريم قد زحرت آياته بالحديث عن نساء سجلن على صفحات الإنسانية مواقف ناصعة، في سبيل إعلاء كلمة الله والدفاع عن الشرائع السماوية، وأخريات أعطين دروساً في الجهاد والفقه، رغم ما كان يكتنف عصورهن من ظلم وطغيان، فيروي لنا قصص عن نساء الأنبياء وامهاتهن وبناتهن وأزواجهن، فهذه أم موسى عليها السلام وهذه مريم العذراء عليها السلام وتلك ابنة شعيب زوجة النبي موسى عليه السلام، وهذه آسية بنت مزاحم زوجة فرعون وغيرهن كثيرات.

كذلك تزرخ كتب التاريخ والسيرة بسير نساء كن مثلاً في النبل والكرامة والشجاعة والوفاء، والعفة والطهارة، والجهاد في سبيل إعلاء كلمة الحق، فكانت على رأسهن فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين عليها السلام، وأمها الصديقة خديجة الكبرى عليها السلام أول المجاهدات بمالها وصبرها وعونها للنبي ﷺ من أجل دين الله، تشهد كتب التاريخ وكتب السيرة والكتب التي تناولت واقعة الطف الأليمة التي راح ضحيتها نتيجة الغطرسة الأموية والعصبية القبلية ثلة مؤمنة من آل الرسول مع ثلة مؤمنة أخرى من الصحابة المنتجبين، وكان على رأسهم قائد البيت الهاشمي وزعيمهم الإمام الحسين عليه السلام في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين للهجرة المباركة.

أشارت هذه الكتب الى وقوع حوارات دارت بين الإمام الحسين عليه السلام والعديد من

بعدها بقليل، وأخر حاولن المشاركة في القتال لكنهن فوجئن برفض الإمام الحسين عليه السلام ذلك، بينما كان دور الأخريات منهن دور المحرض لرجالهن وأبنائهن على خوض المعركة دفاعاً عن آل الرسول، ونساء قمن بدور الرعاية والإشراف وحفظ النسوة والأطفال خلال المعركة وما بعدها كالعقيلة زينب عليها السلام التي ستتحدث عن دورها في ذلك مفصلاً. نحاول قبل الحديث عن دور العقيلة زينب الوقوف على دور أبرز من شاركن في المعركة، ونحن إذ نورد هذا العدد المحدود منهن، فهذا لايعني أنه لا يوجد غيرهن، ولكننا في هذه العجالة نكون مضطرين للوقوف على بعض دون بعض؛ لأن الوقوف عليهن كلهن معناه تأليف كتاب واسع؛ لأن المعسكر الحسيني الذي مثّل في كربلاء رغم صغره وقلة افراده احتوى على اطيف الامة كافة، ففيه المولى والعبد، والشيخ والطفل، والصحابي والتابعي، والأبيض والأسود، وفيه القوي والضعيف، وفيه الرجل الى جانب المرأة.

وهنا نحاول الوقوف على اسماء ابرزهن، وادوارهن سواء ماكان قبل الواقعة ومابعدها.

الشخصيات البارزة في ذلك الحين قبل رحيله من المدينة الى الكوفة بعد ان عقد العزم على ذلك - كانت تتخوف من ذهاب الإمام الحسين الى الكوفة، وتحتة على عدم الرحيل خوفاً عليه، ولكن إصراره عليه السلام على هذا الأمر جعل تلك الشخصيات - لا سيما أخوه محمد بن الحنفية - تطرح تساؤلاً مرفقاً بالرجاء عن سبب اصطحابه العيال من نساء وأطفال، فكان جوابه عليه السلام حينذاك: (ان الله شاء ان يراني قتيلاً وشاء ان يراهن سبايا)⁽⁵⁾.

اذا كان هذا هو الهدف، ومن وراءه تكمن أهدافاً وأهدافاً. من هنا سنحاول الدخول على ما نريد الحديث عنه وهو وجود نساء الأنصار ومشاركتهن في واقعة الطف الأليمة؛ لأن جواب الحسين عليه السلام يوحي أن لأولئك النسوة دوراً هاماً سيقمن به اثناء تلك الواقعة، أو حتى فيما بعد الواقعة التي بقيت حتى يومنا هذا صفحة سوداء في تاريخ البشرية والمرحلة التي بعدها، فهي كما قال عباس محمود العقاد: (واقعة الطف تمثل نكسة الضمير الإنساني).

فالذي قرأ التاريخ قراءة صحيحة أمكنته رؤية تلك النسوة اللائي قاتلن الى جانب الرجال، وبعضهن قد نلن الشهادة فيها او

١- النساء اللاتي كان دورهن قبل الواقعة:

إن لكل واحدة ممن ناصرن آل الرسول ووقفن معهم دور يختلف عن الأخرى، ولكن يجمعهن الإيمان بأرقى مفاهيمه الإنسانية والتي جاء بها الاسلام، ولخصها في شخص الإمام الحسين عليه السلام وأهدافه، فممن كن على ضفاف نهضته المباركة:

اولاً: مارية بنت منقذ العبدى: المرأة التي مؤلت الثائرين، اذ كانت أرملة استشهد زوجها في معركة الجمل نصره لأمير المؤمنين عليه السلام، ومع هذا كانت موالية للحق دون أي ملل او كلل، تحوز على موالية للخف دور أي ملل وكلل، وكانت تحوز مكانة مرموقة في المجتمع العلوي البصري، وتمتلك اموالاً طائلة، ولما بدأ الصراع العلوي الأموي على أشده فتحت بيتها للزعماء المواليين لآل الرسول صلى الله عليه وآله، ولعلي وبنيه عليه السلام، ليكون نادياً فكرياً يتناقش فيه الزعماء قضايا الامة، ومركز اتصال وتواصل لدعم المعارضة، ولما عرفت بوصول رسائل الإمام ابي الاحرار عليه السلام الى أشرف البصرة، خرقت ببكائها الغاضب محفل الأشراف الذين كانوا يجتمعون في بيتها لتقول كلمتها المدوية بعدما سألوها عن سبب غضبها

وبكائها: (ويلكم ما اغضبني احد، ولكن أنا امرأة ما اصنع؟ سمعت ان الحسين ابن بنت نبيكم استنصركم وانتم لا تنصرونه؟، فأخذوا يعتذرون بعدم امتلاكهم السلاح والراحلة، عندها أخذت كيساً مليئاً بالدنانير الذهبية والدراهم الفضية، وأفرغته أمامهم وقالت: (فليأخذ كل منكم ما يحتاجه وينطلق في نصرة سيدي ومولاي الحسين عليه السلام)^(٦)، فيا ترى من جاد بماله في نصرة الحق والعقيدة؟، فهذه المرأة قد ضربت مثلاً سامياً لما يجب ان تكون عليه المرأة المسلمة، وان كانت ما قامت به فوق السمو؛ لأن المرأة - إلا ما عصم الله - تميل بطبعها - الى حب المال واقتناء الحلبي، بينما هذه المرأة المؤمنة أنفقت مالها في سبيل نصرة الحق وأهله.

إذاً كان دور هذه المرأة الصالحة نابعا من وحي ايمانها بمبادئها، فكانت تدفع باتجاهين: معنوي ومادي، اما المعنوي فهو شحذ الهمم، واما المادي فتتمثل في تمويل الثوار.

ثانياً: طوعة الكوفية: المرأة التي احتضنت الثائر الذي وجد نفسه وحيداً بعد ان نقض الكوفيون عهودهم ومواثيقهم مع الحسين، فقد كانت هذه المرأة كباقي النساء

أمام طوعة إلا ان تتبرأ من إبنها بلال: ﴿انه عمل غير صالح﴾ (هود ٤٦) فتعذر من مسلم بن عقيل: ﴿لا تؤاخذني بما نسيت﴾ (الكهف ٧٣) وطلبت من الله الغفران: ﴿ربنا لا تؤاخذنا ان نسينا أو أخطأنا﴾ (البقرة ٢٨٦) ومسلم ينهض ليستعد لمواجهة القوم ويلتفت إليها ﴿لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم﴾ (يوسف ٩٢)، فأخذ يودعها ويقول: رحمك الله وجزاك عني خيراً. فمن يا ترى احتضن رجلاً خطيراً كمسلم؟^(٧)، فكان دورها (رضوان الله عليها) احتضان ذلك الثائر الذي عجز الرجال عن احتضانه معرضة حياتها للخطر، فكانت مثالا للشجاعة والايثار والتضحية ونكران الذات

ثالثاً: الأسديّة: وهي زوجة علي بن مظاهر الاسدي من المؤمنات المواليات لأهل البيت عليهم السلام التي من الله عليها بشرف صحبة الركب الحسيني والتزود من معاشره عقيلة بني هاشم وأخواتها وبنات أخيها، وشاركت بحبها ومشاعرها ودموعها وعقلها وجسمها بنات الرسالة في أحداث كربلاء وما بعدها من سبي وسفر بعيد وسياط مؤلمة وجوع وعطش واشتهار في شوارع الكوفة والشام الذي هو اشد المصائب على مخدرات

تحمل حبا لإبنها الوحيد، فكانت تقف بالباب تنتظر قدومه خوفاً من ان يصيبه مكروه، وكانت قلقة عليه فترة غيابه عن البيت، وكانت الكوفة آنذاك في انتفاضة عارمة ضد الطاغية يزيد وأعوانه وجلاوزته الذين كانوا يمارسون القمع والاضطهاد، فبينما هي واقفة كعادتها على الباب واذا بالثائر المنتفض والسفير القائد على بابها، انه مسلم بن عقيل سفير الحسين عليه السلام يبحث عن شربة ماء يسد بها رمقه، وعن ملجأ آمن يأوي اليه من غدر الغدره، فقد تعرفت عليه طوعة من حديث دار بينهما، فلم تتردد ولو لحظة في القيام بالواجب الملقى على عاتقها من إيواء الثائر المخلص، فقامت بالترحيب به، وأسرعت بخفة معهودة عند النساء، فجهزت له بيتاً يأوي اليه وهيات له كل مستلزمات الضيافة والتكريم، وجاء ابنها المدلل بلال ذلك المتعاون مع السلطة، الذي كان من مصاديق قوله تعالى: ﴿ويخرج الميت من الحي﴾ (يونس ٣١)، ولما عرف بالأمر اخذ يفكر في هذا الصيد الثمين الذي كان يبحث عنه وكان من امره ان أخبر السلطان بالأمر، وكان من أمر مسلم خوض المعركة مع الظالمين حين جاؤوا للقبض عليه، وما كان

اقراطها وانا اتزين بقرطي؟، ايسرك ان يبيض وجهك عند رسول الله ويسود وجهي عند فاطمة الزهراء، والله انتم تواسون الرجال ونحن نواسي النساء، فرجع علي بن مظاهر الى الحسين عليه السلام وهو يبكي فقال له الحسين عليه السلام: ما يبكيك؟، فقال: سيدي: ابنت الاسديّة الا مواساتكم، فبكى الحسين عليه السلام وقال: (جزيتم منا خيراً)^(٨).

فجسد موقفها هذا إيمانها بنهضة الإمام الحسين عليه السلام، فهي بذلك خير من رجال هذه الامة التي جاءت لقتل الإمام عليه السلام بل هي خير من رجال عدوا من الصحابة أختاروا السلامة على المشاركة.

٢- النساء اللاتي كان دورهن بعد الواقعة:

اولاً: دلهم بنت عمرو الكوفية: ورد اسمها هذا في بعض المصادر التاريخية، وورد في البعض الآخر باسم (ديلم بنت عمرو)^(٩) ولم نجد لها ذكراً في كتب الرجال ولا التاريخ إلا بعد ان جاء رسول الحسين يدعو زهيراً.

بيد ان موقفها الذي سجله لها التاريخ بكل عز وافتخار جعلها في رتبة النساء

الرسالة والمؤمنات اللواتي معهن، ولكي تقف على عظمة هذه المرأة الموالية التي ملئت حباً وتضحية لأهل البيت عليهم السلام والتي تلبست بثوب الصابرين فنالت مقامهم الرفيع، وصارت قدوة للنساء، واسوة في الموالاة والمودة لأهل البيت عليهم السلام.

يقال: ان الإمام الحسين عليه السلام في ليلة عاشوراء قال لا صحابه: (اجلسوا رحمكم الله وجزاكم الله خيراً)، ثم قال: (ألا ومن كان في رحله امرأة فلينصرف بها الى بني أسد)، فقام علي بن مظاهر وقال: (ولماذا يا سيدي؟)، فقال الحسين عليه السلام: (ان نسائي تسي بعد قتلي وأخاف على نساءكم من السبي)، فمضى زوجها إليها فاستقبلته قائلة: (يا ابن مظاهر أني سمعت غريب فاطمة خطب فيكم وسمعت في اخرها همهمة ودمدمة فما علمت ما يقول، فاخبرها بما قال الحسين عليه السلام فقالت ما انت صانع؟ قال: (قومي حتى الحقك ببني عمك بني اسد فقامت ونطحت رأسها بعمود الخيمة وقالت: والله ما انصفتني يا بن مظاهر، أيسرك ان تسي بنات رسول الله وأنا آمنه من السبي؟ أيسرك ان تسلب زينب ازارها وانا استتر بأزاري؟ أيسرك ان تذهب من بنات الزهراء

العظمية، لأن عقل الإنسان لا يعرف إلا في المواقف الصعبة التي تحتاج إلى اتخاذ القرار في فتره وجيزه لتحديد المسار على مفترق الطرق، سيما إذا كان الطريقان من الخطورة بمكان، فأما إلى الجنة والسعادة الأبدية، وإما إلى النار والشقاوة السرمدية، فهذه الزوجة أدركت بحسها المرهف، وشعورها اللطيف أن زهيراً وقع في ورطة بين أولئك الرجال الذين كانوا يحيطونه، وكانوا على الأغلب عثمانية - كما نص على ذلك بعض المؤرخين - فتحررت بعقلها ومداراتها لتستوعب الموقف وتخرج زهيراً من حرجه بين القوم، فانبرت تحرضه على قبول دعوة ابن رسول الله، لتكون مشجعة له من جهة، وتقدم له مبرراً أمام القوم للاستجابة من جهة أخرى، وهكذا يجب أن يكون دور المرأة الصالحة التي هي عاملة من عمال الله في الأرض، يهيمها سعادة زوجها، وأن تراه في الموضوع الذي يحبه الله ورسوله وابن رسوله، ولا تستسلم لأنانيتها وخلودها إلى الدعة والراحة، فإذا ضمنت ما يرضيها لا تعير لما أصاب زوجها خيراً كان أم شراً، سعيداً كان أو شقيماً. ويقال إنها بعد مصرع زوجها بعثت كفتاً بيد غلام لها وقالت له: اذهب وكفن مولاك، فذهب الغلام

المميزات، وكشف عن عمق ولائها ومعرفتها بالحق، وأدبها الرفيع في التعامل مع إمامها وزوجها. روى الطبري عن أبي مخنف، قال: فحدثتني دلهم بنت عمرو وامرأة زهير بن القين^(١٠).

قالت لزوجها: سبحان الله أبعث إليك ابن رسول الله ﷺ ثم لا تأتيه؟، فلو أتيته فسمعت من كلامه فمضى زهير بن القين، فما لبث أن جاء مستبشراً قد أشرق وجهه، فأمر بفسطاطه وثقله ومتاعه، فحول إلى الحسين عليه السلام وقال لإمرته: أنت طالق، فاني لا أحب أن يصيبك بسببي إلا خيراً، وقد عزمت على صحبة الحسين عليه السلام لأفديه بنفسي، وأقيه بروحي، ثم أعطها مالها وسلمها إلى بعض بني عمها كي يوصلها إلى أهلها، فقامت إليه وبكت وودعته وقالت: كان الله عوناً ومعيناً، خار الله لك، أسألك أن تذكرني في القيامة عند جد الحسين عليه السلام^(١١)، فقال لأصحابه: من أحب أن يصحبنى وإلا فهو آخر العهد مني به.

وبالرغم من أن هذا النص التاريخي لا يتضمن أكثر من موقف واحد لا أكثر، إلا أنه يكشف عن صورة تكاد تكون شاملة تؤدي إلى تفاصيل تستوعب حياة هذه الحرة

كان دور الأم دوراً مشرفاً، فقد وقفت موقف الأم التي تشجع ولدها على القتال لتقدمه شهيداً بعد أيام من إسلامها بين يدي ابن صاحب الرسالة، ولم تكتف بذلك بل وبعد استشهادها أخذت بيدها عمود الخيمة، وأخذت تدافع عن الحسين وآله عليهم السلام، فلما شاهدها الإمام سارع الى إرجاعها الى الخيمة معلماً إياها ان الجهاد قد وجب على الرجال دون النساء ووعدها بالجنة وضمن لها ذلك، أي انها ضمنت الجنة بعد ثلاثة عشر يوماً فقط من إسلامها^(١٣)، فضربت بذلك مثلاً للنساء المواليات الصابرات المؤمنات اللاتي حضرن في كربلاء عازمة على المواساة، غير راضية الا بقتل فلذة كبدها وقرّة عينها ولدها وهب بين يدي إمامه عليه السلام، علماً أن هناك امرأة أخرى تكنى بأم وهب وهي: أم وهب بنت عبد، اسمها قمر، او قمرى زوجة عبد الله بن عمير الشهيد بأرض الطف يوم عاشوراء^(١٤).

أما زوجته فكانت مثال المرأة المجاهدة، فقد نزلت بعد استشهاد زوجها حاملّة عموداً بيدها، تدافع عن عقيدتها ودينها، فأرجعها الإمام الحسين عليه السلام ودعا لها، وكانت قد منعتة في بداية القتال من النزول الى ساحة

ليكفن سيده فوجد الحسين عليه السلام بلا كفن فكفنه به ورجع واخذ كفناً آخر وكفن به مولاه زهير بن القين^(١٢).

على ان الذي عليه علماء الإمامية ان الإمام السجاد هو من تولى تكفين ودفن الإمام الحسين عليه السلام.

وهكذا يكون دور هذه المرأة التضحية والفداء والتأثير المباشر على زوجها في انقلاب المعتقد والافكار، وهذا قلما نجده عند باقي النساء، فهي قامت بدورين: تمحيص الراي، والنصرة والتضحية.

ثانياً: أم وهب النصرانية، وزوجته: أم وهب بن حباب الكلبي، وقيل أم وهب بن عبد الله بن حباب الكلبي، المرأة التي آمنت وضحت، قد كانت وابنها وهب على الديانة النصرانية، ولم يعرفا عن الإسلام ما يجعلهما يفكران بجسد في التحول عن معتقدهما، ولكن الصدفة لعبت دوراً بذلك، فقد صدف ان نزلاً في مكان سبقهم الإمام الحسين اليه، فوقعت هيبة الإمام الحسين في نفسه وامه مأخذاً عظيماً، فدخل نور الهداية قلبهما بعد ان تحدثا للإمام الحسين عليه السلام، وبعد ان علما انه نهض لإحقاق الحق وإزهاق الباطل، قررا الالتحاق به، فلما وقعت واقعة الطف

عسكر ابن سعد فأصابته به رجلاً فقتلته، ثم شدت بعمود الفسطاط، فقتلت رجلين^(١٦).
وبهذا يكون دورهن الايتار المطلق، فقد أثرن طاعة المعصوم على محبة الولد والزوج والعيش برفاهية ونعيم.

ثالثاً: بحرية الخزرجية: بحرية بنت مسعود الخزرجي، وهي أم عمرو بن جنادة، كانت مثالا للمرأة التي تجهز ابنها للشهادة، وكانت ممن حضرن كربلاء مع زوجها جنادة بن كعب الخزرجي، فلما استشهد زوجها بين يدي الإمام الحسين عليه السلام وبما أنها لم تمتلك وسيلة أخرى للدفاع عن الحق غير هذا الولد الذي لم يتجاوز العقد الأول من عمره، بادرت فألبسته لامة الحرب وقلدته السيف، وقالت له: اخرج بني وقاتل بين يدي ابن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعند خروجه للحرب رآه الحسين عليه السلام فقال: هذا شاب قتل أبوه في المعركة، ولعل أمه تكره خروجه، فقال الغلام: يا ابن رسول الله، باي أنت وأمي ان أمي أمرتني بذلك، وهي التي حملتني السيف، فرخصه الحسين عليه السلام حتى جاء المعركة مرتجزاً:

أميري حسين ونعم الأمير

سرور فؤاد البشير النذير

الوغي - على اعتبار انهما كانا عروسين - ويقال ان وهب لما خرج للقتال، وأحسن في الجلال وبالغ في الجهاد، وكان معه امرأته وأمّه، فرجع إليهما، وقال: يا أماه أرضيت أم لا؟، فقالت الأم: ما رضيت حتى تقتل بين يدي الإمام الحسين عليه السلام.

وقالت امرأته: بالله عليك لا تفجعني بنفسك فقالت له أمه: يا بني اعزب عن قولها، وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت نبيك تل شفاعة جده يوم القيامة.

فرجع، فلم يزل يقاتل حتى قطعت يده، فأخذت امرأته عموداً فأقبلت نحوه وهي تقول: فداك ابي وامي قاتل دون الطيبين حرم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأقبل كي يردها الى النساء، فأخذت تجاذب ثوبه، وقالت: لن أعود دون ان أموت معك، فقال الحسين عليه السلام: جزيتم من اهل بيت خيراً، ارجعي الى النساء رحمك الله^(١٥).

ويرى صاحب البحار ان وهباً هذا قتل من معسكر عمر بن سعد أربعة وعشرين رجلاً، واثني عشر فارساً، ثم اخذ اسيراً لابن سعد فقال: ما انشد صولتك؟ ثم أمر بضرب عنقه، ورمي برأسه الى عسكر الحسين عليه السلام، فأخذت أمه رأسه فقبلته ثم رمت بالرأس الى

له طلعة مثل شمس الضحى

له غرة مثل بدر منير
فقاتل حتى نال شرف الشهادة، فقطعوا
الأعداء رأسه ورموا به الى جيش
الحسين عليه السلام، فأخذت الأم رأس ولدها
ورفعته على صدرها، وقالت: أحسنت يا ولدي
ويا قرة عيني وقامت واخذت عمود خيمة
وحملت على جيش ابن سعد وقالت مرتجزة
بارجوزة أم وهب، فأرسل إليها الحسين عليه السلام
وأمرها بالرجوع ^(١٧).

فمن يا ترى اليوم من نساءنا تمتلك قلباً
مفعماً بالإيمان والشجاعة كقلب هذه
الموالية؟! فقد كانت حقاً سخية في
تضحيتها، عارفة بتكليفها الشرعي، موالية
محبة لأهل البيت، زاهدة في دنياها راغبة
في آخرتها.

٣- النساء اللاتي تعاطفن مع واقعة كربلاء:

هذه ثلثة من أسماء نساء شارك أزواجهن
في معركة الطف ضد الإمام الحسين، فلما
رأبن واعية الإمام الحسين، رفضن ما حدث،
ووقفن وقفة عاطفية إزاء النهضة الحسينية
منهن:

أولاً: امرأة من بني بكر بن وائل: قال

الخوارزمي: روى حميد بن مسلم قال: رأيت
امرأة من بني بكر بن وائل كانت مع زوجها
في أصحاب عمر بن سعد، فلما رأَت القوم قد
اجتمعوا على نساء الحسين فساطهن وهم
يسلبوهن، أخذت سيفاً وأقبلت نحو الفسطاط
وقالت: يا آل بكر بن وائل تسلب بنات رسول
الله صلى الله عليه وآله لا حكم لله، بالشارات رسول
الله صلى الله عليه وآله فأخذها زوجها وردها الى رحله ^(١٨).

وموقفها هذا موقف المرأة التي عصفت
بها العاطفة فانبرت مدافعة عن بنات رسول
الله صلى الله عليه وآله، ولعل موقفها هذا نبع من قباحة ما
رأته من موقف الجيش الممسوخ ووحشيتها
وانتهاكها حرمة النساء اللواتي لا دخل لهن
في هذه الحرب، فهاجت بها الحمية العربية
التي تستنكر بشدة أي اعتداء على المرأة.

ثانياً: نوار بنت مالك الحضرمية: هي

زوجة الخولي بن يزيد الاصبحي الذي كان
يحمل رأس الإمام الحسين عليه السلام الى طاغية
عصره عبيد الله بن زياد، فقد حضر الخولي
الى بيته في ساعة متأخرة من الليل فاخذ
الرأس الشريف الى بيته، وخبأه في التنور،
فسألته زوجته نوار عن ما يخبئه في التنور،
فقال لها بعد حوار طويل بينهما: جئتك بغنى

بنت عبد الله فسكتت زينب ولم ترد عليها جواباً.

وبعد ان استقر بها المقام سألت السيدة زينب قائلة لها: أختية من أي البلاد انتم؟ فقالت لها زينب: من بلاد المدينة، فلما سمعت بذكر المدينة نزلت من الكرسي وقالت: على ساكنها أفضل السلام، فسألته زينب عليها السلام عن سبب نزولها عن الكرسي فأجابته: اجلالاً لمن سكن في ارض المدينة، ثم قالت لها: أخيه أريد ان أسالك عن بيت في المدينة، أريد ان أسالك عن دار علي بن أبي طالب؟، قالت لها زينب: وأين لك معرفة بدار علي؟ فبكت وقالت: إني كنت خادمة عندهم، قالت لها زينب: وعن اي تسألين؟، قالت: أسالك عن الحسين وعن إخوته وأولاده وعن بقية أولاد علي وأسالك عن سيدتي زينب وعن أختها أم كلثوم وعن بقية مخدرات فاطمة الزهراء عليها السلام، فبكت زينب وقالت لها: (يا هند أما إن سألت عن دار علي فقد خلفناها تنعى أهلها، وأما إن سألت عن الحسين فهذا رأسه بين يدي يزيد، وأما إن سألت عن العباس وعن بقية أولاد علي فقد خلفناهم على الأرض مجزرين كالأضاحي بلا رؤوس، وإن سألت عن زين

الدهر، هذا رأس الحسين معك في الدار، فقالت: وبيك جاء الناس بالذهب والفضة ووجئت برأس ابن رسول الله، لا والله لا يجمع راسي وراسك بيت ابداء، ثم أضافت قائلة: إرجع، وأخذت عموداً وأوجعته ضرباً، وقالت: والله ما انا بزوجة ولا أنت لي ببعل ^(١٩).

وهكذا كان موقفها موقف المرأة التي رفضت زوجها، وفارقت لتعلم الآخرين درساً في التعامل مع الظالمين وان كان الظالم ولي نعمتهم.

ثالثاً: هند بنت عبد الله بن عامر: هي زوجة يزيد بن معاوية، كانت تعمل خادمة في بيت امير المؤمنين قبل ان يتزوجها يزيد اللعين، وكانت على معرفة بأهل بيت النبوة، وكانت خدمتها لهم تقرباً الى الله تعالى، وبعد مقتل الإمام الحسين دخلت عليها جاريتها قائلة لها: يا هند هذه الساعة اقبلوا بسبايا ولم اعلم من أين هم، فلعلك تمضين اليهن وتتفرجين عليهم، فقامت هند ولبست افخر ثيابها وتخمرت بخمارها ولبست ازارها وأمرت خادمة لها ان تحمل الكرسي، فلما رأتها العقيلة زينب التفتت الى أختها أم كلثوم وقالت لها: أختية أتعرفين هذه الجارية؟ قالت: لا والله، قالت لها: أختية هذه خادمتنا هند

زيف وادعاءات بني امية، وبذلك شاءت السماء ان تخرج الفضيحة من داره.

هذه الكوكبة من النساء الطاهرات اللواتي حملن مشعل الكرامة والحريّة، وقدمن ما لم يستطع تقديمه الرجال، وهؤلاء النسوة كن من الأنصار الذين أحبوا حسيناً ووالوه، إضافة الى نساء بعض ممن حارب الإمام الحسين عليه السلام قد تعاطفن مع الفاجعة لانها هدت الأنام.

أما من كان مع الإمام الحسين من نساء بيت الرسالة فهن كثيرات ومواقفهن لا تعد ولا تحصى، لكن الحق يقال ان دور السيدة زينب عليها السلام قد غطى على كل دور نسائي، فهذه أم كلثوم الأخت الثانية للإمام الحسين عليها السلام قد شاركت أختها عليها السلام في الواقعة، فكل ما نزل بأل البيت من مصائب كان لها نصيب منها، فهي تارة شاركته - أي الإمام الحسين - الركب الحسيني وسفره وعنائه، وأخرى عند عطش النساء والأطفال، والآخرى عند وداع وشهادة الإمام عليه السلام وولده وإخوته وأصحابه، ورابعة عند حرق الخيام وهجوم الخيل، وخامسة عندما اخذ رجل قرطي أم كلثوم وخرم اذنيها، وسادسة عند ضرب المتون ولطم الوجوه، وسابعة عند

العابدين فهو عليل نحيل لا يطيق النهوض من المرض، وهؤلاء بقية مخدرات فاطمة الزهراء.

فلما سمعت كلام زينب رقت وبكت ونادت وإماماه وا سيدها وا حسيناه ليتني كنت قبل هذا اليوم عمياء لا أنظر بنات فاطمة الزهراء على الحالة، ثم تناولت حجراً وضربت رأسها، فسال الدم على وجهها ومقنعتها وغشي عليها، فلما أفاقَت ركضت نحو البلاط بحالة لم يعهد لها من قبل، وإذا بالطاغية مجتمع بأركان دولته في جلسة رسمية ليستقبل بعض الوافدين المهنتيين بالنصر، وكلما حاول اقناعها مغطياً رأسها ليمنع نظرات الحاضرين إليها إلا انها رفعت صوتها قائلة: أخذتك الحمية عليّ؟، فلم لا أخذتك الحمية على بنات فاطمة الزهراء، هتكت ستورهن وأبديت وجوههن وأنزلتهن في دار خربة، والله لا ادخل حرمك حتى ادخلهن معي، فأقامت أول عزاء للإمام الحسين عليه السلام (٢٠).

فلما سمع الناس بقولها دب الهمس والغمز بين الشاميين بان آل الوحي هم السبايا وليس كما ادعى يزيد واعوانه أنهم خوارج، انها الطامة الكبرى، لقد كشفت عن

زوجها وابن عمها الحسن بن الحسن في واقعة الطف صابرة محتسبة، ولكن الذي فجع قلبها وأدامه هو ساعة الوداع مع الإمام المفترض الطاعة والاب الحنون بعد ان جمعهم الإمام الحسين عليه السلام قائلاً: (استعدوا للبلاء، واعلموا ان الله حافظكم وحاميكم وسينجيكم من شر الأعداء، ويجعل عاقبة أمركم الى خير، ويعذب اعدائكم بأنواع البلاء، ويعوضكم عن هذه البلية بأنواع النعم والكرامة، فلا تشكوا ولا تقولوا بالستكم ما ينقص قدركم. ثم أمرهن بلبس ازهرن ومقانهن، فسأته أخته زينب عن ذلك فقال: (كأنني أراكم عن قريب، كالإماء والعبيد، يسوقونكم أمام الركاب، ويسومونكم سوء العذاب)^(٢١).

أما زوجات الإمام الحسين عليه السلام فقد كانت لهن مواقف مشرفة في هذه الواقعة، لكن التاريخ قد ركز على اثنتين منهن، فقد صحن الإمام في الواقعة، فالأولى السيدة الرباب بنت امرئ القيس بن عدي بن اوس، فهذه السيدة عندما يذكرها التاريخ يقف بكل إجلال واحترام لها لما لها من الصفات والأخلاق العالية، فقد ذكرها السيد الأمين في أعيان الشيعة بقوله: (كانت الرباب من

ركوب النياق المهزل، وثامنة عند السبي، وتاسعة عند دخول الكوفة، وعاشرة عند دخول مجلس الطاغية ابن زياد و... ومصائب اخرى شاركت فيها أختها زينب، في كل ذلك كانت صابرة محتسبة واقفة كالجبل الشامخ لا تبالي، ففيها شموخ علي وصبر الزهراء، وهذه سكيئة بنت الإمام الحسين عليه السلام، هذه الابنة الصابرة المحتسبة التي تربت في حجر الرباب بنت امرئ القيس وعاشت مع اخويها الإمام السجاد وعلي الأكبر شهيد كربلاء، هذه السيدة التي اتهمها المؤرخون المنحرفون عن مبدأ أهل البيت بشتى الاتهامات، فقد لصق بها الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني شتى الإتهامات والأباطيل، لكنها كانت في كربلاء في موقع الحدث، شاهدت مصائب كربلاء التي لا يقوى عليها إلا من سبكته الظروف الصعبة والمحن ولا يتحملها الا من وصل الى كماله وعلوه، ولا يصبر عليها الا من تخلق باخلاق الأنبياء وابناء الانبياء.

تلتها البنت الثانية للإمام الحسين، الا وهي فاطمة الصغرى التي شاركت الركب الحسيني في رحلته وألامه وأحزانه، وكان لها دور في بعض الوقائع، فقد فقدت هذه السيدة

فقالت: ما كنت لاتخذ حمواً بعد رسول الله ﷺ وبقيت بعده سنة لم يضلها سقف بيت حتى بليت وماتت كمداً^(٢٣).

والثانية: ليلي الثقفية: وهي أم علي الأكبر شهيد كربلاء، وهي امرأة كبيره المنزلة، عالية المقام، ربيعة الشرف اغترفت من أهلها خلقاً وأدباً ومحبة لأهل البيت ﷺ، فأبوها أول من استجاب لدعوة رسول الله ﷺ من أهل الطائف، شهدت واقعة الطف مع زوجها الإمام الشهيد، كذلك شهادة ولدها علي الأكبر صابرة محتسبة.

خيار النساء جمالاً وأدباً وعقلاً، اسلم أبوها في خلافة عمر، وكان نصرانياً من عرب الشام، فولاه عمر على قومه من قضاة، وما أمسى حتى خطب إليه علي بن أبي طالب ابنته الرباب علي ابنه الحسين، فزوجه إياها^(٢٢)، هذه الزوجة الوفية التي رفضت ان تستضل بسقف بعد ان رأت جسده تصهره الشمس وتغطيه الرمال، يقول ابن الاثير: (وكان مع الحسين امرأته الرباب بنت امرئ القيس، وهي أم ابنته سكينه، وحملت الى الشام فيمن حمل من أهله، ثم عادت الى المدينة، فخطبها الأشراف من قريش،

المبحث الثاني:

السيدة زينب عليها السلام ودورها في الواقعة

ترجم لها ابن الاثير بقوله: (زينب بنت علي بن أبي طالب واسمه عبد مناف بن عبد المطلب بن هاشم القريشية الهاشمية، وأمها فاطمة بنت رسول الله ﷺ أدركت النبي ﷺ وولدت في حياته، ولم تلد فاطمة بنت رسول الله ﷺ بعد وفاته شيئاً، وكانت زينب امرأة عاقلة لبيبة، جزلة، زوجها أبوها علي (رض) من عبد الله بن أخيه جعفر، فولدت له علياً وعوناً الأكبر وعباساً ومحمداً وأم كلثوم، وكانت مع أخيها الحسين (رض) لما قتل وحملت الى دمشق وحضرت عند يزيد بن معاوية، وكلامها ليزيد حين طلب الشامي أختها فاطمة بنت علي من يزيد مشهور مذكور في التواريخ، وهو يدل على عقل وقوة جنان)^(٢٤).

روي أنها جعلت مجلساً للنساء اللواتي كن يقصدنها من اجل طلب التفقه في الدين، وكان ابن عباس (رض) إذا روى عنها يقول: حدثتني عقيلتنا زينب بنت علي، فكان إذا ذكرت العقيلة لم يعن بذلك سواها، وكان يقال لبنيتها بنو العقيلة.

هي معصومة بالعصمة الثانوية، لا كالعصمة التي يمنحها الله تعالى للأنبياء؛ لان عصمة الانبياء والأئمة عليهم السلام واجبة لوقوعهم في طريق التبليغ، فلو لم يكونوا معصومين لجاز أن يقع منهم الخطأ والسهو^(٢٥).

فهناك أشخاص غير واجبي العصمة، أي ليس من ضروريات الدين عصمتهم؛ لأنهم لم يقعوا في طريق التبليغ، لكنهم نالوا هذه المنزلة الرفيعة... وتعرف هذه الملكة عندهم بأمرين.

١- شهادة المعصوم، فهي حجة بحقهم.

٢ - مرورهم بالأزمات العظيمة والنكبات المذهلة، ومع ذلك لم يصدر منهم الا الرضا

والتسليم لامره سبحانه وتعالى.

والعقيلة زينب واحدة من هؤلاء كما يعتقد علماءنا الإعلام، فقد حصل لها الأمر الأول - شهادة المعصوم - بكلمة الإمام زين العابدين عليه السلام عندما خاطبها بعد مقتل الإمام الحسين عليه السلام بقوله: عمه أنت عالمة غير معلمة، وفهمة غير مفهمة، فهي اشارة إلى هذه المنزلة، أما الأمر الثاني - مرورهم بالأزمات - فان ما صدر عنها في مأساة الطف اكبر شاهد على ذلك، فقد وقفت عصر عاشوراء على أخيها الحسين عليه السلام وهو مقطوع بالسيوف قائلة: (اللهم تقبل منا هذا القليل من القربان).

وتقول ليزيد: الحمد لله الذي ختم بالسعادة والمغفرة لسادات شبان الجنان^(٢٦).

توفيت عليها السلام في ١٥ رجب سنة ٦٥ هجرية، ولها اليوم قبر معروف في ضواحي دمشق، يناسب جلالتها وعظمتها، يتوافد إليه المسلمون من مختلف أقطار المعمورة، ولها مشهد آخر في مصر لا يقل روعة وزواراً عن مشهدها في دمشق^(٢٧).

هذه مقتطفات من حياة جبل الصبر، والمرأة الفولاذية زينب عليها السلام، فهي لم تعش

بعد اشتهاد الإمام الحسين عليه السلام إلا مدة قليلة، ولكن حياتها القصيرة كانت كافية لتبدل مجرى التاريخ، ووافية لاستكمال دورها في تحمل العبئ الملقى على عاتقها.

وقد كان ظن بني أمية ساذجاً عندما تخيلوا ان مسيرة الحسين عليه السلام بل ودين النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينتهي بعد واقعة كربلاء، وما أبدعوه من أسلوب وحشي فيها، نعم بل لم يكن يرجى ان تقوم لآل النبي صلى الله عليه وآله وسلم قائمة بعد المجزرة التي لا مثيل لها عبر التاريخ، خصوصاً بعدما فني الرجال ولم يبق غير الصبية اليتامى والنسوة والثواكل، لولا زينب الحوراء عقيلة الهاشميين الكاملة الفاضلة، عابدة آل علي عليه السلام والتي خبرت الحياة وخبرتها وجربتها وعاشت مأساة أمها فواجهتها بصبر أبيها عليه السلام وحكمته ووعيه، فلم تدع فرصة إلا استغلتها لصالح الدين، ولم تترك مجالاً إلا بمزيد من السم الزعاف في كؤوس الظافرين.

والذي يبحث في سيرتها العطرة لا يستطيع القول ان دورها كان فقط في الواقعة - أي الطف - بل لا بد ان يبحث في أدوارها جميعاً خصوصاً دورها ما بعد الطف؛ لان أدوارها عليها السلام سلسلة لا يمكن دراسة

رزيتهم) (٢٨).

وكانت زينب حينها طفلة صغيرة، فلم يشأ صلوات الله عليه ان يجرح قلبها الصغير ويخبرها بما سيحدث لها بل اكتفى بالقول: أنها قادمة على رزايا عظيمة تمر عليها تعجبها، تدعوها لارتداء السواد حزناً على ذلك.

هذا بالإضافة الى حديث السيدة أم أيمن الذي روته لزینب عليها السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله والذي بدورها عليها السلام عرضته على أمير المؤمنين عليه السلام عند وفاته فأقره لها، وهي قد أخبرت به الإمام زين العابدين عليه السلام عندما وجدته يجود بنفسه على أجساد الشهداء قبل الرحيل الى الكوفة، والحديث كما نقله جبرائيل لرسول الله صلى الله عليه وآله قائلاً له: (ان سبطك هذا واوحى جبرائيل عليه السلام الى الحسين عليه السلام مقتول في عصابة من ذريتك وأهل بيتك وأخيار من أمتك بصفة الفرات بأرض يقال لها كربلاء، من اجلها يكثر الكرب والبلاء على أعدائك وأعداء ذريتك في اليوم الذي لاينقضي كربه ولا تنفى حسرته، وهي أطيب بقاع الأرض وأعظمها حرمة، يُقتل فيها سبطك وأهله وإنها من بطحاء الجنة، فإذا كان اليوم الذي يقتل فيه سبطك

واحد بمعزل عن الآخر؛ لان احدهم كان مكماً للآخر، بل جزءاً منه، فهكذا هي حياة العظماء، خصوصاً أنها عليها السلام كانت عالمة بما سيحدث لأخيها الحسين عليه السلام قبل الوقوع، بل في عهد جدّها رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد اخرج الترمذي في صحيحه أنها عليها السلام رأّت في منامها رؤيا افزعتهما وأذهلتها، فأسرعت الى جدّها تقص عليه، ولما مثلت بين يديه أجلسها في حجره ولاطفها ودللها وقبلها، فقالت له: (يا جداه رأيت رؤياً البارحة، قال صلى الله عليه وآله: قصيها عليّ، قالت: رأيت ريحاً عاصفاً إسودت الدنيا منه وأظلمت، ففزعت الى شجرة عظيمة فتعلقت بها من شدة العاصفة، فقلعتها الريح وألقتها على الأرض، فتعلقت بغصن قوي من تلك الشجرة فقلعتها الرياح، فتعلقت بفرع آخر فكسرتة الرياح ايضاً، وسارعت فتعلقت بأحد فرعين من فروعها فكسرتة العاصفة ايضاً، ثم استيقظت من نومي، فأجهش النبي صلى الله عليه وآله بالبكاء وفسر لها رؤياها قائلاً: (أما الشجرة: فجدك، وأما الفرع الأول: فأمك فاطمة، والثاني: أبوك علي، والفرعان الآخران هما: أخواك الحسن والحسين، تسود الدنيا لفقدهم وتلبسين لباس الحداد على

يوروا، فيعظم ذلك في صدري، ويشد لما أرى منهم قلقي، فكانت نفسي تخرج، وتبينت ذلك مني عمتي زينب بنت علي الكبرى، فقالت: مالي أراك تجود بنفسك يا بقية جدي وأبي وإخوتي؟

فقلت لها: وكيف لا اجزع ولا اهلع، وقد أرى سيدي وإخوتي وعمومتي، وولد عمي وأهلي مصرعين بدمائهم، مرملين بالعراء، مسلمين، لا يكفنون ولا يوارون، ولا يعرج عليهم احد، ولا يقربهم بشر، وكأنهم أهل بيت من الديلم والخزر؟، فقالت: لا يحزنك ما ترى، فوالله ان ذلك لعهد من رسول الله ﷺ الى جدك وأبيك وعمك... ولقد اخذ الله ميثاق أناس من هذه الأمة لا تعرفهم فراعنة هذه الأرض وهم معروفون في أهل السماوات أنهم يجمعون هذه الأعضاء المتفرقة فيوارونها، وهذه الجسوم المضرجة، وينصبون لهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس أثره ولا يمحو رسمه، على كرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياء الضلالة في محوه وتطميسه فلا يزداد أثره إلا ظهوراً وأمره إلا علواً، فقلت: وما هذا العهد وما هذا الخبر؟ فقالت حدثني أم أيمن.....^(٣١)، وروت حديث أم أيمن

وأهله، وأحاطت به كتاب أهل الكفر واللعة، تزعزت الأرض من أقطارها ومادت الجبال، وكثر اضطرابها، واصطفقت البحار بأمواجها، مماجت السموات باهلها غضبا لك يا محمد ولذريتك، واستهضاما لما ينتهك من حرمتك، ولشر ماتكافي به في ذريتك وعترتك، ولا يبقى شي من ذلك إلا استأذن الله عز وجل في نصره اهلك المستضعفين المظلومين الذين هم حجة الله^(٢٩).

إذا هي عالمة بما سوف يجري (ولكون زينب ؓ عالمة بجميع ما يجري عليها من المصائب والنوائب والمحن وإنها على بصيرة من أمرها قابلت تلك الرزايا والفوادح بجميل الصبر وعظيم الاتزان وقوة الإيمان وكامل الإخلاص)^(٣٠).

لذا نرى أنها بعد الواقعة كانت مستعدة لها بكل جوارحها، وما رواه ابن قولويه القمي (ت ٣٦٧هـ أو ٣٦٨هـ) في كتابه كامل الزيارات لخير دليل على ذلك، فقد روى بسند متصل الى الإمام زين العابدين ؓ انه قال: (لما أصابنا بالطف ما أصابنا، وقتل أبي ؓ وقاتل من كان معه من ولده وإخوته وسائر أهله، وحملت حرمة نساؤه على الاقتاب يراد بنا الكوفة، فجعلت انظر إليهم صرعى، ولم

وأثناء المعركة وبعد ان وضعت الحرب أوزارها على حرم رسول الله وأهل بيته سوف لن يجد الجرأة ولا الشجاعة الكافية لكي يفكر بأية نهضة أو ثورة ضد يزيد وأعوانه.

أما هذه البطلة العظيمة فنجدها قد نفضت عن أكتافها غبار الجولة الأولى، ووقفت على الجسد الشريف لتطلق الرصاصة الأولى معلنة حرباً من نوع آخر تقودها هي بذاتها رغم كل الآلام التي جرت عليها لتدك (حصون الظالمين) وتدمر جميع ما احرزوه من الانتصارات، لتحول الهزيمة الى نصر، وتلحق بمن حسب نفسه انه انتصر الهزيمة والعار، ثم لتملاً بيوتهم مأساة وحزناً.

لقد اقبلت هذه الصخرة الصماء التي لا تحركها العواصف الى ساحة المعركة وهي تشق صفوف الجيش (تفتش عن جثمان اخيها الإمام العظيم، فلما وقفت عليه شخصت لها أبصار الجيش، واستحال الى مستمع، فماذا تقول أمام هذه الخطوب المذهلة التي تواكبت عليها؟، إنها وقفت عليها غير مدهوشة، لم تذهلها الرزايا التي تميد منها الجبال، فشخصت بصرها الى السماء وهي تقول بحماسة الإيمان وحرارة العقيدة قائلة: اللهم تقبل منا هذا القربان،

المتقدم.

من هذه المعرفة الحقة يمكننا تصور دورها قبل الواقعة وبعدها، فهذه الأحاديث قد مهدت في نفسها للواقعة؛ لذا مرت بعدة ادوار بعد ان ارتكب بنو امية أبشع جريمة في تاريخ البشرية سماها عباس محمود العقاد (نكسه الضمير الإنساني)^(٣٢)، فقد صبوا جم حقدهم الدفين في هذه الواقعة، وهذا ما أظهره شعر يزيد الذي تمثل بقول ابن الزبعرى:

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الاسل

لأهلوا واستهلوا فرحاً

ثم قالوا يا يزيد لاتشل

قد قتلنا القرم من أشياخهم

وعدلناه ببدر فاعتدل^(٣٣)

جرى كل هذا ليجعلوا من الحسين عليه السلام عبرة لمن اعتبر؛ حتى لا يقدر لاحد بعد الحسين عليه السلام ان يقوم بهذا النهج ويتابع المسيرة، سواء كان من أهل بيته أم من غيرهم؛ لان من يرى ويسمع بما جرى من أهوال ومصائب على الشيخ الكبير والطفل الصغير، وعلى النساء والمرضى والأطفال،

الأم الحنونة، والزوجة الوفية، والعمّة العظوفة، والخالة الرؤوفة، والأخت المسؤولة، التي لم تكن قدوة للنساء فقط بل وحتى للرجال، فأخذت على عاتقها أدواراً مختلفة يصعب على المرء حصرها، لكننا نشير الى أهم تلك الأدوار؛ لأنها كانت شريكة الإمام الحسين عليه السلام في نهضته عرفت دورها فأجادت تطبيقه.

وأطلقت بذلك أول شرارة للثورة على الحكم الأموي، بعد اخيها، وود الجيش ان تسيخ به الأرض، فقد استبان له عظيم ما اقتترفه من الاثم، وانه قد اباد عناصر الإسلام، ومراكز الوعي والإيمان^(٣٤). فسجلت بذلك موقفاً عظيماً ينم عن عظم شخصها العظيم لتكون بعدها صاحبة الأدوار والمواقف العظيمة؛ لأنها كانت تمثل لمن بقى من آل الرسول

المبحث الثالث:

ادوار السيدة زينب في الميزان

ان المرء ليختار عندما يتحدث عن أدوارها ومواقفها، اذ ان لها مواقف قبل الوصول الى ارض المعركة، كما انه أنيطت لها دوراً أخرى وهي على ارضها، نعم فقد كانت الشرارة الأولى لثورتها قد انطلقت بتلك الصرخة الزينية على الجسد الطاهر في ساحة الوغى، ولكن هذا لا يمنع ان يكون لها دورا قبل ذلك، لكن دورها لحظة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام بدأ شوطاً جديداً مستقلاً عن الحسين عليه السلام؛ لانتهاء دور الإمام الحسين، إذ قدم اغلى ما عنده وبذل روحه في سبيل إعلاء كلمة الحق ورفع راية لا اله إلا الله، فجاء دورها في الجولة الثانية من المعركة وهي جولة الفكر وبيان الحقيقة، جولة الحفاظ على الدماء التي بذلت ان لا تذهب هدراً، جولة شحن النفوس واشعال الثورات، وقطف الثمار، فمن أولى منها بتحمل هذه المسؤولية.

الدور الأول: كشف الحقيقة وبيان عظيم الجريمة:

وقد تجسد هذا الدور في اماكن عدة، أبانت من خلالها الحقائق والمواقف الكبرى والتي ناتي عليها متسلسلة وهي:

١. الوقوف على أجساد الشهداء:

عندما شاهدت الإمام الحسين عليه السلام مقتولاً مسلوب العمامة والردا صاحت باين سعد: (ويحك أبقثت ابو عبد الله وانت تنظر إليه؟! فصرف وجهه عنها ودموعه تسيل على وجهه ولحيته) ^(٣٥) ، فعند ذلك صاحت عليها السلام: (ويحكم، أما فيكم مسلم؟ فلم يجبه احد) ^(٣٦).

فقد أرادت بذلك ان تذكره بان هناك وجه قربي بينه وبين الحسين لكنه تناسى ذلك، فقد شغله الطمع بحكم الري عن معرفة ما يصح وما لا يصح، كذلك أرادت ان تذكر القتلة بأنهم مسلمون على ملة الإسلام، فلو لم يكونوا كذلك ماذا كانوا يفعلون؟!

وعندما مروا بالركب على الشهداء بعد الأسر وقفت عليها لتبين المصيبة التي ارتكبتها هؤلاء القوم، وان كان لكل صاحب مصيبة في هكذا ظرف ان يصدر منه كلام وانين ونياحة وتفجع، لكنها لم تنح هذا المنحى، بل فضلت إثارة الأحزان وكشف الحقيقة وتبيين عظم المصائب، يقول ابن الاثير: (فأقام عمر بعد قتله يومين، ثم ارتحل الى الكوفة ومعه بنات الحسين واخواته، ومن كان معه من الصبيان وعلي بن الحسين مريض، فاجتازوا بهم على الحسين وأصحابه صرعى فصاح النساء ولطمن خدودهن، وصاحت زينب اخته: (يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء، هذا الحسين بالعراء، مرملة بالدماء، مقطوع الأعضاء وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة، تسفى عليها الصبا، فأبكت كل عدو وصديق) ^(٣٧).

فهي عليها بعد ان ذكرتهم بأنهم

مسلمون، فلما لم تجد منهم جواباً تحاول هنا ان تذكرهم - أي جيش عمر بن سعد - بالنبي صلى الله عليه وآله وتشير الى ان الحسين عليه السلام وما جرى عليه من أهوال، وما فعل به هذا الجيش من فعل، ثم تخاطب النبي صلى الله عليه وآله بان بناتك سبايا وذريتك مقتلة، فيا أيها الجيش من فعل هذا؟ أستم قريبي العهد بالنبي وذريته، أستم تعرفون جيداً حرمة النبي، وحرمة بناته وذريته، فتحاول هنا ان تثير الأحزان، وتحرك النفوس الميتة المتعلقة بالدنيا، التي ليس لها الا البكاء على ما جنته أيديها، (فوجم القوم مبهوتين، وفاضت دموعهم، وبكى العدو والصديق، فقد استبان عظيم الجريمة التي اقترفوها وودوا ان الأرض قد ساخت بهم) ^(٣٨).

٣- حديثها مع أهل الكوفة بعد دخول السبايا للكوفة:

خاطبت القوم قائلة: أما بعد يا أهل الكوفة ألا وهل فيكم إلا الصلف النطف، والصدر الشنف؟، خوارون في اللقاء، عاجزون عن الأعداء، ناكثون للبيعة، مضيعون للذمة، فبئس ما قدمت لكم أنفسكم ان سخط الله عليكم وفي العذاب انتم خالدون) ^(٣٩).

٣- حوارها مع ابن زياد:

فقد حاول ابن زياد بعد دخول السبايا الى مسجد الكوفة ان يبين للملأ انه على حق، وانه قد انتصر في هذه المعركة، وليس عليه أي ملامة، بل يدعي ان الله فضح الحسين وأهل بيته عليهم السلام فقال لها: الحمد لله الذي فضحككم واكذب أحدوثكم^(٤٢)، وليته لم يقرع سمعها عليها السلام بهذه الكلمات حتى لاتعمد الى أهانتها بهذه الطريقة التي تدل على أنها ورثت شجاعة أبيها حيدرا الذي كان يقول الحق في كل زمان ومكان لا يخشى لومة لائم، فأجابته قائلة: (الحمد لله الذي اكرمنا بنبيه محمد صلى الله عليه وآله وطهرنا من الرجس تطهيراً وانما يفتضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا والحمد لله ^(٤٣)، فأجابها الفاسق ابن زياد: (كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ قالت: كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم، وسيجمع الله بينك

فقد بدأت خطبتها او كلامها معه بحمد الله الذي من بها على اهل بيت النبوة، اذ اكرمهم بنبوة محمد صلى الله عليه وآله، وانما ارادت بذلك بيان قربها من رسول الله صلى الله عليه وآله لتذكر الجمع انها من هذا البيت، فكانت كلماتها على رأس ابن زياد اشد من حد السيف؛ لانها وكما هو

حينما رأت حفيدة الرسول صلى الله عليه وآله زينب الجموح الزاخرة التي ملأت الشوارع والازقة، وقد أحاطت بها، اندفعت الى الخطابة لبلورة الرأي العام وإظهار المصيبة الكبرى والجريمة العظيمة التي ارتكبت وهدت أركان العالم الإسلامي، فقد بينت لهم (بخطابها البليغ، وعرفتهم زيف إسلامهم، وكذب دموعهم، وإنهم من احط المجرمين، فقد اقترفوا أفضع جريمة وقعت في الأرض، فقد قتلوا المنقذ والمحرر الذي أراد لهم الخير، وفروا بقتله كبد رسول الله صلى الله عليه وآله وانتهكوا حرمة، وسبوا عياله، فأى جريمة أشع من هذه الجريمة)^(٤٠).

فقالت: (أتدرون ويلكم يا أهل الكوفة أي كبد لرسول الله صلى الله عليه وآله فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتكم؟، لقد جئتم شيئاً ادا، تكاد السموات يتفطرن منه، وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا)^(٤١).

الى آخر خطبتها التي أبكت العيون، وجعلت أهل الكوفة يجرون الحسرة والندامة على ما فرطوا في جنب الله، فقد رمتهم سهاما لا تخطيء الفؤاد، وبالسن حداد أهون منها سيات الجلاذ، فقد أخذتهم بسخط الله ورسوله عليهم.

بوجه ابن زياد وبوجه له الاهانة في مجلسه
وامام المأ.

٤- حين دخول السبايا سجن الكوفة:

فبعد هذا الذي صدر منها أمر ابن زياد بحسبهم في دار جنب المسجد الأعظم، فطلبت زينب عليها السلام من العسكر قائلة: (لا تدخلن علينا عريية إلا أم ولد او مملوكة فأنهن سُبِين كما سِيننا)، هذه الكلمات أطلقتهما تريد بها: ان تشيع خبراً بين الناس وهو عدم دخول أي حرة وأي سيدة على نساء آل البيت عليهم السلام، فهناك غضبٌ عليهن، فهن معزرات، بينما نساء آل البيت قد سبين، نعم يحق لام ولد أو مملوكة الدخول عليهن، فكانت سياستها واضحة؛ وهي محاولة إثارة حفيظة نساء أهل الكوفة؛ فلماذا يحق للمملوكة ولأم الولد الدخول ولا يحق لهن ويحرم من التقرب إليها ومن معها، والاطمئنان عنها، والاعتذار إليها؟ فأجابت عن هذا التساؤل بنفسها: (لأنهم سُبِين كما سُبِيننا)، فحاولت بيان حجم المعاناة والمأساة التي مرت عليهن، وعظم المصيبة، وبالتالي فضح سياسة يزيد وابن زياد، وما فعله أهل الكوفة؛ لتؤجج النفوس وتلهب المشاعر

واضح وجلي بمناسبات المقام وباسلوب اللغة العربية انها تعنيه هو بالذات وانه هو الفاجر الكاذب، والفاسق المفتضح، فتكون بذلك قد وبينهم فتحاجون اليه وتختصمون عندها، فغضب ابن زياد واستشاط فقال لها: لقد شفا الله نفسي من طاغيتك والعصاة من اهل بيتك، فقالت: لعمرى لقد قتلت كهلي، وابرت اهلي، وقطعت فرعي، واجتثت اصلي، فان يشفك هذا فقد اشتفيت) ^(٤٤).

وفي رواية ابن اعثم الكوفي والسيد ابن طاووس ان ابن زياد لما سأل زينب عليها السلام قائلاً: كيف رأيت صنع الله بأخيك واهل بيتك، قالت: ما رأيت الا جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم، وسيجمع الله بينكم وبينهم يا ابن زياد فتحاجون وتخاصمون فأنظر لمن الفلج يومئذ تكلتك امك يا ابن مرجانه ^(٤٥).

اكملت خطتها في فضح ابن زياد في مجلسه وامام مرئى ومسمع من الجميع، فتكون بذلك قد القمته حجرأ على الرغم من لوعتها وأساها وضعفها بينت له ولمن يحضر مجلسه انها هي الاقوى. وشجاعتها هذه هي التي فتحت الباب امام عبد الله بن عفيف الازدي، ذلك الرجل الضرير ليقوم

تطهيراً، كيف ان هذا الطاغية قد هتك ستورهن، واصبح يتصفح وجوههن القاصي والداني، البعيد والقريب، الدنيء والشريف، ليس معهن حامٍ ولا راعٍ؛ لذا قامت العقيلة خاطبة فقالت: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على رسوله واله اجمعين، أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا، قد هتكت ستورهن وأبديت وجوههن، تحدو بهن الأعداء من بلد الى بلد، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل، ويتصفح وجوههن القريب والبعيد والدني الشريف، ليس معهن من حمائهن حمي ولا من رجالهن ولي...^(٤٦).

واذا بيزيد يشبك عشراً على رأسه ويحول بعينه يمنة ويسرة، ماذا يقول عنه الناس؟ وماذا يفعل؟ كيف الخلاص من هذه الفضيحة؟ من جاء بهذه المرأة؟ فقد كان الهدف من هذا الاجتماع ان يفرح بنشوة النصر؛ واذا به ينقلب هما وغما وفضيحة. لقد كان النصر مكللاً في القصر، فاذا به ينقلب عزاء وبكاء على آل الرسول، وقف حائراً، وكأنه به يقول: (كنت قبل دقائق انا الأمير، وهذه رؤوس وسبايا الخوارج، فإذا بي أصبح أنا الخارج عن الدين وتنكشف حقيقة

وتهيء للشورة، والنهوض ضد الظلمة وأعوانهم، وتحرك الرأي العام ضد السياسة الأموية التي سعت إلى إيذاء النبي ﷺ بعترته وأهل بيته، كذلك فعلت عندما دفعت بالصدقات وردتها عندما حاول بعض أهل الكوفة إعطائها للأطفال في موكب السبي بقولها: (نحن اهل بيت لا تحل علينا الصدقة)، وهذا تأكيد آخر ارادت من خلاله ايضاح امرهم بانهم لحمة رسول الله ﷺ.

٥- حين الرحيل إلى الشام وفي مجلس يزيد:

لا نريد هنا سرد كلامها أو خطبتها في مجلس يزيد كاملاً لئلا يطول بنا المقام ولكن نورد بعضاً منه. والذي نريد قوله: انها في هذه الخطبة قد أوضحت لمن كان قد حضر في مجلس يزيد مهنتاً بالانتصار على الخارجين عن حكمه ان هذه السبايا وهذه النسوة المسيبات إنما هم أبناء صاحب الرسالة ﷺ، لا كما اخبر يزيد إنهن خارجيات، بل هن اقرب شيء لصاحب الرسالة واشد عروة به، وأوثق لحمة له.

ان اقرب عهد ببيت النبوة ذلك البيت الذي اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم

هذه الرؤوس وهذه السبايا لأنها اقرب شيء إلى الدين وإلى النبي.

(كيف يستبأ في بغضنا أهل البيت من نظر إلينا بالشفن والشنان والإحن والاضغان، منحنيا على ثنايا أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكثها بمخصرتك، وكيف لا تقول ذلك وقد نكات القرحة واستأصلت الشأفة؛ بإراقتك دماء ذرية محمد ﷺ ونجوم الأرض من آل عبد المطلب).

(ولتردن على رسول الله ﷺ بما تحملت من سفك دماء ذريته وانتهكت من حرمة في عترته ولحمته حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ لهم بحقهم، ولا تحسين الذين قتلوا في سبيل الله امواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون وحسبك بالله حاكماً وبمحمد ﷺ خصيماً وبجبرئيل ظهيراً، إلا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء).

(هذه الأيدي تنطف من دمائنا، والأفواه تتحلب من لحومنا، وتلك الجثث الطواهر الزواكي تتناهبها العواسل وتعقرها أمهات الفراعل، ولئن اتخذتنا مغنماً لتجدننا وشيكاً مغرمًا حيث لا تجد إلا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد)^(٤٧).

هذه خطبتها أمام طاغية العصر يزيد، رغم انه لم يكن يدور في خلدتها انها ستخطب يوماً ما في مجتمع كبير حاشد بالأعداء والشامتين، ولكن قاتل الله الظروف التي أبرزتها حتى خطبت، وهي التي كانت لا يرى لها شخص، ولا يسمع لها صوت.

وكأنما الظروف نفسها التي أخرجت امها الزهراء ﷺ الى مسجد رسول الله ﷺ حين خطبت خطبتها الشهيرة.

الدور الثاني: الحفاظ على البقية من أهل بيت النبوة ﷺ:

يعد حفاظها على عيال وأطفال الحسين ﷺ من أبرز ما قامت به، فقد قامت بجمعهم ومواساتهم، ثم بحراستهم في الليل والسهر عليهم بعد ذلك اليوم العسير.

يقول السيد محسن الأمين: (وكان لزينب ﷺ في واقعة الطف المكان البارز في جميع الحالات وفي المواطن كلها، فهي التي كانت تمرض العليل وتراقب احوال أخيها الحسين ساعة بساعة وتخاطبه وتسأله عن كل حادث، وهي التي كانت تدبر امر العيال والأطفال، وتقوم في هذا مقام الرجال^(٤٨)، ونحاول هنا الوقوف على أهم

د. أمل سهيل عبد الحسيني □

اللحظات الحرجة؛ لتنقذ هذا الدين وتحفظ البقية الطاهرة من آل الرسول ﷺ، أما في مجلس يزيد الطاغية، فكان لها صولة عندما حاول احد الحضور ان يأخذ فاطمة بنت علي ﷺ بقوله ليزيد: يا أمير هب لي هذه الجارية^(٥١)، فدار بينها وبين يزيد حوار طويل بعد ان تعلقت بها فاطمة طالبة النجدة منها يكشف عن حقيقة مبدئها في الدفاع عن الرسول.

الدور الثالث: بث العلم والمعارف والرجوع إليها في الأحكام:

بعد ان عادت الى مدينة جدها ﷺ كان دورها بارزاً في عودة الشيعة والموالين في اخذ العلوم عنها والأحكام؛ لأن الامام السجاد كان تحت المراقبة الشديدة، فلم يؤت الفرصة الكافية من اجل ذلك.

فقد أورد الصدوق في كمال الدين وتمام النعمة رواية عن حكيمة أخت الامام العسكري طويلة تأخذ هنا موضع الشاهد، يقول الراوي: فقلت لها: اقتدي بمن وصيته الى المرأة؟ فقالت: اقتداء بالحسين بن علي بن أبي طالب، ان الحسين بن علي ﷺ أوصى الى أخته زينب بنت علي بن أبي

المواقف الحساسة التي كان لها دور بارز في الدفاع عن العيال والأطفال لا سيما الامام السجاد ﷺ، فقد تعرض الإمام السجاد لمحاولة القتل والتصفية أكثر من مرة، مرة عندما حاول الشمر (لعه الله) فتعلقت به قائلة: (لا يقتل حتى اقتل دونه)، فكف اللثم عنه، ولولا السيدة زينب لمحيث ذرية أخيها الحسين^(٤٩)، كذلك حاولت التخفيف عن آلامه ﷺ، وكما أسلفنا من حديثها معه حينما رآته على المحمل وهو يوجد بنفسه فخففت عنه عندما ذكرته بحديث أم أيمن المتقدم.

كذلك أنقذته من القتل في مجلس عبيد الله بن زياد في الكوفة حينما وقف الامام السجاد وقفته الشجاعة امام عبيد الله، فهدهه عبيد الله بالقتل، وأمر جلاوزته بقتله فتعلقت به وقالت: (يا ابن زياد، حسبك من دمائنا، واعتنقته وقالت: والله لا أفارقه، فان قتلته فاقتلني معه، وفي رواية ابن طاووس: ان الامام قال لابن زياد: (أبالقتل تهددني يا بن زياد أما علمت ان القتل لنا عادة وكرامتنا من الله الشهادة^(٥٠))، فهذا الموقف من الامام ﷺ كفيل ان يعرضه للقتل لولا الموقف الزينبي الخالد، التي كان تدخلها في

ليس موقف الضعيف ولا المستكين - كما يصفها بعض أرباب المنابر - إنما هو موقف صاحب الثورة، وصاحب الحق والقضية التي لا يتخلى عنها بأعلى الأثمان.

أما قولها ليزيد: (فمهلاً مهلاً لا تطش جهلاً، أنسيت قول الله تعالى: (ولا تحسبن الذين كفروا إنما نملي لهم خيراً لأنفسهم إنما نملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذاب مهين.... فوالله ما فريت إلا جلدك ولا حززت إلا لحمك ولئن جرت عليّ الدواهي مخاطبتك إنني لاستصغر قدرك واستعظم تقربك واستكبر توبيخك، لكن العيون عبرى والصدور حرى، إلا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء بحزب الشيطان الطلقاء)^(٥٤). فمن يا ترى غير زينب ابنة علي الذي صرع الأبطال تستطيع أن تقف أمام يزيد الطاغية وتنطق بهذه الكلمات، فهي لا تعباً به، ولا تقيم له وزناً، فقد أخرجته بكلامها عن الدين القويم، ونعته بالكفر والجهل والطيش، وهي تستصغر قدره.

فهذه الكلمات أظهرت روح الثورة على يزيد وحكمه، وبدت لا تهزها الحوادث التي جرت، بل ستواصل الطريق والنهج لكي يبقى ذكر أهل البيت ويمحى يزيد وآل أمية

طالب في الظاهر، وكان ما يخرج من على بن الحسين من علم ينسب إلى زينب بنت علي تستراً على علي بن الحسين، ثم قالت: أنكم قوم أصحاب أخبار، أما رويتهم إن التاسع من ولد الحسين عليه السلام يقسم ميراثه وهو في الحياة)^(٥٢).

فعلى هذه الرواية الصريحة يكون دورها عليها السلام ورجوع الشيعة إليها في أمورهم، تستراً على الإمام السجاد عليه السلام وحفاظاً عليه. يقول الصدوق: (كانت زينب لها نيابة خاصة عن الحسين عليه السلام، وكان الناس يرجعون إليها في الحلال والحرام حتى برىء زين العابدين من مرضه)^(٥٣).

الدور الرابع: متابعة المسيرة الحسينية والنهج المحمدي:

لم تترك عقيلة الهاشميين فرصة لفضح يزيد إلا استغلتها، فقد فضحت جيش عمر بن سعد، وأسكتت أهل الكوفة ووبختهم، وتهجمت على ابن زياد، فهي عليها السلام عندما تقول لابن زياد: فتحاج وتخاصم، فانظر لمن الفلج يومئذ نكلتلك أمك يا ابن مرجانة، فكلامها هذا ثورة، وتهجمها على الطاغية، تدعو عليه بالفقد والموت، وتوبخه، وهذا

عن خطب رامت من ورائها الحوراء بث روح الثورة والحماس ضد الظلم وضد الطاغية، ففي الكوفة حاولت زرع روح اللوعة والندم على ما جرى، حينما القت بالملامة عليهم وحملتهم تبعات ما حصل، وكان هذا وحده كفيلاً بتأجيج النفوس ولهب الأرواح، كذلك ما فعلت في مجلس يزيد بحيث حولت المجلس الى مجلس فجيعة على ما حصل؛ اذ رأى المسلمون في السبايا من الفجيعة اكبر ما رأوا من قتل الحسين (ع) (عنه السلام) وأهل بيته. من هنا فهم الصحابة معنى قول الامام الحسين: (شاء الله ان يراهن سبايا)، فقد صحب الحسين عليه السلام النساء معه عن قصد وتصميم ليطوف بهن الأمويون في البلدان، ويراهن كل إنسان وتعلن بلسان الحال: (ايها المسلمون، انظروا ما فعلت امية التي تدعي الاسلام بأل نبيكم).

ولنفرض ان زينب عليها السلام بقيت في المدينة، وقتل الحسين عليه السلام في كربلاء، فماذا تصنع؟ وأي شيء تستطيع القيام به غير البكاء وإقامة العزاء، أما الآن فهي قد استطاعت ان توصل الرسالة واستطاعت ان تدمر ما أحرزه يزيد من انتصارات، ملحقة به الهزيمة والعار.

من ذاكرة التاريخ، فقالت له: (فكد كيدك واسع سعيك وناصب جهدك، وفو الله لا تمحو ذكرنا ولا تميمت وحيننا ولا تدرك امرنا ولا تدحض عنك عارها وهل رأيك الا فند وأيامك إلا عدد، وجمعك الا بدد يوم ينادي المنادي الا لعنة الله على الظالمين)^(٥٥). يقول محمد جواد مغنية: (كيف قابلت السيدة هذه الصدمة والأحداث الجسام: هل أصابها ما يصيب النساء في مثل هذه الحال من الاضطراب واختلال الأعصاب؟ هل هيمنت عليها العاطفة العمياء التي لا يبقى معها اثر للعقل أو الدين؟ وبالتالي، هل خرجت عن حدود الاتزان والاحتشام؟، حاشا بنت النبي وفاطمة وعلي وأخت الحسين، وحفيدة الكبرى ان تتمكن منها العواطف أو تززعها العواصف، فلقد نزلت بها عن معنى من اسمى معاني الكمال والجلال، وعن سر من أسرار الإيمان النبوي المحمدي، وان اعتصامها بالله، وإيمانها به تماماً كإيمان جدها رسول الله)^(٥٦).

الدور الخامس: استنهاض الأمة وبث روح الثورة فيها وتحميلها المسؤولية:

قرأنا خطبها في الكوفة وفي الشام، وفي كل مكان مرت به السبايا وكلها كانت عبارة

هي زينب عليها السلام التي جعلت من مصرع أخيها الشهيد مأساة خالدة وصيرت من يوم مقتله ماتماً سنوياً للأحزان والألام، وكذلك كانت زينب عليها السلام عقيلة بني هاشم في تاريخ الإسلام وتاريخ الإنسانية: بطلة استطاعت أن تتأثر لأخيها الشهيد العظيم، وان تسلط معاول الهدم على دولة بني امية، وان تغيّر مجرى التاريخ^(٥٩).

وهكذا صار واضحاً في كل زمان معنى مقولة الامام الحسين عليه السلام: (شاء الله ان يراهن سبايا)؛ نتيجة ما قامت به زينب وحرائر الرسالة، والى ذلك أشار العلامة كاشف الغطاء بقوله: (وهل تشك وترتاب في ان الحسين عليه السلام لو قتل هو وولده، ولم يتعقبه قيام تلك الحرائر في تلك المقامات بتلك التحديات لذهب قتله جباراً، ولم يطلب به احدٌ تاراً، ولضاع دمه هدرًا، فكان الحسين عليه السلام يعلم ان هذا عمل لا بد منه، وانه لا يقوم به إلا تلك العقائل، فوجب عليه حتماً ان يحملهن معه، لا لأجل المظلومية بسببهن فقط، بل لنظر سياسي وفكر عميق وهو تكميل الفرص وبلوغ الغاية من قلب الدولة على يزيد، والمبادرة الى القضاء عليها قبل ان تقضي على الاسلام، وتقود الناس

يقول باقر شريف القرشي: (وقد قمن تلك السيدات بدور مشرف في إكمال نهضة أبي الشهداء عليه السلام فأيقظن المجتمع بعد سباته، واسقطن هيبة الحكم الأموي، وفتحن باب الثورة عليه، ولولاهن لم يتمكن احد ان يفوه بكلمة واحدة أمام ذلك الطغيان الفاجر، وقد ادرك ذلك كل من تأمل في نهضة الامام ودرس ابعادها)^(٥٧).

وقد أثار إصرارهن وصبرهن إعجاب من كان على نهجهم أم لم يكن، فهذه بنت الشاطيء تقول: (لم تمض زينب عليها السلام الا بعد ان أفسدت على ابن زياد ويزيد لذة النصر، وسكبت قطران من السم الزعاف في كؤوس الظافرين!)، فكانت فرحة لم تطل... وكان نصراً مؤقتاً لم يلبث ان أفضى الى هزيمة قضت اخيراً على دولة بني امية، فلم تكذب زينب عليها السلام تخرج من عند يزيد حتى احس ان سروره بمقتل الحسين عليه السلام قد شابه كدراً خفي، ظل يزداد حتى استحال الى ندم، كدر صفو الأعوام الثلاثة الأخيرة من حياته، ولحق منه بابن زياد شر كثير)^(٥٨).

وهاهي بنت الشاطيء تعترف بان زينب هي من حولت ملحمة الطف الى مهرجان سنوي يحتفل به المسلمون فتقول: (اجل

الى جاهليتها الأولى... (٦٠).

هذه إذاً أدوارها عليها السلام التي قامت بها على أتم وجه ممكن، ورسمت مع أخيها معالم الطريق من انطلاقة الحسين عليه السلام حتى استشهادها، ومن ركب السبايا حتى استقرارها في المدينة وقد خططت سلام الله عليها معه لكل ذلك بصدق وإخلاص وتضحية: يا أباي الله إلا أن يئتم نوره وكو كره الكافرون (التوبة: ٣٢).

نعم، لقد تأرت عليها السلام لأخيها وأهل بيتها، أيما تأراً، فقتل يزيد وابن مرجانة وكل من شارك بقتل شهداء الطف، وقامت الثورات، سقطت دولة بني أمية، ولكن الأسمى من هذا وذلك هو خلود دين جدها محمد صلى الله عليه وآله بسبب تضحيات هذه العقيلة الطاهرة، وهذه الثلة من النسوة الصابرات فتحققت كل تلك النبوءات عندما قالت قولتها ليزيد: (فو الله لاتمحو ذكرنا، ولا تميت وحيننا، ولا تدرك أمرنا، ولا ترحض عنك عارها وهل رأيك الا فند، وأيامك الا عدد، وجمعك الا بدد...)، وكذلك ما تنبأت به عند حديثها مع الامام السجاد قد تحقق ايضاً فقد قالت له: (... وينصبون بهذا الطف علماً لقبر أبيك سيد الشهداء لا يدرس اثره ولا يعفو رسمه على

كرور الليالي والأيام، وليجتهدن أئمة الكفر وأشياع الضلالة في محوه وتطميسه فلا يزداد اثره الا ظهوراً وأمره الا علواً، فهذا المرقد الشريف قد تألق في الفضاء وعانقت منائره السماء وصار قبلةً للزائرين من أنحاء الدنيا، ومالداً لأصحاب الحوائج المتعسرة التي يصعب حلها الا من كان عنده حظ في الأنام كالحسين بن علي وآله الأطهار.

هذه الكوكبة من النساء الطاهرات اللواتي حملن مشعل الكرامة والحرية، وقمن بما لا يقوم به الرجال، وكان لكل واحدة من هذه العناصر النسوية لمن كان لها ارتباط بالمعسكر الحسيني دوراً رائعاً بقيت الأجيال تتحدث عنه، لكننا اليوم نحس إننا أمام مشكلة تعاني منها بناتنا ونساؤنا؛ وهي افتقارهن الى القدوة الحسنة؛ وذلك لأنهن لم يقرأن التاريخ جيداً وخصوصاً تاريخ واقعة الطف؛ لذا افتقرن الى المثل الاعلى المتمثل بزینب عليها السلام والثلة الصالحة من المؤمنات اللاتي كن معها في واقعة الطف عندما حولن الهزيمة الى نصر، وحققن ماعجزت السيوف عن تحقيقه - مع قلة الناصر وكثرة الاعداء - فالمسلمات من أخواتنا السنيات بصورة خاصة قد حرمن أنفسهن من هذا التراث الضخم لأهل البيت عليهم السلام؛ وذلك لعدم

المستحيل، فهي وحدها تستطيع ان تكون زينب في كل عصر وزمان، وكذلك هي وحدها تستطيع ان تكون هند بنت عتبة - زوجة ابو سفيان - وتنزل الى مستوى اقل من مستوى الحيوان.

٢ - هذه النساء الخالدات حولن الهزيمة الى نصر، فسقطت أصنام وأصنام على مر التاريخ والأعوام.

٣ - ان الارض لا تخلو من مثل هذه الماجدات الصابرات على مر التاريخ وحتى في عصرنا الحاضر، لكن نهضة الحسين عليه السلام جمعت كل مقومات الحياة الكريمة، فكانت نهضته مثلاً رائعاً لكل الشعوب، وكان للمرأة دورٌ كبيرٌ فيها.

٤ - ان الحوراء زينب عليها السلام أخذت على عاتقها ادواراً مختلفة يصعب على المرء حصرها، فكان أهمها هو تفصيل وتكريس الأهداف التي من أجلها نهض الامام الحسين عليه السلام؛ وذلك بعد شهادته، أو لنقل تكميل ذلك الدور واستمراريته، فقد وقع على عاتقها ان التاريخ لا يستطيع نسيان ذلك الدور، ولولا جهودها لما اثمرت تلك النهضة المباركة بهذا الشكل الذي اثمر.

دراستهن سيرة السيدة زينب عليها السلام - الا ما قلَّ منهن - والنسوة اللاتي كن معها اللاتي بذلن الغالي والنفيس والأهل والولدان، والمال والأزواج من اجل المبادئ والدين، أما نحن الشيعيات، فإن الكثرة الكثيرة قد فاتهن هذا النموذج الحسن أو لنقل أنهن قد تناسين هذا الإرث العظيم عن هؤلاء النسوة الصامدات، أما التلة المؤمنة منهن فقد سرن على الطريق القويم، وواسين زينب وأخواتها المؤمنات الأخريات بما قدمن للإسلام والمسلمين، فهذه أمنة الصدر (بنت الهدى)، وتلك فاطمة الطالقاني، وهذه أحلام، وهذه... وهذه... ممن سرن على طريق زينب الحوراء قد حققن النصر على العدو، وحولن دماءهن الزاكية الهزيمة الى نصر، فتغيرت الموازين بصبرهن وجهادهن فسقط الصنم، يزيد العصر، صدام المجرم، وسقطت معه دولة التجبر والطغيان الى الأبد.

الخاتمة والنتائج

قدمنا في هذه الوريقات القليلة نماذج متعددة لثناء شاركن في المعسكر الحسيني، فكن بحق مثلاً يحتذى به خالصنا من هذه المشاركة الى:

١ - المرأة هي الوحيدة القادرة على صنع

- القرآن الكريم خير ما نبتدأ به
- (١) علل الشرائع: الصدوق: أبو جعفر محمد بن علي بن الحسين (ت: ٣٨١هـ) ١/١٧٧. المكتبة الحيدرية، النجف ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦م.
- (٢) ذو الشهادتين: هو خُزَيْمَةُ بن ثابت الصحابي، ويقال له ذو الشهادتين لان رسول الله جعل شهادته شهادة رجلين، المجلسي: بحار الأنوار ١٤١/٢٢.
- (٣) كشف اليقين: العلامة الحلي: الحسن بن يوسف بن المطهر (ت: ٧٢٦هـ) تح: حسين دركاهي، طهران، ١٤١١هـ - ١٩٩١.
- (٤) بحار الأنوار: المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ) ١٦/٢٩٧، دار احياء التراث العربي - بيروت، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣.
- (٥) مختصر بصائر الدرجات: الحسن بن سليمان الحلي (ت: ٩٠هـ)، ١٣٢، المطبعة الحيدرية، النجف، ط ١، ١٣٧٠هـ - ١٩٥٠.
- (٦) انظر: إِبصار العين في أنصار الحسين: محمد بن طاهر السماوي، تحقيق محمد جعفر الطبسي، ص ٢٥، مركز الدراسات الإسلامية لحرس الثورة، ط ١، ١٤١٩هـ.
- (٧) انظر: أعلام النساء المؤمنات: محمد الحسون، أم علي مشكور ص ٥٤٤ - ٥٤٥، دار الأسوة، إيران، ط ٢، ١٤٢١هـ.
- (٨) معالي السبطين في أحوال السبطين الإمامين الحسن والحسين: محمد مهدي المازندراني الحاييري، ص ٢٠٨، دار التراث الإسلامي، بيروت، لبنان (د.ت).
- (٩) الملهوف على قتلى الطفوف: رضی الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس (ت: ٦٦٤هـ) ص ١٥٣، دار الأسوة، إيران، ط ١، ١٤١٤هـ.
- (١٠) تاريخ الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت: ٣١٠هـ) ٣/٤٤٩، دار الاميره للطبع، بيروت، ط ١، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥.
- (١١) بحار الأنوار الجامعة لدرر اخبار الأئمة الأطهار: محمد باقر المجلسي (ت: ١١١١هـ) ٣٧٢/٤٤، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣.
- (١٢) اعلام النساء المؤمنات: محمد الحسون ص ٣٩٣، مصدر سابق.
- (١٣) انظر: معجم أنصار الحسين (النساء) محمد صادق محمد الكرباسي، ص ١٠٣ - ١٠٤. المركز الحسيني للدراسات - لندن، المملكة المتحدة، ط ١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩.
- (١٤) م. ن، ص ٢١٨.
- (١٥) الملهوف على قتلى الطفوف: ابن طاووس ص ٤٤.

- (١٦) بحار الأنوار: المجلسي ٣٩٠/٤٤ مصدر سابق.
- (١٧) رباحين الشريعة في ترجمة عالمات نساء الشيعة: الشيخ ذبيح الله المحلاقي، ٣/ ٣٠٤، دار الكتب الإسلامية.
- (١٨) مقتل الامام الحسين ×: الخوارزمي، ابو المؤيد الموفق بن احمد المكي أخطب خوازم (ت: ٥٦٨هـ) تح: محمد السماوي ص ٥٥، نشر مكتبة المفيد، قم.
- (١٩) انظر معجم أنصار الحسن: محمد صادق محمد الكرباسي ص ١٠٩٠ مصدر سابق).
- (٢٠) انظر معالي السبطين في أحوال الحسن والحسين: الحائري ص ١٠٣.
- (٢١) الملهوف على قتل الطفوف: ابن طاووس، ص ١٠٨ (مصدر سابق).
- (٢٢) أعيان الشيعة: محسن الأمين، ٤٤٩/٦، دار التعارف للمطبوعات، ط ٥، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- (٢٣) تاريخ الطبري: الطبري، ٤٨٨/٣ (مصدر سابق).
- (٢٤) أسد الغابة في معرفة الصحابة: ابن الاثير، ابو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم، ٤٦٩/٥، المكتبة الإسلامية، طهران.
- (٢٥) انظر: الامامي الشريف المرتضى علي بن حسين الموسوي العلوي، تحقيق ابو الفضل إبراهيم ٣٤٧/٢ دار احياء التراث العربي - القاهرة ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤.
- (٢٦) انظر اعلام النساء: علي محمد علي دخيل ص ٢٧٦ - ٢٧٧٨، الدار الإسلامية بيروت - لبنان، ط ٣، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢.
- (٢٧) انظر المصدر نفسه ص ٢٧٠.
- (٢٨) صحيح الترمذي ٣٠٨/٢١، عن كتاب (السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الإسلام) باقر شريف القرشي ٦٤، دار المحجة البيضاء، لبنان، ط ١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١.
- (٢٩) كتاب كامل الزيارات: ابو القاسم جعفر بن محمد بن قولويه القمي (٣٦٨هـ) تح: جواد الفيومي ص ٤٤٢ - ٤٤٥.
- (٣٠) وفيات الائمة: مجموعة من علماء البحرين والقطيف، مكتبة السعادة، القاهرة، ط ١، ١٩٧٢.
- (٣١) كامل الزيارات: ابن قولويه القمي ص ٤٤٤ - ٤٤٥.
- (٣٢) علي وبنوه: عباس محمود العقاد، ص ٤١، مكتبة السعادة، القاهرة، ط ١، ١٩٧٢.
- (٣٣) مقاتل الطالبين: أبو الفرج الأصفهاني (ت: ٣٥٦هـ) ص ٨٠. مؤسسة دار الكتاب، قم، ط ٢، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥.
- (٣٤) حياة الامام الحسين ×: باقر شريف القرشي، ص ٣٠٢ - ٣٠٣، مطبعة الآداب، النجف الاشرف، ط ١، ١٩٧٥.
- (٣٥) الكامل في التاريخ: ابن الاثير، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني، (ت: ٦٣٠هـ) ٣/ ٤٣٤ دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧.
- (٣٦) الارشاد في معرفة حجج الله على العباد: المفيد: محمد بن محمد بن النعمان العكبري (ت: ٤١٣هـ) دار

- المفيد، بيروت، ط ٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣.
- (٣٧) الكامل في التاريخ: ابن الاثير ٤٣٤/٣، مصدر سابق.
- (٣٨) السيدة زينب بطلة التاريخ ورائدة الجهاد في الاسلام: باقر القرشي ص ٢٥٢.
- (٣٩) الامالي: المفيد، ٣٢٢، تحقيق: علي اكبر الغفاري، المطبعة الاسلامية، قم، ط ٢، ١٤١٤هـ.
- (٤٠) السيدة زينب بطلة التاريخ: باقر القرشي، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ مصدر سابق.
- (٤١) مثير الأحزان: ابن نما الحلبي: محمد بن جعفر بن ابي البقاء (ت: ٦٤٥هـ) ص ٧٢.
- (٤٢) م. ن ص ٧١.
- (٤٣) الإرشاد: المفيد، ١١٥ مصدر سابق.
- (٤٤) المصدر نفسه، ١١٥.
- (٤٥) الملهوف على قتلى الطفوف «: ابن طاووس ص ٢٠٠ - ٢٠١ مصدر سابق.
- (٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٠٢.
- (٤٧) م. ن ص ٢١٥.
- (٤٨) م. ن، ص ٢١٦.
- (٤٩) اعيان الشيعة: محسن الامين ٧/ ١٣٧.
- (٥٠) السيدة زينب بطلة التاريخ: باقر القرشي ص ٢٥٤.
- (٥١) الملهوف على قتلى الطفوف: ابن طاووس ص ٢٠٢.
- (٥٢) الامالي: الصدوق، ٢٣١، مؤسسة البعثة، قم، ط ١، ١٤١٧هـ.
- (٥٣) كمال الدين وتمام النعمة: الصدوق، ص ٥٠١، مكتبة الصدوق ايران، طهران ١٣٠٠هـ.
- (٥٤) وفيات الائمة: مجموعة علماء البحرين والقطيف، مصدر سابق.
- (٥٥) الملهوف على قتلى الطفوف: ابن طاووس، ص ٢٠٣.
- (٥٦) المصدر سابق، ص ٢٠٤.
- (٥٧) الحسين وطلعة كربلاء: محمد جواد مغنبة، ص ٤٢ - دار الجواد بيروت، لبنان، ط ٤، ١٤٠٤هـ.
- (٥٨) حياة الامام السجاد، باقر القرشي ٢/ ٢٩٧.
- (٥٩) تراجم سيدات بيت النبوة: بنت الشاطيء ص ٧٩٠، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.
- (٦٠) المصدر نفسه، ص ٨٠٢.
- (٦١) تقلاً عن كتاب حياة الإمام الحسين: باقر القرشي ٢/ ٢٩٧.

من اعلام الشيعة

من أعلام الشيعة: الفقيه أبي الصلاح الحلبي (٣٧٤-٤٤٧هـ)

هيئة التحرير

تقي الدين بن نجم الدين بن عبيد الله الحلبي المعروف بأبي الصلاح الحلبي (٣٧٤ - ٤٤٧ هـ)، فقيه و متكلم إمامي، عاش في القرن الرابع والخامس الهجري، ومن تلامذة الشريف المرتضى، والشيخ الطوسي، وسالار.

عده غير واحد من علمائنا الرجاليين خليفة المرتضى في البلاد الحلبية، ومن أبرز تلامذته ابن البراج، ومحمد بن علي الكراجكي، وأما آراؤه الفقهية فهي متقاربة إلى حد كبير من مدرسة بغداد الفقهية، وعميدها الشريف المرتضى.

ولد بتاريخ ٣٧٤ هـ بمدينة حلب في سورية، وقد ذكرت بعض المصادر ولادته بتاريخ ٣٤٧ هـ، ولعل الأصح هو الأول لاحتمال وقوع التصحيف.

من أساتذته: الشريف المرتضى، حيث ذكروا أنه دخل العراق ثلاث مرات وقرأ على يد الشريف المرتضى حتى عدّ خليفة المرتضى في البلاد الحلبية، ومن أساتذته الشيخ الطوسي، وسالار.

تخرج على يديه العديد من العلماء
والرواة، ومنهم:

ثابت بن أسلم الحلبي، والذي خلفه في
مسند بعد وفاته.

القاضي عبد العزيز ابن البراج.

الشيخ عبد الرحمن بن أحمد بن
الحسين المفيد النيسابوري.

محمد بن علي الكراجكي.

الشيخ أبو محمد ریحان بن عبد الله
الحبشي.

تأثر في مسلكه الفقهي إلى حد كبير
بآراء أستاذه الشريف المرتضى وبمدرسة بغداد
الفقهية، يشهد لذلك تبنيه لرأي أستاذه في
خصوص عدم حجية خبر الواحد، وبالرغم
من التقارب إلا أنه هناك اختلافات بينهما
في العديد من المسائل، أشار إليها أبو الفتح
الكراجكي في كتابه غاية الإنصاف في
مسائل الخلاف، وأما الكراجكي فقد ضم
رأيه إلى الشريف المرتضى في أغلب تلك
الموارد،

وبالرغم من أن الآراء الفقهية للحلبي
في الكثير من المسائل الفقهية تبدو متفقة
مع مسلك المشهور إلا أنه ثمة موارد خالف

فيها المشهور

يرى الحلبي أن منصب القضاء لا يصلح
إلا للأئمة المعصومين ونوابهم. ويجب على
من يتصدى لمنصب القضاء بالنيابة عن
الإمام المعصوم أن يتمتع بجملة خصائص
ومميزات من قبيل: العقل، والبصيرة،
والورع، والعدالة، والحلم، والقاطعية في
تطبيق الأحكام، وبناءً على ذلك فإن قبول
منصب القضاء حتى من جانب الحاكم الظالم
بالنسبة لمن له صلاحية القضاء أمر جائز، بل
واجب، باعتباره نائب الإمام وليس ممثلاً عن
الحاكم الجائر.

تضمن تراثه العديد من المؤلفات

الفقهية والكلامية. ومنها:

الكافي في الفقه، ويضمّ دورة فقهية
جامعة تخللتها بعض البحوث الكلامية، وفي
بداية هذا الكتاب يذكر المؤلف الشقوق
المختلفة لكل مسألة بنحو الإجمال ومن ثم
يفصّل في البحث ويذكر رأيه في المسألة (في
بعض الموارد يذكر أدلته التي استند إليها).
وكثيراً ما يستند فقهاء الشيعة إلى هذا
الكتاب، وقد امتدحه غير واحد منهم، نظير
ابن إدريس الحلبي حيث عدّه (حسن وفيه
تحقيق مواضع).

حسنة ذكرناها في الكتاب الكبير». قال عنه ابن داود الحلبي في رجاله: عظيم القدر، من علماء مشايخ الشيعة. قال عنه الحر العاملي في كتابه أمل الآمال: «كان ثقة عالماً فاضلاً، فقيهاً محدثاً، له كتب رأيت منها: كتاب تقريب المعارف حسن جيد».

قال عنه عباس القمي في الكنى والألقاب: «الشيخ الأقدم، الفاضل الفقيه، المحدث الثقة، الجليل من كبار علمائنا الإمامية».

توفي هذا الفقيه، والذي يعد من أبرز علماء الشام في عصره في محرم عام ٤٤٦ هـ بعد عودته من الحج في الرملة بفلسطين.

تقريب المعارف، ويتضمن مباحث كلامية أهمها: ما جاء في التوحيد، والنبوة، والإمامة، والعدل، ويمتاز هذا الكتاب أنه أفاد من مصادر غير متوفرة لدينا في الوقت الحاضر، من قبيل تاريخ التقفي وتاريخ الواقدي.

البداية في الفقه. العمدة في الفقه. الكافية. الشافية. شرح الذخيرة. دفع شبه الملاحدة. منتخب المعارف. المعراج في الأحاديث. البرهان على ثبوت الإيمان.

وردت الكثير من الكلمات في حق أبو الصلاح الحلبي، ومنها:

قال عنه الشيخ الطوسي في رجاله: «ثقة، له كتب، قرأ علينا وعلى المرتضى».

قال عنه العلامة الحلبي في كتابه خلاصة الأقوال: «ثقة عين، له تصانيف